

كِتَابٌ

صَنِيعُ الْأَسَدِ

تَأَلَّفَ

الْشَيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْقَلْقَشَنْدِيُّ

الجزء الثاني

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
١٣٣١ هـ
١٩١٢ م

فهرست الجزء الثانى

من كتاب صبح الأعشى

- صيفة
- ٦ المعرفة بالأحكام السلطانية النوع الثامن عشر
- الطرف الثانى - فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة
- ٧ الخ، ويشتمل على أنواع
- النوع الأول - مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنسانى ، وهو على
- ٨ ضريين
- النوع الثانى - مما يحتاج إلى وصفه هى دواب الركوب، وهى أربعة
- أصناف
- ١٧
- النوع الثالث - ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش الخ ، وهو
- أصناف
- ٣٦
- النوع الرابع - مما يحتاج إلى وصفه من الطيور ، وهو على أربعة
- أصناف
- ٥٢
- النوع الخامس - ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأشجار ، وفيه اثنا
- عشر صنفاً
- ٩٤
- النوع السادس - نفيس الطيب ، وفيه أربعة أصناف
- ١١٣
- النوع السابع - ما يحتاج إلى وصفه من الآلات، وهى أصناف
- ١٢٥
- النوع الثامن - مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه
- مقصدان
- ١٤٦
- النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلويات مما بين السماء
- والأرض ، وهى على أصناف
- ١٦٦

صيفة	النوع العاشر - مما يحتاج الكتاب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،
١٧٧	وهي على أصناف
١٨٣	الطرف الثالث - في صنعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،
٣٢٩	وفيه مقصدان
٣٢٩	الفضل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ ، وفيه أربعة أطراف
٣٢٩	الطرف الأول - في الأيام ، وفيه ست جمل
٣٥٨	الطرف الثاني - في الشهور ، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحى ...
٣٨٦	الطرف الثالث - في السنين ، وفيه ثلاث جمل
٤٠٦	الطرف الرابع - في أعياد الام ومواسمها ، وفيه خمس جمل
	الباب الثانى - فيما يحتاج إليه الكتاب من الامور العملية ، وهو الخط
٤٣٠	وتوابعه ولواحقه ، وفيه فصلان
	الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومباده وصوره وأشكاله الخ ،
٤٣٠	وفيه ثلاثة أطراف
٤٣٠	الطرف الأول - في الدواة وآلاتها ، وفيه مقصدان
	الطرف الثاني - في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة
٤٣٤	آلة الخ
	الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ ،
٤٧٢	وفيه ثلاث جمل

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشى)

وبليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى

في الكلام على نفس الخط)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف^(١) كيف يختص قلمه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط في كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم رب كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده في وصاياه . وقد أورد أفضى القضاة أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه مقنع من ذلك ؛ ونحن نورد في هذا الكتاب ، تَبْدئةً من كل باب ، مما به يستغنى الناظر فيه عن مراجعة غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول الإمامة ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على ضروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النقابة على نوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقسم الفيء والغنيمة ، ووضع الجزية والخراج ، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، وأستخراج المياه ، والحجى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحسبة . وأنا أقصر من ذلك هنا على ما منقضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دون ما عدها من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكاتب . (٢) هو علي بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتبر في متوليتها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولها، وما ينافي أمورها، ويجانب أحوالها، عرف ما يأتي من ذلك، وما يآدر، فيكون ما ينشئه من البيعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على السداد، ما شيا على القواعد الشرعية التي من حاد عنها ضل، ومن سلك خلاف طريقها زل. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسقات، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وقآها حقها، وأتى بذلك ما يتعلق بها من الشروط، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها، بجرى الأمر في ذلك على السداد، ومشت كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بيعة، أو عهداً الخليفة، تعرض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، وأنصب إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرض إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه درج بالوفاة، وأن المولى أستحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سنن الطريق، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثاني. وإن كان عهداً تعرض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب في ذلك الغرض، وجرى فيه على سواء الصراط، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سبق ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأها توضع ما أشرت إليه من ذلك.

فن ذلك ماقلته فيها مشيراً إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطلح، وتنبؤ عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فرقاًها ، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفأها ، ورأمت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتسور معاليها فرفى إلى أعلاها، واتخذها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى عقد البيعة : بجمع أهل الحل والعقد، المعترين للأعتبار والعارفين بالنقد : من الفضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ، وأرباب الرأى والنصحاء ، وأستشارهم فى ذلك فصوبوه ، ولم يروا العُدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى القبول ، وقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى حكمها على الصحة فانبرمت ، إلى غير ذلك مما يخفى فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية ، يتعين عليه معرفة ما عدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالمهندسة ونحوها ، وسبأى التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها ، ويشتمل على أنواع)

النوع الأول

(مما يحتاج إلى وصفه النوعُ الإنساني، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أوصافه الجسمية، وهي على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء، وهي عدة أمور)

منها حُسن اللون، والألوان في البَشَر، ترجع إلى ثلاثة أصول: وهي البياض، والسُمرة، والسود، ويعبر عن السواد بشدة الأدمة، وربما عبر عن البياض برقة السُمرة. ويستحسن من هذه الألوان البياض، وأحسن البياض ما كان مُشرباً بحمرة؛ وقد جاء في حديث ضمام بن ثعلبة أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم عند وفوده عليه بقوله: "أيكم ابن عبد المطلب؟ قيل هو ذلك الأغر المكنى"، والأغرهو المُشرب بحمرة، اخذنا من المغرة: وهي الصبغ المعروف. وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم انه "أزهر اللون"، والأزهر هو الأبيض بضمرة خفيفة، والسُمرة مستحسنة عند كثير من الناس، وهو الغالب في لون العرب، وقد قيل في قوله صلى الله عليه وسلم، "بعثت إلى الأحمر والأسود" إن المراد بالأحمر العجم لغلبة البياض فيهم، والمراد بالأسود العرب لغلبة السُمرة فيهم؛ أما السواد فإنه غير ممدوح بل قد ذم الله تعالى السواد، ومدح البياض بقوله (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) الآية. على أن كثيراً من الناس قد جئوا إلى استحسان السودان والميل إليهم، وتأنقوا في الاحتفال بأمرهم، وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فانت طالق لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء ، فقد قال تعالى
 ﴿وَصَوِّرَكُمْ فَاَحْسَنَ صُوْرِكُمْ﴾ . وبالجملة فالحسن في كل لون مستحسن وبته القائل :

إن المَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحِبُّ في كُلِّ لَوْنٍ

ومنها حُسْنُ القَدِّ؛ وأحْسَنُ القُدودِ الرَّبْعَةُ : وهو المعتدل القائمة ، الذي لا طَوَلٍ
 فيه ولا قَصْر ، وليس كما يقع في بعض الاذهان من أن المراد منه دُونَ الاعتدال .
 وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، «أَنَّهُ كَانَ رَبْعَةً» . ويستحسن في القَدِّ
 القَوَامُ والرِّشَاقَةُ ، ويشبه بالريح وبالغُصْنِ . وأكثر ما يشبه به في ذلك أغصان
 البان لقوامها .

ومنها سواد الشعر ، وأكثر ما يكون ذلك في السَّمَرِ ، فإن اجتمع مع البياض
 سواد الشعر كان ذلك في غاية من الحسن ، ويشبه سواد الشعر باللؤلؤ ، وربما
 وقعت المبالغة فيه فشبّه بفحمة الليل ، وبدجى الليل ، وبفحمة الدجى ، وقد يشبه
 بالأسنوس ونحوه مما يغلب فيه حلك السواد . وقد اختلف الناس في جعودة الشعر
 وسبوطته أيهما احسن ؟ فذهب قوم إلى استحسان الجعودة : وهي أقباض الشعر
 بعض أقباض وهو مما يستحسنه العرب ، وإليه ذهب الفقهاء حتى لو شرط البائع
 في عبده كونه جعد الشعر وظهور سبط الشعر رد ذلك بخلاف العكس ، وذهب
 آخرون إلى استحسان السبوطه ، وهي استرسال الشعر وأنبساطه من غير انكماش ،
 وأكثر ما يوجد ذلك في الترك ومن في معناهم ، ثم الذاهبون إلى استحسان الجعودة
 يستحسنون المتواء شعر الصدغ ، ويشبهونه بالوالتارة وبالعقرب أخرى .

ومنها وضوح الجبين ، وسعة الجبهة ، وانحصار الشعر عنها ، فيستقيح الغم :
 وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وسامة الوجه وحسن المحيا . ويشبه الوجه في الحسن بالشمس ، والقمر ،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة، وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟" فقال بل كاشمس والقمر، ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين؛ ويشبه لونهما بالورد، وبالشقيق، وبالعقيق، وبالعتد، وما يجرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرقة.

ومنها بلج الحاجبين وزججهما، فالبلج انقطاع شعر الحاجبين: بأن لا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما، وهو خلاف القرن؛ وربما استحسن الخفى من القرن، وهو الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفيفة، والزجاج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلى مؤخر العين، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان أزج الحاجبين".

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوسين؛ ويشبه تقوسيهما بالنون تارة، وبالقوس أخرى.

ومنها حسن العينين؛ ويستحسن في العين الحور: وهو خلوص بياض العين، والنجل وهو سعتها ويقال فيه حينئذ النجل وربما قيل أعين، ومنه قيل للحور عين، والدجج: وهو شدة سواد الحدقة، والكامل: وهو أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة، وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجم أخرى. وتشبه بالترجس وربما شبهت بتور الباقلي؛ وأعرض بأن فيه حولا. وربما شبهت العين بالسيف، وبالسهم، وبالسنان. وقد يستحسن في العينين الفتور وضعف الأجفان.

ومنها حسن الأنف؛ ويستحسن فيه القنأ: وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه، وهو الغالب في العرب؛ وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم "أنه كان أفتى الأنف". ويستحسن فيه الشم أيضا: وهو استواء قصبية الأنف وعلو أرنبتها. ويشبه الأنف بالسيف في بريقه.

ومنها حسن القم . ويستحسن فيه الضيق . ويشبهه بالميم ، وبالصاد ، وبالخاتم .
ومنها حُسن الشفتين . ويُستحسن فيهما الحمرة . وتشبه حُرمتها بما نُشِبَّ به
الوجهة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللبي : وهو سمرة
تعلو حمرتهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الثناب : وهو بياض وبريق يعلوهما .
وتشبه الأسنان في البياض وحُسن النظم باللؤلؤ . وبالبرد ، وبالطلع : وهو نبت أبيض ،
ولأقحاح ، وبالخب : وهو الذي يعلو الكأس عند شجّه الماء . وقد تشبه بالجوهر ،
ويستحسن فيها الأثر : وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصبيان ، ويستحسن
في السنخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الخلد
ومنها حسن الجيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض .
ويشبهه بإبريق فضة .

ومنها دقة الخصر ، وهو معقد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدور دملج ، ودور
حلخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعا فإنها
في النساء آكد . فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان
أعظم شأنها ، وأعز ما كانها ، وقد قيل لرجل من بني عذرة : ما بال الرجل منك
يموت في هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عذرة - فقال "أما والله لو رأيتم
النواظر الدنج فوقها الحواجب الرجح تحتها المياهم التلج ، لا تأخذنودا اللات والعزى !"
وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى
ذكره هنا .

(١) أي مزجه يقال نج انخر بالساء اذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللحية ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ إن المراد اللحية ، على خلاف في ذلك . ويستحسن في اللحية استدارتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها ، فإذا حسنت اللحية من الرجل كُتبت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال في الحُسْن بمقدمات ذلك : فيستحسن منهم خُضرة الشارب ، وخُضرة العارض والعدار ، ويشبه كل منها بالآس ، وبالريحان ، وبديب النمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالأنف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قزح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل القِرَاسَة قد استحسنوا في الرجل أموراً تخالف ما تقدم .

منها سعة الفم وغِلظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل على المشجاعة وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدم .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

وما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسمية السَمَن . فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفْرِط ويُخْرُج عن الحد المطلوب ، ففي الصحيحين من حديث أم زرع " بنتُ أبي زرعٍ وما بنتُ أبي زرعٍ " بلءُ كسانها ، وغِيظُ جاريتها " إشارة إلى امتلائها بالشحم . ووصف أعرابي امرأة فقال " بيضاء رُعبُوه ، بالشحم مَكروبه ، بالمسك مَشبُوه " . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوة النهضة ، وسرعة الحركة في الحرب وغيره ، والسَمَن يمنع ذلك ، مع ما يقال إن فيه تبيداً للذهن قال بعضهم : " ما رأيت حَبِراً سميئاً إلا محمد بن الحسن " يعنى

صاحب أبي حنيفة رضى الله عنه . وربما استحسنت قلة اللحم في المرأة أيضا ،
وتوصف حينئذ بالهَيْفِ .

ومن ذلك نَقْل الرِّدْف فهو مما يتدح به في النساء بخلاف الرجل فإن ذلك
فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن رجلا أخذ حَطْرًا من قوم على أن يُغَضِب
معاوية بن أبي سُفْيَانَ مع غلبة حاتم ، فعمد إلى معاوية وهو ساجد في الصلاة ،
فوضع يده على عجزته وقال : ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند ! - يعنى أم معاوية ، فلما
سلم من صلاته ، التفت إلى ذلك الرجل وقال : ” يا هذا إن أبا سُفْيَانَ كان محتاجا
من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذة “ .

ومما يستحسن في المرأة طول الشعر في الرأس . ودِقَّة العظم ، وصغر القدم ،
ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن ، في أمور أخرى يطول ذكرها .

المضرب الثاني

(الصفات الخارجة عن الجسد ، وهي على ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلى أصليين : العقل والعفة ، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
عدَّة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم ، وصفاته المعرفة ، والحياء ،
والبيان ، والسباسة ، والكفاية ، والصَّدْع بالتحفة ، والحلم عن سفاهة الجهالة وغير ذلك
مما يحرى هذا المجرى . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة في الرجال والنساء
جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العفة فيدخل تحتها القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه رجل ولا امرأة ؛ وإذا رُكِبَ العقل مع العفة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به : كالتزاهة ، والرغبة عن المسألة ، والافتقار على أدى معيشة ، ونحو ذلك مما يخفط في هذا السلك .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلى أصليين أيضا : وهما العدل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصليين عدة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخل تحت العدل السماحة ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقوى الضيف ، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدة أوصاف كالحماية والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والتكايه في العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه الموحشة ، وما أشبه ذلك ؛ وإذا رُكِبَ العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلى أصليين مدمومين في الرجل : وهما الحين والبخل ؛ وذلك أن المرأة إذا جبت كفت عن المساوى خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بخلت حفظت مال زوجها عن الضياع والإنلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعة أوصاف : آثان يشتركون فيهما مع النساء - وهما العقل والعفة ؛ وآثان يتفردون بهما عن النساء وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا آثان يشتركن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة ، وآثان يتفردن بهما عن الرجال وهما

الجبن والبخل ، فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : "ومدائح الرجال تنقسم بحسب المدوحين من أصناف الناس في الأرتفاع والانضاع وضروب الصناعات والتبتي والتحصن ، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل بمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والانفراد عن المثل والقرين : كقول النابغة في التعان بن المنذر .

ألم تر أن الله أعطاك سورة ۞ ترى كل ملك دونها يتدبذب
بأنك شمس والملوك كواكب ۞ إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وما يجرى مجرى ذلك ، ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والذرية ، وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الدهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكل للمدح كما قيل :

بديهيته بمنزل تفكيره ۞ متى رمته فهو مستجمع

وكما قيل :

يرى ساكن الأوصال بإسط وجهه ۞ يريك الهويئى والأمور تطير

وتمدح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والصدق والبذل والعطية : كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما في أكثر الأمور موجودان في ذوى بؤيد الهمة ، والإقدام والصلوة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

ففى دهره شطران مما ينوبه ۞ ففى بأسه شطر وفى جوده شطر

فَلَا مِنْ بُغَاةِ الْحَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَدَى . وَلَا مِنْ زَبِيرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَسِر
 قال : ”وتمدح الشُّوقَة والمُعَيْشُونَ بِأَصْنَافِ الْحَرْفِ وَضُرُوبِ الْمَكَاسِبِ وَالصَّعَالِكِ
 بِمَا يَضَاهِي الْفَضَائِلَ النَّفْسَانِيَّةَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِفَّةِ وَالْعَدْلِ وَالشَّجَاعَةِ . خَالِيًا عَنْ مِثْلِ
 مَدْحِ الْمُلُوكِ وَمَنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْقَوَادِ
 وَيَمْدَحُ ذُووِ الشَّجَاعَةِ مِنْهُمْ بِالْإِقْدَامِ وَالْفَتَكِ وَالتَّشْمِيرِ وَالتَّيَقُّظِ وَالصَّبْرِ مَعَ التَّصَدُّقِ
 وَالسَّيَاحَةِ وَقَوْلَةَ الْأَكْثَرَاتِ بِالْحَطُوبِ الْمَلْمُةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ“ .

قلت : ويؤخذ مما ذكره قداماً أن القضاة والعلماء يُوصَفُونَ بِمَا يَلِيْقُ بِمَجْلَهْمِ مِنْ
 ذَلِكَ فَيُوصَفُ الْعَالِمُ بِثِقَابَةِ الذَّهْنِ ، وَحِدَّةِ الْفَهْمِ ، وَسَعَةِ الْبَاعِ فِي الْفَضْلِ ، وَمَا يَجْرِي
 بِجَرِيِّ ذَلِكَ ، وَيُوصَفُ الْقَضَاةُ بِذَلِكَ وَبِالْعَدْلِ وَالْعَمَّةِ وَمَبَايِنَةِ الْجُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
 وَسَتَقْفُ فِي قِسْمِ الْوِلَايَاتِ فِي نَسْخِ الْبَيْعَاتِ وَالْعَهُودِ وَالتَّقَالِيدِ وَالتَّوَاقِعِ وَالتَّفَاوِيضِ
 وَالْمَرَاسِمِ وَنَحْوَهَا مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَتَضَحُّ لَكَ بِهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ
 كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْهُ ، فَرَبَّمَا أَحْتَاجُ إِلَى الْكِتَابَةِ بِذِمِّ شَيْءٍ
 مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَنْفِقُ مَعَهُ : كَمَا حَكَى أَنَّ بَعْضَ
 الْعَمَالِ بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ بَعْدَ أَسْوَدَ فَقَلَّبَ كِتَابَهُ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ ”أَمَا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَوْ وَجَدْتَ
 عَدَدًا أَقْلَ مِنَ الْوَاحِدِ ، أَوْ لَوْنَا شَرًّا مِنَ السَّوَادِ ، بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا وَالسَّلَامَ“ .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ صِفَةَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَحْسِنَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ فَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ
 مَعَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الْجَسْمِيَّةِ : كَالْحَدَبِ وَالْحَوْلِ وَنَحْوَهُمَا ، وَمِنْ
 الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ : كَسُوءِ الْخُلُقِ وَبِدْءَةِ اللِّسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا مَقْنَعٌ فِي الْإِرْشَادِ
 إِلَى الْمَرَادِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْقَصْدِ .

النوع الثاني

(مما يحتاج إلى وصفه هي دواب الركوب، وهي أربعة أصناف)

الصنف الأول

(الحيل)

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها في مواضع، من أهمها وصفها عند بحث شيء منها في الإنعام والهدايا، والجواب عن ذلك. ووصفها في ترتيب الجيوش والمراكب وذكرها في مجالات الحرب، وما يجري تجرى ذلك. ويشتمل الغرض منه على معرفة أصنافها، وألوانها، وشيئاتها، وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها، ومعرفة الدوائر التي تكون فيها، والبصير بأمر أسنانها وأعمارها.

أما أصنافها فتلاثة

الأول - العراب : وهي أفضلها وأعلاها قيمة، وأعلاها ثمنًا، وتطلب للسبق واللقاق، والملوك تتعالى في أثمانها وتعتدّها لهم الحرب، وتوجد ببلاد العرب ومحلاتهم في أقطار الأرض : كالحجاز، ونجد، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، وبرقة، وبلاد المغرب وغيرها.

الثاني - العجميات : وهي البراذين ويقال لها الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش وتُجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم. وغالب ما توجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصر على السير وسرعة المشي.

الثالث - المولّد بين العراب والبراذين : فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له عجين، وإن كان بالعكس قيل له مُقْرِف. وهي تكون في البحرى والمشي متوسطة بين النوعين.

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفرع عنها .

الأول - البياض : وقيل أن يخلص من لون يخالطه ، فإن صفا بياضه قيل فيه أشهب قرطاسي ، فإن كان أذناه وقوائمها وعُرفه وذنبه سودا ، قيل مُطْرَف ، فإن خالط البياض شعرًا أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهب كافوري ، وإن كان السواد فيه أغلب قيل أشهب حديدي ، وأشهب أشمط ، وأشهب محلس ، فإن كان فيه نُكَّتْ سُود قيل أشهب مقلّس ، فإن آسعت قليلا قيل أشهب مُدْتَر ، فإن كان في شهبته طرائق ، قيل أشهب مجزّع ، فإن كان فيه بقع من أي لون كان دون البياض قيل مَبْقَع ، فإن صغرت تلك البقع قيل أبقع ، فإن تفرقت واختلقت مقاديرها قيل أشيم ، فإن تعادَل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط من اللونين قيل أتمش ، فإن تناهت في الصغر ، قيل أبرش ، فإن كان البياض نُكَّا صغيرة في ذلك اللون قيل مَوف ، فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد قيد به ، مثل قولك مَوف القطة ، وأتمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني - السواد : فإذا كان الفرس شديد السواد قيل فيه أدهم ، فإن آسنته سواده قيل أدهم عبي ، فإن علا السواد خضرة قيل أحوى والجمع حوى ، فإن خالط سواده سُقره قيل أدبس ، فإن انضم إليه أدنى حمرة أو صفرة قيل أحم ، فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل أورق ، ونحوه الأكهب ، وفي دونه من السواد يقال أربد .

الثالث - الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعُرفه وذنبه أسودان ، قيل فيه أورّد والجمع وِرَاد والأُنثى وِرْدَة ، فإن خالط حمرة سواده فهو كَيْت ، الذكر والأُنثى فيه سواء ، فإن صفت حمرة شيئا قليلا قيل كَيْت مُدْمِي ، فإن كان صافيا قليلا

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة خ ل س .

الحمرة وعُرفه وذيله أشقران قيل أشقر . فإن كان أحمر وذيله وعرفه كذلك قيل أمغر؛ فإن خالط شقرة الأشقر أو الكبيت شقرة بيضاء قيل صتاي أخذنا من الصناب وهو الخردل بالزبيب ، فإن كانت حمته كصدأ الحديد ، قيل أصدأ ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيراً قيل أجاي والأسم الجؤوة .

الرابع - الصفرة : فإن كانت صفرة خالصة تُشبه لون الذهب وعُرفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطزف وهو الذي يسمونه في زماننا الحبشي ، فإن كان أصفر ممتزجا ببياض قيل أشهب سوسني ، فإن كان في أكاربعه خطوط سود قيل موشى .

وأما شباتها وهي البياض المخالف للونها ، فمنها العزة : وهي البياض الذي يكون في وجه الفرس إذا كان قدره فوق الدرهم ، فإن كان دون الدرهم قيل في الفرس أقرح والعامية تقول فيه أغر شعرات ، فإن جاوز البياض قدر الدرهم قيل فيه أعرم ، ثم أوّل رتبة العزة يقال له النجم ، فإن سالت العزة ورقت ولم تجاوز جبهته ، قيل فيه أغز عصفوري ، فإن تبادت حتى جلّت خيشومه ولم تبلغ بحقلته ، قيل أغر شمراخي ، فإن ملأت جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشدخ ، فإن أصابت جميع وجهه إلا أنه ينظر في سواد ، قيل مبرقع ، فإن فسدت حتى جاوزت عينيه وأبيضت منها أشقارها ، قيل مغرب ، فإن أصابت منه خذاً دون حدّ قيل لطيم أيمن أو أيسر ، فإن كان بشفته العليا بياض قيل أرثم ، وإن كان بالسفلى بياض قيل ألمظ ، فإن نالهما جميعاً قيل أرثم ألمظ .

(١) وقع في الأصل أعرم بالهمام الفين وهو تصحيف .

(٢) في الأصل ألمظ بالتون والطاء وهو تصحيف .

ومنها التحجيل في الرجلين وما في معنى ذلك ؛ إن كان البياض في مؤخر الرُسع لم يستدر عليه قيل في الفرس مُتَعَلٍ ؛ وإن كان في الأربعة قيل مُتَعَلُ الأربعة ؛ أو في بعضها أضيف إليه فقيل مُتَعَلُ اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليميني أو اليسرى ؛ فإن استدار على الرُسع وهو المَقْصَل الذي يكتشفه الوظيف والحافر وكان في إحدى الرجلين ، قيل أَرَجَلٌ ، وإن كان في الرجلين جميعا قيل مُتَعَدِّمٌ وأخذمٌ ؛ فإن جاوز رُسع الرجل وأتصل بالوظيف ؛ وهو ما بين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثلثيه ، قيل مُحَجَّلٌ ، أخذاً من الحَجَل : وهو الخالخال ؛ فإن كان في رجل واحدة ، قيل مُحَجَّلُ الرجل اليميني أو الرجل اليسرى ؛ فإن كان في الرجلين جميعا قيل مُحَجَّلُ الرجلين ؛ فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يجاوز الرُسع إلى دون ثلثي الوظيف قيل مُحَجَّلُ الثلاث مطلق اليد اليميني أو اليسرى ؛ فإن كان البياض في اليد الأخرى كذلك ، قيل مُحَجَّلُ الأربعة ؛ فإن كان البياض في اليدين فقط قيل أَعْصَمٌ سواء جاوز الرُسع أم لا ؛ ولا يُطلق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو إحداهما ؛ فإن كان في اليد الواحدة قيل أَعْصَمُ اليد اليميني أو اليسرى ؛ وإن كان فيهما قيل أَعْصَمُ اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل مُتَمَسِّكٌ ؛ وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُتَمَسِّكُ الأيمن مطلق الأيسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُتَمَسِّكُ الأيسر مطلق الأيمن ؛ وإن كان التحجيل في يد ورجل من خلاف فهو الشَّكَّال . وقيل الشكَّال بياض القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عُرْقُوبِي الرجلين أو رُكْبَتِي اليدين ، قيل فيه مُجَبَّبٌ ؛ فإن علا البياض حَقْوِي رجله وعِرْفَقِي يديه قيل أَبْلَقٌ ، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الأَنفَاز والأَعْضَاد ، قيل أَبْلَقٌ مُسْرُوكٌ ؛ فإن اختص البياض بيديه

(١) كذا في الأصل بالفاف ولعله مصحف عن التون لأن الحقو المخاصرة وبغية الكلام بإياه أما الجنو

فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبيين ولم يبلغ الأَنفَاز الخ .

وطال حتى يبلغ مرفقيه قبل أقفز ومقفر ، فإن كان البياض في الموظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعرقوب ولا بالركبة قيل موقوف .

ومنها الشيات التي تغلغل سائر جسدھا ؛ فإن كان الفرس مبيض الأذنين أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه أذرا ، وإن كان مبيض الرأس قيل أصقع ، فإن أبيض فناه قيل أفتف ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسعف ، فإن أبيضت جميعها قيل أصبغ الناصية ؛ فإن غشي البياض جميع رأسه قيل أغشى ، وربما قيل فيه أرخم ؛ فإن أبيض رأسه وعنقه جميعا قيل أدرخ ؛ فإن أبيض ظهره قيل أرحل ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل مصدر ، فإن أبيض بطنه قيل أنبط ، فإن أبيض جنباه قيل أخصف . فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ، فإن أبيض كفله قيل آزر ؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه قيل أشعل ؛ فإن أبيض بعض هبله دون بعض قيل محصل ؛ فإن أبيض جميع هبله قيل أصبغ هلب الذنب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بهيم ومضمت من أى لون كان .

وأما ما يستحسن من أوصافها فقد قال العلماء باسم الخيل : يستحب في الفرس دقة الأذنين وطولهما وانتصابهما ، ودقة أطرافهما ، وقرب ما بينهما ، وكل ذلك من علامات العتق . وفي الناصية اعتدال شعرها في الطول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مقرطة في كثيره . ويقال في هذه الناصية الجثلة . ويستحب مع ذلك لين الشكير (وهو ما طاف يجنب الناصية من الرغب) . ويستحب عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة ، وأسالة الخد ، وملاسته ، ودقته ، وقلة لحم الوجه ، وعري الناهضين (وهما عظامان في الخد) وسعة العين ، وصفاء الخدقة ؛ وذلك كله من علامات العتق . ويستحب في العين السمو والحدة ورقة الجفون وبعد نظره . قال ابن قتيبة : وهم يصفونها بالقبل والشوس والنحوص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقة ، وإنما

تفعله لعزة أنفسهم . ويستحب في المنخَر السَّعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النَّفس . قال وربما شقَّ مُنخَره لذلك وبعد ما بين المنخرين . ويستحب في النَّم الهَرَّت (وهو طول شقِّ شِدْقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نَفسه ، ورقة الجَحْفَلَتَيْن وهما الشفتان لأنه دليل العُنُق ، وطولُ اللسان ليكثر ريقه فلا ينهر ، ورقته لأنه أسرع لقصمه العلف ، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رثته وسهولة نَفسه . ويستحب في العُنُق الطُّول فقد كان سَلْمَانُ بْنُ رَبِيعَةَ يَفْرُقُ بَيْنَ العِتَاقِ وَالهِجْنِ فِدَعًا بَطَسَتْ مِنْ مَاءٍ فَوَضَعَتْ بِالْأَرْضِ ثُمَّ قَدِمَتْ الخَيْلُ إِلَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا فَسَانَتْ سُنْبُكَهُ مِنْهَا ثُمَّ شَرِبَ هَجْنَهُ ، وَمَا شَرِبَ وَلَمْ يَنْ سُنْبُكَهُ جَعَلَهُ عَنِقًا لِأَنَّ فِي أَعْنَاقِ الهِجْنِ قِصْرًا فَلَا تَنَالُ المَاءَ حَتَّى تَتَنَّى سُنْبُكَيْهَا ؛ وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ هَجَّنَ فَرَسَ عَمْرُو بْنِ مَعْدَى كَرَبًا فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ سَلْمَانُ أَدَعَ بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ أْتَى بِفَرَسٍ عَنِقٍ لِأَشْكُ فِي عُنُقِهِ فَأَشْرَعَ فِي الإِنَاءِ فَصَفَّ بَيْنَ سُنْبُكَيْهِ وَمَدَّ عُنُقَهُ فَشَرِبَ . ثُمَّ قَالَ اسْتَوَى بِهِجْنٍ لِأَشْكُ فِيهِ فَأَشْرَعَ فَبَرَكَ فَشَرِبَ ، ثُمَّ أْتَى بِفَرَسٍ عَمْرُو بْنِ مَعْدَى كَرَبًا فَاشْرَعَ فَصَفَّ بَيْنَ سُنْبُكَيْهِ وَمَدَّ عُنُقَهُ ثُمَّ نَحَى أَحَدَ سُنْبُكَيْهِ قَلِيلًا فَشَرِبَ فَقَالَ عَمْرُ أَنْتَ سَلْمَانُ الخَيْلُ . وَيَسْتَحَبُّ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ الكِبْرُ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ لِأَنْبِيَادِهِ وَعَظْمِهِ ، وَغَلْظُ مَرْكَبِ عُنُقِهِ وَدَقَّةُ مَدْبَجِهِ . وَيَسْتَحَبُّ فِيهِ أَرْتِفَاعُ الكَنْفَيْنِ وَالْحَارِيكِ وَالكَاهِلِ ، وَقِصْرُ الظَّهْرِ وَعِرَاضُ الصَّهْوَةِ (وهي مقعد الفارس من الظهر) وَأَرْتِفَاعُ القَطَاةِ (وهي مقعد الرِّدْفِ مِنَ الظَّهْرِ أَيْضًا) وَقِلَّةُ لَحْمِ المَتَبِّينِ وَهُمَا مَا نَحَتْ دَقَى السَّرَجِ مِنَ الظَّهْرِ . وَيَسْتَحَبُّ فِي الكِفْلِ الأَسْتَوَاءُ وَالْأَسْتِدَارَةُ وَالْمَلَّاسَةُ وَالتَّدْوِيرُ . وَيَسْتَحَبُّ طُولُ السَّيْبِ : وَهُوَ الشَّعْرُ المُسْتَرِيسِلُ فِي ذَيْلِهِ ، وَقِصْرُ العَسِيبِ : وَهُوَ عَظْمُ الذَّنْبِ وَجِلْدُهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الأَعْرَابِ " أَحْتَرَهُ طَوِيلَ الذَّنْبِ قِصِيرَ الذَّنْبِ " يَعْنِي طَوِيلَ الشَّعْرِ قِصِيرَ العَسِيبِ . قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ

ويستحب أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال إن ذلك من شدة الصُّلب . ويستحب
 عَرْض الصدر : وهو ما عَرَضَ حيث ملتحق أعلى لبيبه، ويسمى اللَّبَان والكَلَكَل ؛
 وكذلك آرتفأه عن الأرض مع دِقَّة الزُّور، وهو ما استدق من صدره بين يديه،
 بحيث يقرب ما بين المِرْقَين لأنه أشد له وأقوى لجره . ويستحب فيه عِرْضُ
 الكتف وغلظه وقصر النَّسَا : وهو عِرْقُ في الساق مستبطن الفخذ، وشججه، وقصر
 وظيف اليد : وهو قصب يديه، وقصر الرُّسْع، ودِقَّة إبرة العرقوب وتحديدته : لأنه
 أشد لقصب الساق وطول وظيف الرجل ليخذف الأرض بها فيكون أشد لعدوه،
 ويخطف عظم القوائم، ويخطف الجبال : وهي عَصَب الذراعين، ولطف الركبة، وقرب
 ما بين الركبتين، وشدة كعبه : لأن ضعف الكعب داعية الجرد، وانحاء الرجلين
 وتوترهما، وبعد ما بين الرجلين : وهو الفحج : لأنه أشد لتكن رجله من الأرض .
 ويستحب صفاء الحافر، وصلابته، وسعته، وكونه أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض،
 لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تعقب، ولطف نُسوره :
 وهي شئ في باطن حافره كالنوى : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره، وأن
 تكون أطراف سناكه وهي مقادير حوافره رقيقة . ويستحب فيه مع ذلك كله
 اتساع إهابه وهو جلده، ورقة أديمه، وصفاء لونه، ولين شعره، وكثرة عرقه، وكثرة
 نومه، وسعة خطوه، وخفة عنانه، ولين ظهره، وحسن استقلاله في أول سيره،
 وخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى، وشدة وقعها إذا عدأ، مع حدة نفسه وسرعة
 عدوه، واتساع طرفته، وقد يعتفر القطاف في المشى في دواب الجرى . ثم إنه قد
 يحتمل فوات آلة الحسن والتمراهة في المشى ولا يعتفر النقص في آلة الجودة وشدة
 العدو والصبر : لأن بهما يدرك ما يطلب، ويشجو مما يهرب .

(١) في لسان الجرد ورم في مؤخر عرقوب القرم يعظم حتى يمنه المشى والسعي .

وأما ما يُستفح ويُدِّم من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عذة عيوب، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فن العيوب الخلقية البدن : وهو بُعد ما بين اليدين ، والصَّمم وهو أن لا يسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبداً إلى خلف ، وإذا جُرَّ خلفه خشبةً ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها ، والحذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كالذان الكلاب السلوقية ، والطووك وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى ، وكونه أسك : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السفا : وهو قلة شعر الناصية ، والنعم : وهو أن يكثر شعر الناصية وطول حتى يغطى العين : وهو عيب خفيف والسفا^(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القرح : وهو أن يكون البياض الذي في الوجه دون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ ، فإن كان في وسط البياض في الوجه سواد كان عيباً يُنشأ به .

ومنها العشا : وهو أن لا يُبصر ليلاً فيصير بمثابة نصف فرس لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار ، وكونه قائم العين : وهو الذي يكون على ناظره سواد يضرب للخصرة والكندرة يقل معها بصره ، والحول : وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الخدقة من فوق ، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته ، والحيف : وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء : وهو مما يُنشأ به لاسيما إذا كانت الزرقاة في العين اليسرى ، فإن أزرقَّت العينان جميعاً كان أقلَّ لشؤمه ، وغُور العينين : وهو دخولهما في وجهه ، والقرب : وهو بياض أشفار العينين ، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحز الشديد ، والكئنة : وهو أن يبصر قدامه ، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

(١) أي ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) في الخط إسقاط لا وفي المطوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها النَّسَبُ : وهو آحديتَاب في الأنف ، ويكون في الهُجْن ، والنَّسَبُ : وهو أن يرى فوق منخريره منخسفاً : لأنه يضيق نفسه إذا ركض .

ومنها القَطَسُ : وهو أن تكون أسنانه العليا داخله عن أسنانه السفلى ، والطَّبْطَبَةُ وهو أن تسترخي بفتحته السفلى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهدل ، وأن يكون في حنكه شامة سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قَصْرُ اللسان لأنه إذا قصر لسانه قل ريقه فيسرع إليه العطش ، والخرس وعلامته أن تراه بصهل ولا يُجِجِم ، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصْرُ : وهو غلظ في العنق ، واللَّفَفُ : وهو استدارة فيه مع قصر ، والدَّنَنُ وهو طمانينة في أصل العنق ، والهنع : وهو طمانينة في وسط العنق ، والقود : وهو ينس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجسأ : وهو ينس المعطف .

ومنها الكَتَفُ : وهو انفراج يكون في أعالي كينى الفرس مما يلي الكاهل ؛ والقَعَسُ : وهو أن يطمئن الصُّلب من الظهر وترفع القِطَاة ، والبرخ : وهو أن يطمئن الصُّلب والقِطَاة جميعا ، وهو عيب رديء يضر بالعمل ؛ وكون الكفَل فيه تحديداً ويكون العجز صديرا ، والفرق : وهو نقصان إحدى حرفتي الموركين ، فإن نقصتا جميعا فهو مُمسوح الكفَل ولا عيب فيه .

ومنها الدَّنَنُ : وهو تطامن الصدر ودنوه من الأرض ، وهو من أسوأ العيوب ، والزور : وهو دخول إحدى فهدتى الصدر ونحروج الأخرى .

ومنها الهَضْمُ : وهو استقامة الضلوع ودخول أعاليها ، والإخطاف : وهو لحوق ما خلف الخزم من بطنه ، والتجل : وهو خروج الخاصرة ورقة الصفاق .

ومنها العَصَل : وهو التواء عَصَب الذَّنْبِ حَتَّى يَبْرُزُ بَعْضُ بَاطِنِهِ الَّذِي لِاشْعَرٍ عَلَيْهِ . وَالكَشْفُ : وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَالصَّبْعُ : وَهُوَ بِيَاضُ الذَّنْبِ ، وَالشَّعْلُ : وَهُوَ أَنْ يَبِيضَ عَرَضُ الذَّنْبِ وَهُوَ وَسْطُهُ .

ومنها الفَصْحَجُ وَهُوَ إِفْرَاطُ بَعْدَ مَا يَمِينُ الْكَعْبَيْنِ ، وَالْحَلَلُ : وَهُوَ رَحَاوَةُ الْكَعْبَيْنِ . وَبَلَسِحْقُ بِهِ تَقْوِيْسُ الْيَدَيْنِ . وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ ، وَالطَّرْقُ : وَهُوَ أَنْ تَرَى رَكْبَتَيْهِ مَفْسُوخَتَيْنِ كَالْمَاءِ قَسْتَيْنِ إِلَى دَاخِلٍ ، وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَالْقَسَطُ وَهُوَ أَنْ تَرَى رِجْلَاهُ مَمْتَصِبَتَيْنِ غَيْرِ مُجْتَبِئَتَيْنِ ، وَالْبَدَدُ : وَهُوَ بَعْدَ مَا يَمِينُ الْيَدَيْنِ ، وَالْفَصْحَجُ وَهُوَ إِفْرَاطُ بَعْدَ مَا يَمِينُ الْعُرْقُوتَيْنِ ، وَالْقَدُّ : وَهُوَ أَنْتِصَابُ الرُّسْغِ وَتَقْبَالُهُ عَلَى الْخَافِرِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الرَّجْلِ ، وَالصَّدْفُ : وَهُوَ تَدَاوِي الْفَخْذَيْنِ وَتَبَاعُدُ الْخَافِرَيْنِ فِي التَّوَاءِ مِنَ الرُّسْغَيْنِ بِحَيْثُ تَرَى رُسْغِي يَدَيْهِ مَفْتُوحَيْنِ ، وَالتَّوَجِيهُ : وَهُوَ نَحْوُ مَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَالْقَدَعُ وَهُوَ التَّوَاءُ الرُّسْغِ مِنْ عُرْضِهِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مِنْ رَأْسِ الشَّظِي ، وَوُطْؤُهُ عَلَى وَحْشِيٍّ حَافِرِيهِ جَمِيعًا وَهُوَ الْجَانِبُ الْخَارِجُ ، وَالْإِرْتِهَاشُ : وَهُوَ أَنْ يَصُكَّ بِمَرَضٍ حَافِرِهِ عُرْضَ مَجَابِيئِهِ مِنَ الْيَدِ الْأُخْرَى وَذَلِكَ لَضَعْفِ يَدَيْهِ ، وَالْحَنْفُ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حَافِرَا يَدَيْهِ مَكْبُوبَيْنِ إِلَى دَاخِلٍ . وَالْقَدُّ : وَهُوَ أَنْ يَرَى الْخَافِرَ كَالْمَتَقَشِّرِ ، وَالشَّرْحُ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ذُو الْخَافِرِ لَهَ بِيضَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَرُحُ : وَهُوَ أَنْ يَمَسَّ الْأَرْضَ بِبَاطِنِ حَافِرِهِ . وَمِنْهَا الْبَدَدُ فِي الْيَدَيْنِ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ إِذَا مَشَى يَدِيرُ حَافِرَهُ إِلَى خَارِجٍ عِنْدَ التَّقَلُّ وَلَا يَمَسُّ فِيهِ ضَرْرٌ فِي الْعَمَلِ ، وَالتَّلْقُفُ وَهُوَ أَنْ يَخِيطَ بِيَدَيْهِ مَسْتَوِيًّا لَا يَرْفَعُهُمَا إِلَى بَاطِنِهِ وَهُوَ خِلَافُ الْبَدَدِ .

ومنها التَّلْوِيحُ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَرَسُ إِذَا ضَرَبْتَهُ حَرَكَ ذَنْبَهُ ، وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ فِي الْجُجُورَةِ لِأَنَّهُ رِمَا بِالرَّجْلِ وَرَشَّتْ بِهِ صَاحِبَهَا ،

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) في الإنسان . في أمثاله .

المضرب الثاني

(العيوب الحادثة وهي عِدَّة عيوب)

منها الحَدَبُ ؛ و يكون في الظهر بمثابة حَدَبَةِ الإنسان ، وهو عيب فاحش ، والعُدَّة وتكون في الظهر أيضا بإزاء الشرة .

ومنها العتق ؛ وهو أنتفاخ وورم بقدر الرمانة أو أقل مما يلي الخاصرة ؛ وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الحَمْرُ - وهو عيب يحدث عن نُجْمَةِ الشعير ، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثِقَلُ الصدر .

ومنها الآنتشار ؛ وهو أنتفاخ العَصَبِ بواسطة التَّمَب ؛ و يكون من فوق الرُشَغِ إلى آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تَحْرُكُ الشَّظَاةِ ؛ وهو عظم لاصق بالذراع ؛ وهو على الفرس أشق من الآنتشار .

ومنها الرُّوْحُ ؛ وهو داء يكون منه غَلَطٌ في القوائم كمثل داء الفيل في البشر .

ومنها المَشَشُ ؛ وهو داء يكون في بدء أمره ماءً أصفرًا ، ثم يصير دمًا ، ثم يصير عظاما . و يكون على الوظيف وفي مَقْصِلِ الركبة ؛ وهو على العَصَبِ والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها القَمَعُ ؛ و يكون في الرجلين في طرف العُرُقُوبين ؛ وهو غَلَطٌ يعتريهما . والمَلَحُ ، و يكون في الرجلين تحت القَمَعِ من خَلْفِ ؛ وهو أنتفاخٌ مستطيلٌ لا يضر بالعمل ؛ والجَرْدُ ؛ وهو كالعظم الناقى يكون في الرجلين تحت العُرُقُوبين على المَقْصِلِ من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تؤول منه الدابة إلى العَطَبِ ؛ والنَّقْخُ ؛

وهو آنتفاح يكون في مواضع الجرد . وهو من دواعي الجرد؛ والعقال : وهو أن تقلص رجله ، وذلك يكون في عصب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعاً ، وهو عيب فاحش يضر بالعمل ؛ وهو في البرد أشد منه في الحر . ومنها الشقاق : وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما ارتفع إلى وظيفه ، والسرطان : وهو داء يأخذ في الرئع فيبئس عروقه حتى ينقلب حافره .

ومنها العرت : وهو جسو ، في رُسخ رجله . والدخس : وهو ورم يكون في حافره . والقفد : وهو تشنج عصب رُسخه حتى ينقلب حافره إلى داخل فيسمى على ظاهر الحافر .

ومنها النملة : وهي شق في الحافر من ظاهره : والرئسة : وهي ما يكون في الحافر من صدمة ونحوها ، والعامة تقولها بالصاد . والقشر وهو أن تتقشر حوافره ، وهو عيب فاحش ؛ والنأسور : وهو الذي تسميه العامة الوقرة : وهو داء يحدث في أسور الدابة فإذا قطع سال الدم منه .

ومنها الأذرة : وهي عظم الخصيتين ، وربما عظمت خصبتها في الصيف وأحمرت في الشتاء . والمُدلى : وهو الذي يدل ذكوه ثم لا يرده ؛ وهو عيب قبيح بحيث يقبح ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها البرص : وهو بياض يعثرى الفرس في مرقاته : كالجفلة وجفون العينين وبين الفخذين والخصيتين .

ومنها الخلد : وهو داء شديد يتقب موضع من بدن الدابة يسيل منه ماء أصفر ، فإذا كرى بالنار برأ وأنتفح موضع آخر ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة ؛ وهو

عيب فاحش ؛ في عيوب أخرى يطول ذكرها . وفي كتب البيطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله علاج منه وبيان مالا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدّها العرب ثمانى عشرة دائرة ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأولى دائرة الحنّاء وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللطاة : وهى دائرة تكون في وسط الجهة . الثالثة دائرة النطّيح : وهى دائرة ثانية في الجهة بان يكون في الجهة دائرتان . الرابعة دائرة اللّهزيمة : وهى دائرة تكون في هزيمة الفرس . الخامسة دائرة المقود^(١) : وهى التى تكون في موضع الفلادة . السادسة دائرة السامة : وهى دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البيّتين : وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي . وقال أبو عبيد البديقة الشعر المختلف في منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة في باطن الخلق إلى أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة دائرة الهقعة : وهى دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون في الزور بان تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شقّ منهما دائرة وتسمى النافذة دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة دائرتا الحرب : وهما اللتان يكونان تحت الصقرين وهما رأسا الحجتين اللذين هما العظمان الثنائيتان المشرفان على الخاصرتين كأنهما صقران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصقرين : وهما دائرتان بين الحجتين والقصرين . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناحس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكبرون منها أربع دوائر وهى دائرة الهقعة مع ذكره أن أبى الخليل المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناحس . ودائرة النطّيح . قال وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) في المختصر . الموم .

وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المقود^(١)،
 ودائرة السَّامة، ودائرة الحَقعة احتجاجاً بأن أبقى الخليل المَهقوع؛ ويكرهون دائرة
 النَطَّيح، ودائرة اللَهزيمة، ودائرة القالغ .

ورأيت في بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المقود ودائرة
 السَّامة، ودائرة الحَقعة وما عدا ذلك فهو مكروه، وكره حكاه الهند دوائر أخرى
 ذكروها وهي أن يكون في مقدم يده دائرة، أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان
 أو على ناصيته دائرة، أو على مخجرجه دائرة، أو في بطنه السفلى دائرة، أو على سُرته
 دائرة، أو على منسجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأقول ما تَصعَّ الحجرة جنيهاً قيل مهر، والأثنى مهرة . فإذا
 فُصل عن أمه قيل فلولو . فإذا استكمل حولاً قيل حووى والأثنى حووية . فإذا دخل
 في الثانية قيل جدَّع والأثنى جدَّعة . فإذا دخل في الثالثة قيل شى والأثنى شينة .
 فإذا دخل في الرابعة قيل رباع والأثنى رباعية . فإذا دخل في الخامسة قيل قارح
 للذكر والأثنى . وفي الغالب يلقى أسنانه في السنة الثالثة، وربما تأخر إلقاؤها إلى
 السنة الرابعة . وذلك إذا كان أبواه شابين، وقد يلقى أسنانه في حول واحد :
 وذلك إذا كان أبواه هيرمين، ثم لكل مهر اثنتا عشرة سنناً : ست من فوق وست
 من أسفل، ويليهما من كل جانب ناب، ويليهما الأضراس . وتثبت ثناياه بعد وضعه
 بخمسة أيام . وتثبت رباعياته بعد ذلك إلى مدة شهرين . وتثبت قوارحه بعد
 ذلك إلى ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتي عشرة دون الأنياب
 والأضراس . وربما أبقى المهر بعض أسنانه، ثم لاتبث . وإذا قرَّح المهر أصفرت
 أسنانه، وأسودت ربوسها وطالَّت فيبقى كذلك نحو سنين، فإذا جاوزت ذلك

أبيضت وحفي رؤوسها ، ثم تتقل فتصير كلون العسل خمس سنين ، ثم تبيض
فتصير كلون الغبار ويزداد طولها . وربما دأس النخاسون فنشروا أسنانها وسووها .
ومما وجد في الكتب القديمة أن الفرس تتحرك ثنياه في سبع وعشرين سنة ،
وتتحرك الرباعيات في ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القوارح في تسع وعشرين سنة ،
ثم تسقط الثنياه في ثلاثين سنة ، والرباعيات في إحدى ثلاثين سنة ، والقوارح
في أربعين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما الفرس في الخيل فاعلم أن المهر وإن ظهرت فيه علامات النجابة أو العكس
لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيصبح منه ما كان حسناً ، ويحسن منه ما كان قبيحاً ،
وإنما يتفوس فيه إذا ركب له العلف ، وذهب عنه لحم الرضاع . وأفضل الفراسة
في المهر أخذه في الجري ، فإنه صنعته التي خلق عليها وإليها يؤول ، فإذا أحسن
الأخذ في الجري فهو جواد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجري إذا ركب لضعف
فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدى قوته ، وقد لا يجري جدها ويجري ثنياً ،
وقد لا يجري ثنياً ويجري رابعياً ، وقد لا يجري رابعياً ويجري قارحاً حين تجتمع
له قوته . ويعرف ضعف الضعيف منها بتأويه تحت فارسه وتجزئه عنه وفترته
إذا نزل عنه .

ومما يدل على جودة الفرس وحسن جريه أنه يراه إذا أخذ في الجري سماً
بهديه ، وأثبت رأسه ، ولم يستعن بهما في حضره واجتمعت قوائمه ، وسبغ يديه
وضرح رجليه ، ولها في حضره ، وامتد ، وبسط ضبعيه حتى لا يجد مزيداً ،
وتكون يده في قرن ، ورجلاه في قرن . فإذا كان الفرس كذلك فهو الجواد السابق .
وقد قيل : إن خير الخيل الذي إذا مشى تكفأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جفأ ،
وإذا أقبل أقبأ .

الصف الثاني

(البغال)

وفيها نوعية من الخيل والحَمِير : من حيث إنها تتولد بين حصان وأتان ، أو بين حمار وحِجْرَة ^(١) . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء : من العلماء ، والوزراء ، والحكام وسائر رؤساء المتعممين . وإنه صلى الله عليه وسلم ، في يوم أحد كان راكبا بغلة ، ولولا شرفها ونفاسها وقيامها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في موطن الحرب ، وألوانها وأسنانها على ما تقدم في الخيل ، ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل ، وقد قيل إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشنتت قوائمه ، وعظمت قصرته ، وعذته وهامتة ، وصفت عيناه ، ورحب جوفه ، وعرض كفله ، وسلم من جميع العيوب والمائل ،

ومما يستحسن في البغال دون الخيل السقا : وهو خفة شعر الناصية . وأن يكون بيديها ورجليها خطوط مختلفة : جل ما تكون للسَّور : ويقال إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية : لأن أمهاتها عناق وهجن ، وخيار ما يحتاج إليه للسرايا والمواكب والرُّكض مع الخيل بغال الجزيرة وإفريقية .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن في البغلات منها شدة حجة للدواب إذا ربطت معها وفساد للدواب إذا اعتادتها حتى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة . ويحسن في البغال النحصى ، وفي البغلات التَّحويص ، ولا يُعاب ركوب شيء منها حينئذ إذا كانت نفيسا .

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الحمار بالهاء وفي التأموس مائه والحمار الأثني من الخيل وبالهاء.

لحن قال شارحه وهو على مسترذل ثم نقل عن الثهتاب تصحيحه فنهى .

الصنف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الفرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ، وما يُستفح
ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين . الأول البَحَائِي : وهي جمال جفّة القُدود ،
طويلة الوَر ، تجلب من بلاد الترك . الثاني العَرَاب وهي الإبل العربية وأصنافها
لا يأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فتُرجع إلى ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجمل إذا كان خالص البياض قيل آدم والأثني أدماء على الضد
من بني آدم ، فإن خالط البياض يسير شُقرة قيل أعيس والأثني عيساء .

الثاني الحمرة فإن أحمر وغلبت عليه الشُقرة قيل أصهب والأثني صهباء ، فإن
خالصت حمرة قيل أحمر والأثني حمراء ، فإن خالط حمرة قنوة قيل كميث ، فإن صفت
حمرة قيل أحمر مدمي ، فإن خالط الحمرة حُضرة قيل أخوي ، فإن خالطها صُفرة
قيل أحمر رديني بكسر الراء . فإن خالطها سواد قيل أرمتك والأثني رمكاء . فإن
كانت حمرة كصدا الحديد قيل أجأي .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكلف . فإن خالط السواد صفرة
قيل أخوي ، فإن غلبت بواده بياض قيل أورق . فإن زادت وزفته حتى أظلم
بياضه قيل أدم ، فإن أشتد سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين القُبرة والحمرة قيل حَوَار
والأثني حَوارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرف أذكر أم أنثى سيل .
فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثى قيل حائل . ثم هو حَوَار حتى

يُفَطَّم ، فإذا فُطِمَ وفُصِّلَ عن أمه قيل فصيل . وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ،
 فإذا دخل في الثانية قيل ابن مَحَاضٍ : لأن أمه فيها تكون من المحاض (وهي الحوامل)
 والأثني بنت محاض ، فإذا دخل في الثالثة قيل ابن لبون : لأن أمه فيها تكون ذات لبن
 والأثني بنت لبون ، وإذا دخل في الرابعة قيل حَقٌّ : لأنه يستحق أن يحمل عليه والأثني
 حَقَّةٌ ، فإذا دخل في الخامسة قيل جدع والأثني جدعة ، فإذا دخل في السادسة
 قيل نثي لأنه يُلْقَى فيها شَبْتَهُ والأثني تَبِيَّةٌ . فإذا دخل في السابعة قيل رباع (بفتح الراء)
 لأن فيها يلقي رباعيته والأثني رباعية بالتخفيف ، فإذا دخل في الثامنة قيل سديس
 وسدس الذكر والأثني فيه سواء ، وربما قيل في الأثني سديسة . فإذا دخل
 في التاسعة قيل بازل لأنه فيها يبزل نابه ، والذكر والأثني فيه سواء ، وقد يقال فيه
 فاطر ، فإذا دخل في العاشرة قيل مخلف ، ونيس وراء ذلك للإبل ضبط بل يقال مخلف
 عام ومخلف عامين فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه عود والأثني عودة ، فإن
 علا عن ذلك قيل حقر ، فإن تكسرت أنيابه لطول همرمه قيل ثلب والأثني ثلبة ،
 ويقال في الناقة إذا كان فيها بعض الشباب عزموم ، وربما قيل شريف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت في بعض المصنفات أن كل ما يستحب
 في الفرس يستحب في البعير خلا عارض غاربه ، وتسل مرققه ، وتكس جاعرته
 وهي أعلى الورك ، وأندلاق بطنه ، وتفرش رجليه ، فإن ذلك يستحب في الإبل
 دون الخيل .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة في الناقة ، منها دقة
 الأذن ، وتحديد أطرافها ، وكبر الرأس ، واستطالة الوجه ، وعظم الوجنتين ، وقنو
 الأنف ، وطول العنق وغلظه ، ودقة المدبج ، وطول الظهر ، وعظم السنام . وهي
 الكوماء ، وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

وهلة ، ولا مسترخية ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، ملساء الجلد ، تامة الخلق ، قوية ، صلبة ، خفيفة ، سريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هجان من يتاج مهرة : وهي قبيلة من قضاة اليمن ، والعيدية منسوبة إلى بنى العيد من قبيلة مهرة المذكورة ، والأرجحية منسوبة إلى بنى أرحب ، والغريزية منسوبة إلى غريز ، وهو خل كريم مشهور في العرب . والشذقية منسوبة إلى شذقم : خل كريم أيضا ، والجديلية منسوبة إلى جديل : خل كريم ، والداعرية منسوبة إلى داعر : خل كريم كذلك . قال في كفاية المتحفظ ، والشذنية منسوبة إلى خل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النفيس العالي الثمن وخيرها حمر الديار المصرية ، وأحسنها ما أتى به من صعيدها . وهي تنتهي في الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل ، وربما يميز العالي القدر منها على المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تام الخلق ، حديد النفس . ولا عيب في ركوب الحمار ولا وهيصة ^(١) فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، "رَكِبَ الْحِمَارَ" ولا عبرة برقع من رقع عن ركوبه بعد أن ركب النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا نقص ولكن لم يقف في مادة ر ه ص ولا ر ه ص على هذا المعنى .

النوع الثالث

(ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده، وهو أصناف)

الصنف الأول

(جليل الوحش)

وهو ما يتخذهُ الملوكُ للزينة وما في معناها، ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا والمواكب، وما يجري مجراها .

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأول الأسد - ويجمع على أسد وأسود وأساد، ويقال له أيضا اللَّيْث والضيغم، والضرم، والمزير، والميضم، والمهرماس، والفراقصة، وحيدرة، والقصور. وله أسماء كثيرة سوى هذه، لا تكاد تدخل تحت الحصر، حتى قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم. ويقال لولده السَّيْل ولأنتاه اللَّبؤة. قال ابن السندي في كتابه "المصايد والمطارد": وإذا تأملت أصناف الحيوان وبجنت صورها وما أُعطيت من الأسلحة ومقادير الخلق، وجدت الأسد أعظم خلقا، وأكثر أيدئا، وأشد إقداما من جميعها، ليست له غريزة في الهرب البتة .

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له تحرز عظام كما في غيره من الحيوان بدليل أنه لا يلوي عنقه، ولا يانفت، ومع ذلك فهو يتلع الشيء العظيم، ولبؤته لا تلد إلا جزوا واحدا، وإنما تضعه كاللعممة ليس فيه حس ولا حركة فنحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينضح فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك، ثم تأتي أمه فتضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام، ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب لساء وإن كان لا يفارق الفياض، وله صبر على

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه، وليس يلقي رَجِيعه إلا مرة واحدة في اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلى خلف كما تبول الحبال، وهو أشد السباع ضراوة على أكل بني آدم، وإذا أقرس فريسة وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يطأ أثره شيء من السباع. قال ابن السندی في "المصايد والمطارد" "ولا يأكل من فريسة غيره من السباع. وقد قيل إنه يهرب من الهزأ ومن الجرو، ومن الذئب الأبيض، وإنه إذا رأى النار عرضت له فكرة أو رثته بهتة، وأنه يهرب من عواء الجرو إذا عرقت أذنه. ويقال إن جلده إذا جعل فيها يخاف عليه الشوس من الثياب وغيرها أمن من ذلك، وإنه إذا عمل منه وترقوس وأضيف إلى أوتار من فراء ومعى أو غيرها أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء وتلغ فيه كلب وإن مات عطشا.

الثاني الثور - جمع نعر (يفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أعمار ونمكار، والأشئ نعمة؛ وهو حيوان مرقع اللون بسواد وبياض، أقرب شيء من خلقة الفهد، وهو أخص من الأسد، لا يملك نفسه عند الغضب حتى إنه ربما قتل نفسه من شدة غضبه. قال: ابن السندی: وهو ودود لجميع الحيوان، عدو للنسر، وينام ثلاثة أيام، والحيوان يطيف به ويميل إليه استحسانا لجلده.

وهو جنسان أحدهما عظيم الجثة، صغير الذنب، والثاني صغير الجثة عظيم الذنب. قال في "المصايد والمطارد" ويصاد بالحر لأنه يجها. قال: ومن أراد قتله تمسح بشحم ضبع ودخل عليه قتلته.

الثالث الكركدن - (يفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشددة في الآخر) قال الرمنشري في "ربيع الأبرار": وهو وحش يكون ببلاد الهند يسمى الحمار الهندي، له قرن واحد في جبهته يبلغ غلظه شبرين، وهو

(١) ضبطه في القاموس بشدة الدال أوى وتخفيف النون وقال العامة تشدد النون

محدد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وأنه ربّما نطح الفيل فبعجه بقرته ، وأن أنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئاً من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبَةً له وهو بأمنه .

الزابع الفيل - وهو حيوان يُؤتى به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء . وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومُه أنه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفاً ، وهو يده ، وبه يتساول الطعام والشراب ، ومنه يُعنى ويحز فيه الصوت كما يحز الزامر في القصبة بالفتح . قال : وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة وأن الفيل يهرب منه هرباً شديداً . وذكر صاحب "الحيل في الحروب" أنه يقصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينفر في الحروب . وقد ذكر الجوزي أن للفيل إقداماً على السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوض لأنه يشب جلدُه بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائماً يحرك آذانه ليطرده عنه الناموس ، وهو مخصوص بحفنة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى حتى لو أن إنساناً كان جالساً وجاء الفيل من خلفه لما شعر به . وذكر عبد القاهر البغدادي أن الفيلة تحمل سبع سنين ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاث قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثديها على كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالي أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب أرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزرافة - (يفتح الزاي وضمها) وهي حيوان يُؤتى به من بلاد الحبشة واليمن ، طويلُ اليدين ، قصيرُ الرجلين ، ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافرها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أي يعد .

(٢) في حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتي بعد صحائف على الصواب مراراً .

(٣) كذا في الأصل وعبارة الحياة ولا يبرز عليها إذا وضعت إلا به ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه موشى بالبياض والصفرة. قال الجاحظ:
وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نوق الحبشة وبين بقرة الوحش وبين
الذئب - وهو ذكر الضباع. وذلك أن الذئب يعرض لناقة فيسعدُها فتلقح بولد يجيء
خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى
الولد زرافةً، وإن كان ذكراً تعرض للهاء فالقحها فيأتى الولد زرافة أيضاً. قال:
ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلّتح من الزرافة الذكر. ثم قال وهذا مشهور
باليمن والحبشة. ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على حرمها، وإن كانت بيضا
دلت على حداثة سنّها.

ومن أمراضها الكلب (وهو كالجنون يعترها كما يعترى المكاب فيقناتها) وكلّ
من عضته وهى على هذه الحالة قتله إلا ابن آدم فإنه ربما شوى فسلم. ومن
أمراضها أيضا الذئبة والقرس.

الصنف الثاني

(معلّيات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضوّارى. وهى كل ما يقبل التعليم من الوحوش كأنها ما كان
حتى حكى عن السودان القنّاص أنه بلغ من حدقه أنه ضرى ذئبا حتى أصطاد به
الطباة وما دونها، وألقه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخا، وضرى أسدا حتى أصطاد
به حمر الوحش. ويقال إن ابن عرس يجعل حبل في عنقه ويدخل على الثعلب
فلا يخرج إلا به. وهى على ضربين.

الأول الفهودة. جمع فهد بكسر الهاء. وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من
أسد وبقرة أو من نمر وبقرة، وهو من السباع التى تصاد ثم تؤنّس حتى تصيد،

(١) في المصباح الجمع فهود كغلس وقلوس وكذا بقية معاجم اللغة فاعل ما في الاصل من التعريف
والصحيح وهو الأقرب.

وهو من الحيوان المتهد الأستان ، وأسنانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره قال : في "التعريف" وأقول من صاد به كسرى أنوشروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس قال : في "المصايد والمطارد" ويصطادونه بضروب من الصيد .
منها الصوت الحسن فإنه يصغى إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتاعه حتى يحمى ويمس ويظهر ويخفى ، فإذا أخذ غطيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشياً ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدعه يرى الدنيا ، ويجعل له مَرَكِجًا كظهر الدابة يعودده رُكوبه ويطعمه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأس ، فإذا ركب مؤخر الدابة فقد صار داجنا وصاد .
وفي طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتى يضرب بنومه المثل فيقال "أَنُومٌ مِنْ فَهْدٍ" . وكثرة الحياء حتى إنه لا يعلم أنه عاطل أثى بين يدي الإنس . وقد عني بمراعاته في ذلك فلم يوقف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندي عن بعض الفهّادة أن سائسه إذا أمرت يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده على فرجه نقر وعص يده .
ومنها الغضب حتى إنه إذا أرسل على صيد فلم يحصله احتد ، وإن لم يأخذ سائسه في تسلينه قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب "المصايد والمطارد" والمس من الفهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الحر والذى يربى ويؤدب ، والأثى أصيد من الذكر كعامة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر حرم الفهد إلا والفهد أفضل منه . قال : في "المصايد والمطارد" وضد الفهد الطباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني الكلاب - جمع كلب ويجمع على أكلب أيضا وعلى كليب كعبد وعبيد والأثى كلبه ، ويجمع على كليات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء

مَشْتَرِكِ الطَّبَاعِ بَيْنِ السَّبُعِ وَالْبَهِيمَةِ: لِأَنَّهُ لَوْ تَمَّ لَهُ طَبَاعُ السَّبُعِيَّةِ لَمَا أَلْفَ النَّاسَ وَلَوْ تَمَّ لَهُ طَبَاعُ الْبَهِيمِيَّةِ لَمَا أَكَلَ اللَّحْمَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَأَنْثَاهُ تَحِيضٌ ، وَتَحْمِلُ أَنْثَاهُ سِتْرِينَ يَوْمًا ، وَرَبْمَا حَمَلَتْ أَقْلًا مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْتَفِدُّ بَعْدَ سَنَةٍ ، وَرَبْمَا تَهْتَدِمُ عَلَى ذَلِكَ . وَهِيَ عِنْدَ السَّفَادِ أَشْتَبَاكٌ عَظِيمٌ ، وَإِذَا سَقَدَ الْأَثْنَى كَلْبَانِ مُخْتَلِفَانِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ بِلُونَهُ . وَفِيهِ مِنْ اقْتِفَاءِ الْآثَارِ وَشَمِّ الرَّائِحَةِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ . وَالْمَيْتَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ الْغَرِيضِ .

وَمَنْ طَبَعَهُ أَنَّهُ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ شَاهِدًا أَوْ نَاشِيًا ، ذَا كِرَا أَوْ نَافِلًا ، وَإِنَّمَا أَوْ يَقْطَانٌ ، وَهُوَ يَقْطُ حَيَوَانٌ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا نَامَ كَسَرَ أَجْفَانَهُ عَيْنَيْهِ وَلَا يُطْبِقُهَا لِحَفَّةِ نَوْدِهِ . وَمَنْ عَجِيبٌ شَأْنُهُ أَنَّهُ يَكْرَمُ الرَّئِيسَ مِنَ النَّاسِ فَلَا يَنْبُجُهُ وَإِنَّمَا يَنْبُجُ أَوْ بَاشِ النَّاسِ . وَمَنْ طَبَعَهُ أَنْ الضَّبِيعَ إِذَا مَسَّتْ عَلَى ظِلْفِهِ فِي الْقَمَرِ رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَتَأْكَلُهُ ، وَإِذَا ظَفِرَ بِكَلْبٍ غَرِيبٍ كَادَ يَفْتَرِسُهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّارِعَ اتِّخَاذَهَا لِلصِّيدِ وَنَحْوِهِ ، وَأَبَاحَ صَيْدَهَا مَعَ نَجَاسَةِ عَيْنِهَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا لِلصِّيدِ دَارًا أَحَدُ مَلُوكِ الْقُرْسِ قَالَ فِي "المَصَائِدِ وَالْمَطَارِدِ" : وَإِذَا كَسَرَ الْكَلْبُ الْأُرَانِبَ فَهُوَ نَهْشَايَةٌ وَإِنْ كَانَ يُطْرِقُ فَوْقَ ذَلِكَ . وَالْكَلْبُ يَسْكُ لِصَاحِبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصِّيدِ بِخِلَافِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ . قَالَ : وَإِنَّمَا أُسْرِعَ تَعَلُّمًا مِنَ الذِّكُورِ ، وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا حَتَّىٰ إِنَّمَا تَعْيِشُ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَمِنْ خَاصِيَةِ الْكَلْبِ أَنَّهُ إِذَا عَايَنَ الطَّبَّاءَ قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً ، عَرَفَ مِنْهَا الْعَلِيلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَالْعَزِيزَ مِنَ التَّيْسِ فَيَتَّبِعُ التَّيْسَ مِنْهَا دُونَ الْعَظْزِ وَإِنْ كَانَ التَّيْسُ أَشَدَّ عَظْمًا وَأَبْعَدَ وَثَبَةً: لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التَّيْسَ إِذَا عَدَا شَوْطًا أَوْ شَوْطَيْنِ غَلِبَ عَلَيْهِ الْبَوْلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ إِرسَالَهُ فِي عَدْوِهِ فَيَقْلُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدْوَهُ وَيَقْصُرُ مَدَى خُطَاهُ فَيَدْرِكُهُ الْكَلْبُ بِخِلَافِ الْعَظْزِ فَإِنَّمَا إِذَا اعْتَرَاهَا الْبَوْلُ أُرْسَلَتْهُ لِسَعَةِ مَسِيلِهِ . وَالْكَلْبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ طَبَعًا ،

وكذلك يعرف حجرة الأراب والثعالب وإن ركبها الثلج والجليد بسمه فيقف عليه وينير ما فيها من الوحش ، وإذا صعد منه أرنب إلى أعلى جبل شاهق ، كان له من اللطاف في الأرتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميت من المتهاوت .

ومن خصائص الأثنى أنها تحمل ستين يوماً ويبقى حرؤها بعد الولادة اثني عشر يوماً أعمى ، وأكثر ما تضع ثمانية أجزاء ، وربما وضعت واحداً فقط ، ورأس الكلب كله عظم واحد ، والكلب يطرح مقادير أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يلقى منها شيئاً حتى ينبت في مكانه غيره ، والفرق بين الذكر والأثنى أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأثنى يتبول مقنعة وربما رفعت رجلها ، والذكر يسبح للسفاد في السنة قبل الأثنى ، وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد . قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البيض إذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارذ" أن الأبيض أقره والأسود أصبر على الحز والبرد ، ومن علامة النجابة والقراءة فيه أن يكون تحت حنكته طاقة شعر مفردة غليظة ، وأن يكون شعر خديه جافياً . ومن علامة القراءة طول ما بين يديه ورجليه وقصر ظهره وصغر رأسه وطول عنقه وغصفت أذنيه وبعدهما بينهما ، ورزفة عينيه ، وصخامة مقاليه ، وتوحدته ، وطول خطمه وذقنه ، وسعة شدقه ، وتو جبهته وعرضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين ، طويل الصدر ، غليظه ، قريبه من الأرض ، نالي الزور ، غليظ العضدين مستقيم اليدين ، منضم الأظافر ، عريض ما بين مفاصل الأعطاف ، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين مع طولها وشدة لحمها ، دقيق الوسط ، مستقيم الرجلين ، قصير الساقين ، غير محتى الركبتين ، قصير الذنب إن كان ذكراً مع دقة وصلابة ، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفره من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهما وإذا ألقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى فأبها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكلب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعترى الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جراء صغار .

ومن عجيب ما يحكى في ذلك أن رجلا عضه كلب فنام به بكمه فأصابته أسنانه ولعابه فشعرته ساعة ثم نشره فساقط منه جراء صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سلوقية (بفتح السين) وزغارية (بضم الزاى) . فأما السلوقية فمنسوبة إلى سلوق بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه في تقويم البلدان والمقرئ الشهابي آبن فضل الله في "التعريف" قال في "التعريف" : وهي مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم إلا في البطن الثالث منها ، قال : ولها سلاح جيد ، قال في "المصايد والمطارد" : ولها أنساب كأنساب الخيل . قال : وقل أن يعرض لها مروض الكلب . وأما الزغارية فهي أطف قذا من السلوقية ولم أدر إلى ماذا تنسب .

الصنف الثالث

(ما يعنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأول الحمار العنابية - وهي حيوان في صورة البرذون موشى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها ، وقد كان أهدي للظاهر بقوق سقى الله عهدته حمارة من هذا النوع فأقامت مدة ، ثم أعطاه فقيرا من فقراء المعجم فكان يركبها كما تركب

الخيل والحمر ويمشي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً ، وأعادها منه ، وأرسلها في هدية لآبن عثمان صاحب بلاد الروم غربياً الخليج القسطنطيني .

السائي البقر الوحشية - وتعرف بالمها ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ، ولها قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شعب ، وهي من جليل الصيد . ويقال للثقي منها المها ، وبها يضرب المثل في حُسن العيون وسواها . ومن طبعه الشبق وشدة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هربت منه خوفاً من تعبه بها وهي حامل ، وربما ركب الذكر الذكر لشدة شبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأثني أنغم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواقعها من البرية الوهديات ، وما أستوى من الأرض ودنا من الماء والعشب ، وليست مما يسكن الجبل ، ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيات كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من ثيرانها برعيه في الجبل . وهي مما يُصاد بالطرد على الخيل ، ويقال إن أول من طردها على الخيل ربيعة بن زيار بن معد بن عدنان فإنه أول من ركب الخيل على قول ، ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه فرق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ، وأقدر معين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السدي : ودمها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحمر الوحشية - ويقال للأثني من حمر الوحش أتان وللذكر حمار وعير كما يقال في الحمر الإنسية ، وربما قيل القراء ، وهو من أشد الصيد عدواً ولذلك يُضرب به المثل فيقال "كل الصيد في جنب القراء" أو "في جوف القراء" . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة ، ويقال إن الحمار الوحشي لا يتزو إلا إذا

كان له من العمر ثلاثون شهرا وإن الأشي لا تُلَقَّح منه حتى يتم له ثلاث سنين ، وقيل ستان وستة أشهر . ويوصف بشدة الغيرة على أُنثى حتى يقال إن فيها ما إذا وُلِد له ولد ذَكَرَ كَدَمَ قِصِيهَ وخُصِيهَ حتى يقطعهما . قال في "المصايد والمطارد" وليس يتعلَّق به شيء من الصَّواري ولا الجوارح إلا العُقَاب ، ولا شيء أبْلُغ في صيده من الرمي بالنشاب .

الرابع الغِرْلان - ويقال لها الظباء بكسر الظاء واحدها ظبي . ثم الظباء على ثلاثة أصرب : أحدها البيض ، ويقال لها الآرام جمع رَثم ، ومساكنها الرمل ، ويقال هي ضأن الظباء . وثانيها الأدم ؛ وهي ظباء سُمر الظهور ، بيضُ البُطون ، طويلة الأعناق والقوائم ؛ وهي أسرعها عدوا . ومساكنها الجبال والشعاب . وثالثها العُقر وهو صنف يعلوه مع البياض حمرة ؛ قصار الأعناق ؛ ومساكنها صلاب الأرض . ويصيد جميعها الفهد والكلب والعُقَاب . وتُصَاد أيضا بالحباله والشُرَكَد ، وربما صيدت بايقاد النار بإزائها ؛ لأن الظبي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدمن النظر إليها وعشى بصره وذهل ؛ وقد يُضاف إلى النار تحريك جرس ونحوه فيزداد دُهو له فيؤخذ . وتُصَاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيايل - جمع أَيْل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام في الآخر) . وهو حيوان قريب الشبه من الظباء ، له قرنان في رأسه كالظبي . قال في "المصايد والمطارد" وهو معتصم بالجبل قلما يحمل السهل ، وقرونه مُصمَّمة لا تجوف فيها ، ويخلفها في كل عام غيرها ، ويتبدى في ذلك بعد مضي سنتين من ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ؛ وذكَرُه عَصَبٌ لا لحم فيه ولا عُضْرُوفٌ ولا عَظْمٌ ؛ ودم كل حيوان يجمد إلا دمه ؛ وليس للأشي منها قرونٌ البتة ؛ وأصوات ذكورها أحدٌ من أصوات إناثها ؛ وهو يزناح لسماح الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذلّ لها، وبأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتي في الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيواني من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس الأرنب - جمع أرنب والأرنب مؤنثة وهي حيوان صغيرة البنية قصيرة اليدين قريب من لون الثعلب، وليس شيء مما يوصف يقصر اليدين أسرع منها . ومن خصائصها كثرة الشعر حتى إنه لينبت في بطون شديداً وتحت رجلها . وقصيب ذكر الأرنب من عظم . وربما ركب الأثنى الذكر في السفاد، ولا ينام الأرنب إلا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تظا الأرض بباطن كفها لتعفى أثرها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طردت لجأت إلى الجبال واشتد عدوها فيها، والأثنى لاسمن، وهي عند العرب مما يحيض، وتُسفد وهي حيل، وتلد الأول والثاني على ما في بطنها .

السابع الذئب - جمع ذئب وهو حيوان في صورة الكلب في لونه بلق بكودة والذئبة أجراً من الذئب وأشد عدواً، وأسنانه عظم مخلوق في فكيه ليست مفروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السدي : وأخبرني أبو بكر الدقبشي أن هذه الخلقه في أسنان الضبع أيضاً، والذئب صاحب خلوة وأفراد . ومتى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته، وإن رآه جزع منه أجراً عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنشاء التحم التحاماً شديداً حتى يقال إنه إذا هم عليهما داخل في هذه الحالة قتلها كيف شاء . ولذلك يبعدان في هذه الحال إلى مكان لا يُريان فيه، وإذا تمارش ذئبان فأدمى أحدهما الآخر عدا الذي أدمى على المدمى فقتله خوفاً من أخذ الثار ،

(١) في الصباح ويقع على الذكر والانس وقد يؤت بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئب نُصرة له ، وإذا لقي الفارس والأرض متلوجة تحمّس الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليُدْهِسه ثم يعقر دابته فيتمسك منه ، ومتى وطئ الفرس أثر الذئب رُجِدَ ونُحِرَ الدخان من جسده كله ولذلك قلَّ مَنْ يطرد من الفُرسان ولا يتفطن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدم أن السودانيّ ضربى ذئبا حتى أصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب - جمع ثعلب . وهو حيوان معروف ، موصوف بكثرة الروغان في عذوه وبالجليل حتى إنه يتأوت عند رؤية الثعالب فيزل عليه الثعالب على ظنّ موته لياكل منه فيقبضه هو . ومن خبئه وحيلته يخنط بكار الوحوش وجألتها يقال في "المصايد والمطارذ" . ومن فضائله تشبيههم مشية الخيل بمشيته التي يقال لها التعلية . ومن عجائبه أن قضيبه في خلقة الأنثوية أو وسطه عظم في صورة الثقب والباقي عَصَبٌ ولحم . وهو كريم الوبر والأسود من وبره في الغاية القصوى ، والأبيض منه لا يكاد يُفرق بينه وبين الفئك .

ومن خصائصه أنه يتمرغ في الزرع فلا ينبت موضعه ، وربما سَفَدَ الكلبة فولدت كلبا في خلقة السلوقي الذي لا يقدر على مثله . وقد تقدم ذكر ذلك في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضع الكروم والآجام ، ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير .

التاسع الضباع - جمع ضبع ، ويقال لها أم دامر . وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الثآليل لورود النحل بذلك ، وترغم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى . ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظله وقع فأكلته ، وإذا آقتحم عليها مقتحم وجأرها وقد سد جميع منافذ بحورها حتى يمنع

منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة - ربطها بحبل ونخرج بها ؛ و إن بقي ما يدخل منه الضوء ، ولو قدر سم إبرة وثبت عليه فأكلته . ومن كان معه شيء من الحنظل لم تقر به الضبع .
 العاشر سنور البر - وهو النفا - وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما التحريم وصيده يحتاج إلى علاج كبير ، وربما وثب على وجوه الناس ، وطرده بالخيل من أعسر الطراد ، وأولى ما يصاد به الرمي . ومنهم من يعده في السباع قال في " المصايد والمطارد " وقلماً أنتهع به في صيد إلا أنه يتب على الكركي وما في مقداره من الطيور فيصيده . أما السنور الأهلي ، وهو الهر المعروف بغير ما كور ولا يصيد إلا الفار وما في معناه من حشاش الأرض ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ، في الهرة ولكنها من الطواقين عليكم بمعنى أنها تطوف على المنام في بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الحشاش .

الحادي عشر الذئب - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع ، وهو يسكن الجبال والمغاير ، والأثني ترفع ولدها أياماً هرباً به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم فلا تزال تنقله وتزاعجه حتى تستند أعضاؤه ، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعدنها فتجمع الجوز في كفها ثم تضرب اليمنى على اليسرى وترمي إليه ، فإذا شبع نزلت وربما قطعت من الشجرة العود الذي يعجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقبض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تضيب به شيئاً إلا أهلكته . ومن خصيسته أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر الحيوانات .

الثاني عشر الخنزير - وهو حرام بنص القرآن ، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياساً على الكلب ؛ بل قالوا إنه أسوأ حالاً منه لعدم حل أقتنائه إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد . وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر

وله نابان بارزان من فكه الأسفل. ومن خاصته أنه لا يُلقي شيئاً من أسنانه، بخلاف سائر الحيون فإنها تُلقي أسناتها خلا الأضراس، وهو كثير السفاد، كثير النسل، حتى إنه ربما بلغت عدة خنائصه ^(١) وهي أولاده اثني عشر خصوصاً. قال في "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البري الجاهل الذي لا يقبل التأديب والتعليم، ويقبل السمن سريعاً، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سمحت.

الثالث عشر السمور - (بفتح السين وبالميم المشددة المضمومة على وزن السّفود والكُوب)، وهو حيوان برى يشبه السنور، وقد يكون أكبر منه. قال عبد اللطيف البغدادي: وهو حيوان جرى نيس في الحيوان أجزأ منه على الإنسان، لا يُصاد إلا بالخيال، ووقع للنووي في تهذيب الأسماء واللغات أن السمور طير، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هشام البستي في شرح القصيح فقال: إنه ضرب من الجن. والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدم. وحكه حلّ أكله، ومنه يتخذ نفيس الفراء التي لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان من يداني الملوك لحسنها ودقائها، وأحسنه ما كان منه شديدة النعومة مانلاً إلى السواد.

الرابع عشر الفئك - (بفتح الفاء والنون) وهو دويبة لطيفة، لها وبر حسن أبيض يخاططه بعض حمة يُتخذ من جلوده الفراء. قال ابن البيطار: وفروه أطيّب من جميع الفراء، ومزاجه أبرد من السمور وأحر من السنجاب، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيراً ما يُجلب من بلاد الصقالبة.

الخامس عشر القاقم - (بفتحة القاف) الثانية منهما مضمومة) وهو دويبة في قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم، ومنه يُتخذ الفراء، وهو أبرد مزاجاً وأرطب من السنجاب؛ ولذلك كان لونه البياض، وهو أعز قيمة من السنجاب.

(١) في الأصل يائسين وهو تصحيف أنفركب التفة.

السادس عشر الدلق - (يفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر) فارسي معرب ، وهو دُوَيْبَةُ قَرَب من السَّمُور . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو يفتَرَس في بعض الأحايين ويكْرَع في الدم . وذكر ابن فارس أنه التمس . وقد ذكر الراجزي أنه يسمي ابن مَقْرُض والمعروف أن الدلق حيوان يتخذ منه القراء .

السابع عشر السَّنَجَاب - وهو حيوان أكبر من الفأر ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكاه الحِلُّ ، وقال بحرime بعض الحسابلة . ويتخذ من جلده القراء النفيسة التي يلبسها أعيانُ الناس ورؤسأؤهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صمد الشجر العالي ، وفيها بأوى ، ومنها يأكل ؛ وهو كثير بيلاج الفرج والصقالبة ؛ وأحسن ألوانه الأزرق ، ثم إنه يقال إنه ربما تنبأ^(١) زرقته لأنه يُنْحَق ولا يذكي . فإن صح ذلك فهو مينة لا يطهر شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الإسفراحي وابن أبي عَصْرُون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي وأختاره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر سنور الزباد - وهو في صورة السنور الأهلي إلا أنه أطول ذنباً منه وأكبر جثة ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أتمر ، وهو يُجَاب من بلاد الهند والسند ؛ والزباد فيه شبهة بالوسخ الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه . وباطن أنخاذه ، وباطن ذنبه ، وحول ذنبه . فيؤخذ من هذه الأماكن بمعلقة ونحوها .

التاسع عشر السنور الأهلي - (وهو الهز) ويقال في أصل خلقه إن أهل السفينة شكوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فمطس فخرج السنور من أغفه ولذلك هو يشبهه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان في خصال . منها أنه يَعْطُسُ . ويتعاب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلعابه كأنه يفسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظَّفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه . ويشمه حتى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشمه العار فيهرب ، وهو يهيج للسفاد في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حينئذ . وتحمل الأثني منه مرة في السنة ، وتقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألفت متزلا منع غيره من السنابير من الدخول إليه . وإذا طرده أهل البيت تملقن لهم وترقق ، وإذا آختطف شيئا هرب به خوفاً المعاقبة عليه . والهزة إذا جاءت أكلت أولادها . ويقال إنها تفعل ذلك من شدة الخوف . وقد ذكر القزويني أن نوعا من السنابير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلى ذنبها .

العشرون النمس - قال الجوهرى : وهو دُوَيْبَّةٌ عريضة كأنها قطعة قديد ، تكون بأرض مصر تقتل الثعالب ، والنس بمصر معروف - وهو حيوان قصير البدن والرجلين أغبر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأنس فتأس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يُورد الخليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقهد وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبشر الوحش ، وشمر الوحش وغيرها ، وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وَيَجْتَنِبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ : إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْقَنَ فِيهِ
وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأفشين في هودج ، تُرْجِي إِلَى البَصْرَةِ أَجْنَادَهَا
كأنها في فعلها هرة * تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا

شيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهرة أولادها وغير ذلك مما يعرى هذا التجري
وسياتى ذكر ما فى معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة
المعدة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلى ذلك فى رسائل الصيد ، وإهداء الجوارح ، والجواب عن
إهدائها ، وكأية قدم البندق ، وما يجرى تجرى ذلك ، وهو على أربعة أصناف .

الصنف الأول

(الجوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش ، ويحتاج الكاتب إلى وصفها فى الرسائل الصيدية
وفى إهداء شىء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجئمة المعتبر فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى
الإناث ، أما ذكورها فإنها أنطف فى المقدار وأضعف فى الصيد على ما يأتى بيانه
فما بعد إن شاء الله تعالى . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كبرها متها ،
وتنوّ صدرها ، وأنساع حمالقها ، وقوة إحصارها ، وحدة مناسرها ، وصفاء ألوانها ،
وتعمية رباتها . وقوة قوادمها ، وتكاثف خواقها ، وثقل مجلها ، وخفة وشباتها ،
وأشدادها فى الطلب ، وهما فى الأكل ، وقد قسمها فى "التعريف" إلى قسمين :
صقور وبراة ، وفوق بينهما بأن الصقر ما كان أسود العين والبازى ما كان أصفر العين
على اختلاف التسميات ، ثم قال "أما العقاب فإنه لا يمد فى الصقور ولا فى البراة
وهو معدود فى الجوارح ، وفى الطير الجليل" . وبالجملة فالجوارح على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(العُقَاب ، وهو ضربان)

الضرب الأول - المخصوص باسم العُقَاب وهي مؤنثة لا تذكّر، ويجمع على عُقَابان وأَعُوب . قال في "المصايد والمطارد" وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فنها سوداء دَجُوجِيَّة ، وخُدَارِيَّة ؛ وهي التي لا يبيض فيها . ومنها البَقعاء - وهي التي يخالط سوادها بياض . ومنها الشُقراء - وهي التي في رأسها نُقْطُ بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العُقَاب الفَرَنْ يفتح الفين والراء المهملة - ويقال إن ذكور العُقَابان من طير آخر لطائف الجرم ، لأنساوى شيتا ، تلعب بها الصبيان . والعُقَاب من أسرع الطير طَيْرَانَا ، فقد حكي أن عُقَابَا حملت كَفَّ عبد الرحمن بن عَتَاب ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فالتقتا بمكة فأخذت فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرّخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقته يوم الجمل الذي قتل فيه ، وأول من صادها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط سُلَاحِهَا قال حكاؤهم هذا لا يفي خيره بشره .

وصفة الوثيق العجيب منها وثاقفة الخلق ، وثبوت الأركان ، ومخمة اللون ، وغُور العين بالحاليق ، وأن تكون صَقعاء ، تجزأ ، لاسيما ما كان منها من أرض سُرت أو جبال المغرب . وهي تصيد الطيأء والتعالب والأرانب ، وقد تصيد حُر الوحش ، وطريق صيدها إياها أنها إذا نظرت حمار الوحش رمث بنفسها في الماء حتى يتدل جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعلق بهما ، ثم تطير طَيْرَانَا تقيلا حتى تقع على هامته فتصفق على عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذي تعلق بجناحيها، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانص فيأخذها وربما كسرت الأدمى .

ومما يحكى في ذلك أن قيصر ملك الروم أهدى إلى كسرى ملك الفرس عقابا ، وكتب إليه إنها تعمل أكثر من عمل الصقور ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظني فافتنته ، فأعجبه ما رأى منها فأنصرف وجوعها ليصيدها فوثبت على صبي له فقتلته ، فقال كسرى : إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دما نائرا بغير جيش . ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر تمرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الطباء وأمثالها من الوحش ، وكنتم ماصنت العقاب فأعجب قيصر حسن الثمر ووافق صفتها ما وصف من النهد وغفل عنه فافترس بعض فتيانه فقال صادنا كسرى .

ومن شأنها أنها لا تطلب شيئا من الوحش الذي تصيده ، وهي لا تقرب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولا تزال مرقبة على مرقب عال ، فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئا أنقضت عليه ، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاءت لم يمتنع عليها الذئب في صيدها ، وربما آغثت البراة فقتلتها .

ومن خصائصها أنها أشد إخفاء لفرأخها من سائر الطير . قال غطريف بن قدامة الغساني صاحب صيد هشام بن عبد الملك : "وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها تنهوه إلى ملك الروم فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : أنظروا في قوة هذا الطير ، وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرفوا أسرارها في صيده وتعليمه ، وكيف ينبغي أن يكون . فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد في سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير . وعند العداوة والغضب كل الأجناس عنده من سائر الحيوان

على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم الأذى ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثاني - الرُّجْحُ (يضم الزاي وفتح الميم المشددة ثم جيم) والعاقة تبدل الزاي جيمًا والحيم زايًا - وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش ، وأهل البيطرة يعدونه من خفاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يصفونه بالغدر وقلة الإنف الكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطة ،

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض ، وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الرُّجْحُ طائر دون العقاب حرته غالبية ، والعجم تسميه دُورًا دَرَّانَ ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثاني

(من الجوارح البراة . وهي ما أصفرت عينه ،

وهي على خمسة أضرب)

الأول - البازي المخصص في زماننا باسم البازي ، وفي ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازى بكسر الزاي وتخفيف الياء في الآخر ، والثاني بازٍ بغير ياء في آخره . والثالث بازى بإثبات الياء وتشديد حكاها ابن سيده ، ويقال في الثنية بازِيَانٌ وفي الجمع بَوَازٍ وِبْرَاةٌ - ولغظه مشتق من البروان - وهو الوثب . وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران . وهو من أنثرف الطيور الجوارح ، وأحرصها على طلب صيده . ففي أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطير ستان ومعه منديل فيسه شيء ماثقف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه سلوبازٍ ودراجة ، فأطلقه عليها فأحسست به ، وكانت قد أمرت بإحراق قصب قد أفسد أرضا لي فتحاملت الدراجة حتى

أفتحمت النار هاربة من البازي، وأشدت طلبه لها وحرصه عليها فلم ترد النار عنها وأتجمعت في أثرها فأسرعت فيهما فأدركهما وقد احترقا، فأحضرها إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجبن . وهو من أشد الحيوان كبرا وأضيقها خلقا . قال القزويني ولا يكون إلا أنثى، وذكرها نوع آخر من حدأة أو شاهين أو غيرها . ولذلك تختلف أشكالها . والبازي قليل الصبر على العطش وماواه مساقط الشجر .

ومن فضيلته أن الصيد فيه طبيعة لأنه يؤخذ من وكزه فرخا من غير أن يكون يصيد مع أبويه فيصيد آتداء وقريحة من غير تضرية، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يحب ولم يصد . وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عود أكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وحري على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه . قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعدد ريش جناح البازي عشرون ريشة ، أربع قوادم ، وأربع مناكب ، وأربع أبالهس ، وأربع كلى ، وأربع خواف . ويقال سبع قوادم ، وسبع خواف ، وسائره ثقب . والخواف أخف من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المنسر ، والرأس ، وغلظ العنق ، وسعة اللعين ، ودائري الأذنين والشدقين ، وسعة الخدقة ، وطول القوادم ، وقصر الخواف والذنب ، وشدة اللحم ، وعرض ما بين المنكبين والزور ، وسعة الحوصلاء ، وسعة ما ينتقل إليه طعمه ، وعرض الخالب ، ورزانة المحمل ، وغلظ خطوط الصدر ، وذكاء القلب ، والتشمير ، وكثرة الأكل ، وتتابع النهش ، وسرعة الاستمراء ، وشدة الانقباض ، وضخامة السلاح ، وبعد الذوق . وأن تراه كأنه مقبعا إذا استقبلته على يد حامله تسبعا^(١) بالفراغ الأبقع . قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمر

الأكثر سوادا ، الغليظُ خطوط الصدر ، والأشهبُ الشديدُ الشبهة ، الشبيه بالابيض ، والأصفر المدبجُ الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ على نجابته ، والبازي يصيد الكلب ، والأرنب ، والغزال ، والكركي وما في معناه ، والدراج ، والحجل ، وسائر الحمام ، والبط ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازي عدمُ الإباق فإنه إن صاد بقي على فريسته وإن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طرد خبيل . وأقل من صاده من الملوك قسطنطين ملك الروم . وذلك أنه مر يوما بلحاف جبل فرأى بازياً يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صررته ، وراقه حسن لباسه ، فأمر بأن يصاد له جملة من البراة فصيده له وحملت إليه فأرستها في مجلسه ، فعرض لبعضها في بعض الايام أيم قوشب عليه قتلته - فقال : هذا ملك يُغضب ما يغضب الملوك فنصب له بين يديه كنبرة ، وكان هناك ثعلب داجن ، وهو الذي يربى في البيوت قوشب عليه فما أفت إلا جريحا . فقال هذا ملك جبار لا يمتثل ضميا - ثم مزبه طائر فكسره ونهش منه - فقال هذا ملك نوعه لما جاع أخذ طعامه بسُلطان وقدرة - فحمله على يده وصاد به .

الثاني الزرق - (بضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف في الآخر) وهو ذكر البازي قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازي من دق الطير ولا ينتهي إلى صيد الكركي .

الثالث الفقيمي - وهو بازٍ قَصيفٌ قليل الصيد ذاهل النفس .

الرابع الباشق - (بكسر الشين وفتحها) فارسي معزب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحبة انظر الفاموس (٢) في حياة الحيوان العنقى ولم تجدهما في الفاموس .

وصفاته الحمودة كصفات البازي الحمودة . وأفضلها أنقلها وزنا قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أخفر . ويصيده البازي وهو الذراج والحمام والورشان . وإذا قوى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس البيدق - وهو دون الباشق ، وصيده العصافير .

القسم الثالث

(من الجوارح المصقور - وهي السود العيون من الجوارح : وهي ضربان)

الضرب الأول - الشواهين (واحد شاهين) وهي صنفان . الأول المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلماء بالجوارح أن الشواهين هي أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأخفها وأحسنها تقليباً . وإقبالا . وإدباراً . وأشدّها ضراوة على الصيد : إلا أنهم عابوها بالإبقاء وما يعتبرها من شدة الحرص ، حتى إنها ربما ضربت نفسها على الغائط من الأرض فانتت ، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح - ويقال إن صدرها عصب مجبول مأمم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلق بكفها . وهم يتحدون منها ماقرنص داجتاً دون ماقرنص وحشياً .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كآسهم يعني كالميزان المسمى بالشاهين ، فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع ، بل حالها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمام يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطارد" الأحمر اللون إذا كان عظيم الهامة . واسع العينين حاذهما . سائل السفعتين . تام المنبر ، طويل العنق . رطب الصدر ، ممتلي الزور . عيربض الومسط . جليل الفخذين . قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينه ، تام الخوافي ، ممتلي العكوة ، رقيق الذنب إذا صاب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هي المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما انقلبت إلى لون البراري فحالت . قال والحجر منها تكون في الأرياف والمواقع السهلة ، والشهب في الجبال والبراري ، ثم قال ولا يصيد منها الكركي والخبرج إلا البحرية . وأول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا علقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ماعين من قرأته ، وسرعة طيرانه وحسن صيده ، فإنه رآه يمتلق في طيرانه حتى يلاحق بعنان الجؤ ثم يعود في طرفه عين فيضرب طير الماء فيأخذه قناصا . فقال ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويعلم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أعجوبة في أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله على يده . قال في "المصايد والمطارد" وأنه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم ، وسار وهي تلي رأسه فطار طائر فانتقض بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأعجب الملك به فصرها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عسبر : كانت ملوك العرب إذا ركبت في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثاني من الشواهين الأنويه قال في "المصايد والمطارد" وهو دون الشاهين في القوة ، وله سرعة لا تزيد على صيد العصافير .

الضرب الثاني - من المصقور ماعدا الشواهين وهي أصناف .

الأول السقور . قال في "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا يذكره

في القديم . قال والسناقر تُجلب من البحر الشامي مغالي في أثمانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار . ثم نزل عن تلك الرتبة ، وأخط عن تلك الهضبة .

الثاني - المخصوص في زماننا باسم الصقر ويجمع على أصقر وصقور وصقورة قال في "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُر . ويقال له الأكدرة ، والأجدل . قال في "المصايد والمطاردة" ويقال لها يقال الطير : لأنها أصبر على الأذى ، وأحمل لغليظ الغذاء ، وأحسن إلفاء ، وأشد إقداما على جلة الطير . ومزاجه أبرد من البازي والشاهين ، وبسبب ذلك يضري على الغزال والأرنب ولا يضري على الطير لأنه يفتره . وهو أهدى من البازي نساء وأسرع استئناسا بالناس وأكثرها قنعا ، وأبرد مزاجا ، لا يشرب ماء وإن أقام دهرًا . ونوع يوصف بالبحر وتتن القم ومسكنه المغائر والكهوف وصدوع الجبال دون رعوس الأشجار وأعلى الجبال ، والعرب تجمد من الصقور ما قرنص وحشيا . وتدم ما قرنص دايجا ، وتقول إنه يتلد ولا يكاد يملح . وهي تصيد الكركي وما في معناه ، والبط وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جناتا في الطيران ، وأحرصها في اتباع الصيد ، حتى يحكي أن بعض ملوك مصر أرسل صفرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر فبينما الناس يصلون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق ، فأخذ فوجد فيه لوح السلطان فعرف به ، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال في "المصايد والمطاردة" ومن ألوان الصقر كونه أحمر ، وأبيض ، وأحوى ، وأبيض ، وأخرج ، وهو الذي فيه نقط بيض . قال ويستحب في الصقر أن يكون أحمر اللون ، عظيم المسامة ، واسع العينين ، تام المنسر ، طويل العنق ، رطب الصدر ، ممتلي الزور ، عريض الوسط ، جليل الفخذين ، قصير الساقين ، قريب القدمة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ،

غليظ الأصابع فيروزجها . أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفات القراحة والوثاقة والسرعة . قال أدهم بن عمرو : وأول من لعب بالصقر الحارث بن معاوية بن كندة الكندي . خرج يوما إلى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا شباكاً عتده . فوقع فيها عصافير عتده فحين رآها صقر من الجوارق قص عليها يطلبها فأمر الحارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فأصطاد منها جملة . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعي له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العش وعلمت اصطادت أجود صيد لأن صيدها طبيعي بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك ينهى عن تربية الصقر .

الثالث الكوئح - قال في حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزرق إلى البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخف جناحا وأقل بجرا . قال ويصيد أشياء من طير الماء ويعجز عن الغزال لصغره .

الرابع الكوهية - وهي موثاة بالبياض والسواد يخاط لونها صفرة . قال في "التعريف" وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة . وهي قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليؤيؤ - (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال في "المصايد والمطارذ" وتسميه أهل مصر والشام الجلم . وبهذا سماه في "التعريف" وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقعة ، وهي مع صفرها يجتمع الاثنان منها على الكركي فيصيدانه ، وتسموه الجلم أخذاً من الجلم : وهو المنقوص تشبيهاً به لأن له سرعة كسرعة المنقوص في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد رطب لأنه أصبر نفساً منه ، وأثقل حركة . وهو يشرب الماء شرباً ضرورياً كما يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أشجع منه . ويقال

إن أول من ضربه على الصيد وأصطاد به بهرام جور : أحد ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤبُوا يطارد قُبْرة ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

(الطير الجليل)

وهو المدهر عنه بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفترج بإصابعه وصَّرعه ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية . وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائراً ، وهي على ضربين .

الضرب الأول - طيور الشتاء - وهي التي يكثر وجودها فيها - وهي عشرة طيور .
الأول الكركي - وهو طائر أعبر ، طويل الساقين ، في قدر الإوزة ، ويجمع على كراكي . وفي طبعه خور يمله على التعارُس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من الكراكي لأبد لها من حارس يحرمها بالتوبة بينها . ومن شأن الذي يحرس منها أن يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته ، قام واحد من كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفواً واحداً ، يقدها واحد منها كالرئيس لها وهي تتبعه ، يكون ذلك حيناً ثم يخلفه آخر منها مقدماً حتى يصير الذي كان مقدماً مؤخرًا ، وفي طبيعتها التناصر والتعاضد . ومن خاصتها أن أشاها لا تقعد للسفاد بل يسفدها وهي قائمة ، ويكون سفاده سريعاً كالصنوبر . وذكروا جميع بن عمير التميمي أن الكراكى تبيض في الشتاء ، ولا تقع فراخها ، وكذبه الخدمون في ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزويني في عجائب المخلوقات ، والكركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلق الأخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا يخافه أن تحسّف به الأرض قال في "المصايد والمطارذ" وهو من أبعد الطير صوتا يُسمع على أميال . قال وإذا تقدم مجيئها في الفصل استدل بذلك على قوة الشتاء . ويقال إن الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده تتعالى ملوك مصر تعاليا لا يدرك حذوه ، وتتفق في ذلك الأموال الجمة التي لانهاية لها . وكان لهم من علو شأن بذلك ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثاني الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - واحده إوزة وجمعوه على إوزون وماراد هنا لإوز المعروف بالتركي . وهو طير في قدر الإوز البلدي أبيض اللون . وله تجتر في مشيته كالجلجل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بجل أكله .

الثالث اللفّغ - وهو دون الإوز في المقدار ، لونه كلون الإوز الحبشي إلى السواد ، أبيض الجفن ، أصفر العين . ويعرف في مصر بالبراق ، ويأتي إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكي إليها . ومن شأنها أن يتقدمها واحد منها كالديل لها ، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدا كالجلجل ودليلها في وسطها متقدم عليها بعض التقدم . وقد يصف خلفه صغين ممتدين يلقياها في زاوية حادة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عرافة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبرت حدث في بياض بطونها وصدورها نقط سود ، والفرخ منها لا يعتره ذلك .

الرابع الجبّرج - (يضم الهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجمم في الآخر) - وهو الجباري . قال في "المصايد والمطارذ" ويقع على الذكر والأُنثى ويجمع على جباريات وذكر غيره أن واحده وجمعه سواء . وبعضهم يقول إن الجبّرج هو ذكر الجباري . قال في "المصايد والمطارذ" وهو طائر في قدر الديك ، كثير الريش : ويقال لها دجاجة البر . قال في حياة الحيوان : وهي طائر طويل العنق ،

رمادى اللون ، في منقاره بعض طول ، يقال لذكر الحبارى الخروب (يفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة في الآخر) - ويجمع على خراب وأخراب وخربان .

ومن خاصته أن الجارح إذا اعتنقها أرسلت عليه ذرقاً حاصلًا معها ، متى أحبت أرسلته ، فيه حدة تمعط ريشه ، ولذلك يقال : سُلحُها سلاحها . قال في حياة الحيوان : وهي من أشد الطير طيراناً ، وأبعدها شوطاً ، فإنها تصاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبة الخضراء التي شجرها البطم ، ومنابتها تخوم بلاد الشام ، وإذا تُف ريشها وأبطا نباته ماتت كندا - قال وهي من أكثر الطير جهداً في تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جوعاً بهذا السبب . قال في "المصايد والمطارد" : وهي مما يُعاف لأنها تأكل كلَّ شيء حتى الخنافس - وقال في حياة الحيوان : حكها الحلُّ لأنها من الطيبات ، وأستشهد له بحديث الترمذى من رواية سفيانة مؤيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبارى" ويقال لولدها اليجبور ، وربما قيل له نهار كما يقال لولد الكروان ليل .

الخامس الثم - يفتح التاء وتشديد الميم - وهو طائر في قدر الإوز أبيض اللون ، طويل العنق ، أحمر المنقار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدراً .

السادس الصوغ - بضم الصاد المهملة وفتح السين معجمة في الآخر - وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض ، أحمر الصدر ، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار ، السابع العنار - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة في الآخر - وهو طائر أسود اللون ، أبيض الصدر ، أحمر الرجلين والمنقار .

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره في فصل الصاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليثه .

الثامن العُقاب وقد تقدم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معنود منها ومن طير الواجب، ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود، واللوخية، والسُفَع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يأوى الجبال، وما يأوى الصحارى، وما يأوى الغياض، وما يأوى حول المَدُن.

وقد تقدم ذكر الخلاف في أن ذكرها من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحكمها تحريم الأكل لأنها من ذوات الخُتَاب من الطير، واختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا يجزم الراجح والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وجزم النووي في شرح المهذب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة، وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله.

التاسع النسر بفتح النون، ويجمع في القلة على أنسُر. وفي الكثرة على نُسُور، وسُمى نَسْرًا لأنه ينسُر الشيء ويبتلعه. والنسر ذو منسِر وليس بذى خُتَاب وإنما له أظفار حِدَاد الخُتَاب، وهو يستفيد كما يستفيد الديك. وزعم قوم أن الأثني منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حر الشمس للبيض مقام الحاضن. والنسر حاد البصر يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية، ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته، وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً حتى يقال إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وإذا وقع على جيفة وعالها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والنهم في الأكل إذا وقع على جيفة وأمتلاً منها لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، والأثني منه تخاف على بيضها وفراخها الخُفَّاش قَفْرُش في أوكارها ورق الدُّلَب لتنفّر منه

الْحُقَّاشُ ، وهو من أشد الطير حزنا على فراق إلفه حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حزنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتى يقال إنه يُعمر ألف سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الحيف .

العاشر الأنيسة - قال في حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُماة وإنما اسمه الأنيس . قال : وهو طائر حاذق البصر ، يشبه صوته صوت الجمل ، ومأواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار ، وله لونٌ حسن ، وتديروا في معاشه . وقال أرسطو : إنه يتولد من الشقراق والغراب ، وذلك بين فلوله . ويقال إنه يحب الأنيس ، ويقبل الأدب والتربية ، وفي صفه وقرقرته أعاجيب ، حتى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقمرى ، وغذاؤه الفاكهة واللحم وغير ذلك . ومن شأنه ألفة الغياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستحب . فإن صح تولده من الشقراق والغراب فينبى تحريمه . والأنيسة ذات ألوان مختلفة ، يميل إلى العُبرة ، وعُقبها يشتمل على خضرة وزُرقة ، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزها وجودا .

الضرب الثاني طيور الصيف - وهي التي يكثر وجودها فيه ، وهي أربعة أطياف . الأول الكى بضم الكاف : وهو طير أغمر اللون إلى البياض ، أحر المنقار والحوصلة ، وجلاه تضر بان إلى السواد .

الثاني الغرثوق - بكسر الغين المعجمة وفتح النون - ويقال فيه غرثوق - بضم الغين وفتح النون ، ويجمع على غرثائق . قال الجوهري : وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق ، ويتبعه الرخسرى على ذلك . وقال أبو حنيفة : وسى غرثيقا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطاردة" الغرثوق كركى إلا أنه أخضر طويل المنقار ،

(١) لم نثر عليه في حياة الحيوان ولم يذكر في معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركي إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله ذؤابتان في رأسه .
وقال : ومن خصائصها أن ريشها في شبيبتهما يكون رمادياً ، فإذا كبرت أسود وليس
ذلك في سائر الطير ، فإن الريش لا يحول بياضه إلى السواد بل يحول سواده إلى
البياض : كما في الغربان والصفير والخطاطيف .

الثالث المرزم - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة ، طويل الرجلين والعنق ،
وهو حلال الأكل .

الرابع الشبيطر - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمى
اللقلق أيضاً ، ويعرف بالبلاج . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج - وهو طائر أبيض ،
أسود طرفي الجناحين ، ورجلاه ومنقاره حمر . وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف
بالفطنة والذكاء . وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما في شرح المهذب والروضة
الحرمة وإن كان من طير الماء .

وساقي الكلام على ما يحل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يحل منها
بأسياغها فيما يتعلق بمصطلح الرماة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء
الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصف الثالث

(ما عدا الطير الجليل مما يُصَاد بالجوارج وغيرها ، وهو على ضربين)

الضرب الأول ما يحل أكله - وهو أنواع كثيرة لا يأخذها الحصر ، ونحن نقتصر
على ذكر المشهور من أنواعه .

فإنها التعام - وهو أسم جنس الواحدة تعامة ، وهو طائر معروف مركب من

صورتى جعل وطائر ولذلك تسميه الترك دواقش بمعنى طير جعل ، وتسميه الفرس
أشترمرلك ، ومعناه جعل وطائر . ويجمع النعامة على نعامات ، ويسمى ذكرها الظليم ،
ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيراتها ،
ومن الناس من يظن أنها متولدة من جعل وطير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرمل ،
وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مده عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن
الأخرى ، ثم تعطي كل بيضة منها نصيبها من الحُصن : لأنها لا تستطيع ضم جميع
البيض تحتها ، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت
بيضها ، فربما حضنت هذه بيض هذه ، وربما حضنت هذه بيض هذه ،
ولذلك توصف في الطير بالحق ، ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فنه ما تحضنه ، ومنه
ما يجعله غذاء لها ، ومنه ما تمدحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى
به أفراخها إذا خرجت . وليس للنعامة حاسة سمع ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه
عن سماعه حتى يقال إنه يشم رائحة القانص من بعد ، والعرب تقول إن النعامة
ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ،
ولذلك يسكن البرارى التي لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح .
ومن خصائصها أنها تتلع العظم الصلب والحجر والحديد فتذيه معدتها حتى تدفعه
كلما ، وتتلع الحجر فيطنفه جوفها ، وإذا رأت في أذن صغير لؤلؤة أو حلقة آختطفتها .
وحكها جل أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سم وحي .

ومنها الإوزة - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو اسم جنس واحد إوزة ، وجمعوه
على إوزون ، وهو مما يحب السباحة في البحر ، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح
في الحال ، وإذا حضنت الأثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها ، ويخرج فرخها في دون
الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

ومنها البطّ، وهو من طيور الماء واحده بطةٌ للذكر والأُنثى وليس بحريّ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القيرى - بكسر القاف، ويسمى مُلاعبَ ظله . وهو طائرٌ صغير الجرم من طيور الماء، سريعُ الأخطاف، لا يزال مرفقاً على وجه الماء على جانب كطيران الحداة، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعاً، ويرقع الأخرى حذراً، فإن أبصر في الماء ما يستقلُّ بجملة من السمك أو غيره أنقضَّ عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الجوّ جارحاً، مرّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبال على الخير والإدبار عن الشرّ، فيقال: "كأنه قيرى، إن رأى خيراً تدنى، أو رأى شراً تولى".

ومنها القطّاس - ويقال له الغواص ، وهو طائرٌ أسودٌ نحو الإوزة ، يغوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله، ويهم فيه في حياة الحيوان بجملة القيرى .

ومنها الدجاج - بفتح الدال المهملة وكسرهما وضهما، حكاه ابن منبج في "الدمشق" وابن مالك وغيرهما، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم، والواحدة دجاجة والذكر والأُنثى فيه سواء . قال ابن سيده : وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها، يقال : دَجَّ القوم إذا مشوا بتقارب خطو، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحضن، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسياً، ظريفاً، سريع الحركة، يدعى فيجيب، ثم كلما مرت عليه الأيام حمق وتقص حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأُنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمقاربه فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثى . والدجاج يبيض في جميع السنة، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين، ويتم خلق البيض في عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابها الهواء تصلّبت . وتشتمل البيضة على بياض وُصْفرة ويسمى المَح ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذى من سُرته ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبقى لبيضاها مَحٌ وحينئذ فلا يتخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت ، وقد ورد في سُنَنِ ابن ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أمر الاغنياء بالتخاذ الغنم وأمر الفقراء بالتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مَقْدَرَتِهِمْ .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمر بها سائر السباع فلا تخامها فإذا مرت بها ابن آوى وهي على سطح رمت نفسها إليه ، وهي توصف بقلة النوم وسرعة الانتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخَوَرِ طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له الحَبِيثِي . أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الخلل .

ومنها الديك - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيكَةٍ ودِيوك ، وهو أبه الطبيعة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافعي من مذهب الشافعي رضى الله عنه اعتماد الديك المحترَبِ وَقَافًا لِلْمُتَوَلَّى والقاضي حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسيطا لا يُحِلُّ فيه شئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبراني وغيره : إن الله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض ، جناحه مَوْشِيَان بالزَّرْبَجِد والياقوت واللؤلؤ ، له جناحٌ بالمشرق وجناحٌ بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء ، يُؤَدِّنُ كلَّ سَحَرٍ فيسمع تلك

الصبيحة أهل السموات وأهل الأرض، إلا الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك يُجيبه
 دُيوك الأرض ، وحينئذ فيكون الديك في ذلك نابعا . وقد ورد عدة أحاديث
 في النهي عن سَبِّ الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحثُّ على آخذه .

ومن حيد خصال الديك أنه يسوى بين دجاجة : ولا يُؤثِرُ واحدة على الأخرى .
 ويقال إنه يبيض في السنة بيضة ؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته
 أصغر من بيضة الدجاجة ، وهي مدورة لا تمديد في رأسها .

ومنها القَطَا - بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ
 وَقَطَائِتٍ ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات ، ويسمى قَطَاً لحكاية صوته : لأنه يصيح
 ” قَطَا قَطَا “ ، ولذلك تصفها العرب بالصدق . قال الجوهري ، وهو معدود من
 الحَمَام ، وبه قال ابن قتيبة ، وعليه جرى الرافعي في الحج والأطعمة : قال الشيخ
 محب الدين الطبري : والمشهور خلافه .

ثم القَطَا نوعان : كُدْرِيٌّ وَجُونِيٌّ ، وزاد الجوهري نوعا ثالثا وهو القَطَاط ،
 فالكدرى غُبر اللون ، رُقش البطون والظهور ، صفر الحلق ، قصار الأذنان ،
 والجوني سُدُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرها أغمر أرقط ، تملوه صُفرة ، وهي
 أكبر حرما من الكدرى ، تعيدل كل جونية كُدْرِيَّيْنِ ، والكدرية تُفصح باسمها
 في صياحها ، والجونية لا تفصح بل تُقرقر بصوت في حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض في القفر على مسافة
 بعيدة من الماء . وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من
 أفاحيصها في طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة
 سبع مراحل ، فترد الماء فتشرب ثم تُقيم على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجونية تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّةُ ، وهي توصف بالهداية فتأتي أفاحيصها ليلا ونهارا فلا تفضل عنها ، وتوصف بحسن المشي ، وبقلة النوم .

ومنها الكروان - بفتح الكاف والراء - وهو طائر في قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ، ويجمع على كِرَوَانٍ بكسر الكاف والأثني كروانة .

ومنها المحجل - بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر ، ويقع على الذكر والأثني ، وقد يقال له القبيج أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم في الآخر ، يقال للذكر والأثني منه قبيجة ، ويسمى الذكر منه اليعقوب ، والقبيج بفتح القاف والموحدة وجيم في الآخر ، ويقال في الأثني منه حجلة . وهو صنفان : تجدي وتهايم ، فالنجدي أحمر الرجلين ، والنهايم فيه بياض وخضرة ، ومن شأنه أنه يأتي إلى مصر عند هيجان زرعها ويصبح صياحا حسنا ، تقول العامة : إنه يقول في صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبِيلِ" . ومن شأن الأثني منه إذا لم تلقح ، أنها تفرغ في التراب وتصبه على أصول ريشها فتلقح ، ويقال : إنها تلقح بسباع صوت الذكر ، وبريح هب من قبله ، وإذا باضت ميز الذكر الذكور منها فخصنها ، وتحضن الأثني الإناث . وكذلك في التربية ، وفرخها يخرج كاسيا يزغب الريش كما في الدجاج ، وفي "المصايد والمطارد" أن القبيج كبير السفاد ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأثني ورأى بيضا ، كسره . قال التوحيدي : ويعيش المحجل عشر سنين ويعمل عشرين ، يجلس الذكر في واحد والأثني في واحد ، وهو من أشد الطيور غيرة على أنثاه حتى إن الذكورين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأثني ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هنا معطوف على القبيج الاوّل اشارة الى لغة أخرى وليس معلوما على اليعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتي عَشْ غيرَه فيأخذ بيضه ويحضنه ، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها ، وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يَحْقُقْهُ عند طيرانه أنه حجر رَمِيَّ بِمِقْلَاعٍ لِسُرْعَتِهِ .

ومنها القُمْرِيُّ - بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف بحسن الصوت ، ويجمع على قَمَارِيٍّ غير مصروف . قال في المحكم : ويجمع على قُمْرٍ أيضاً ، والأثني منه قُمْرِيَّةٌ ، ويقال للذكوره الورشَانُ - بفتح الواو والراء المهمله والشين المعجمة ، ويقال له أيضاً سَاقٌ حُرٌّ . قال البَطَلَيْوسِيُّ : وسُمِّيَ سَاقٌ حُرٌّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك ، ويكنى أبا الأخضر . وأبا عمران ، وأبا الناجية . قال ابن السمعاني : والقُمْرِيُّ مذسوب إلى القُمْرِ ، وهي بلدة تشبه الحصن لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمْرِيُّ طير صغير ، وعده في المحكم من الحمام . ويقال : إن الهوام تهرب من صوت القماري . قال القزويني : ومن خاصية القماري أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزوج إناثها ، والورشَانُ الذي هو ذكر القُمْرِيِّ يوصف بالحنن على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص . قال عطاء : وهو يقول في صباحه "لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنَاوُا لِلْقَرَابِ" . ومنه نوع أسود حجازي يقال له النوى ، شجى الصوت جداً .

ومنها الفَاخِخَةُ - بالفاء والحاء المعجمة والذاء المثناة والجمع الفواخيت بفتح الفاء وكسر الحاء : وهي طائر من ذوات الأطواق ، حجازية في قدر الحمام ، حسنة الصوت ، ويقال إن الحيات تهرب من صوتها . حتى يحكى أن الحيات كثرت بأرض ، فشكا أهلها ذلك إلى بعض الحكماء ، فأمرهم بنقل الفواخيت إليها فانقطعت الحيات عنها ، وفي طبعها الأفس بالناس ، وتعيش في الدور ، إلا أن العرب تسمها بالكذب فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب ، وهي تقول ذلك والنخل لم يُطْلَعِ بَعْدُ ، ولذلك تقول العرب في أمثالهم : "أَكْذَبُ مَنْ فَاخِخَتْهُ" .

ومنها الدَّبِيبِيُّ - بضم الدال ، وهو طائر صغير منسوب إلى دِبْسِ الرُّطَبِ - بكسر الدال ، وذلك أنهم يُعَبَّرُونَ في النسب فيقولون في النسبة إلى الدهر دُهَيْرِي ونحو ذلك ، وهو ضرب من الحمام . ثم هو أصناف : مصري ، و هجزي ، و عراقي ؛ وكلها متقاربة ، لكن أغربها المصري ، ولونه الدكنة ، وقيل هو ذكر الحمام . وفي طبع الدَّبِيبِيِّ أن لا يُرَى ساقطاً على وجه الأرض ، بل في الشئاء له مَشْتِي ، وفي الصيف له مَصِيفٌ ، لا يعرف له وَكْرٌ .

ومنها الشَّقِيئِيْنُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وتون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون : وهو الذي تسميه العاقبة بمصر الحمام ، وهو دون الحمام في المقدار ولونه الحرة مع كُودِيَّة ، وفي صوته ترجيع وتحزين . ومن شأنها أنها تحسن أصواتها إذا اختلطت . ومن طبعه أنه إذا قَعَّدَ أَشَاءَ ، لم يزل أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأثني إذا قَعَّدَتْ ذكراها ، وفيه ألفة للبيوت ، وعنده احتراس .

ومنها الدَّرَاجُ - بفتح الدال ، وكنيته أبو الجحاج وأبو خَطَّار : وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود ، على خِلْقَةِ القَطَا إلا أنه أطف . وهو يطلق على الذكر والأثني ، والملاحظ بعدد من جنس الحَمَامِ لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام ، والناس يُعَبَّرُونَ عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعم" . ويقال إنه طائر مبارك ، وهو كثير التاج ، يبشر بِقُدُومِ الرِّبيع ؛ وهو يصلح بهبوب الشمال ، وصفاء الهواء ؛ ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران .

ومنها العُصْفُورُ - بضم العين ، وحكى ابن رَشِيْقٍ في ذئاب الغرائب فتحها ، والأثني عُصْفُورَةٌ . وكنيته أبو الصَّفْوِي ، وأبو مُحْرَز ، وأبو مُرَاحِم ، وأبو يعقوب . قال حمزة :

(١) الذي في حياة الحيوان أنه بالكسراه .

(٢) في حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال ، الذي بالفتح فهو القنفذ .

سمى عصفورا لأنه عصى وفز، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدورى، ووكزه
 العُمران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهبت
 العصافير منها؛ وهو كثير السفاد حتى إنه ربما سفد في الساعة الواحدة مائة مرة،
 ولفرخه تذب على الطيران حتى إنه يدعى فيجب . قال الجاحظ : بلغني أنه
 يرجع من فرسخ .

ومنها الشَّحْرُورُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء المهملة ، وهو طائر أسود
 فويق العصفور له صوت شجي ، ويكون بأرض الشام كثيرا .

ومنها المَرَّارُ - بفتح الهاء والزاي المعجمة ، طائر نحو العصفور له صوت حسن
 ويسمى العنديل أيضا ويجمع على عَنَادِل .

ومنها البُلْبُلُ - بضم الموحدين وسكون اللام الأولى والثانية ، وهو طائر أسود
 فوق العصفور ، والمجرى منه فوق ذلك ، ويقال له النُّغْرُ - بضم النون وفتح الغين
 المعجمة وراء مهملة في الآخر، والكُعَيْتُ - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة
 فوقية في الآخر، والجُمَيْلُ - بضم الجيم ، وقد ثبت في الصحيحين من رواية أنس رضی
 الله عنه أنه قال : " كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقًا ، وكان
 لى أخٌ لأمي فطيمٌ يقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال :
 يا أبا عُمَيْر ، ما فعل النُّغَيْرُ ؟ لَنُغْرَ كان يلعب به " .

ومنها السَّائِي - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه ، وهو طائر معروف
 فوق العصفور ويجمع على سَائِيَات ؛ وهو من الطيور التي لا يعرف من أين تأتي .
 بل يأتي في البحر الملح يغوص بأحد جناحيه في الماء ويقبض الآخر كالقَلْع للسفينة

(١) قال في حياة الحيوان انه كسحون وكذلك ضبطه في القاموس بالضم .

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناصح .

تندفعه الريح حتى يأتي الساحل ، وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحسون - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها زقية ، وهو طائر فطن ، ويسميه الأندلسيون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ، وهو عصفور ذو ألوان : حمرة و صفرة و بياض و سواد و زرقة و خضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعلم أخذ الشيء كالقائس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها أبو برّاقش - بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلون ألوانا ، وبه يضرب المثل في التلون .

ومنها الزاغ - براى وغير معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر ، وقد يكون أحمر المنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغدأف - بضم الغين المعجمة وبالذال المهملة والفاء في آخره ، وهو غراب الغيط ويجمع على غدافان بكسر الغين ، قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدري : هو غراب صغير أسود لونه كلون الرماد ، وقد قال النووي في الروضة بتحريره وإن كان الراقى قد جزم بحله ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع - وهو غراب أسود المنقار ، وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثاني - ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس - ويجمع على طاويس ، وهو طائر في نحو مقدار الإوزة حسن

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب الغيط .

اللون ، والذكر منه غايَةٌ في الحُسْنِ ؛ له في رأسه ريش خضر قائمة كالشربوش ،
وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظرٍ ، وليس للأشئ شيء من ذلك ؛ وهو
في الطير كالفرس في الدواب عزا وحسنا ؛ وفي طبعه الزهو بنفسه والخيلاء والإعجاب
بريشه ، والأشئ منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفي هذا الحد يكمل ريش
الذكر ويتم لونه ، ويبضه مرة واحدة في السنة ، ويكون بيضه من أثنى عشرة
بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متابعا ، وسفاده في أيام الربيع ، وفي الخريف يُلقي
ريشه كما يُلقي الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو
كثير العبث بالأشئ إذا حَضَنْت وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحَضَّن بيضه تحت
الدجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْن أكثر من بيضتين منها ، وتُعاهد الدجاجة
بالطعمة والسقية وهي راقدة عليه ، كيلا تقوم عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضنه
الدجاجة يكون ناقص الحنة عما تحضنه أثناءه ، وليس له من الحسن والبهجة
ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيض كالفرخ كاسيا
بالريش يقطع الحب للحال .

ومنها السَّمْنَدُ - يفتح السين المهملة والميم وسكون النون ويفتح الدال المهملة
ولام في الآخر ، وقال الجوهري : السَّمْنَدُ بغير ميم . وقال ابن خَلَّكَانَ : السَّمْنَدُ
بغير لام ؛ وهو طائر يكون بأرض الصين والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه
حتى يقال إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها . ويتخذ من ريشه متاديل ونحوها
فإذا اندمخت ألقيت في النار فتأكل النار وسخها ولا لتأثره في نفسها . قال ابن
خَلَّكَانَ في ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على
هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فالقيت في النار فأثرت فيها فغمس أحد
جوانبها في الزيت وجعل في النار فأشعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادي أنه أهدي للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعة منه عرض ذراع في طول ذراعين ، فُنِيسَتْ في الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى قُتِيَ الزيت ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالغلب وإن ذلك يعمل من وِبرِهِ .

ومنها البيغاء - بيامين مفتوحين الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغير معجمة بعدها ثم ألف ب ، وهو المعبر عنه بالذرة بدال مهمله مضمومة ، وقال ابن السمعاني في الأتساب : هي باسكان الباء الثانية ، وهي طائر أخضر اللون في قدير الحمام يحاكي ما يسمعه من اللفظ ؛ ثم هي على ضريين : هِنْدِيٌّ وهي أكبر جثة ومنقارها أحمر ، وتُؤبِي وهي أدونها ومنقارها أسود ، ويقال : إن منها نوعا أبيض ، ويذكر أنه أهدي لمعز الدولة ابن بويه بيغاء بيضاء اللون سوداء المنقار والرجلين ، على رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ ؛ وهي طائر دميث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوة على حكاية الأصوات وقبول التلقين ، يُتخذُه الملوك والأكابريتهم بما يسمع . ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناوله الإنسان بيده ؛ والهندي منه أقرب إلى التعليم من النوبي .

ومنها أبو زُرِّيقي - بزاي مضمومة ثم راء مهمله وفي آخره قاف ، ويقال له الفيق بكسر القاف والزُرِّيَابُ بزاي معجمة مكسورة ثم راء مهمله ساكنة ثم ياء مشناة تحت وبعد الألف ياء موحدة ؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم ، سريع الإدراك لما يعلم . وقد يزيد على البيغاء إذا أنجب ؛ بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان ، بخلاف البيغاء فإنها لا تُفصِحُ كلَّ الإفصاح .

ومن غريب ما يحكي في أمره ما حكاه صاحب "منطق الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعه أربعائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد في طريقه عتة من فراخه

فاشترها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلقها في أقفاص في حانوته ، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلها إلا واحدا كان أضعفها وأصغرها فنقل ذلك عليه وبات ليلة تلك ينتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادي بأغيات المستغيثين أغثنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح : ياغيات المستغيثين أغثنى ، فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته فأجتازت جارية للخليفة فأشترته منه بألف درهم .

ومنها الهددُ - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما ، وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وألوان ، ويجمع على هدأهدب ، ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج ، قوة ركبها الله تعالى فيه ، ولذلك عني به سليمان عليه السلام مع صغره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" ، ويقال : إنه كان دليلا لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التنزيل . وقد ذكر الزمخشري أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هُدُهدا آخر ، فحكى له عظيم ملك سليمان ، فحكى له ذلك الهددُ عظيمُ ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العصر ، فلما عاد إليه توعده فأرعى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدي الله ! فأرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخَطَّافُ - بضم الخاء المعجمة ويجمع على خَطَّاطِيفَ ، وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعرض عن أقواتهم ويقتات البعوض والمدباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أقاصيص بينها من الطين ، ويتخذ منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة التمل أن سبب قرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخطاطيف والزمه البيوت فهو لا يفارق بن آدم أسلما ، والخطافش يعاديه

فذلك إذا أفرخ جعل في عُنْثِه قُضْبَانُ الكَرَفِيسِ لِيَسْفُرَ الحُقَافِشَ عنها .

ومن عادته أنه لا يُفْرِخُ في عُنْثِ عَتِيقٍ حَتَّى يُطَبِّئَهُ بَطِينٍ جَدِيدٍ، ولا يلقى شيئاً من ذَرَقِه في عُنْثِه بل يلقيه إلى ما شاء ، وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد في عُنْثِه حَجْرُ اليرْقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على من به اليرْقَانُ أو شرب من سُحَالَتِه بَرِيءٌ، وإنما يأتي بهذا الحجر إذا أصاب فِرَاخَه اليرْقَانُ، ولذلك يحتال بعضُ الناس بِلَطْخِ فِرَاخِه بِالزَعْفَرَانِ لِيُظَنَّ أَنَّ اليرْقَانُ قد أصابها فيأتي إليها بهذا الحجر فيؤخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر أَلْطَفُ قَدْرًا من هذا، يَسْكُنُ شَطُوطَ الأَنْهَارِ وَجَوَانِبَ المِيَاهِ، وَعَدْوًا من أنواعه أيضا الذي يسميه أهل مصر الخُضَيْرِيَّ، وهو طائر أخضر دون البَيْغَاءِ في المقدار لا يزال طائراً وهو يصيح ، يقات القَرَّاشَ والذباب .

ومنها الصُّرْدُ - بضم الصاد وفتح المزملة ودال مهملة في الآخر، ويجمع على صُرْدَانٍ . قال ابن قتيبة : سمي صُرْدًا ، حكاية لصوته ، ويسمى الواق بكسر القاف ، وكنيته أبو كثير ، وهو طائر فوق العصفور . نصفه أبيض ونصفه أسود ، ضخ الرأس ، ضخ المنقار والبرائن ، لا يرى إلا في شَعْفَةِ أو شَجَرَةٍ بحيث لا يتقدر عليه أحد ، وله صَفيرٌ مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما في معناها . فيصفر لكل طير يريد صيده بلغته ، يدعو إلى التقرب منه فيأكله ، والعرب تشاءم به وتفر من صياحه ، وهو مما وردت الذريعة بالنهي عن قتله .

ومنها العَقْمُقُ - بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه القَعْمَقُ على القلب ، قال الجاحظ : سمي بذلك لأنه يعق فراخه فيتركهم أيما بلا طعم . ويقال لصوته العَقْمَعَةُ : وهو طائر على قدر الحمامة في شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة ، ذولونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب . ومن شأنه أنه

لا يأوى تحت سقف ولا يستظل به ، بل يهتج وتكره في المواضع المشرفة ، وفي طبعه الزنا والخيانة ، ويوصف بالسرقة والخبث ، وإذا رأى حلياً أو عقداً ، اختطفه ، والمغرب تضرب به المثل في جميع ذلك . وإذا باضت الأثني منه أخفت بيضها بورق الذهب خوفاً عليه من الخفاش ، فإنه متى قُرب من البيض مذبذب وتغير من ساعته . ويقال إنه يخبأ قوته كما يخبئ الإنسان والثمالة إلا أنه ينسى ما يخبئه ، وبعضهم يعتد في جملة الثريان ، وفيه وجه عندنا بحل أكله .

ومنها الشُّقْرَاقُ - بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية ، ويجوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا الشُّرَّاق - ويسمى الأخيَل أيضاً ، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشَبَّع الخضرة ، حسن المنظر في أجنحته سواد ، والعرب تشاءم به . وفي طبعه الشره حتى إنه يسرق فراخ غيره وعده الجاحظ نوعاً من الثريان ، ويكثر ببلاد الشام والروم وخراسان . ولا يزال متباعداً من الإنس ، يألف الروابي ورؤوس الجبال ، إلا أنه يَحْمُضُ بيضه في عوانى العُمران التي لا تتألف الأيدي . وعُشُّه شديد البُذيان . وله مَشْتَى ومَصِيف ، قال الجاحظ : وهو كثير الاستغاثة ، إذا مرَّ به طائر ضربه يحنأحه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه يحل أكله .

ومنها الثُّرَابُ الأَبْقَع - قال الجوهري : وهو الذي فيه بياض وسواد ، ويسمى غراب الدين أيضاً ، قال صاحب "المجالسة" سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع . قال ابن قتيبة : وجعل فلسفاً لأجل ذلك ، ويسمى الأعور ، إما لأنه يُفْمِضُ إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد . ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تشاءم به وتكره صوته . وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الأستار عند السّفاد وأنه يَسْفِدُهَا ومواجهة مُلْقاة على ظهرها ،
والأشئ تبيض أربع بيضات ونحسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نقر عنها
الأبوان لبشاعة مَنْظَرِهَا حينئذ فتختدى من البعوض والذباب الكائن في عَشْهَا حتى
ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلى الأثنى الحُضْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطعم ،
وفيه حدّر شديد وتناصّر، حتى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا آتجمع إليه عدّة
من الغُربان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير - وهو الجَلْبِيّ ، وفيه وجه بجله .

ومنها الحِدَاةُ - بكسر الحاء والمهمز الطائر المعروف ويجمع على حِدَاٍ وحِدَاٍن .
ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهي لا تصيد بل تخطف . ومن طبعها أنها تصفّ
في الطيران وليس ذلك لشيء ، من الكواسر غيرها ، وزعم ابن وحشية وابن زهر أن
الحِدَاةُ والعُقَابَ يتبدلان فتصير الحِدَاةُ عُقَابَا والعُقَابُ حِدَاةً . وربما قيل الغراب
بدل العُقَابِ ، ويقال : إنها تصير سنةً ذكرا وسنةً أنثى ، ويقال : إنها أحسن الطير
بجاورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لاتعدو على فرخ جارتها . وفي طبعها
أنها إنما تخطف ممن تخطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال إنها عسراء ؛
وقد ثبت في الصحيحين حل قتلها في الحل والحرم .

ومنها الرِّبْحَةُ - بفتح الراء المهملة والخاء المعجمة ، وكنيتها أم جِعران ، وأم رسالة
وأم عَجِيبة ، وأم قَبَس ، وأم كثير . ويقال لها الأَنْوُقُ بفتح الهمزة ؛ وهي طائر أبيض بياض
وسواد فوق الحِدَاةِ في المقدار تأكل الحَيْفَ ، وهي معدودة في بُعَاثِ الطير ، وهي
تسكن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

(١) الذي في حياة الحيوان "أم كبير" .

بيضه فيقولون : "أَعْرُ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ" والأُنثَى لا تمكن من نفسها غير ذكرها
وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البومة - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأنثى : وهو طائر من طير
الليل في قدر الإوزة ، لها وجه مستدير بالريش الثابت حوله ، يشبه وجه الأدمى
في صفرة عينين وتوقدهما ، ويقال للذكر منها الصدى والصُوع - بضم الصاد
المعجمة - والقياد - بالفاء وتشديد المشاة تحت ، ويقال للأنثى الهامة . وكنية الأنثى
أم الخراب ، وأم الصبيان ؛ ولها في الليل قوة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛
تدخل على كل طائر في وكره في الليل فتخرجه منه وتأكل فراخه وبيضه ، ولا تنام
الليل ؛ والطيور يجتهد بإعادتها من أجل ذلك ، فإذا رأوها في النهار قتلوها وتفقروا ريشها ،
ومن ثم يجعلها الصيادون في شباكهم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر
بالنهار لذلك . ونقل المسعودي في مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من
ظهورها في النهار خوفاً من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصور في نفسها
أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشي في "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مروان
أرق ليلة فاستدعى سميراً يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان
بالبصرة بومة وبالموصل بومة فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لأبنا -
فقاتلت بومة البصرة : لا أفعل حتى تجعلى في صداقها مائة ضيعة خراب - فقالت بومة
الموصل : لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة
فعلت ، فاستيقظ لها وجلس للظالم .

(١) عبارة حياة المهران فإذا رآها الطير . . . تظنها وتبغض وهي أصوب .

ومنها البُوءة - بضم الباء وفتح الهمزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب نحوه ، ويقال له البُوهة أيضا ، وهي من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التي يسميها الناس في زماننا المصاصة ويعمون أنها تنزل على الأطفال فتمصُّ أُنوفهم .

ومنها الخُفَّاش - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خُفَّاشٍ - وهو طائر غريب الشكل والوصف لاريش عليه ، وأجنحته جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صفة يجنحه ، وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، وبه سمي الرجل أخفش ، والعامة تسميه الوطواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوطواط الكبير . ويقال إن الوطواط هو الخُفَّاش لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير في شيء ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويبيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويبول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرضع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهارا آتمس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هيجان البعوض فالبعوض يخرج في ذلك الوقت يطالب قُوته من دماء الحيوان ، والخُفَّاش يخرج لطلب العُلم فيقع طالبُ رزق على طالبِ رِزق ؛ ويقال إنه هو الذي خافه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله ، قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبيئا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبغضة له وتسطو عليه ؛ فما كان منها يأكل العُلم أكله ، وما كان منها لا يأكل العُلم قتله ؛ وهو شديد الطيران ، سريع التقلب ، يفتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ؛ وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْرِ وتلد الأثني ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يتفقد وهو طائر في الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهزه أحد من اللغويين بل ذكره في باب الماء ، وندرس في الصحاح بالواو وكذا في التاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حنواً عليه، وربما أرضعت
الأنثى ولدها وهي طائرة، وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدلب خدر ولم يطرب،
وقد ورد النهي عن قتله .

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه
في نظمه ونثره كما في قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحظتكَ عيونُها، نَمَّ ، فَالتَّخَوُّفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ
وَأَصْطَفَتْهَا العنقاءُ فهي جِبَانُ ، وَأَقْتَدَتْهَا الجَوْزَاءُ فهي عَنَانُ

إشارة إلى عظم العنقاء وعدم القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما
في قول أبي الفتح كُناجِم، مخاطباً لولده يطلب البر منه :

اتَّخِذْ فِي خَلَّةِ فِي الكَرَاكِي . اتَّخِذْ فِيكَ خَلَّةَ الوَطْوَاطِ
أنا إن لم تَبْرِيَّ في عَنَاءِ فَبِرِّي تَرْجُو جَوَّازَ السَّرَاطِ

يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي بر والديه إذا كبراً، كما أن في طبع
الوطواط بر أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه، وكما في قول الشاعر :

مثل النهار يزيدُ إِبْصَارَ الوَرَى تَوْرًا ، وَيُعْنِي أَعْيُنَ الخُنَّاسِ

إشارة إلى أن الخنقاس لا يبصرُ نهاراً، بخلاف سائر أرباب الأَبْصَارِ، وكما قيل
في وصف شارِد عن القتال :

وَهُمْ تَرْكُوهُ أُسْلِحَ مِنْ حُبَارَى ، رَأَى صَقْرًا ، وَأَشْرَدَ مِنْ نَعَامِ

يريد ما تقدم مما يعرضُ للخباري من إرسالها سألحها على الجوارح عند اقتناصه
لها، وأن النعام في غاية ما يكون في البرية من الشراد والتفار، ونحو ذلك مما
يجري هذا المجرى .

(١) ورد هذا البيت في حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك رأيت

الصف الرابع

(الحمام)

وقد اختلف في الحمام في أصل اللفظة فنقل الازهرى عن الشافعى رضى الله عنه أن الحمام يطلق على كل ماعب وهدر وإن تفرقت أسماءه، فيدخل فيه الحمام، واليمام، والدبابسى، والقمارى، والقواخت وغيرها، وذهب الأصمعى إلى أن الحمام يطلق على كل ذات طوق كالفواخت والقارى وأشباهاها . ونقل أبو عبيد عن الكسائى سمعا منه أن الحمام هو الذى لا يألف البيوت، وأن الحمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمام هذا النوع المخصوص المعروف .
ثم هو على قسمين .

أحدهما ما ليس له أهتداءً في الطيران من المسافة البعيدة . والثانى ماله أهتداء، ويعرف بالحمام الهدى وهو المراد هنا ، وقد اعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث، وأهتم بأمره الخلفاء : كالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس، والواقى، والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لاسيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في أقنائه، وطجوا بذكره، وبالغوا في أمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار، ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار، وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا، وإنه كان عندهم دفاتر بأنسب الحمام كأنساب العرب، وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبار عنها، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى يكار بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان في فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض، بجادات لهم مع نقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر لا يروون بذلك بأسا .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ - يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية - من الموصيل وأن أول من آعتنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آعتنى بعض المصنفين بأمره ، حتى صنف فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي ، كتابا للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ، وريشه ، والوشوم التي توشم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعض المسافات التي أرسلت منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري مجرى ذلك . وذكر في "التعريف" أن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمام الحمام" ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأول

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القواس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة .

اللون الأول البياض - ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة ؛ فإن كان الغالب في شُقرته البياض ، قيل فضي ، فإن زاد ، قيل أشقر .
اللون الثاني الخضرة - إن كانت خضته مُشعبة إلى السواد ، قيل أخضر مستي ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل تقي الخضرة ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل صافي الخضرة ؛ فإن تكثرت خضته بأن لم يكن صافي الخضرة ، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرَة - وهي عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافياً، قيل أصفر قرطاسي .

اللون الرابع الحمرة - إذا كان شديد الحمرة، قيل عُنَّابِيٌّ، فإن كان دون ذلك، قيل نَعْمَرِيٌّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقِيٌّ، فإن كانت حُمْرته تضرب إلى الخضرة، قيل أَكْفَأُ، فإن كانت حمرته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صدقي .

اللون الخامس السواد - إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبِقٌ، فإن كان لون سواده ناقصاً، قيل أسود أَخْلَسٌ، فإن كان سواده يضرب إلى الخضرة، قيل أسود رَمَادِيٌّ، فإن كان في سواده مائية، قيل أسود بَرَّاقِيٌّ، فإن كان سقاءه أيضاً أسودين، قيل أسود حالك وأسود زنجي .

اللون السادس النَمْرِيٌّ - وهو أن يكون في الطائر نقط يخالف بعضها بعضاً، ويختلف الحال فيه باختلاف كبر النقط وصغرها، فتارة يقل مدتر، وتارة يقال مَمَّعٌ، وتارة يقال أبرش، وتارة يقال مُوشَّحٌ، وتارة يقال أَبْقَعٌ، وتارة يقال أَبْلَقُ، وتارة يقال دَبَّاسِيٌّ، وتارة يقال مُدَّرِعٌ إلى غير ذلك مما لا يستوفى كثرة . ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة، قيل فقيع، فإن كان أصفر العين، قيل أصفر زنجي، فإن كان أبيض العنق، قيل هلالى، وهو أحسنها، والأصفر العين بعده، فإن كانت العين بيضاء، وفيها حمرة، قيل رُمَانِيٌّ العين .

الامر الثاني

(في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، في كل جناح منهما عشر ريشات، الأولى منها - وهي التي في طرف الجناح - تسمى الصمة، والثانية وهي التي بعدها تسمى

المُضَافَةُ الرَّئِيسِيَّةُ ، وَالثَّالِثَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْوَاسِطِيَّةُ ، وَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُضَافَةُ ، وَالخَامِسَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُنْطَفَةُ ، وَالسَّادِسَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُتَجَدِّدَةُ ، وَالسَّابِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى النَّاقِصَةُ ، وَالثَّامِنَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُؤَنَسَةُ ، وَالتَّاسِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الزَّائِلَةُ ، وَالْعَاشِرَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُعَيَّنَةُ .

وَبَعْضُهُمْ يَسْمَى الْأَوَّلَى الصَّغِيرَةَ ، وَالثَّانِيَةَ الرَّقِيقَةَ ، وَالثَّالِثَةَ الْمُوقِيَّةَ ، وَالرَّابِعَةَ الْبَاحِلَةَ ، وَالخَامِسَةَ الْحَيْرَةَ ، وَالسَّادِسَةَ الصَّرَافَةَ ، وَالسَّابِعَةَ مَسْكَةَ الرَّمِيِّ ، وَالثَّامِنَةَ وَالتَّاسِعَةَ الْحَافِظَتَيْنِ ، وَالْعَاشِرَةَ الْمَلِكَةَ .

وَرَبْمَا كَانَ فِي كُلِّ جَنَاحٍ إِحْدَى عَشْرَةَ رِيشَةً فَيَسْمَى الطَّائِرُ حَيْثُ نَذَّ أَعْلَمُ .
وَلِهَذِهِ الرِّيشَاتُ الْعَشْرُ عَشْرُ رِيشَاتٍ مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا رَادِفَةٌ : وَهِيَ الرِّيشُ الصَّغَارُ الَّتِي تَغْطِي قِصَبَ الْجَنَاحِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنْ هَذِهِ الرِّيشَاتِ الْعَشْرِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ تَغْطِي قِصَبَتَهَا ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَسْمٌ يَخْصُهَا .

وَمِنْ رِيشِ الْجَنَاحِ أَيْضًا الْخَوَافِي ، وَهِيَ الرِّيشُ الْمَسْطَرُّ مَعَ الْعَشْرِ رِيشَاتِ الطَّوَالِ الْمُنْقَلَبُ بِرُؤُوسِهِ إِلَى مُؤَخَّرِ الْجَنَاحِ ، وَهِيَ تَسْعُ رِيشَاتُ الْأَوَّلَى مِنْهَا تُسَمَّى الْحَدِيقَةُ ، وَالثَّانِيَةُ الرَّئِمَةُ ، وَالثَّالِثَةُ الْغَرَّةُ ، وَالرَّابِعَةُ الْحِزْ ، وَالخَامِسَةُ الْجَائِزَةُ ، وَالسَّادِسَةُ الْمَسَامَةُ ، وَالسَّابِعَةُ الْمَلَاذِمَةُ ، وَالثَّامِنَةُ الشَّعْتَةُ ، وَالتَّاسِعَةُ اللَّامِعَةُ . وَبَعْضُهُمْ يَسْمَى الْأَوَّلَى بِنْتُ الْمَلِكَةِ ، وَالثَّانِيَةَ الْإِرْبَةَ ، وَالثَّالِثَةَ الْمَقْشَعْرَةَ ، وَالرَّابِعَةَ الصَّافِيَّةَ ، وَالخَامِسَةَ الْمُصْفِيَّةَ ، وَالسَّادِسَةَ الْمُصْفَرَّةَ ، وَالسَّابِعَةَ الزَّرْقَاءَ ، وَالثَّامِنَةَ السُّودَاءَ ، وَالتَّاسِعَةَ الْمَزْرُوقَةَ . وَعَدَّ فِيهَا عَاشِرَةً تُسَمَّى الْمُخْضِرَّةُ - وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنَ الرِّيشَاتِ التَّسْعِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ تَغْطِي قِصَبَتَهَا لَهَا أَسْمٌ يَخْصُهَا أَيْضًا .

وَبَعْدَ الْخَوَافِي الْغَفَارُ ، وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنَ الْغِفَارِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ بَاطِنِهَا تَغْطِي قِصَبَتَهَا .

ومن ريش الجناحين المَقْوَمَات : وهي ثلاث ريشات في طَرْف الجناح ، تسمى الروائد . ومن فوقها ثلاث ريشات صغار تغطي قصبتها ، تسمى القواشي ، وأصلها مع أصل أيضا .

وأما الذنب ، فالعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها الغزالة ، والثانية العروس ، والثالثة الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثالث

(التفرق بين الذكر والأنثى)

وقد ذكروا بينهما فروقا ، منها أن الأنثى إذا شمست . قدّمت الرجل اليسرى ، والذكر يقدم الرجل اليمنى . ومنها أن يرى الذكر مقتدرا في الأرض مستشيطا ، والأنثى بالضد من ذلك ، ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواء من الأنثى . ومنها أن مدّج الذكر يكون عريضا ومدّج الأنثى دقيقا ، ومنها أن يكون وجه الذكر عريض الخلد والأنثى بالضد من ذلك ، ومنها أن الأنثى إذا طارت فتحت جناحها والذكر إذا طار أخرج عثريه .

الأمر الرابع

(في بيان صفة الطائر الفاره)

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعبا ، وعينه معتدلة ، غير فائتة ولا غائرة ، ولا فائرة ، ولا قلقة مزعجة ، وأن يكون منقاره غليظا قصيرا ، وأن يكون وسط المخجرين ، مكلمم القرطميين ، أهرت الشدقين ، واسع الصدر ، نقي الريش ،

(١) لعله مع أصل الروائد أيضا كما يفيد المقام تأمل .

طويل الفخذين ، قصير الساقين ، غليظ الأصابع ، شثن البراش ، طويل القوائم من غير إفراط .

ويستحب فيه قصر الذنب ، ودفننه ، واجتماع ريشه من غير تفرق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القصير أقرب ؛ وأن يكون جوجه : وهو جانب الصدر طويلا ممتدا ، وعنقه طويلا منتصبا ، وريش قوائمه وخوافيه مينا متطابعا بعضه مع بعض من غير تفرق ولا تمعط ، وأن يكون شديد اللحم ، وكثرة غير رخو ولا رهيل . ويستحب فيه أيضا أن يكون قليل الرعدة عند الفرع ، سريع التقط للحب ، خفيف الحركة والنهوض ، والنزول من غير طيش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مسطحا لا أحذب ولا أوقص ، ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدره ، ويرفع عنقه ، ويفتح ما بين نخديه شبه البازي .

ومن علامة فراخته أنه إذا طال عليه الطيران وأراد النزول على سطحه أن لا ينزل رجله حتى يقع صدره على سطحه لأنه إذا دل ساقه ، كان عيا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدى جميع ما عنده من القوة والطاقة ، ويكره فيه دقة المفريز ، وطول الذنب . وتفرق الريش .

الأمر الخامس

(الفراسة في الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره أن يكون حديد النظر ، شديدة الحذر ، خفيفة اللحم ، قليل الريش ، سريع النهضة ، كثير التلفت في الجوف ، ممتد العظم ، مستويا ، لطيف الذنب ، خارج العنق ، قصير الساقين ، طويل الفخذين ، محجلا ،

(١) لعل الجار ويجروره من زيادة الناصح .

مذيل المتقار، مدور القراطيم، مضاعف المحاجر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصا على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردها طرد الكلاب، ولا يتناول غيلة الذئب، قليل الذرق، كثير الدهن، مُدبلا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعض هذه الخصال، كانت فراهته على قدر ما فيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب: ومن علامة شهامة الفرح أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه، وكلما جمعته لتضمه تحتها، خرج من تحتها ويعتلق للفروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلحا، وريش جسده وجناحه مستطيلا عند نبعه من جسده، وأن يطول ريشه حتى يغطي ظهره ولا ينتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جوج الصدر إلى مغزاه أقصر من بطنه إلى رأس برائته.

وفي الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض، ورأس متقاره وأصله سواء، لاتحديد في رأسه، عريض القراطيم، غليظ الشدين، منتشر المنخرين، جهوري الصوت، غائر العين، قال أبو الحسن القواس: ولا تكون هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللاتيين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثاني، وأذار، ونيسان، وإيار، فإذا وقع الإفراخ في شيء من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، نجباء، أذكاء، ونهوا عن الإفراخ في كانون الأول، وكانون الثاني، وشباط، وآب، وتموز، وحريران، فإن الذي يُفرخ فيه لا يزال ناقص البدن، قليل الفطنة، يلقى ريشه في السنة مرتين فيضعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليم الهندى أن أولى ما أفرخ الحمام بالسطوح ،
 وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيبقى خشونة الهواء وحراً الموضع فيصير له عادة
 ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالرق والعاث فيعرف السطح
 حق المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصمود والمهبط ، وربما أخذهما إلى الرعى
 بالصحراء فلا يكمل حتى يصير شهما عارفا بأهوار الطيران ، بخلاف ما إذا أفرخ
 بالسفل فإنه يتربى جسده على برودة النىء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقى إلى السطح
 لقيه خشونة الهواء وقوة الحر ، فيحدث له الحر الجاهد بفؤاده الكجاذ والدق .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقدم أن طائرا طار من الخليج الفسطنطينى إلى البصرة ، وأن الحمام كان
 يرسل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحل وجنى
 النحل" أن العزيز نأبى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه
 رأى القراصية العلبكية ، وأنه يجب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر ومصر
 حمام من الشام ، فكتب الوزير بطاقة بأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام
 المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية العلبكية وترسل ففعل ذلك فلم
 يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر
 أيضا فى كتابه "المغرب فى أخبار المغرب" أن الوزير البازورى المغربى وزير
 المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من إفريقية من بلاد المغرب إلى
 مصر لخاصة مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام أن حماما طار من عبادان إلى الكوفة ، وأن حماما طار من الترانوذ إلى الأبله ونحو ذلك ، وسيأتي الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

(ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطة الملوك فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنفيس منها وخواصها لأنه ربما جرى ذكر شيء من ذلك بحضور ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلو مقداره ، وهذا هو الذي عول عليه صاحب "مواد البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك . والثاني أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التي هي عمود البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يحسن التعبير عنها ، ألا ترى إلى تشبيهات ابن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقع في نهاية الحسنة ، وغاية الكمال لمعرفة بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبر كالمعاينة" وقد آعتنى الناس بالتصنيف في الأحجار في القديم والحديث .

فمن صنف فيه في القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، وياقوس الإنطاكي .

ومن صنف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبي خالد المعروف بابن الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكندي وغيرهما . وأحسن مصنف فيه مصنف أبي العباس أحمد بن يوسف الثيفاشي .

والذي يتعلق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفا .

الصنف الأول

(اللؤلؤ)

وهو يتكوّن في باطن الصّدْف ، وهو حيوانٌ من حيوان البحر الملح له جلد عظيمٌ كاللؤلؤ ، ويغوص عليه الغوّاصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويصعدون به فيستخرجونه منه . وله مفاصات كثيرة ، إلا أن مظانّ النفيس منه بسرّنديب من الهند ، وبكيش ، وعمّان ، والبحرين من أرض فارس ، وأنقره أولو جزيرة خارّك ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القلزم وسائر بحار الحجاز فرديء ولو كانت الذرة منه في نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل بمن . وجيد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد البياض ، الكبير الحجم ، الكثير الوزن ، المستدير الشكل ، الذي لا تضرب فيه ، ولا تفرطح . ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة تفرطح ، أو أعوجاج ، أو يلقى بها قشر أو دودة ، أو تكون مجوفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعاً .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع في الذرة أوصاف الجودة ، فما زاد على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى دزاً . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سميت حبة لؤلؤ ، وإذا كانت زتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّى حبة أيضاً ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجودة فيها ، وتسمّى الحبة المستديرة الشكل عند الجوهريين الفارة ، وفي عرف العامة المدخرجة . ومن طبع الجواهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقة على طبقة حتى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلق بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سحق وسق مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتى يصير ماء رَجَاجًا ثم طَلَّى به البرص أذهب به ، وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحبّة مشلا أو وحبّتان مع اجتماع شرائط الجُودة فيها سبعمائة دينار ، فإن كان اثنتان على هذه الصفة كانت قيمتهما ألّفى دينار كل واحدة ألف دينار لآتفاقهما في النظم ، والتي زنتها مثقال وهي بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتها مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لا تفرق بينهما في الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار . وقد ذكر ابن الطور في تاريخ الدولة الفاطمية أنه كان عند خلفائهم قُرة تسمى اليديمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ما سيأتى ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويُضَرُّه جميع الأدهان ، والمُحوصات بأسرها لاسيما الليمون ، ووجه النار ، والعرق ، ودَقَر الرائحة ، والأحتكاك بالأشياء الناشئة ؛ ويحلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُسِجَّ عليه به قَشْره ونَقَصَ وزنه ، فإن كانت صفوته من أصل تكونه في البحر فلا سبيل إلى جلاؤها .

الصنف الثاني

(الباقوت)

قال بلينوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصي يتكون بجزيرة خلف سرنديب من بلاد الهند نحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرَّاهون تُجْدِر منه الرياح والسيولُ الباقوت فيلتقط ، والباقوت حصاؤه . وهو الجبل الذي أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام ، فإذا لم تُجْدِر السيولُ منه

شيئا، عمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فذبحوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كباراً وتركوه في سفع ذلك الجبل فيختطفه سُور تأوى إلى ذلك الجبل فتصعد بالعم إلى أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذ النور وتنزل به إلى أسفل فيسقط منه ماءً به من الياقوت، فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه على أى لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب .

الضرب الأول الأحمر - ومنه البهرمان . ولونه كلون العصفور الشديد الحرة الناصع في القوة الذى لا يشوب حرمة شائبة، ويسمى الرمانى؛ لمشابهته حب الرمان الرائق الحب، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمناً .

ومنه الخيرى : وهو شبيه بلون الخيرى : وهو المشور، ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوردى : وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردى الذى يضرب إلى البياض، والسماقى الذى يضرب إلى السواد .
الضرب الثانى الأصفر - وأعلاه الجلتارى، وهو أشده صفرة، وأكثره شعاعاً ومائيةً، ودونه الخلقى، وهو أقل صفرةً منه، ودونه الرقيق. وهو قليل الصفرة كثير الماء، ساطع الشعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلى البياض .

الضرب الثالث الأبيض - ومنه المهائى : وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً، ومنه الذكر : وهو أنقل من المهائى وأقل شعاعاً وأصلب حجراً، وهو أدون أصناف

الياقوت وأقلها ثمنًا . وأجود الياقوت الأحمر الهرماني والروماني والوردى النير المشرق اللون الشفاف ، الذي يتفذه البصر بسرعة ، ويعيوبه الشعرة : وهي شبه تشقيق يرى فيه ، والشوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شيء من ترابية المعدن .

ومن أردنا صفاته فبح الشكل .

ومن خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها الماس ، وليس يقطعه هو على أي لون كان غير الماس .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينجك على خشب العُسر الذي تجلي به جميع الأحجار ، بل طريق جلانه أن يكسر الخزع اليمني ويحرق حتى يصير كالتورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الغراء ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينجلي ويصير من أشد الجواهر صقالةً .

ومن خواصه أنه ليس لشيء من الأحجار المشقة شعاع مثله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له في المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة ، وإذا خرج من النار بردًا بسرعة حتى إن الإنسان يضعه في فيه عقب إخراجها من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمره فإنها تقوى بالنار ، بل إذا كان في الفص نكته حمراء ، فإنها تبيض بالنار وتنسبط في الحجر . بخلاف النكته السوداء فيه ، فإنها تنقص بالنار فما ذهب حمرته بالنار فليس بياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافع ما ذكره أراطاط ليس ، أن التحتم به يمنع صاحبه أن يصبه الطاعون إذا ظهر في بلد هو فيه ، وأنه يعظم لآبسه في عيون الناس ، ويسهل عليه

قضاء الحوائج، وتيسر له أسباب المعاش، ويقوى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع على من تحم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وأمتحانه أن يُحكَّ به ما يشبه من الأحجار، فإنه يجرحها بأسرها ولا تؤثر فيهِ . قال النيفاسي : وقيمة الأحمر الخالص على ماجرى عليه العُرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم، كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص، والحجر الذي زنته درهم قيمته ستة عشر ديناراً، والحجر الذي زنته مثقال قيمته بدينارين القيراط، والحجر الذي زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنائير القيراط إلى ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر حرمه حتى ربما بلغ ما زنته مثقال من جوده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرماناً نهائياً في الصَّبغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثير من حرمه ؛ وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين ؛ وقيمة الأزرق والمساهاني كل درهم بأربعة دنائير ؛ وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص في الصَّبغ والمائية مع القرب من المعدن والبعد عنه ؛ وقد ذكر ابن الطوير في ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجر ياقوت أحمر في صورة هلال زنته أحد عشر مثقالاً يُعرف بالخافر، يجعل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدرّة المتقدمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَّخُسُ)

قال في مسالك الأبصار : ويسمى اللَّعَلُّ . قال بلينوس : وأتقاده في الأصل ليكون ياقوتاً إلا أنه أبعد عن الياقوتية علل من البهس والرطوبة وغيرها، وكذلك سائر الأحجار الحمر، ومعدن البَلَّخُسُ الذي يتكون فيه بنواحي بَلَّخَسَان، والمعجم

تقول : بَدَخْشَانُ بذال معجمة وهي من بلاد الترك بتاخم الصين . قال التيفاشي :
وأخبرني من رأى مَعْدَنَهُ من التَّجَارِ أَنَّهُ وجد منه في المعدن حجرا وفي باطنه ما لم
يكل طبخه وأنعقاده بعد ، والحجر يجمع عليه ، وهو على ثلاثة أضرب : أحمر معقرب^{وهو}
وأخضر زَبْرَجِدِيٌّ ، وأصفر ، والأحمر أجوده . قال التيفاشي : وليس لجميعه شيء من
خواص الياقوت ومنافعه ، وإنما فضيلته تشبهه به في الصَّبِغِ والمائية والشعاع
لا غير . قال : وقيمته في الحملة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد ، قال
في مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِهِ إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد
لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عزم وجوده ، وعَلَّتْ قيمته ، وكثر طلبه ،
والتفتت الأعناق إلى التحلي به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلَّخَشِ
قطعة وصلت مع تاجر في أيام العادل كتبنا وأحضرت إليه وهو يدْمَشَقُ ، وكانت
قطعة جليدة مثلثة على هيئة المُشِطِ العُودِيِّ . وهي في نهاية الحسن وغاية الجُودَةِ ،
زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضِيءُ منها ، فأحضر الصاحبُ نَجْمَ الدين الحنفيَّ
الجوهريَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجم الدين الجوهريُّ : إنما يعرف قيمتها من
رأى مثلها ، وأنا أنت والسلطان ومن حضر لم ير مثلها فكيف يعرف قيمتها ؟
فأجَبَ بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع

(عين الهِر)

قال التيفاشي : وهو في معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتضرة به أهدته عن
الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد في مَعْدِنِ الياقوت المتفتم ذكره ، وتخرجه الرياح

(١) في ياقوت أنها في أعلى طغارتان مناعة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخرجُ الباقوتَ على ما تقدّم ، قال : ولم أجدّه في كتب الأحجار ، وكأنّه مُحدّثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب على لونه البياض بإسراق عظيم ومائية رقيقة شفافة ، إلا أنه ترى في باطنه نُكّنة على قدر ناظر المرّ الحامل للنور المتحرك في فصّ مقلته وعلى لونه : على السواد ، وإذا تحرك الفصّ إلى جهة ، تحركت تلك النكّنة بخلاف جهته . فإن مال إلى جهة اليمين ، مالت النكّنة إلى جهة اليسار وبالعكس ، وكذلك الأعلى والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء ، ظهرت تلك النكّنة في كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمّى عين المرّ .

وأجوده ما أشدّ بياض أبيضه وشفيفه ، وكثرت مائية النكّنة التي فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها وإسراقها ، ولا يخفى أن حُسن الشكل وكِبَر الحرم يزيدان في قيمته كسائر الأحجار ، قال التيفاشي : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض تفقات الجواهريين أنه يجمع سائر الخواص التي في الباقوت البهرماني في منافعه ، ويزيد عليه بأن لا ينقص مال حامله ولا تعثره الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحضر مصافّ حرب وهزيم حزبه فالقّ نفسه بين القتلى ، رآه كل من يترّبه من أعدائه كأنه مقتول متشحط في دمه ، وإن ثمنه بالهند مع قُرب معدنه أغلى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ، وقيمه تختلف بحسب الرغبة فيه ، وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المنقال منه بجمّة دينار ، ويزيد على ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشي عن بعض التجار أن حجرا منه يبيع في المغرب من بلاد الهند بمائة وخمسين دينارا وأنه يبيع منه حجر ببلاد الفرس بمائة دينار .

الصف الخامس

(الماس)

قال بلينوس في كتاب الأحجار : وأبتدأ في معدنه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك، وهو يتكون في معدن الياقوت المقدم ذكره وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت، وهو ضربان : أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك ، والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج الفرعوني، ويعبر عنه بالزيتي ، قال الكندي : والذي عينته من هذا الحجر ما بين الخردلة إلى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يتر عليه، وإذا وضع على سندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر، وغاص في وجه السندال والمطرقة وكسرها، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هشم ويحو النقوش التي في الأحجار كلها . وإنما يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد، فينكسر حينئذ، أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهي أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها، ومتى أبتلع منه الإنسان قطعة، ولو أصغر ما يكون تحرق أمعاءه وقتلته على الفور . قال أرسطوطاليس : وبينه وبين الذهب محبة يتشبهت به حيث كان .

ومن خاصته أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس : ست زوايا وثمان زوايا وأكثر، وأقله ثلاث زوايا، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا،

وبه يتقب الدرّ والياقوت والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يتقب الحديد الخشب، بأن يركب في رأس منقار حديد منه قطعة بقدر ما يراد من سعة التقب وضيقة ثم يتقب به، فيتقب بسرعة.

ومن منفعتيه فيما ذكره أرسطوطاليس أن من كان به الحصاة الخادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها في مروء نحاس مضطكى بالصاقا محكما ثم أدخل المروء إلى الحصاة فإنها تنقبها. قال أحمد بن أبي خالد: وبذلك عالجت وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتنع من الشق عليها بالحديد. وقال ابن بوسطر: وإذا علّق على البطن من الخارج، نفع من المغس الشديد ومن فساد المعدة، وقيمته الوسطى فيما ذكره النيشامى أن زنة قيراط منه دينارين، ونقل عن الكندي أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المئقال بمائتين ديناراً وأرخص ما شاهد منه ببغداد أيضاً المئقال بخمسة عشر ديناراً، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصالح نقص قدر نصف مئقال بضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلقللة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة.

الصنف السادس

(الزمرد)

يقال بالذال المعجمة والمهملية. قال بلينوس: والزمرد ابتدأ لينعقد ياقوتاً، وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحجرة بعضها على بعض عرّض له السواد وامتزجت الحجرة والسواد فصار لونه أخضر، ومعدنه الذى يتكوّن فيه في الصحوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية، يوجد في جبل هناك ممتد كالجسر فيه معادن. قال في مسالك الأبصار: ويده وبين قوص ثمانية أيام بالسير

المتنديل ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بغير أعين . فمنه ما يوجد قطعاً صفاراً كالخصي منبته في تراب المعدن وهي النصوص وربما أصيب العروق منه متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . قال في مسالك الأبصار : وتلك العروق منبته في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : ويوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد، وهو أشده خضرة وأكثره ماء، وقد ذكر المؤيد صاحب حماه في تاريخه أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زمرّد طولها أربعة أذرع أو نحوها . وهو على ثلاثة أضرب .

الأول الذبائي - وهو شديد الخضرة، لا يشوب خضرتة شيء آخر من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسن الصبغ، جيد المسائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي : وهو من أحسن الألوان خضرةً وبصيصاً . قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني الریحاني - وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الریحان .

الثالث السلقي - وخضرتة أشبه شيء بلون السلقي .

الرابع الصابوني - ولونه كلون الصابون الأخضر، قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزمرّد من المعدن، جعل في زيت الكتان ثم لف في قطن وصر في حرقه كتان ونحوها، ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى إنشاء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبائي، ويزداد حسنه بكمي الحرم، وأستواء القصبة،

وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابى اختلاف الصنع بحيث يكون موضع منه مخالفاً للموضع الآخر ، وعدم الاستواء فى الشكل ، والتشعير ؛ وهو شبه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرخاوة ، وخفة الوزن ، وشدة الملامسة والصقال والنوومة ، وزيادة الخضرة والمائية إذا ركب على البطانة ، وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابى التى أمتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعى إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، انفجأت عيونها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زمرد ذبابى خالص ، فخصأت أفعى وجعلتها فى طشت وألصقته بسمع فى رأس سهم وقربته من عينها فسمعت قعقة خفية كما فى قتل صوايا فنظرت إلى عينها فإذا هما قد برزتا على وجهها وضعت حركتها . وبهذه الخاصة يتجن الزمرد الخالص من غيره كما يتجن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافعه أن من أذمن نظره ذهب عن بصره الكلال ؛ ومن تختم به دفع عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ، وإذا كان فى موضع لم تقر به ذوات السموم ؛ وإذا شغل منه وزن ثمان شعيرات وسقيته شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تختم به من به نقث الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ؛ وإذا علق على المعدة من خارج ، نفع من وجعها ، وشرب حكا كته ينفع من الجذام . وقيمة الذبابى الخالص فى الحجر الذى زنته درهم أربعة دنانير القيروط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ؛ إلا أنه لا ينقص بالصغر نقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمفوج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرد ، فإنه لاقيمة لها يعتد بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابى .

الصنف السابع

(الزُّرْجُدُ)

وهو حجر أخضر يتكوّن في معدن الزُّرْجُدِ، ولذلك يظنه كثير من الناس نوعاً منه إلا أنه أقل وجوداً من الزُّرْجُدِ . قال التِّيفَاثِيُّ : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلاً ، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية ، وذكر أنه رأى منه فصاً في يد رجل أخبره أنه استخرجه من هناك ، زنته درهم ، لا يكاد البصر يقطع عنه لرقه مائه ، وحسن صفائه ، وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة ، الحسن المائية ، الرقيق المستشف ، الذي ينقده البصر بسرعة ، ودونه الأخضر المفتوح اللون ، وليس فيه شيء من خواص الزُّرْجُدِ إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصر ، وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

(الْفَيْرُورُجُ)

وهو حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس من الأبخرة الصاعدة منها ، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس ، ومعده الذي يوجد فيه نيسابوراً ، ومنه يجلب إلى سائر البلدان ، ومنه نوع آخر يوجد في نساور إلا أن النيسابوري خير منه ، وهو ضربان بسحاق^(١) وخلصجي ، والخالص منه العتيق هو البسحاق ، وأجوده الأزرق الصافي اللون ، المشرق المصفاء ، الشديد الصقالة ، المستوى الصبغ ، وأكثر ما يكون خصوصاً ، وذكر الكندي أنه رأى منه حجراً زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصفاء الحرق ويكدر بكدره ، وإذا مسه الدهن أذهب حسنه وغير لونه ، والعرق يطفى لونه ، والمسك إذا باشره ، أفسده وأذهب حسنه ،

(١) في مفردات ابن البيطار سجاني وتدل ما في الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفص الجيد منه إلى جانب ماهو دونه في الجودة، أذهب بهجته، وإذا وضع إلى جانب الدهنغ غلب الدهنغ على لونه فأذهب بهجته ولو كان الفص المغير وزج في غاية الحسن والجودة .

ومن منافعه أنه يحلو البصر بالنظر إليه، وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب، وقيمته تختلف باختلاف الجودة اختلافا كثيرا فربما كان الفصان منه زتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمن الآخر درهم . وبالجملة فالجملني الجيد على النصف من البسحاق الجيد . قال النيفاشي : وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشدهم في ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفص منه عشرة دنانير مغربية ويحرصون على التحتم به، وربما زعموا أنه يدخل في أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع

(الدهنج)

وقد ذكر أرسطوطاليس أنه أيضا حجر ثمالي يتكون في معادن النحاس يرتفع من أبحرتها ويتعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كرمان وبيستان من بلاد فارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سليم من برية المغرب، في مواضع أخرى كثيرة . وأجود أنواعه أربعة : وهي الافرندي، والهندي، والكمان، والكركي، وأجوده في الجملة الأخضر المشبع الخضرة، الشبيه اللون بالزمرد، معزق بخضرة حسنة، فيه أهلة وعبون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صلبا أملس يقبل الصقالة .

ومن خاصته في نفسه أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نصب للسكاكين وممرت عليه أعداد سنين، ذهب نوره لرخاوته وأثقل، ولذلك إذا حك أنك سريعا، وإذا خرط خرزا أو أواني أو غير ذلك، كان في خرطه سهولة،

وإذا وقع في الزيت آسنتت خضرته وحسن ، فإن غُفِلَ عنه حتى يطول بُسُهُ
في الزيت ، مال إلى السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب ، سكنه بعض السكون ؛
وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضع القوبة الحادثة من المرّة
السوداء ، أذهبها .

ومن عجيب خواصه أنه إذا سقى من سُحائنه شارب سُم نفعه بعض النفع ؛ وإن
شرب منه من لم يشرب سما ، كان سما مفرطاً يَنْقُطُ الأمعاء ، ويُلبِثُ البدن ،
ويحدث فيه سما لا يبرأ سريعا ، لاسميا إذا حُكَّ بمعدية ؛ ومن أمسكه في فيه ومصه
أضر به ؛ وقيمته أن الاقريدي الخالص منه كل مثقال يمتثلان من الذهب ، ويوجد
منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي أنه رأى منه صحيفة
تسع ثلاثين رطلا .

الصنف العاشر

(البُورُ)

قال بلينوس : وهو حجر بُورِيٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدت به أعراض عن
بلوغ رتبة الياقوت ؛ وقد اختلف أصحابنا الشافعية رحمهم الله في تقاسمه على
وجهين ، أحدهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه ، والثاني أنه ليس بنفيس
لأن تقاسمه في صنعته لا في جوهره . ويوجد بأماكن ، منها بزية العرب من أرض
الحجاز وهو أجوده ، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد
الفرنجية وهو في غاية الجودة ، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية ،
وقد ذكر التيفاشي أنه ظهر في زمنه معدنٌ منه بالقرب من مراكش من المغرب

(١) في مفردات ابن البيطار برا . وهو أروخ .

الأقصى إلا أن فيه شعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير : أرضا وحيطانا . ونقل عن بعض التجار أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها وبين كاشغر، جبلين من بلور خالص مطين على وادٍ بينهما وأنه يُقَطَّعُ في الليل لتأثير شعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في الأعين . وأجوده أصفاه وأقواه وأشغفه وأبيضه وأسلمه من التشعير ، فإن كان مع ذلك كبير الحرم . آنية أو غيرها كان غاية في نوعه . وقد ذكر الكندي أن في البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من . ونقل اليفاشي : أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزاة أربع خوابٍ للاء كل خابية تسع ثلاث رواباً ماء على محامل من بلور، كل محمل مابين ثلاثة قناطر إلى أربعة . وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك .

ومن خاصته ما ذكره أو فرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصبغ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشماع الذي يخرج منه إلى خرقة سوداء، احترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تحتم به أو علقه عليه لم يرمم سوء ، وقيمته تختلف بحسب كبر آينته وصغرها وإحكام صنعتهما . قال اليفاشي : وبالجملة فالقطعة التي تحمل^(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من التشعير ، تساوى عشرة دنائير مصرية .

(١) مراده وزن ولكنه كثيرا مايشتمل بعض لغات العامة .

الصف الحادى عشر (المرجان)

وهو حجر أحمر في صورة الأحجار المتشعبة الأغصان، ومعدنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز. ينبت بقاعه كما ينبت النبات، وتعمل له شبك قوية مثقلة بالرصاص. وتدار عليه حتى يلتف فيها، ويجذب جذبا عنيقا فيقطع فيها المرجان. وربما وجد ببعض بلاد الفريجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز. ومنه يجلب إلى بلاد المشرق. ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة، وإذا استخرج، حك على مسنّ الماء، ويحلّى بالسنبادج المعجون بالماء على رخامة فيظهر لونه، ويحسن، وينقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ما عظم حرمة، وأستوت قصباته، وأشتدت حرته. وسلم من التسويس؛ وهو خروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شيء خاوي كالعظم، وأردؤه مامل منه إلى البياض أو كثرت عقده وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سلامته من العقده لوجود التشعب فيه. فإن اتفق أن تقع منه قطعة مضمّنة مستوية لالعقد فيها ولا تشطيب، كانت في نهاية الجودة. وقد يوجد منه قطع كبار فتحمّل إلى صاحب إفريقية فيعمل له منها دوى وأنصبة سكاكين. قال اليفاشى: رأيت منها عهبة طول شبر ونصف، في عرض ثلاث أصابع، وأرتفاع مثلها، بغطائها في غاية الحرمة وصفاء اللون. وقد ذكر ابن الطور في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها: أنه كان لخلفاء الفاطميين دواة من المرجان تحمل مع الخليفة إذا ركب في المواكب العظام أمام راجب على فرس، كما سيأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك، في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومن خاصته في نفسه أنه إذا ألقي في النخل لأن وأبيض، وإن طال مكثه فيه

أحلّ ، وإذا أخذ منه خاتم أو غيره ولبس جميعه بالشمع ثم نقش في الشمع بإبرة بحيث ينكشف حرم المرجان وجعل في خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليلتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع ، ظهرت الكتابة فيه حفرًا بتأثير الخلل فيه ، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير ، قال التيفاشي : وقد جربنا ذلك مرارا ، ومتى ألقى في الدهن ظهرت حرته وأشرق لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندر أنه إذا علق على المصروع أو من به القيرس ، نفعه ، وإن أحرق وأستن به ، زاد في بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوى اللثة ، وطريق إحراقه أن يجعل في كوز نخار ويطين رأسه ويوضع في تنور ليلة ، وإذا سحق وشربه من به عسر البول ، نفعه ذلك ، ويحال أو رام الطحال يشربه ، وإذا علق على المعدة نفع من جميع عللها كما في الزمرد ، وإذا أحرق على ما تقدم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دائق ونصف صمغ عربي بياض البيض وشرب بماء بارد ، نفع من نقي الدم . قال التيفاشي : وقيمته بأفريقية عشيا الرطل المصري من خمسة دنانير إلى سبعة مغربية ، وهي بقدر دينارين إلى مايقاربهما من الذهب المصري ، وبالإسكندرية على ضمقي ذلك وثلاثة أضعافه ، ومن إسكندرية يجعل إلى سائر البلاد ، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها ، وقلته ، وكثرته ، وصغره ، وجودته ، وردائه ، وحسن صنعته .

الصنف الثاني عشر

(البادزهر الحيواني)

وهو حجر خفيف هش . وأصل تكوُّنه في الحيوان المعروف بالأيل بتغوم الصين . وإن هبذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد اعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسياتي بيانه، وقد اختلف الناس في أى موضع يكون من هذا الحيوان، فقيل إنه يتكون في مآقي عينيه من الدموع التي تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويترثي الحجر حتى يكبر فيحتمك فيسقط عنه. وقيل يكون في قلبه فيصايد لأجله ويذبح ويستخرج منه . وقيل في سرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأخضر المشرب بالحرة والمشرب بالياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل . وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهش . ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رقاق متراكبة كما في اللؤلؤ ، وبه نقط خفية سود ، وأن يكون أبيض المحك مر المذاق . قال التيفاشي : وكثيرا ما يُعش فتصنع حجارة صفار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيواني ولكنها تميز عن البادزهر الحقيقي بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط ، والبادزهر الحقيقي الخالص أصفر أو أخضر بصفرة فيه نقط صفار كالشمس ، وطبقاته أرق من طبقات المصنوع بكثير، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومحك أبيض .

ومن خاصته في نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يحشنه ويغير لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشي أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب في كيس وسافر به فأحتمك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك في خرقة وتركه أياما فعاد في الصفة إلى ما كان ، إلا أنه بقي على نقص الذهب منه .

ومن منفعه دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حارة كانت أو باردة : من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عض الحوام ونهشها ولدغها ، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر للناسي للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتي عشرة شعيرة مسحوفة

أو مسحوولة أو محكوكة على المبرّد بزيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالعرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق ووذّر على موضع النهنشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حكّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دانيق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والأحياط ، قاوم السموم القتّالة ولم تحش له غائلة ولا إثارة خلط ؛ ومن تخمّ منه بوزن اثنتي عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفصّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم ، نفع منها نفعاً بيناً وإن وضع على فم المددوع أو من سقى سما نفعه . قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوّكية التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجَزَع ، والمغناطيس ، واليشم ، والسبع ، والألازورد وغيرها مما ذكره المصنّفون في الأحجار فلا أعتدّاد به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله في هدية وما يجري مجرى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصف الأول

(المسك)

وهو أجملها . قال محمد بن أحمد التيمي المقدسي في كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ذات أربع ، أشبه شيء بالظبي الصغير ، قيل لها قرن واحد ، وقيل قرنان ، غير أن له نابين رقيقين أبيضين في فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

في وجهه كالخزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دموى يجتمع من جسمها إلى سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم في سرتها ويجمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجعها حتى تمسك عن الرغى وورود المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك فيها دم عبيط : وهي النواج ، فإن كانت النابغة كثيرة الدم ، أكتفى بما فيها ، وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب وتحاط بالخصوص وتعلق في حلق مستراح أربعين يوماً ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى يتكامل جفافها وتستند رائحتها ، ثم تُصير النواج في مزاول مسغار وتخطها الصغار وتحملها . وقيل انه ينبت هذه الظباء حين يمرض لها هذا العارض بناءً كالمنارة في طول عظم الذراع لتأتي الظباء فتحك سررها بذلك البناء فتسقط النواج ، حتى إنه يوجد في تلك المراغة ألوف من النواج ما بين رطب وجامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بمغازات بين الصين وبين التبت والصغد من بلاد الترك ، وإن أهل التبت يلتقطون ما قرب إليهم ، وقد قيل إن المسك يحمل إلى التبت من أرض بينها وبين التبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها ، إما باعتبار أصل وجوده فيها ، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده في الجملة ما طالب مرعى عليه ، ومرعى طبائنه النبات الذي يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض حتى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده ما نكّل في الظبي قبل ينونته عنه . وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان نحاحياً تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني ،

وكان لونه يَنْبِغ عليه الصُّفْرَة ، ومقاديره وسطا بين الجلال والرقاق ، ثم ما هو أشدُّ سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأى والمنظر ، ثم ما هو أشدُّ سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال : وبلغنى عن تجَّار الهند أن من المسك صنفين آخرين يُخَضَّنان من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المُكْت ، والثانى يفسد بطول المُكْت ؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها في الفضل مقدما منها في الذكر الأفضَل فالأفضل على ما رتبته أحمد .

الأول التَّبْتِي - وهو ما حمّله التجَّار من التَّبْت إلى نُراسَانَ على الظهر لطيب مرَّعاه ، وحمّله في البر ، دون البحر .

الثانى الصُّغْدِي - وهو ما حمّله من الصُّغْد من بلاد التُّرك على الظهر إلى نُراسَانَ .

الثالث الصِّينِي - وإنما قصت رتبته لأن مرَّعاه في الطَّيب دون مرعى التَّبْتِي ، ولما يلحقه من عُفُونَة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصِّينِي ما يؤتى به من خانقو : وهى مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجَّار المسلمين ، ومنها يحمّل في البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأبلَّة آرتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى - وهو ما يحمّل من التَّبْت إلى الهند ثم يحمّل من الهند إلى الدَّبِيل ثم يحمّل في البحر إلى سِيرَاف من بلاد العجم ، وحمّات من البحرين ، وعدن من اليمن ، وغيرها من النواحي . وسبب انحطاط رتبته عن الصِّينِي وإن كان من جنس التَّبْتِي مع أنه أقرب مسافة من الصِّينِي ما ذكره المسعودى : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كفرة الهند فلطَّخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدلونه بغيره ، وبيعه سدنة الأصنام فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته . على أن محمد بن العباس قد فضّل الهندى على الصِّينِي لقرب مسافة حمّله في البحر .

الخامس القنبارى - ويؤتى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبتى فى القيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة ، قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس الطغرغزى - وهو مسك رزىن يضرب إلى السوداء ، يؤتى به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطلى ، السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غلطوا به أيضا .

السابع القصارى - ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين ، قال ابن يعقوب : وقد يُلحق بالصينى إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن الجزيرى - وهو مسك أصفر ، حسن الرائحة ، يشابه التبتى - إلا أن فيه زعارة .

التاسع الجبلى - وهو مسك يؤتى به من السند من أرض المولىان ، وهو كبير النوايح حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصارى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النابغة التى زنتها أوقية زنة درهم واحد من المسك .

قلت : أما المسك الدارى فإنه منسوب إلى دارين : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند ، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعدن للمسك .

المنصف الثاني

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التميمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور وعيون فى الأرض ، يجمع فى قرار البحر ، فإذا تكاثف اجتذبه الدهانة التى هى فيه على

أقطافه من موضعه الذى تعلق به ، وطفاً على وجه الماء ، وهو حار ذائب فقطعه
الريح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً فترى به الريح إلى السواحل ، لا يستطيع
أحد أن يدنو منه أشدّة حره وقوّارته ، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جرد ، فيجمعه
أهل السواحل . قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتلعته سمكة عظيمة يقال لها
الكال وهو فائر فلا يستقرّ في جوفها حتى تموت فتطفو ويطرحها البحر إلى الساحل
فيشقّ جوفها ويُستخرج منها ، ويسمى العنبر السّمكي ، والعنبر المبلّوع . قال التيمي :
وهو في لونه شبه النار ، ردى في الطيب : للسّهوكه التى يكتسبها من السمك .
قال : وربما طرح البحر القطعة العنبر فيصيرها طائر أسود كالخُطّاف فيعرف عليها
بجانحه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلق بمنقاره ومخاليه بها فيموت
ويبقى ويبقى بمنقاره ومخاليه فيها ، ويعرف بالعنبر المناقيرى .

قال التيمي : ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر تجب ركبونها مؤدّبة
تعريف العنبر ، يسرون عليها في ليالى القمر على شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام
راكبها أو غفل ، ركبت بصاحبها حتى يزل عنها فيأخذها .

قال التيمي : وألوان العنبر مختلفة . منها الأبيض : وهو الأشهب ، والأزرق ،
والرمادى ، والجزازى : وهو الأبرش ، والصفاح ، وهو الأحمر ، وهما أدنى العنبر
قدراً . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّة رائحة ، وذكاءً بغير زعارة .
قال أحمد بن يعقوب : وأنواع العنبر كثيرة ، وأصنافه مختلفة ، ومعادنه متباينة ،
وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره ، والذى وقفت على ذكره منه ستة أضرب .

الأول الشّحرى - وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشّحر من أرض
الهن . قال : وهو أجود أنواع العنبر ، وأرفعه ، وأفضله ، وأحسنه لوناً ، وأصفاه جوهرًا
وأعلاه قيمةً .

الثاني الزنجي - وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها . قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرافي أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث السلاهطي - قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدهن ، وهو الذي يستعمل في الغوالي .

الرابع القاقلي - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشبه جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه يس يسير ، وهو دون السلاهطي لا يصلح للغوالي إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمكسبات .

الخامس الهندي - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ، ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عمان تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المغربي - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر ، وهو أردأ الأنواع كلها ، وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري . قال التيمي : ويقال به فيه . قال التيمي : ومن العنبر صنف يعرف بالند ، وتقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو حينئذ ما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشحري : وهو أسود فيه صفرة ، يتحضب اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا يقاء له على النار . وإنما يستعمل في الغوالي إذا عزر العنبر السلاهطي ، ومنه الزنجي : وهو نظير الشحري في المنظر ودونه في الرائحة : وهو أسود بغير صفرة ، ومنه الحمري : وهو يتحضب اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

قلت : أما المعروف في زماننا بالعنبر مما يلبسه النساء فإنما يقال له الند، وفيه جزء من العنبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب .

الأول المثلث - وهو أجودها وأعطرها ، وهو يركب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيب ، وجزء من العود الهندي الطيب ، وجزء من المسك الطيب .

الثاني وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيب عشرة مثاقيل ، ومن الند العتيق الجيد عشرة مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من الند العتيق وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثالث

(العود)

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظيم تنبت ببلاد الهند ، فته ما يجلب من أرض قشمير الداخلة : من أرض سرنديب ، ومن قسار ، وما اتصل بتلك النواحي ، وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعق . ويقشر فإذا قشر وجفف ، حمل إلى النواحي حينئذ . قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة ، بخلاف ما قارب القشركا في الآبوس والغاب ونحوها من الأشجار التي داخلها فيه دهانه وما في خارجها خشب أبيض ، وأنه يقطع ويقلم ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن في التراب ستين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس أنه يكون في أودية بين جبال شاهقة ، لا وصول

لأحد إليها لصعوبة مسلكها . فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرِ
الأزمان فتأكل الأرض ما فيه من الخشب ويبقَى صميمُ العود وخالصه فتجزئه السيول
وتُحْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقدفه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهل السواحل
ويجمعونه فيبعونه . ويقال إنه يأتي به قوم في المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على
البعد بحيث لا ترى أشخاصهم ، ثم يطلعون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد ، ويخرج
أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائع ويتركونها إلى الليل ، فيأتي أصحاب العود فمن
أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه ؛ فيزيدونه حتى يُعجبه فيأخذه ، كما يحكى
في السُّمُور وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً ، رزينا ، ظاهر الرطوبة ، كثير المائبة والذهنية ، الذي
له صبر على النار ، وغليان ، وبقاء في الثياب .

أما اللون فأفضله الأسود والأزرق الذي لا يبيض فيه ؛ ثم منهم من يفضل
الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .
وهو على ثمانية عشر ضربا .

الأول المندلي^١ - نسبة إلى معدنه ؛ وهو مكان يقال له المندل من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشكي : وهو أرفع أنواع العود وأفضلها وأجودها وأبقاها
على النار وأعقبها بالثياب . على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية وإلى آخر الدولة
الأموية ، ولا ترغب في حملة للراة في رأخته إلى أن دخل الحسين بن برمك إلى بلاد
الهند هاربا من بني أمية ، ورأى العود المندلي فاستجاده ورغب التجار في حملة ،
فلما غلب بنو العباس على بني أمية ، وحضر بنو برمك إليهم وقرَّبهم ، دخل الحسين

(١) هكذا بالأصل .

أبن برمك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القماري فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه . فأمره بإحضاره ، فأحضره إليه فاستحسنته ، وأمر أن يكتب إلى الهند بحمل الكثير منه ، فاشتمر بين الناس وعز من يومئذ ، وأحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوُّنه في الثياب .

الثاني القامروني - وهو ما يجلب من القامرون : وهو مكان مرتفع من الهند . وقيل القامرون اسم لشجر من شجر العود ، وهو أغلى العود ثمنًا وأرفعه قدرًا .

قال التيمي : وهو قليل لا يكاد يُجلب إلا في بعض الجبل ، وهو عود رطب جدًا ، شديد سواد اللون ، رزق ، كثير الماء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافي أنه ربما ختم عليه فأنطع وقيل الختم لينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المت من مائتا دينار .

الثالث السمندوري - وهو ما يجلب من بلاد سمنور ، وهي بلد سفالة الهند ، ويسمى لطيب رائحته ريحان العود ، وبعضه يفضل بعضا . قال التيمي : وتكون القطعة الضخمة منه متًا واحدًا .

الرابع القاري - وهو ما يجلب من قمار ، وهي أرض سفالة الهند ، وبعضه يفضل بعضا أيضا ، وتكون القطعة منه نصف رطل إلى مادون ذلك .

الخامس القاقلي - وهو ما يجلب من جزائر بحر قاقلة . وهو عود حسن اللون ، شديد الصلابة دسم ، فيه ريحانية نهمرة . وله بقاء في الثياب إلا أن قنارده ربما تغير على النار فينبغي أن لا يستقصى إلى آخره .

السادس الصيني - وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصنف ببلاد الصين ، وهو من أحلى الأعواد وأبقاها في الثياب . قال التيمي : ومنهم من يفضلها على القاقلي^(٢) ويرى أنه أطيب وأبقى وآمن من القنار ، وربما قدموه على القماري أيضا . قالوا :

(١) في الاصل طونه وهو نصيف (٢) في باقوت . وهو من أردا العود لافرق بينه وبين الخشب الاليسير .

وأجود الصَّنِيِّ الأَسْوَدُ الكثير الماء، وتكون القطعة منه مَناً وأكثر وأقل. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندي والقَهَارِي .

السابع الصندفوري - وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنِيِّ . ويقال إنه نِصْفُ منه ولذلك كانت قيمته لاحقاً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورزانة، وصلابة؛ إلا أنه ليس بالقَطِيعِ الكبار .

الثامن الصَّنِيُّ - ويؤتى به من الصين، وهو عود حسن اللون، أول رائحته تماثل رائحة الهندي إلا أن قناره غير محمود، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقل .

التاسع القطعي - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّنِيِّ .
العاشر القسور - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو أعذب رائحة من القطعي إلا أنه دونه في القيمة .

الحادي عشر الكلهي - وهو عود رطب يمتنع، وفيه زَعَارَةٌ، وشدة حرارة للدهانة التي فيه، وهو من أعجب الأعواد في الشبَابِ وأبقاها .

الثاني عشر العولاني - وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواح قنار من أرض الهند .

الثالث عشر اللوقيني - وهو ما يجلب من لوقين : وهي طرف من اطراف الهند وله نَجْرَةٌ في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة .

الرابع عشر المانطائي - وهو ما يجلب من جزيرة مانطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقيني، وهو خفيف ليس بالحسن اللون . قال أحمد بن العباس : وهو قطع كبار، ملس لا عقَدَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يصلح للأدوية .

الخامس عشر القندغلى - ويؤتى به من ناحية كله ، وهي ساحل الزنج ، وهو يشبه القمارى إلا أنه لا طيب لرائحته .

السادس عشر السمولى - وهو عود حسن المنظر ، فيه حمرة وله بقاء في الثياب .

السابع عشر الرابحى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاه له ، ولا بقاء في الثياب .

الثامن عشر المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشك الناس في أمره ، فخرمه السلطان ومنعه فسمى المحرم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصنئى والقافلى صنفاً يقال له العطلى يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافاً من العود ليست بذات طائل ، منها الأفلق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون في العظم مثل الخشب الرابحى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح في مشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له في أوله رائحة حارة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع

(الصندل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأول المقاصيرى - وهو الأصفر ، الدسم ، الرزين ، الذى كأنه مسح بالزعفران الذى الرائحة . واختلف في سبب تسميته بالمقاصيرى فقيل نسبة إلى بلد تسمى

(١) الذى في معجم البلدان لياقوت أنها كثرة وأما كفه فقد قال إنها فرصة بالهنداه .

مقاصير، وقيل إن بعض خلفاء بني العباس اتخذ لبعض أمهات أولاده ومحاطيه مقاصير منه، وهو شجر عظام يُقَطَّع رطبا، وأجوده ما أصفر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زعارة. قال التيمي: وهو يدخل في طيب النساء: الرطب واليابس؛ وفي البرميكات، والمثلثات، والذرائر، ويتخذ منه قلاندا، ويدخل في الأدوية، ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأسرة وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قطعاً صغاراً حتى لا يكون منها ما يعمل سريراً لغيره من الملوك.

الثاني الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيري المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض، ويقال إن المقاصيري هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره.

الثالث الجوزي - وهو صلب العود أبيض، يضرب لونه إلى السمرة، ويؤتى به من موضع يقال له الجوز، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذي قبله، الرابع المسوس ويقال الكاوس - وهو صندل أصفر طيب الرائحة إلا أن في رائحته زعارة؛ ويستعمل في الذرائر، والمثلثات: في الطيب والبخورات.

الخامس، يضرب لونه إلى الحمرة - وهو على نحو من الذي قبله.

السادس صندل جمع الشعرة - لا بساطة فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما في خشب الزيتون، وهو أذكي أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل في شيء سوى البخورات والمثلثات.

السابع أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون، ثقيل الوزن لا رائحة له، إلا أنه يتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدبوي وقطع الشطرنج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة.

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجوز ذكره في مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُنْبُل، والقَرَنْفَل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلى وصفه من الآلات : وهي أصناف)

الصنف الأول

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة، التي يركب فيها السلطان وهي عدة آلات .

منها الخاتم بفتح التاء وكسرها، وحكى فيه ابن قتيبة والجوهري وغيرهما خِتَامٌ وخَاتَمٌ، وهو ما يجعل في الإصبع من الخلى، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمي بذلك لأنه يختم بنفسه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتي في الكلام على ختم الكتب " أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك الأعاجم فقبل له إنهم لا يقرءون كتابا غير مختم فأتخذ خاتما من ورق وجعل نقشه محمد رسول الله وأقتدى به في ذلك الخلفاء بعده . ثم توسعوا فيه إلى أن جعلوا للكتب طابعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه " ديوان الخاتم " وأقتضى الملوك أثرهم في ذلك . ثم غلب بمملكتنا وما ناهزها الاكتفاء في المكتبات باللصاق، وصار اسم الخاتم مقصورا على ما يجعل في الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا، وصارت الملوك إنما تلبس الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجملا، وربما بعت بها في تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقرفه .

ومنها المُنْدِيلُ بكسر الميم ، وهو مُنْدِيلٌ يُجْعَلُ فِي الْمِنْطَقَةِ الْمَشْدُودَةِ فِي الْوَسْطِ مَعَ الصُّلُوقِ وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ حَرِيٌّ أَصْطَلَحَ الْمُلُوكُ عَلَى الْبَعْثِ بِهِ فِي الْأَمَانَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْخَلَامَةِ ؛ وَالْمُنْدِيلُ آلَةٌ قَدِيمَةٌ لِلْمُلُوكِ ، فَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْأَفْضَلِ بْنِ أَمِيرِ الْجَيْشِ أَحَدِ وُزَرَءِ الْفَاعْطَمِيِّينَ مَائَةٌ بَدْلَةٌ مَعْلُوقَةٌ عَلَى أَوْتَادٍ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَى كُلِّ بَدْلَةٍ مِنْهَا مُنْدِيلٌ مِنْ لُونِهَا ؛ وَلَمْ يَكُنِ الْمُنْدِيلُ مِنْ آلَاتِ الْخِلَافَةِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ آلَاتِهَا الْبُرْدَةُ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْخِلَافَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها التُّخْتُ ، وَيُقَالُ لَهُ السَّرِيرُ : وَهُوَ مَا يُجْلَسُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي الْمَوَاقِبِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ مِنْ رَسُومِ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، رَفَعَهُ لِمَكَانِ الْمَلِكِ فِي الْجُلُوسِ عَنْ غَيْرِهِ حَتَّى لَا يَسَاوِيهِ غَيْرُهُ مِنْ جُلُوسَاتِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُرْسِيٌّ يَقُولُهُ ” وَأَلْقِينَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا “ ، وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كُرْسِيٌّ مِنْ عَاجٍ مُغَشَّى بِالذَّهَبِ .

ثم هذه الأُسْرَةُ تَخْتَلِفُ بِأَخْتِلَافِ حَالَاتِ الْمُلُوكِ ، فَتَارَةً تَكُونُ مِنْ أُنْبِيَةِ : رُخَامٍ وَنَحْوِهِ ، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ خَشَبٍ ، وَتَارَةً مِنْ قُرْشٍ مَحْشُوءَةٍ مَتْرَاكِبَةً ؛ وَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْمُلُوكِ الْقُرْسُ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ يُجْلَسُونَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرَ يُجْلِسُ مَعَ قَوْمِهِ عَلَى الْأَرْضِ غَيْرَ مَرْتَضِعٍ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْتِيهِ الْمُقَوِّقُسُ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ ، يُجْلِسُ مَعَهُ عَلَى الْأَيْدِي ، فَيُجْلِسُ عَلَيْهِ فَلَا يَمْنَعُهُ عَمْرُو مِنْ ذَلِكَ ، إِجْرَاءً لَهُ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْمُلْكِ فِيمَا قَبِلَ ، لَمَّا عَقَدَهُ لَهُ مِنَ الذَّمَّةِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ مِنَ الْعَهْدِ .

ومنها المِظْلَةُ ، وَأَسْمَاهَا بِالْفَارْسِيَّةِ الْجُزْرُ بَنُونَ بَيْنَ الْجَلِيمِ وَالزَّأِي الْمَعْجَمَةِ ، وَيَعْبَرُ عَنْهَا الْعَامَّةُ الْآنَ بِالْقَبَّةِ وَالطَّيْرِ : وَهِيَ قَبَّةٌ مِنْ حَرِيرٍ أَصْفَرٍ ، تَجْعَلُ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ ، عَلَى رَأْسِ رَجَبِيْدٍ أَمِيرٍ يَكُونُ رَاكِبًا بِجَنْدَاءِ الْمَلِكِ ، يُظَلُّهُ بِهَا حَالَةَ الرُّكُوبِ مِنَ الشَّمْسِ فِي الْمَوَاقِبِ

العظام، وسيأتي ذكرها في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . وهذه الدولة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرِّقَبَةُ : وهي لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِزَتْ بالذهب الزُّرْكَش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئي فيها، تشدُّ على رقبة فرس الملك في المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المنقش لظهر الفرس وكفله .

ومنها الغاشية، وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يظنها الناظر كلها ذهباً، يلقبها على يديه يميناً وشمالاً .

ومنها الجفاه، وهي قرآن أشبهان قريبا الشبه، برقتين من زركش، وعدة تضاهي عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما مملوكان من المسالك السلطانية قريبي الشبه أيضاً، على رأس كل منهما قبة من زركش مشابهة للآخر .

ومنها المنطقَةُ بكسر الميم، وهي مايشد في الوسط، وعنها يعبر أهل زماننا بالحياصة، وهي من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان له منطقتان . وهذه الآلة قد ذكرها في "التعريف" في الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم يجز لهم عادة بشد منطقتين، وإنما يليسها الملك للأمرء عند إلباسهم الخلع والشاربف، وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهي الرايات التي تحمل خلف السلطان عند ركوبه، وهي من شعار الملك القديمة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعقد لأمرء

سراياه الرايات عند بعثها ، ثم قد يعبرُ عن بعضها بالعصائب جمع عَصَابَة : وهي الأكوية ، أخذنا من عصابة الرأس : لأن الراية تَعْصِبُ رأس الرمح من أعلاه ، وقد يعبر عنها بالسَّاجِق جمع سَجَاقٍ ، والسَّجَاق باللغة التركية ، مناه الطعن ، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمي بذلك مجازاً .

ومنها الطُّبُول ، ويقال لها الدَّبَابُ ، والبُوقَاتُ ، والزرمر المعروف بالصهان الذي يُضْرَبُ به عَشِيَّة كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالطَّبَعَانَاهُ . وهي من شعار المُلُك القديم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن الطبل في بلاد المَغْرِب يختص ضربه بالساطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى . والسر فيها إرهاب العدو ، وتحذيره كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تقوية النفوس وتشجيعها على الحرب كما قاله الغزالي رحمه الله في "الإحياء" وكلمة كثرت أعدادها ، كان أنعم لسان الملك وأبلغ في رفعة شأنه ، وقد حكى أن دبابد الإسكندر كانت أربعين حملاً .

قلت : وقد ذكر في "التعريف" من جملة الآلات الملوكية الدوادة ، والقلم ، والمرملة ، ولا يخفى أنها بالآلات الكُتَابِ أليق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ، وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(آلات الركوب - وهي عدة آلات)

منها السرج - وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ، وأشكال قوابله مختلفة ، ثم من السرج ما يكون مُغَشًى بالذهب ، وهو مما يصلح للولوك .

ومنها ما يكون مغشئاً بالفضة البيضاء، وكل منها قد يكون منقوشاً وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون سادجاً .

ومنها اللجام - وهو الذي يكون في ألك الفرس يمدعه من الجاح، وقوابله أيضاً مختلفة، ثم منها ما يكون مطلياً بالذهب، ومنها ما يكون مطلياً بالفضة. ومنها ما يكون سادجاً، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلياً بالفضة، ومنها ما يكون غير محلي .

ومنها الكنبوش - وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكفله، وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من الفخايش؛ وهي الفضة الملبسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم .

ومنها العباءة بانذ - وهي التي تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المهماز - وهو آلة من حديد تكون في رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخلف وما في معناه، ومؤخره أصبح محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدت في العدو. وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة. وتارة يكون من حديد مطلياً بالذهب أو الفضة، وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه .

ومنها الكور - وهو ما يقعد فيه الراكب في ظهر النجيب؛ وهو الهجين، والعرب تسميه الرجل، ثم قد يكون مقدمه ومؤخره مغشئاً بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشئ .

ومنها الزمام - وهو ما يقاد به النجيب، ويضبطه به الراكب كما يضبط الفارس الفرس بالعنان .

ومنها الركاب - وهو ما تجعل فيه الرجل عند الركوب، وكانت العرب تعاده

من الجلد والخشب ، ثم صُيدل عن ذلك إلى الحديد . قال أبو هلال العسكري :
 في كتابه "الأوائل" وأول من اتخذ من الحديد المَهْلَبُ بنُ أبي صُفْرَةَ ، وكانت
 رُكْبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يَصُكُّ الرَّاكِبَ ^(١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .
 ومنها السَّوْط - وهو ما يكون بيد الرَّاكِب يَضْرِبُ به الفرس أو النجيب ،
 وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرَعَة لأنه يُقْرَع به المَرْكُوب إذا تقاعس ، وهو بدل من
 القضيب الذي كان للخلفاء على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة
 في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(آلات السفر، وهي عدة آلات)

منها المِحْفَقَةُ بكسر الميم : وهي تَحْمَلُ على أعلاه قُبَّةٌ ، وله أربعة سواعد : ساعدان
 أمامها وساعدان خلفها ، تكون مغطاة بالخوخ تارة وبالحرير أخرى ، تُحْمَلُ على بغلين
 أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها ، والآخر في مؤخرتها . إذا رَكِبَ فيها الرَّاكِب
 صار كأنه قاعد على سرير ، لا يلحقه أزعاج ، وقد جرت عادة الملوك والأكابر
 باستصحابها في السفر خشية ما يُعْرِضُ من المرض .

ومنها المِحْمَلُ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية ^(٢) : وهو آلة كالمِحْفَقَةِ إلا أنه يحمل على
 أعلى ظهر الجمل بخلاف المِحْفَقَةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها القَوَانِيس ، جمع فأنوس ، وهي آلة كُرْبِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد ، مغطاة
 بخرقه من رقيق الكتان الصافي البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه

(١) لعله المَرْكُوب .

(٢) ضبطه في القاموس والاصح كنجاس . ولعل ما في الأصل لثة لانية نظرا لكونه آلة .

فيشُبُّ عن ضوءها ؛ ومن شأنها أن يحمل منها أثنان أمام السلطان أو الأمير في السفر في الليل .

ومنها المشاعل جمع مشعل : وهي آلة من حديد كالتفص مفتوح الأعلى ، وفي أسفله حرقة لطيفة ، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه ، يحمل أمام السلطان ونحوه في السفر ليلا أيضا .

ومنها الحيام جمع خيمة ، ويقال لها القسطاط والقبة أيضا ؛ وهي بيوت اتخذ من حرق القطن الغليظ ونحوه ، تحمل في السفر لوقاية الحر والبرد ؛ وكانت العرب اتخذها من الأديم ، وقد أمّن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تعالى " وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَمِنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ " والملوك تنهاى في سعتها ، وتبهاى بكبرها . وسيأتى في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية أنه كان لبعض خلفائهم خيمة تسمى القانول سميت بذلك لأن قرأنا من القرآنيين وقع من أعلى عمودها فأت لظوله .

ومنها الحركاه : وهي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويشقى بالجوخ ونحوه ، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للبيت في الشتاء لوقاية البرد .
ومنها القدور ، جمع قدير : وهي الآلة التي يطبخ فيها وتكون من نحاس غالبا ، وربما كانت من برام . والملوك تنهاى بكثرتها وعظمتها : لأنها من دلائل كرم الملك وكثرة رجاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن سليمان عليه السلام بعظيم قدر ما كانت الجن تعمله له من القصور بقوله " يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَمَثَائِلَ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ " .

ومنها الأثافي ، وهي الآلة المثلثة التي تعلق عليها القدر عند الطبخ ، وتكون من

حديد .

ومنها النار التي يوقد بها للطبخ ونحوه . وقد تقدم في الكلام على نيران العرب ذكر نار القريء ، وهي نار كانت تُرفع ليلاً ليراها الضيف فيهدى بها إلى الخي .
ومنها الحفان جمع جفنة : وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام ، وقد تقدم في الكلام على القدور أنها مما كانت الجفن تعمله اسليمان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بـكبر الحفان لدلالاتها على الكرم ، وفي ذلك يقول الأعشى في مدح المصطلق ليلة بات عليه :

نفى الدّام عن آل المصطلق جفنة ۖ بكأية الشيخ العراقي تفهق

قبل أراد بالشيخ العراقي كسرى ، فشبّه جفنته بجفنته .

ومنها حياض الماء : وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقب الماء فيها لسق الدواب ونحوها ، وكبر قدرها دليل على رفعة قدر صاحبها ونخامته : لدلالاتها على كثرة دوابه ، واتساع عسكره .

الصننف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات)

منها السيف : وهو معروف ، وسيأتي في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هلكت لأنه به يقع الهلك .

وأعلم أن السيف إن كان من حديد ذكّر : وهو المعبر عنه بالفولاذ ، قيل سيف فولاذ ، وإن كان من حديد أنثى : وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد ، قيل سيف أنيث ؛ فإن كان منته من حديد أنثى وحده من حديد ذكر كما في سيوف الفريجة ، قيل سيف مذكّر ، ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردت ، صارت حديدا ، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا ، فتجيء في غاية الحسن والمضاء .

(١) هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

ثم إن كان عريض الصِّدِيع ، قيل له صَفِيحَةٌ ؛ وإن كان محدقا لطيفا ، قيل له قَصِيْبٌ ؛ فإن كان قصيرا قيل أْبْرٌ ؛ فإن كان قصره بحيث يحمل تحت الثياب وُكُتِمَلْ عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف ، قيل فيه صَمَّاصَةٌ ، وهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُرُوزٌ مستطيلة قيل فيه فَقَّارَاتٌ ، وبذلك سمي سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفَقَّارِ . يروى أنه كان فيه سبع عشرة فِقَّارَةً . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدِيٌّ ومُهَنْدٌ ، وفيما طبع باليمن يَمَانِيٌّ ، وفيما طبع بالمَشَارِفِ : وهي قُرَى من قُرَى العرب قرية من ريف العراق . قيل له مَشْرَفِيٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسَمَّى بِقَسَّاسٍ : وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له قَسَّاسِيٌّ ، وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف الشَّرِيحِيّ نسبة إلى قَيْنٍ من قِيُون العرب اسمه سَرِيحٌ معروف عندهم بِجُحْن الصنعة . ويوصف السيف بالحَسَامِ : وهو القاطع أخذا من الحَمَمِ : وهو القطع ، وبالصارم : وهو الذي لا ينبوع الضربة ، والناس يبالغون في تحلية السيوف فتارة تُرْصَعُ بالجواهر ، وتارة يُحَلِّوْنَهَا بالذهب ، وتارة يحلون بها بالفضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها الرَّيْحُ : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما مَتَّخَذٌ مِنَ الْقَنَا ، وهو قَصَبٌ مسدود الداخل ، يَنْبُتُ ببلاد الهند يقال للواحدة منه قَنَاءٌ ، ويقال لمفصلها أَنَابِيْبٌ ، ولعقدتها كُجُوبٌ ؛ فإن كان قد نشأ في نباته مستقيما بحيث لا يحتاج إلى تثقيب ، قيل له الصَّعْدَةُ . يفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له مَثَقَفٌ . ويوصف القنا بالناطِيّ . يفتح الناء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله ، وفقا (٢) كذا بالأصل . وصوابه مطمئنة كما في المحضر واللسان .

الخطّ : وهي بلدة بالبحرين تجلب إليها الرّماح من الهند ، وتقل منها إلى بلاد العرب ، وليست تُنبت القنا كما توهمه ابن أصبغ في أرجوزته المذهبة .
 الثاني ما يُخَّذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى الذابل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقال للحديد الذي في أعلى الرّيح السّنان ، وللذي في أسفله الرّج والعقب .
 ويوصف الرّيح بالأسمر : لأن لون القنا السّمرة ، وبالعسال : وهو الذي يضطرب في هزه ، وباللذن : وهو اللين ، وبالسّمهريّ نسبة إلى بلدة يقال لها سمهرة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السّمهرة ، وهي الصّلاية .

ومنها الطّبر ، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمّى السّكر الصّلب بالطّبرزد يعني الذي يكسر بالقاس ، وإلى الطّبر تنسب الطّبردارية : وهم الذين يحملون الأبطال حول السلطان على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها السّكين ، وسيأتي ذكرها في آلات الدّواة في الكلام على آلات الكتابة وإنما سميت سكيناً لأنها تُسكّن حركة الحيوان . وتسمّى المذبة أيضاً لأنها تقطع مدى الأجل ، وهذه الاشتقاقات أولى بألة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل شيء بحسب ما يناسبه .

ومنها القوس ، وهي مؤنثة . والقسيّ على ضربين : أحدهما العربية ، وهي التي من خشب فقط ، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها قضيبي ، وإن كانت من فلقين قيل لها فلق . الثاني الفارسية : وهي التي تُركب من أجزاء : من الخشب والقرون والعقب والغراء . وأجزائها أسماء يخصص كلّ جزء منها اسم ، فوضع إمسك

الرامي من القوس يسمى المَقْبِض ، ومجرى السهم فوق قَبِيض الرامي يسمى كَيْد القوس ، وما يُعْطَف من القوس يسمى سِبَّة القوس ، وما فوق المَقْبِض من القوس ، وهو ما على بين الرامي يسمى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ما على يسار الرامي يسمى رَجُل القوس .

ومنها النَّشَاب ، والنَّبَل ، فالنَّبَل ما يرمى به عن القِسيّ العربية ، والنَّشَاب ما يرمى به عن القِسيّ الفارسيّة حكاية الأزهرى ، ومجرى الوتر من السهم يسمى الفُوق ، وحديده يسمى النَّصَل ، والرِيشُ يسمى القُدَد ، والسهم قبل تركيب الريش يسمى القِدَح (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجَعْمَةُ : وهي بكسر الكاف : وهي ظَرْف السهام ، وتكون تارة من جلد ، وتارة من خَشَب .

ومنها الدَّبُوس ، ويسمى العامود : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه ، ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهي آلة من خشب تفيد في القتال نحو إفادة الدبوس .

ومنها البيضة : وهي آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان ، وربما كان ذلك من زَرْدٍ .

ومنها المِقْفَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً ، وقد تكون من زَرْدٍ أيضاً .
ومنها الدَّرْعُ : وهو حُجبة من الزَرْدِ المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيف والسهم ، وهي تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه ألين

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروع الفائقة إلى تسليح داود عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السُّلُوقِيَّةُ نسبةً إلى سَلُوقَ ، قرية من قُرَى اليمن ، وربما قيل دُرُوعٌ حَطُومِيَّةٌ بضم الحاء المهملة نسبة لحطوم رجل من عبد القيس .
وأعلم أن لبس العرب في الحرب كان الزرد ، أما الآن ، فقد غلب عمل القِرْقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها التُّرْسُ : وهو الآلة التي يتوق بها المضرب والرمي عن الوجه ونحوه ، وتسمى الجُنَّةُ أيضاً بضم الجيم أخذاً من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربما قيل لها الجُنَّةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ، ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيذان مضموم بعضها إلى بعض بخط القطن ونحوه ، فإن كانت من جلد ، قيل لها دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخامس

(آلات الحصار ، وهي عدة آلات)

منها المَنْجَبِقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ في الآخر ، وحكى ابن الجواليقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه أيضاً منجوق بالواو ومَنْجَمِيقُ بإبدال النون الثانية ميماً ، وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانبيق ومناجيق . قال الجوهرى : وأصله من حى نيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير من وتفسير جى إيش ، وتفسير نيك جيد ، قال ابن قتيبة في كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكري

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النسخ ، والصواب حطومية نسبة إلى حطيم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

في "الأوائل" : وهو آلة من خشب لها دَفْتَانِ قَامَتَانِ بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ الْمُنْجَبِقِ التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافلته على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع الْمُنْجَبِقَ حَدِيثُهُ الْأَبْرَشُ مَلِكُ الْحِيرَةِ على العرب ، وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يقدروا على القرب من النار لِقُوِّهِ فيها ، بغناءهم الأيمن إبليس فعلمهم وضع المنجبيق فعلموه وألقوه فيه فتدفقوا به في النار ، فكان أول منجبيق عمل .

ومما يلتحق بالمنجبيق الزبارات : وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجبيق حتى ينحط أعلاه ليرى به الحجر .

ومنها السهام الخطاوية ، وهي سهام عظام يرمى بها عن قسي عظام توتر بالوالب يجزها ويرمي عنها فتكاد تحرق الحجر .

ومنها مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنقط ، وحالها مختلف : بعضها يرمى عنه بأسم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زفة عشرة أرتال بالمسرى إلى ما يزيد على مائة رطل ، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية ، شعبان بن حسين ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، بها مدفا قد صنيع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد رُمي عنه من الميدان ببندقية من حديد عظيمة محماة ، فوقع في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف والذي يؤخذ من الخصص أن السهم الخاتلي هو السهم المتعاقب الخادر فلعل هذا منه كما يفاده الضمير بعد تأمل .

ومنها قوارير النَّقِطِ ، وهي قدور ونحوها يجعل فيها النَّقْطُ ويرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق ، على أن القوارير في اللغة اسم للزجاج وإنما استعيرت في آلات النَّقِطِ مجازاً .

ومنها الستائر ، وهي آلات الوقاية من الطوارق ، وما في معناها مما يستتر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ، وهي عدة آلات)

منها قوس البُنْدُقِ (ويسمى الجُلَّاهِقَ) قوس يتخذ من القنأ ويلف عليه الحرير ويعزى ، وفي وسط وتره قطعة دائرية تسمى الجوزة ، توضع فيها البندقة عند الرمي . ومنها الجراوة ، وهي آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن القوس المقدم ذكره .

ومنها الشبَّاكُ ، وهي آلة تتخذ تعقد من خيطان وتنصب لاقتناص الصيد ، وكذلك تطرح في الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الزِبْطَانَةُ ، وهي آلة من خشب مستعيلة كالمرح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة في فيه ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه ، وهي كثيرة الإصابة .

ومنها الفَخُّ ، وهو آلة مقوسة لها دفتان تفتحان قسراً ، وتماقان في طرف شظاة ونحوها إذا أصابها الصيد ، أنطبقت عليه .

ومنها الصَّائِرُ جمع صَائِرَةٍ ، وهي حديدة معقفة محددة الرأس يصاد بها السمك .

(١) في الأصل الزربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصف السابع

(آلات المعاملة، وهي عدة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التي يقع بها تقدير المقدرات، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئَاتِ رَقْعًا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة
القسط بالوزن كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَاقِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال أبو هلال
العسكري: وأقول من آخذ الموازين من الخديج عبد الله بن عامر. قال: وأول
من وضع الأوزان سمير اليهودي، وذلك أن المجاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك
ابن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره، فضربها سمير فأمر المجاج بقتله لأجترائه
عليه. فقال سمير: أنا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي، فوضع الأوزان: ووزن
ألف، وخمسمائة، وثلاثمائة، إلى وزن أربع قيراط، وجعلها حديدًا، فعفا عنه. وكان
الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثرها يؤخذ عددا.
ومنها الذراع، مؤنثة، وهي إحدى الآلات التي تقدر بها المقادير أيضا، بها تقدر
الأرضون، ويقاس البروما في معناه، ولم تزل الناس قديما وحديثا يتعاملون بها على
اختلافها، وقد ورد ذكرها في القرءان الكريم في قوله تعالى ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وقد ذكر المأوردي في الأحكام السلطانية سبع أذرع.
إحداها العُمريَّة، وهي الذراع التي قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه لمسح سواد العراق. قال موسى بن طلحة: وطولها ذراع وقبضة وإبهام.
قال الحكم بن عتيبة: عمده عمر رضي الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا،
فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهاما قائمة، ثم ختم في طرفها
بالرصاص، وبعت بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف فسحا بها السواد.

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة . قال : وهي أربع وعشرون إصبعاً كل إصبع سبع شعيرات مُتَعَدِّلات معترضات ، ظهرها لبطين ، كل شعيرة عرض سبع شعرات من شعر البردون ، وهذه الذراع التي يعتمدها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عبروا عنها بذراع الملك ، وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور تولى خلفاء بني العباس اعتبارها وعمل بمقتضاها في المساحة وتبعه سائر خلفائهم على ذلك ، وبني العباس من بني هاشم ، فنسبت إلى بني هاشم مبالغة لأن تقدمهم من خلفاء بني أمية . قال الماوردي : وتسمى الزيادة : لأن زياداً مسحها السواد أيضا .

الثالثة البلالية ، وهي أنقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عشرها ، وإنما سميت البلالية لأن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراع جده أبي موسى .

الرابعة السوداء ، وهي دون البلالية بإصبعين وثلاثي إصبع ، وأول من وضعها الرشيد ، قدرها بذراع خادم أسود ، كان قائماً على رأسه . قال الماوردي : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البز والنجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة اليوسفية ، وهي دون الذراع السوداء بثلاثي إصبع ، وأول من وضعها أبو يوسف صاحب أبي حنيفة . قال الماوردي : وبها يدرع القضاة الدور ببغداد .

السادسة القصبية ، وهي أنقص من الذراع السوداء بإصبع وثلاثي إصبع ، وأول من وضعها ابن أبي ليلى القاضي . قال الماوردي : وبها يتعامل أهل كلواذئ ..

السابعة المهرانية، قال الماوردي: وهي بالذراع السوداء ذراعان وثلاث ذراع، وأول من وضعها المأمون، وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها. ومنها المقص (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة. ويتنفع به في أمور مختلفة.

الصف الثامن

(آلات اللب، وهي عدة آلات)

منها الترد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حكم القريس، وضعه أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة، من ملوكهم، ولذلك قيل له نردشير، وضعه مثالا للذخيرة وأهلها، فرتب الرقعة اثني عشر بيتا بعدد شهور السنة، والمهارة ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوص بنسابة الأفلاك، ورميها مثل ثقلها ودورانها، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة، وهي الشمس، ويقابله اليك، والبيع، ويقابله الدو، والمهارة، ويقابله الثا، وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر: نارة له ونارة عليه، وهو بصرف المهارة على ما جاءت به النقوش، إلا أنه إذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه. مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة، لكن قد وردت الشريعة بذمه قال صلى الله عليه وسلم "من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير" وفي رواية "ملعون من لعب بالنردشير". وفي تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان، أحدهما التحريم، والثاني الكراهة، وإذا قلنا حرام، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة.

ومنها الشطرنج، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان، والأولى منهما

(١) الذي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوله وفي لسان العرب أن الكسر فيه أجود لكون من

أفصح، وهو فارسي معرب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه (والمراد بها الملك) والفرزان، والفيل، والفرس، والرُخ، والبيدق، ثم الشَطْرَجُ من أوضاع حكام الهند وحكمتهم . وضعه صصه بن داهر الهندي لبهيب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه الرذ، وعرضه على حكام زمانه فقضوا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعزفه أمره، فقال : أحتمك على، فتمنى عليه عدد تضعيف بيوته، من قحمة إلى نهاية البيوت، فاستصغره ثمه وأنكر عليه مواجتهته بطلب تزويره، فقال هذه طلبي فأمر له بذلك . فسبّه أرباب دواوينه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان . فكان إعجاب به بالأمر الثاني أكثر من الأول . قال ابن خلكان : ولقد كان في نفسي من هذه المبالغة شيء حتى اجتمع بي بعض حساب الإسكندرية فأوضح لي ذلك وبينه ، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعائة وثمانية وستين حبة، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قديح، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية، ثم أنتقل من الويات إلى الإردب، ولم يزل يضعفها حتى انتهى في البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعائة واثنين وستين إردبا وثلاثي إردب، وقال : هذا المقدار شونة، ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وقال : هذا المقدار مدينة، ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين، وهو نهايتها، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة، وقال : تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد . قال الصلاح الصقدي في شرح اللامية : وأحرما اقتضاه تضعيف رقعة الشَطْرَجِ ثمانية عشر ألف ألف ست مرات، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرات،

وسبعمائة وأربعة وأربعون ألفاً أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفاً ثلاث مرات ،
وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد ونمسون ألفاً وستمائة ونمسن عشرة
حبة عدداً .

قال الشيخ شمس الدين الأنصاري : إذا جمع هذا العدد هرماً واحداً مكعباً ، كان
طوله ستين ميلاً ، وعرضه كذلك ، وأرتفاده كذلك ، بالميل الذي هو أربعة
آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله
في "المهذب" أن سعيد بن جبيرة الإمام الكبير التابعي المشهور كان يلعب الشطرنج
عن استئجار ، ومن يضرب به المثل في لعب الشطرنج الصولي : وهو أبو بكر محمد
ابن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمون كان
لا يجيد لعب الشطرنج ، فكان يقول : عجباً مني كيف أدبر ملك الأرض من الشرق
إلى الغرب ولا أحسن تديراً رقعة : ذراعين في ذراعين . ثم في حله عند أصحابنا
الشافعية ثلاثة أوجه أحصحها أنه مكروه والثاني أنه مباح والثالث حرام ، فإن أقرن به
رهن من الجانبين أو أحدهما ، فإنه محرم بلا نزاع .

الصنف التاسع

(آلات الطرب : وهي عدة آلات)

منها العود : وهو آلة من خشب محففة به عتق ورأسه ممال إلى خلفه ، وهو
آلة قديمة ، وتسميه العرب الميزهر بكسر الميم ، وهو أشهر آلات الطرب وأرفعها قدراً
وأطيبها سماعاً ، حتى يقال إنه قيل له هل يُسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال
رأسه إلى خلفه فهي ممالة لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال في "التعريف" : وهو آلة محدثة طيبة النعمة، لذيد السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مابين لشكل العود، ورأسه ممال إلى أسفل، يقال إنه قيل له : هل يُسَمَّعُ أَحْسَنُ مِنْكَ ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء) : وهي آلة مجوفة مركب عليها حُصْلَةٌ لطيفة من شعر ممر عليها بقوس وتره من شعر فيسمع لها حَسٌّ طَيِّبٌ، وأكثر من يعانها العرب .
ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكبوجة لطيف القدر في تدويره، أطيب حساً وأشجى من الرَّبَابِ .

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُجُوج، وهي المعبر عنها في زمننا بالمصراصير، حلَّ سماعه، أو بصُجُوج، فالأصح كذلك .

ومنها الشَّبَابَةُ (بفتح الشين) : وهي الآلة المتخذة من القَصَبِ المجوف، ويقال لها البِرَاعُ أيضاً تسمية لها بأسم ما اتخذت منه، وهو البراع يعني القصب، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي، وتصحيح مذهب الشافعي رضي الله عنه يختلف فيها فالرافعي رحمه الله يجيز سماعها والتبويي يمنع من ذلك .

الصننف العاشر

(المسكرات وآلاتها، وهي عدة أشياء)

منها الخمر : وهي ما اتخذ من عصير العنب خاصة . وهي محرمة بنص القرآن . قال تعالى : **زُرِّمَتْ الخمرُ وَالميسرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** . وأبو حنيفة يبيحها للتداوي والعطش، ولم يَحِّجْ عند الشافعية إلا لإساعة لقمة المغصوم خاصة، وشاربها يحد بالأنفاق، وحكم نجاستها تفليطاً في الزجر عنها، وأباح أبو حنيفة المُنْتَأَت : وهو ما ذهب ثلثه وبقى ثلثه وقال بطهارته . وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ ، وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى القول بتنجيسه والحسد بشربه وإن لم ينه منه إلى قدر يحصل منه سُكر ، ومنع أبو جنيفة الحَدَّ في القدر الذي لا يُسْكِر ،

ثم للخم أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمى الخمر لأنها تُخمر العقل : أي تغطيه ، والمُخْمِياً لأنها تُخمي الحسد ، والمُعْقَار لأنها تعاقِر الدنن : أي تطول مدتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تجاوز مائة .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذي يُصبُّ منه ، والإبريق في أصل اللغة ماله خرطوم يُصبُّ منه .

ومنها القُدْحُ : وهو إناء من زجاج ونحوه يُصبُّ فيه من الإبريق المقدم ذكره .
ومنها الكأسُ : وهو القُدْحُ بعد أمثله ، ولا يُسمى كأساً إذا كان فارغاً بل قَدْحاً كما تقدم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذي لأُعرُوة له يُسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعجب من يُذهب طبيَّاته في حياته الدنيا ، ويفوز بها وَصْفُهُ المرارة وطبعه إزالة العقل الذي به تُدرَكُ اللذة ، ويفوت النعيم المقيم في دار البقاء ! فقد ورد "أن من شرب الخمر في الدنيا لم يطعمها في الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها لا يشتمها ولم تطلبها نفسه ، وقد وصف الله تعالى حال نحر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ" . وأتبع ذلك بكال النعمة في قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَحَمِيمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْهِمًا إِلَّا أَقِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" .

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خيرا ما عندك بشر ما عندنا .
 ومنها الحشيشة التي يأكلها سفلةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء الشهدايج ،
 وعبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالقنّب الهندي ، وهي مذمومة شرعا ، مضرّة طبعاً ،
 تُفسد المزاج ، وتؤثر فيه الحفّاف وغلبة السوداء ، وتفسد الذهن ، وتورث مساءة
 الأخلاق ، وتخطّ قدر متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة
 المتكاثرة . وكلام القاضي حسين يدل على أنه لا يحد متعاطيها وإن فسق ، فإنه قال :
 وغير الخمر مثل البنج ، وجوز مائيل ، والأفيون لا يحد متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد تناوله
 فسق به ، وإن تناوله غلظاً أو للتداوي به ، لم يُفسق ؛ وقد أفرد ابن القسطلاني
 الحشيشة بتصنيف سماه "تكرمة المعبشة" ، في ذم الحشيشة " ذكر الكثير من معانيها
 ومساوي متعاطيها ، أعادنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

(مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكرهه^(١) ، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم والليلة)

أما ما يقع عليه اسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب "مناهج
 الفكر" : توأخات الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكا ، وقال ابن قتيبة
 في "أدب الكاتب" : الفلك مدار النجوم الذي يضمها ، وأحتج بقوله تعالى بعد

(١) في القاموس الأكره لغة في الكره . وقد جمعها المؤلف على هذه اللغة وفي اللسان أن أكره جمع كره

مقلوب اللام إلى موضع الفاء فأنقره .

ذكر النجوم : "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" قال : وسمى فلَكًا لاستدارته ومنه قيل فلَكَةُ المِفْزَلِ لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكُرَّة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكرهه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أكرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محذب كل كُرَّة سفلى مفر كُرَّة أخرى عليا إذ لا خلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقرب هذه الأكر إلى الأرض كُرَّة القمر ، ثم كُرَّة عطارد ، ثم كُرَّة الزهرة ، ثم كُرَّة الشمس ، ثم كُرَّة المريخ ، ثم كُرَّة المشتري . ثم كُرَّة زحل ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة ، ثم كُرَّة الفلك الأطلس ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط . ويسمى فلك الكل ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأعلى . والفلك الأعظم ، وحكى النوحى (١) في "كتاب الآراء والديانات" أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَّة الشمس أعلى من سائر كُرَّات الكواكب ، وبعدها كُرَّة القمر ، وبعدها كُرَّة الكواكب المتحصرة ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاعتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرسي ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكُرَّة التاسعة كُرَّة عاشره هي المحركة لسائر الأكر . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لا نهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالم الصورة ، ثم عالم النفس ، ثم عالم السياسة ، ثم عالم العلة الأولى . ويعتون به البارئ تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أمهله في الأصل ولم نثر عليه بعد البحث .

وأما ما بين كل كُرْتَيْن ، فذهب أهل الهيئة إلى أنها متراصة لاختلاف بينها لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق المُصَاصُ من أهل الأثر على أن بين كلِّ سماء وسماء خمسمائة سنة ، وفي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ "بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليومية ، فإن الفلك الأطلَسَ المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم واليلة حركة واحدة دورية على قطبين مائتين يسميان قُطْبَي العالمِ أحدهما عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة مُعدِلِ النهار ، لأن الشمس متى حلت بها ، أعتدل النهار في سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على نقطتين متقابلتين ، يصير نصفها في شمالي مُعدِلِ النهار ونصفها الآخر في جنوبيه ، ويسمى منطقة البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية ، ومن ثم قسمت آثني عشر قسما ويسمى كلُّ قسم منها برجاً .

المقصد الثاني

(في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الكواكب السبعة السيارة)

وهي زُحَلُ ، والمُشْتَرِي ، والمَرِيخُ ، والشَّمْسُ ، والزُّهْرَةُ ، وعُطَّارِدُ ، والقمر ، ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وأشْتِقَاقِ أسمائها ، ومقادير أبعادها من الأرض ، وقدر مَحَطِّ كل كوكب منها .

(١) في المواضع للقرزى - | أو يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة دائرة مُعدِلِ النهار . | فخل في عبارة الأصل سقفاً من الناحية ويرد .

فأما القمر ، فأخوذ من القمرة : وهى البياض ، سمي بذلك لبياضه ، وقد تقدم أن فلکة أقرب الأفلاك إلى الأرض ، وهو المعبر عنه بالسما الدنيا ، ودوره ألف ومائة وخمسة وثمانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعده عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلاً ، وهو يسمى هلالاً الليلة الأولى والثانية والثالثة ، ثم هو قمر إلى آخر الشهر ، ويسمى في ليلة أربع عشرة بالبدرة ، قيل لمبادرته الشمس ^(١) قبل الغروب ، وقيل لتماه وأمتلانه كما قيل لعشرة آلاف بكرة لأنها تمام العدد ومتناه ، ويسمى ليلة في آخر الشهر ، وربما استمرّ ليلتين فلا يرى بمعنى أنه يخفى فلا يرى ، ويسمى هذا الاختفاء السرار .

وأما عطارد ، فعناه النافذ في الأمور ، ولذلك سمي الكاتب ، وهو في الفلك الثاني بعد فلک القمر ، ودوره قرصه سبعمائة وعشرون ميلاً ، وهو جزء من اثنين وعشرين جزءاً من الأرض ، وبعده ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمانمائة ميل .
وأما الزهرة ، فأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ، وهى في الفلك الثالث من القمر ، ودوره قرصها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وستائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المحففة لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سفلية : وهى القمر وعطارد والزهرة ، وبين ثلاثة علوية : وهى المريخ والمشتري وزحل ، وذلك أنها فى الفلك الرابع من القمر ، ودور قرصها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً ، وهى مثل الأرض مائة وست وستون مرة وربع وعن مرة ، وبعدها عن الأرض ثلاثة آلاف وخمسة آلاف وأثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

(١) أى يطوئه قبل غروب الشمس .

وأما المَرِيحُ ، فإخوذ من المَرِيحُ : وهو شجرٌ تَحْتَكُ أغصانه فتورى النارَ ، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل المَرِيحُ في اللغة هو السهم الذى لا ريش له ، والسهم الذى لا ريش له يلتوى في سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه في سيره ، وهو في الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرةً ونصفاً ، وبعده عن الأرض ثلاثة آلاف وتسعمائة ألف وأثنى عشر ألفاً وثمانمائة وستة وستون ميلاً .

وأما المُشْتَرَى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشتري الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ، وهو في الفلك السادس من القمر ، ودورُ قرصه أحد وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلاً ، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرةً ونصف وثمن مرةً ، وبعده عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفاً ومائتا ميل .

وأما زُحَلُ ، فإخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ ، سمي بذلك لبطئه في سيره ، وقد قسره بعض المفسرين قوله تعالى "النجم الثاقب" ودورُ قرصه تسعون ألفاً وسبعمائة وتسعة عشر ميلاً ، وبعده عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلاً ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَاتِلِ ، ويسمون المَرِيحَ الأحمرَ ، ويسمون عَطَّارِدَ الكَاتِبِ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم فيسمون زُحَلَ كِيَوَانَ ، والمُشْتَرَى تيرَ ، والمَرِيحَ بهرامَ ، والشمسَ مهرَ ، والزهرةَ أناهيدَ ، وعطَّارِدَ هرمسَ ، والقمرَ ماهَ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ حَرَكَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا قَسْرِيَّةٌ ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ بِحَرَكَةِ فَلَكَ الْكُلِّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَرَكَةً تَامَةً ، وَتَسْمَى الْحَرَكَةُ السَّرِيعَةَ ، وَالْآخَرَى حَرَكَةً ذَاتِيَّةً يَتَحَرَّكُ فِيهَا هُوَ بِنَفْسِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَسْمَى الْحَرَكَةُ الْبَطِيئَةَ ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ، وهذه الحركة في القمر أبينُ لسرعة سيره ، إذ يقطع الفلكَ بالسير من المغرب إلى المشرق في كل ثمانية وعشرين يوماً مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمنالين ، أحدهما بحركة السفينة براكها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثاني تحرك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشمال والدُولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثاني

(الكواكب الثابتة)

وهي الكواكب التي في الفلك الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جداً ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب في اليوم واللييلة ، والذي يُحتاج إلى ذكره منها الكواكب المشهورة مما تُتعرّف به الأزمنة على ما تقدم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه . وهي ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(نجوم البروج التي تنتقل فيها الشمس في فصول السنة)

وهي اثنتا عشرة صورة في آسفي عشر برجاً ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جنُوبية وشمالية ، وبعضها من كواكب متفرقة لا تناسب إلى صورة .
الأول الحمل : وهو الكبش ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مُقدَّمة في المغرب ومؤخره لشرق ، وأول ما يطلُّ منه قَمُّ وهو الكواكب الجنوبي المنقرده من

الكوكبين الشماليين من مَفْصِلِ اليَدِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليمنى الكوكبُ الشَّمَالِيُّ المَضِيءُ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خَفِيُّ بِقَرَبِ الشَّمَالِيِّ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى لَحْيَيْهِ آخَرُ مِثْلُهُ ، وعلى مَفْصِلِ يَدِهِ الكوكبانُ الشَّمَالِيَانِ اللَّذَانِ عَلَى عَقِبِ الرَّجْلِ الْيَسْرَى مِنَ الثَّرِيَا ، وهو الذي يقال له البَطْنِيُّ ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشمال ، وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجلٌ واحدة ، والثريا على طرفِ أَلْتِهِ .

الثاني الثَّوْرُ : وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مَقْدَمُهُ إِلَى الْمَشْرِقِ وَمُؤَخَّرُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وظهره إلى الشمال ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة كواكب تسمى القَطْعُ أَي هِيَ مَوْضِعُ ذَنْبِهِ الْمَقْطُوعِ ، والدَّبْرَانُ وَجْهُهُ ، وركن الدَّبْرَانِ قَمُهُ ، والكوكب المَضِيءُ الَّذِي فِي الدَّبْرَانِ عَيْنُهُ ، وكوكبان خارجان عن الدَّبْرَانِ فَرْدَةٌ قَرْنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبْرَانِ نَفْسِهِ إِلَى الشَّمَالِ ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبه بالمقْطُوعِ الَّذِي جُمِلَ خَدُّهُ عَلَى رَأْسِ عُنُقِهِ وَيَدَاهُ مَنْحَطَتَانِ إِلَى الْجَنُوبِ ، ويظهر منه رجلٌ واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أَبْرَأُ ، والثريا خارجة عنه إلى الشمال وكذلك اللَّطَّاعَةُ ، وهي ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبْرَانِ وليسنا من صورته .

الثالث التَّوَمُ : وهو المعبر عنه في أَلْسِنَةِ النَّاسِ بِالْحُوزَاءِ . قال الحسين بن يونس الحاسبُ في كتابه في "هيئة الصَّوَرِ الفَلَكِيَّةِ" : والناسُ مَخْطُونَ فِي ذَلِكَ وَإِنَّمَا الْحُوزَاءُ هِيَ الصَّوْرَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْحَبَّارِ فِي الصُّوَرِ الْجَنُوبِيَّةِ ، وقدم التَّوَمِ الْأَيْمَنُ بَعْضُ كَوَاكِبِ الْجَبَّارِ الَّتِي عَلَى تَاجِهِ . قال : والتَّوَمِ عَلَى خَطِّ وَسْطِ السَّمَاءِ جَسَدَانِ مُتَصِفَانِ بِرَأْسَيْنِ ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة ، والرأسان في جهة المشرق ، ورجلاهما في جهة المغرب ، والذراع الشامخ هو الرأسان ، ويده

البيئى، وهى التى فى جهة الشمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذراع اليمانى يسمى الشمرى الغميصاء، ويده اليسرى ممتدة إلى التوابع.

الرابع السرطان : وهو صورة سرطان على وسط السماء، رأسه إلى الشمال ومؤخره إلى الجنوب، والنثرة على صدره، وعينه كوكبان خفيان تحت النثرة يدعيان بالحارين وزبانه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضواء من الآخر، يكونان شماليين من التوابع ومؤخره كف الأسد.

الخامس الاسد، فى وسط السماء، قفه مفتوح إلى النثرة، وعلى رأسه كواكب مضبثة، والطرف على عنقه، والجهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبى المضىء، من النثرة وهو عظيم النور، وكأهله كواكب خفية خارجة عن الطرف والجهة إلى الشمال والخراتان خاصرتيه، والصفرة ذنبه، وكفه المتقدمة فى آخر السرطان، وكفه الأخرى بعده هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلى من الخراطين إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للمشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجهة شمالي منها، وسائر فقاراته إلى المشرق.

السادس العذراء، فى وسط السماء. قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السنبلية، وهو خطأ، وإنما هى حاملة السنبلية، ورأسها فى الشمال بميلة إلى المغرب ورجلها فى الجنوب، وهى مستقبلة المشرق وظهرها إلى المغرب. قال : ورأسها كواكب صغار مستديرة كأستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخراطين ومنكباها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجناحها الأيمن ستة كواكب كهيئة الجناح.

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كفتها إلى جهة المشرق وقبها إلى جهة المغرب، والسالك الأعزل على قبها من الجهة اليمانى ومقابلته كوكب آخر على قبها

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فليل تأييد المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهة الشمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلى المغرب على علاقتها، وهو على قصبة السنبلة، وكوكبان من الغفر على محامله مع كواكب آخر، وزبانيا العقرب كفتاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عقرب على وسط السماء، رأسه في المغرب وذنبه في المشرق، وإحدى رجليه في الجنوب، والأخرى في الشمال، والغفر على رأسه والزبانيا اللذان هما كفتا الميزان زبانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإنكيل، والإنكيل على صدره، والقلب هو قلبه، ونياط القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما، وهو خارج عنهما إلى الشمال، والشولة ذنبه، والكواكب التي على طرفها جبهته، وإرته أطخة مستطيلة فيما بين الشولة والنعام الصادرة، ففيه من منازل القمر خمس منازل: وهي الغفر، والزبانيا، والإنكيل، والقلب، والشولة، وأظهر ما تكون صورة العقرب وهو على الأنف عند الغروب، ففيه من منازل القمر ثلاث منازل: الإنكيل والقلب والشولة .

التاسع القوس، ويسمى الرامي، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان نفوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال ورجلاه في الجنوب، والنعام الواردة على وسطه، وهو على الجسد الذي يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه أطخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب تدعان أي النعام، والبلدة على مقبض القوس ويده اليمنى قابضة على رأس السم، وهي كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها .

العاشر الجدي: وهو صورة جدي مستلق على ظهره مقدمه في المغرب ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويده ورجلاه إلى الشمال، وهو شبيه بالمنقلب إلى القوس

(١) كذا في المخطوط ولم يند إلى ايضاحه .

وقرناه إلى بطنه ، وفه إلى القوس ، وليس له إلا يد واحدة ، والكوكب الشمالي من سعد الذابح أحد قرتيه ، والجنوبي منه قرنه الآخر ، وكوكب آخر خفي تحت سهم القوس غربى سعد الذابح قه ، وعلى كتيفه سعد بلع ، وعلى وركه سعد السعود ، والمضى ، من سعد السعود حق وركه وشق الحوت الجنوبي على ظهره ، وطرف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب الالامخ فيها خفاء ، وطرف رجله الكوكب المسعى رأس الدلو .

الحادى عشر الدلو : وهو صورة رجل قائم بيده دلو ، رأسه إلى الشمال ، ورجلاه إلى الجنوب ، وظهره إلى المشرق ، ووجهه إلى المغرب ، والكواكب التي تسمى الحباء من سعد الأخبية رأسه ، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل إلى الدلو الذي عن يمينه ، وسعد الأخبية مرققه الأيسر ، وبطنه يسمى الحزة ، ودلوه أربعة سعد من السعود السبعة التي ليست من منازل القمر ، هي سعد نائرة ، وسعد الملك ، وسعد الهمام وسعد المانح ، وكل سعد منها كوكبان ، وعلى رجله اليسرى كوكب عظيم النور ، وعلى رجله اليمنى كوكب أبيض يقرب في العظم من الذي قبله ، والفرغ المقدم خارج عن صورته إلى الشمال .

الثاني عشر الحوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التي تسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهي شمالية ، والثانية جنوبية عنها ، وهي أطول منها وأخفى الكواكب ، والكواكب السبعة السيارة ترسم الجنوبية منهما بمسيرهن ، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السعود السبعة التي من غير منازل القمر هي سعد الهمام وسعد البارع وسعد الماطر ، وليس القرغ المؤخر في جسم الحوت بل خارج عنه إلى الشمال والمغرب .

الصف الثاني

(نجوم منازل القمر التي ينتقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه) وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الأثني عشر المتقدمة .
 الأولى الشَّرَطَانِ ، والشَّرَطَانِ تثنية شَرَط ، وهو العلامة كأنه سمي بذلك لمكانه علامة على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا النَّطْح والنَّاطِح : لأنها عند أصحاب الصور قرنا الحمل ؛ وهما كوكبان يَبْرَان بينهما قَابُ قَوْسَيْنِ ، أحدهما في الشَّال والآخر في الجنوب إلى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب أطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمّى بعضهم هذه المنزلة الأشرط على الجمع لا على التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت في المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر مضى وتحتة آخر خفي والثالث في الشَّال وهو أحمر مضى .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتي ذكره في جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثل أثافي القَدْرِ : وهي الشكل المثلث الذي ينصب عليه القَدْر عند الطبخ ؛ وهي على القرب منها في موضع بطن الحمل من الصورة ؛ وواحد منها مضى ، وأثنان خفيان ، والخفيان يَطْلَعَان قبل المضى .

الثالثة الثَّرِيَاءُ ، ويسمى النجم عامًا عليها ، وبه فسر قوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدًا كالرشاش ، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع الشَّرَطَيْنِ والبُطَيْنِ ؛ وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الانخاد منها ؛ وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَبِ الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها آيَّة الحمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تالي النجم لكونه يطلع نيلو الثريا ، وربما سمي حادي النجم لذلك ، ويسمى أيضا المجدح وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضى ، أحمر عظيم النور ، وأسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضى ، هو آخر ما يطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القرييين منه : كآباه ، والباقي غنمه ، وربما قالوا : قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم : إن الدبران خطب الثريا إلى القمر فقالت : ما أصنع بسبروت ؟ فساق إليها الكواكب المدماة بالقلاص مهرا ، فهربت منه فهو يطلها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : "أوفى من الحادي وأغدر من الثريا" .

الخامسة الهقعة ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون في عنق الفرس ، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل ؛ وهي ثلاثة كواكب محيية صبغار تسمى الأثافي ، وهي على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهتعة : وهي خمسة أنجم على شكل الصولجان : أربعة منها على خط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف إلى جهة الجنوب مقدار شبر في رأي العين ، وسميت هتعة لأنعطافها أخذنا من قولهم : هتعت الشيء إذا عطفتسه ، وبعضهم يسميها النحية ، وهي عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهتعة قوس الجوزاء يرمي بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضها النجان اللذان يقال

(١) المراد بالحادي الدبران كما تقدم في كلامه ، وكما يشير إليه قول الشاعر : « كما وفي خلاص النجم حاديها »
ورقم في الأصل الجازي وهو تصحيف .

(٢) الذي في القاموس واللسان في مادة (ه ن ح) أنها تحوية وجمها تحاني .

لها المنعة ، وبعضهم يقول : إن المنعة كوكبان مقترنان ، الشمالي منهما أضوءهما
وحداهما ثلاثه كواكب تسمى التَّحَايِي ربحا عدل القمر فتزل بها .

السابعة الذراع : وهي كوكبان : أحدهما نير والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط فرأى
العين ، وفيها بينهما كواكب صغار تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المنزلة بالذراع
لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان : مقبوضة وفيها ينزل القمر ، وهي
جنوبية ، وسميت مقبوضة لأن الأخرى أرفع منها في السماء ، ولهذا سميت مبسوطة ،
وهي مثلها في الصورة ، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع في صورة الكلب الأصغر ،
وربحا عدل القمر عن المقبوضة فتزل بها .

الثامنة الثرة ، وهي نطحة كقطعة سحب يجعلها أصحاب الصور على صدر
السَّطْرَان . وسميت ثرة لأن إلى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على متبخري
الأسد ، وتسميها الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشئ ثره
من أنفه ، ويقال إنها فم الأسد ومنخراده ، وتسمى الأثمة أيضا وتشبه بالمعاقف .

التاسعة الطرف ، وهي كوكبان خفيان مقترنان بين يدي الجبهة ، سمي بذلك
لموقعهما موقع عيني الأسد ، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار
أثنان منها في نسي الطرف ، والأربعة البواق بين يديه .

العاشرة الجبهة ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلى الشرق ، فهي لذلك على
شكل مثلث مستطيل القاعدة قصير الساقين ، وإلى الجنوب عنها نجم أحمر مضى ،
جدًا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون في الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون
الجبهة على كتيف الأسد .

الحادية عشرة الخراجان ، وتسمى الزبرة وعريف الأسد والزبرين ، وهما كوكبان
تيران بينهما في رأى العين مقدار ذراعين ، وهما معقضان ما بين المشرق والمغرب ،

يبتدان عند التوسط مع خط الاستواء، وسما الخمراتان تشبهها بتقنين في السماء، ومنه تحرت الإبرة، وتحتم هذين النجمين تسعة أنجم صفار. وسميت الزهرة لشعر يكون فوق ظهر الأسد مما يلي خاصرته، وعدوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان هما الخمراتان والتسعة الشعر.

الثانية عشرة الصرفة: وهي كوكب نير، وهو عند أصحاب الصور قنْبُ الأسد والقنْبُ وعاء القضيْب، وبالْقَرْب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغلة طمس ملاصقة له، وسمى هذا الكوكب بالصرفة لأنصرف الحَرَّ عند طلوعه مع الفجر من المشرق وأنصرف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن فصل الزمانين، وبشكل مع الخمراتان مثلثا له زاوية قائمة وإحدى ساقيه أطول من الأخرى وفي قاعدته قِصْر.

الثالثة عشرة العواء، وهي نحسة كواكب نيرة على شكل لام، كان اعتبر ابتداءها من الشمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لها أيضا وركي الأسد، وتشبهها العرب بكلاب تعوى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العواء وأصحاب الصور يجعلونها في السنبلة على صدرها.

الرابعة عشرة السماك، وهو السماك الأعزل: وهو كوكب نير يميل لونه إلى الزرقة وسمى سماكا لكونه قريبا من سميت الرأس، وسمتُ الرأس أعلى ما يكون من الفلك وسمته العرب الأعزل لأنه يطلع إلى جانبه نجم مضى، يسمونه السماك الراجح لكوكب صغير بين يديه، والأعزل لاشيء بين يديه ففرق بينهما، وأحدهما جنوبي، وهو المترلة، وأصحاب الصور يثبتون السماكين: الأعزل والراجح في صورة العذراء، وهي السنبلة، والعرب تجعلها ساق الأسد، وربما عدل القمر فتزل بعجز الأسد، وهو أربعة كواكب بين يدي السماك الأعزل، يقال لها عرش السماك، وتسمى أيضا

(١) في لسان العرب كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون.

الحبَاءُ، والأَحْمَالُ، والقُرَابُ، وهذه المنزلة حد ما بين المنازل الجمانية والمنازل الشامية،
فإِذَا كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَطْلَعِهِ فَهُوَ بِمَائِي، وَهُوَ شِقُّ الْجَنُوبِ، وَمَا كَانَ فَوْقَهُ فَهُوَ شَامِي،
وَهُوَ شِقُّ الشَّمَالِ.

الخامسة عشرة العَقْرُ، ثلاثة كواكب خفية على حَظِّ فِيهِ تَقْوِيسٌ، وَاسْمِيَتْ بِذَلِكَ
لِحِفَاتِهَا مَاخُوذَةٌ مِنَ الْمُعْفِرَةِ الَّتِي تَسْتُرُ الذَّنْبَ وَتُخْفِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهَا الْمُعْفِرُ الَّذِي
فَوْقَ الرَّاسِ، وَقِيلَ لِأَنَّهَا زَبَانِي الْعَقْرِبِ، وَقِيلَ مَاخُوذَةٌ مِنَ الْعَقْرَةِ: وَهِيَ الشَّعْرُ الَّذِي
فِي طَرَفِ ذَنْبِ الْأَسَدِ، وَأَصْحَابُ الصُّورِ يَجْعَلُونَهَا بَيْنَ سَائِيِ الْأَسَدِ.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ، وَهُمَا كَوْكَبَانِ نَبْرَانِ هُمَا عِنْدَ الْعَرَبِ يَدُ الْعَقْرِبِ يَتَرَسَّ
بِهِمَا: أَيْ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَصْحَابُ الصُّورِ يَجْعَلُونَهُمَا كَفَتِي الْمِيزَانِ، وَبَيْنَهُمَا فِي رَأْيِ
الْعَيْنِ قَدْرُ قَامَةِ الرَّجْلِ.

السابعة عشرة الإِثْكَالِيُّ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ كَوْكَبٍ مَجْتَمِعَةٌ فِي حِفَاءِ الْعَقْرِ مُصْطَفَةٌ
مُعْتَرِضَةٌ، بَيْنَ كُلِّ كَوْكَبٍ وَكَوْكَبٍ مِنْهَا قَدْرُ ذِرَاعٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا
فَوْقَ جِهَةِ الْعَقْرِبِ كَالْتَلَاجِ، وَهِيَ عِنْدَ أَصْحَابِ الصُّورِ عَلَى عَمُودِ الْمِيزَانِ.

الثامنة عشرة القَابُ، وَهُوَ كَوْكَبٌ أَحْمَرٌ نَيْرٌ مُضْطَرِبٌ قَرِيبٌ مِنَ الْجِهَةِ بَيْنَ
كَوْكَبَيْنِ خَفِيَيْنِ تَسْمِيَهُمَا الْعَرَبُ نِيَّاطِي الْقَلْبِ أَيْ هِلَاقِيهِ، وَاسْمُهُ أَصْحَابُ الصُّورِ
قَلْبًا لَوُقُوعِهِ مَوْضِعَ الْقَلْبِ مِنْ صُورَةِ الْعَقْرِبِ، وَالْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ هَذَا أَحَدُهَا، وَالثَّانِي
قَلْبُ السَّمَكَةِ، وَالثَّلَاثُ قَلْبُ الثَّورِ، وَالرَّابِعُ قَلْبُ الْأَسَدِ. وَحَيْثُ ذَكَرَ الْقَلْبَ عَلَى
الإِطْلَاقِ دُونَ إِضَافَةِ فَالْمُرَادُ قَلْبُ الْعَقْرِبِ هَذَا.

التاسعة عشرة الشُّوْلَةُ، وَهِيَ كَوْكَبٌ مُتَقَاطِرَةٌ عَلَى تَقْوِيسٍ فِي بَرَجِ الْعَقْرِبِ أَشْبَهَ
شَيْءٌ بِذَنْبِ الْعَقْرِبِ إِذَا سَاقَتْ، وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ الشُّوْلَةُ، وَفِي الشُّوْلَةِ كَوْكَبَانِ خَفِيَّانِ

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمّة ، وحلفهما نجم صغير لا يزالهما يقال له التابع ، وقال قوم : إنما ينزل القمر الشولة على المحاذاة ولا يخط إليها لأنها منحدرّة عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القناب والشولة ، وهي ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعّام ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة عمّانية نيرة تشكل مربعا فيه أطراف تسمى الواردة وهي المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من الحجرة شبت بنعّام وردت نهرا ، والأربعة الأخرى تسمى النعّام الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من الحجرة شبت بنعّام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المنزلة عند أصحاب الصور واقعة في يد الرامي الذي يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البلدة ، وهي فرجة في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبلدة في كلام العرب الفرجة من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البلدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صغار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأذخ لأن بالقرب منها كواكب تسمى العرب البيض لقربها من النعّام ، وربما عدل القمر فنزل بالأذخ ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة على جبهة الرامي .

الثانية والعشرون سعد الذابح ، وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب سمي سعدا لأنهمال الأمطار في أيام طلوعه ، وسمى ذابحا لقوة البرد في إبّان طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمي ذابحا لأن بالقرب من نجم الشمال نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شاته التي تذبح ، ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب
 الكتاب ؛ وأصحاب الصُّور يثبتون هذا السعد في موضع قرنى الجدى من الصورة .
 الثالثة والعشرون سعد بُلَع ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابح في المسافة التي
 بينهما لكن أحد الكوكبين خفي ، وهو الذي يُلَعه ؛ وهذا السعد عند أصحاب الصُّور
 على كعب ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وسمى بُلَع لأنه في أيام طلوعه
 تفيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكان الأرض ابتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلع في الوقت
 الذي قيل فيه " يَا أَرْضُ أَلْبِي مَاتِكَ وَيَأَسْمَاءُ أَقْلِي " زمن نوح (عابه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعود ، وعدته كوكبان أيضا على ماتقدم في السعدين من
 البعد ، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآحران دونه في النور ؛ وأصحاب الصُّور
 يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وربما قصر القمر فنزل
 سعدا نأشرة ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمى أصحاب الصور نجمة بالمحبين ،
 وهما في مؤخر الجدى ، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخبية ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول :
 إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بطئة والكوكب هو السعد
 والثلاثة الخباء ؛ ومنهم من يجعل الكوكب الذي في وسط الثلاثة عمود الخباء ،
 وهو عند أصحاب الصُّور على الكيف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى
 سعد الأخبية لخروج المحببات فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به
 لأخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفرع المقدم ، ويقال فيه مقدم الدلو والفرع الأول والفرع
 الأعلى وعرقوة الدلو العليا ، وهو كوكبان نيران بينهما في رأى العين نحو من نحسة
 أذرع ؛ وأصحاب الصُّور يزعمون أن الشمالي منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون القَرُغُ المؤخَّرُ، ويقال له مؤخر الدَّلْوِ السُّفْلَى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدم، احدهما شمالي والآخر جنوبي، وهما عند أصحاب الصور على مؤخر القوس، وربما قصر القمر فنزل في الكَرَبِ الذي في وسط العَرَّاقِ، وربما نزل ببلدة الثعلب.

الثامنة والعشرون الحُوتُ، وهو آخر المنازل، ويقال لها السَّمَكَةُ، وتسمى الرَّشَاءُ أيضا، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال ودنِّها في جهة الجنوب، وفي الشرق منها كوكب نير، يسمى سُرَّة الحُوت، وبطن الحوت، وبطن السمكة، وقلب السمكة، وربما عدل القمر فنزل بالسمكة الصغرى، وهي من السمكة الكبرى في الشمال مثل صورتها إلا أنها أعرص منها وأقصر، وأصحاب الصور يجعلون الكوكب النير من الحوت في حد المرأة المسلسلة، ورأسها هو الشمالي من القَرُغِ المؤخَّر.

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ما ليس داخلًا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهي عدة نجوم .

منها بنات نعش : وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة، وهي المعبر عنها بالبنات، وتُعرف هذه بنات نعش الكبرى، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها .

ومنها الجدي الذي تعرف به القبلة، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالي يستدل به على موضع القطب، ويقال له جدي بنات نعش الصغرى .

ومنها الفَرْقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معدودان في بنات نعش .
ومنها السَّمَا ، وهو كوكب خفي في بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به
أبصارهم لخفائه .

ومنها السَّمَاك الرَّاحُحُ ، وهو غير الأعرزل المقدم ذكره في منازل القمر ، سمي راححا
لكوكب يقدمه ، تقول العرب : هو رُحْمُهُ بخلاف الأعرزل فإنه الذي لأرْمَحٍ معه .

ومنها النَّسْرُ الوَاقِعُ ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثنافى ، سمي الواقع لأنهم يجعلون اثنين
منه جناحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْرُ الطَّائِرُ ، سمي بذلك لأنهم يجعلون اثنين منه جناحيه ، ويقولون : قد
بسظهما كأنه طائر ، والعامّة تسميه الميزان .

ومنها الكَفُّ الحَضِيبُ ، وهو كف التُّرْبِ المَبْسُوطَةُ ، ولها كف أخرى يقال
لها الجُدْمَاءُ ، وهي أسفل من الشَّرْطَيْنِ .

ومنها العَيُوقُ ، وهو في طَرْفِ الحِجْرَةِ الأَيْمَنِ ، وعلى أثره ثلاثة كواكب يَنْبَغُ يقال
لها الأَقْلَامُ ، وهي من مواقع العَيُوقِ .

ومنها سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ولقربه من الأفق كأنه
أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قتيبة : ومطلعه عن يسار
مُسْتَقِيلِ قِبَلَةِ العِرَاقِ . قال : وهو رُؤْيُ فِي جَمِيعِ أَرْضِ العَرَبِ ، ولا يرى في شيء
من بلاد أَرْمِينِيَّةٍ .

ومنها الشَّعْرِيَّانِ : العَبْرُ ، وكانت تعبد في الجاهلية لقوله تعالى : ” وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَى ” وهي في الجوزاء ، والشَّعْرَى الغَمِيضَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب
يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة، وسعد المليك، وسعد اليهام، وسعد الهمام، وسعد البارح، وسعد مطر، وكل سعد منها كوكبان . بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع فهي متناسقة، وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدمة في منازل القمر؛ تكون جملة السعود عشرة .

فإذا عرّف الكاتب أحوال الأفلاك والكواكب وأسمائها وصفاتها، عرف كيف يصفها عند احتياجه إلى وصفها، وكيف يعبر عنها عند جريان ذكرها .

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلَّتْ تَبِيُّ وَتَرَقَّى لِلْعَلَا أَبَدًا ۝ مَا دَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَحْكَامُ
مَهْرٍ وَمَاهٍ وَكِبْوَانٍ وَتَبْرُ مَعَا ۝ وَهَرْمِسٌ وَأَنَاهِدٌ وَبَهْرَامُ

مشيرا بذلك إلى ذكر الأفلاك السبعة، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها .

وكما قال الطُّقْرَتَانِي فِي لَامِيَةِ الْمَجْمَعِ :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي - فَلَا عَجَبٌ ۝ لِي أُسْوَةٌ بِالْمَحْطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ

مشيرا إلى كون فلک زُحَلٍ أعلى من فلک الشمس لما تقدم أنها في الرابع، وهو في السابع .

وكما قال بعضهم يصف خُضْرَةَ السَّيَاءِ، وما لها من الكواكب :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، وَالشَّهْبُ فِيهَا ۝ وَأَصْفَرُهَا لِأَكْبَرِهَا مَزَاجِمْ
بَسَاطُ زُمُرْدٍ بُرْتُ عَلَيْهِ ۝ دَنَائِرٌ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمُ

وكما قال ذوالرِّمَّةِ وَقَدْ ذَكَرَ التَّرِيَاءُ :

يَدْفُ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا ۝ فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ

بِعَشْرِينَ مِنْ صُغْرَى النُّجُومِ كَأَنَّهَا ۝ وَإِيَّاهُ فِي الْخَضْرَاءِ لَوْ كَانَ يَنْطَلِقُ

فَلَا تُصْحَبُ رَاكِبٌ مَتَعَمَّ * إِلَى الْمَاءِ مِنْ جَوْزِ التَّنُوفَةِ مُطْلَقٌ

مشيراً إلى ما تقدم من خِطْبَةِ الدَّبْرَانِ التَّرِيّاً وَهَرَبِهَا مِنْهُ وَإِمَارِهِ إِيَّاهَا بِالْقَلَانِصِ :
وهي النجوم التي حولها .

وكما قال أبو الفرج البَغَا ذَا كَرَا حَالٍ مَخْتَفٍ يُرْجَى لَهُ الظُّهُورُ :

سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السِّرَارِ وَأَيْمًا * هَلَالٌ تَوَارَى فِي السِّرَارِ فَمَا خَلَصَ

مشيراً بذلك إلى حالة تَوَارَى الْقَمَرِ حَالَةَ السِّرَارِ عِنْدَ إِهْلَاكِهِ .

النوع التاسع

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العُلُوبَاتُ مما بين السماء والأرض ،

وهي على أصناف)

الصفنف الاوّل .

(الريح)

وهي مؤنثة ، يقال هبت الريح تهبُّ هبوباً ، وتجمع على رياح ، وقد دل الاستقراء على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب ، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت في معرض الرحمة ، كانت بلفظ الجمع . قال تعالى في جانب العذاب : " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ " وقال : " إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا " وقال في جانب الرحمة : " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ " وقال جلّت قدرته : " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ بَعْضًا " إلى غير ذلك من الآيات . ومن ثمّ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدت الريح قال : " اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا " وقد ورد القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي يرسلها ، قال تعالى : " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ بَعْضًا "

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فيتنكس ويتعامل على الهواء ويحركه الهواء بشدة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولى الصَّبا : وهى التى تاتى من المَشْرِيقِ ، وتسمى القَبُولُ أيضا : لأنها فى مقابلة مُستقبلِ المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية : لأنها تاتى من مَشْرِيقِ الشمس ، وهى التى نُصِرَ بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ” نُصِرْتُ بالصَّبا “ .

الثانية الدُّبُورُ ، ومهَّبا من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي ، وسميت الدُّبُورَ لأن مستقبل المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لهبوبها من جهة المغرب ، وبها هلكت عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ” وأهلكت عاد بالدُّبُورِ “ .

الثالثة الشَّمالُ ، ويقال فيها شمال وشمالٌ وشاملٌ ومهموزا وغير مهموز ، ومهَّبا من حد القطب الشمالى إلى مغرب الشمس ، وسميت شمالا لأنها على شمال من استقبال المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البحرية لأنها يُسار بها فى البحر على كل حال .

الرابعة الجنوبيَّة ، ومهَّبا من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية القِبْلِيَّةَ لأنها تاتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المَرِيْسِيَّةُ لأن فى الجهة القبلىة بلاد المَرِيْس : وهم ضرب من السودان ، وهى أردأ الرياح عند أهل مصر . وقال النحاس : وكل ریح جاءت من مَهَيِّ ريحين تسمى النُّجْجاء ، سميت بذلك لأنها نكبت عن مهَّاب هذه الرياح وعدلت عنها ، قال فى ” فقه اللغة “ : وإذا

جاءت بِنَفْسٍ ضَعِيفٍ وَرَوْحٍ فَهِيَ النِّسِيمُ ؛ وَإِنْ أَبْتَدَأَتْ بِشِدَّةٍ قَبِيلَ لَهَا النَّابِغَةُ ؛ فَإِنْ حَرَكْتَ الْأَعْصَانَ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَقَلِمْتَ الْأَشْجَارَ قَبِيلَ زَعْرَعٍ ؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِالْحَصْبَاءِ قَبِيلَ حَاصِبَةٍ ؛ فَإِذَا هَبَّتْ مِنَ الْأَرْضِ كَالسَّحَابِ نَحْوَ السَّمَاءِ قَبِيلَ لَهَا إِعْصَارٌ . وَقَدْ وَرَدَ بِهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ “ ، وَالْعَامَّةُ تَسْمِيهَا الرُّوْبَعَةَ ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يَشِيرُهَا ، وَمَنْ تَمَّ سَمَاهَا التَّرْكُ نَعِيمٌ بِكَ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ؛ فَإِذَا كَانَتْ بَارِدَةً ، فَهِيَ الصَّرَصَرُ . وَقَدْ وَقَعَ ذِكْرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا “ ؛ فَإِذَا لَمْ تُنْقِضْ شَجَرًا وَلَمْ تَحْمَلْ مَطَرًا ، فَهِيَ الْعَقِيمُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ عَادَ : ” إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ “ كَانَتْ لِامْطَرٍ فِيهَا .

المصنف الثاني

(السُّحَابُ)

وهو الأجرام التي تحمل المطرين السماء والأرض يُشْبِهُهَا اللهُ سَجْدَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا أَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : ” وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّمَالَ “ وَيُسَوِّقُهَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ” أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ صَوْتًا مِنْ سَحَابَةٍ : أَسَقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ “ .

وذهب الحكماء إلى أنه يُجَارُ مُتَصَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ مَرْتَفِعًا مِنَ الطَّبَقَةِ الْحَاوِزَةِ إِلَى الطَّبَقَةِ الْبَارِدَةِ فَيَتَّقَلُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَنْعَقِدُ فَيَصِيرُ سَحَابًا ، قَالَ التَّعَالَى فِي ” فَهَهُ الْفَغَةُ “ : وَأَوَّلُ مَا يَنْشَأُ يُقَالُ لَهُ النَّشَاءُ ؛ فَإِذَا انْتَسَحَبَ فِي الْهَوَاءِ ، قَبِيلَ لَهُ سَحَابٌ ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ بِهِ السَّمَاءُ ، قَبِيلَ لَهُ عَمَامٌ ، وَإِنْ سَمِعَ صَوْتَ رَعْدِهِ مِنْ بَعِيدٍ قَبِيلَ فِيهِ عَقْرٌ ؛ فَإِذَا أَظْلَمَ ، قَبِيلَ عَارِضٌ .

وقد أخبر تعالى عن قوم عاد بقوله : ” قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى أُلُوفًا مُصْتَقِبًا أُوذِيَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فَنَادُوا بِغَارِ عَادِ مِثْلَ بِلْدَانِ الْأُولَى “

هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا“؛ فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ إِذَا رُؤِيَ طُنَّ أَنْ فِيهِ مَطَرًا، قِيلَ لَهُ مَحِيلَةٌ؛
فَإِنْ كَانَ السَّحَابُ أَيْضًا، قِيلَ لَهُ مَزْنٌ؛ وَإِذَا هَرِاقَ مَائِهِ، قِيلَ جَهَامٌ، وَقِيلَ
الْجَهَامُ هُوَ الَّذِي لَا مَطَرُ فِيهِ.

وقد أُولِعَ أهلُ النظم والنثر بوصفه وتشبيهه.

المصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسَمَعُ من السحاب، وقد اختلف في حقيقته فروى أنه
صوت ملكٍ يزجر به السحاب، وقيل غير ذلك؛ والنصيرية من الشيعة يزعمون أنه
صوت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث زعموا أن مسكنه
السحاب؛ وذهبت الفلاسفة إلى أنه دُخَانٌ يتصاعد من الأرض ويرتفع حتى يتصل
بالسحاب ويدخل في تضاعيفه ويردّ فيصير ريحا في وسط الغيم، فيتحرك فيه بشدة
فيحصل منه صوت الرعد، ويقال منه رعدت السماء؛ فإذا زاد صوتها، قيل
ارتجست؛ فإذا زاد، قيل أرزمت ودوت؛ فإذا اشتد، قيل قصفت وقعقت؛
فإذا بلغ النهاية، قيل جألجت وهدهدت.

المصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرى من جوانب السحاب، وقد اختلف فيه أيضا فروى أن الرعد
صوت ملكٍ يزجر به السحاب وأن البرق ضحكُه؛ والنصيرية من الشيعة يزعمون أنه
ضحكُ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أيضا، والفلاسفة يقولون إنه دُخَانٌ يرتفع

من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرعد ، ثم تقوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير ناراً ضيئة وهو البرق ، ويقال ومض البرق إذا لمع كمعانا قوياً ، وأومض إذا لمع كمعانا خفياً ؛ فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه ، قيل خلب ^{رعد} .

الصنف الخامس

(المطر)

وهو الماء الذي يخلقه الله تعالى في السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلى أنه يجار يتصاعد (من الأرض أيضاً فيه أو في حرارة الشمس أو فيهما) فيجتمع ، وربما أعانت الريح على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتى يتلاحق ؛ فإذا انتهى إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذي يتصاعد من القدر وينتهي إلى غطاء القدر وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للمطر زمان يكثر فيه ، وزمان يقل فيه ؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواع الكواكب التي هي منازل القمر ، وجعلوا لكل منها نوعاً ينسب إليه . قال أبو حنيفة الدينوري في " كتاب الأنواء الكبير " : كانت العرب تقول : لا بد لكل نوء كوكب من أن يكون فيه مطر ، أو ريح ، أو غيم ، أو حر ، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف في معنى النوء فذهب ذاهبون إلى أن النوء في اللغة النهوض ؛ وذهب الفراء إلى أنه السقوط والميلان ؛ وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعاً ، على أنهم متفقون أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضاً أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع ، فمن ذهب إلى أن المراد بالنوء السقوط يجريه على بابه ، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول : إنما سمي نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط ، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعة في اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للذبيح سليم وللهلكة مفازة ، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط ، فإذا سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذي بعده ، قال أبو حنيفة الدينوري : وهو التأويل المشهور الذي لا ينزاع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه ، أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض . وقد عدها أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوءاً بمد منازل القمر المتقدمة الذكر ، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض .

الأول نوء الشَّرَطَيْنِ ، وهو ثلاث ليال ، وأثره محمود عندهم .

الثاني نوء البُطَيْنِ ، وهو ثلاث ليال ، وليس بمذكور عندهم ولا محمود . قال ابن الأعرابي : يقال إنه ماناء البُطَيْنِ والدَّرَّانِ أو أحدهما فكان له نظر ، إلا كاد ذلك العام يكون جَدْباً .

الثالث نوء التَّرِيَاءِ ، وهو خمس ليال وقيل سبع ، وأثره محمود عندهم مشهور .
الرابع نوء الدَّرَّانِ ، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة ، وليس بمحمود عندهم ، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر .

الخامس نوء الحَقِّعَةِ ، وهو ست ليال ، ولا يذكر نوءها إلا بنوء الجوزاء التي الحَقِّعَةُ رأسها ، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة .

السادس نوء الحَنْعَةِ ، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء .

السابع نوء الدَّرَّاجِ المقبوضة ، وهي خمس ليال ، وقال ابن كنانة : ثلاث ليال ،

وهو أول أنواء الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ، وربما نسب إلى المرزيم ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشعري الغميضاء ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المرزيم ، وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراع المسبوطة فتجمعهما معا في النوء ، وهما لا يتوآن معا بل ولا يطلعان معا ، لكن لكثرة صحبة إحداهما للآخرى في الذكر واجتماعهما في أسم واحد مع تجاوزهما وكونهما عضوَي صورة واحدة ، وهي صورة الأسد .

الثامن نوء الثرة ، وهو سبع ليال ، وله عندهم ذكر مشهور .

التاسع نوء الطرفة ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجهة الآتية الذكـر عليه .

العاشر نوء الجهة ، وهو سبع ليال ، وذكره مشهور لديهم .

الحادي عشر نوء الزيرة ، ونوها أربع ليال ، وقلمها تنفرد اعلبة الجهة عليها أيضا .
الثاني عشر نوء الصرفة ، وهو ثلاث ليال ، ولا يكاد يوجد لها ذكر عندهم في أشعارهم .

الثالث عشر نوء العواء ، وهو ليلة واحدة ، وليس من الأنواء المشهورة .

الرابع عشر نوء السك الأعزل ، وهو أربع ليال ، وله ذكر مشهور ، وكثيرا ما يذكر معه السك الراح ، وليس له نوء معه ولكنها متقاربان في الطلوع ، وحينئذ فإفراد السك الراح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغفر ، وهو ثلاث ليال ، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد ، وهي ثمانية أنواء أولها الذراع ، وآخرها نوء السك ، وليس له في السماء نظير في كثرة الأنواء .

- السادس عشر نوء الزباني، وهو ثلاث ليال .
- السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .
- الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .
- التاسع عشر نوء الشولة، وهو ثلاث ليال، وقيلما يذكر .
- العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادى والعشرون نوء البلدة، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثانى والعشرون نوء سعد الذابح، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون نوء سعد بلع، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون نوء سعد الأخبية، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون نوء الفرغ المقدم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون نوء الحوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يطلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدينورى : والأيام في هذه الأنواء تابعة ليالى لتقدم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا هذه النجوم أنواء موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر، وقال ابن قتيبة : أول المطر الوسمى سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الخيم . قال الثعالبي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوسمى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الخيم .^(١)

الصنف السادس

(الثلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتذيب الشمس منه مالا فته شدة حرارتها، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعالي الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه يجار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصبيه برد شديد قبل أن يتعقد قطرات فيساقط أجزاء لطيفة، ثم يتعقد بالأرض إذا نزل إليها، ويوصف بشدة البرد وشدة البياض؛ وسيأتي الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

الصنف السابع

(البرد بفتح الراء)

وهو حب يسقط من الجو؛ وقد ذكر الحكماء أنه يجار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتزهر برودتها إلى مواطنها فتعقد؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير منه ما هو قدر الخبيث فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدجاج. قال الحكماء: ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض، ويشبه به أسنان الإنسان الناصعة البياض.

الصف الثامن

(قوس قزح)

وهو قوس يظهر في الجوّ من حمرة وخضرة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوس قزح ، وتسميته قوس الله لأن قزح اسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صقالة صار كالمرآة ، والمخاض له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى الشمس في المرآة ، ويشتبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حمرة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين ، وربما لا يكون اللون المتوسط ، ويكون مرتفعا ارتفاعا قريبا من الأرض ، فإن كان قبل الزوال ، رُوى ذلك القوس في المغرب ، وإن كان بعد الزوال ، رُوى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء ، فلا يمكن أن يرى إلا قوسا صغيرا في الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصف التاسع

(الهالة)

وهي الدائرة التي تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب ، فيرى القمر في جزء منه ، وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشيء الذي يرمى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر ، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

الشيء في كل واحدة من المراتي ، فإذا تواصلت المراتي روى في الكل ، فُتروا
حيثذ دائرة .

ولأهل النظم والشرفها وصف وتشبيه .

الصف العاشر

(الحَرُّ)

وسُلْطانه أو الحَرِّ فصل الريح وأوائل فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة
الشمس للرؤوس ، فتشند نائرة في الهواء وحريم الأرض ، لاسيما الحجاز وما في معناه .

وأهل النظم ، والنثر مؤلعون بوصف شدة حزه .

الصف الحادي عشر

(البَرْدُ)

وسُلْطانه أو الحَرِّ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .
وأهل النظم والنثر مُكثِّرون من ذكره ووصفه ، حتى إنه ربما أفرد بعض الناس
مما قيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصف الثاني عشر

(المَبَاءُ)

وهو الذي يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكوة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة تُحسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبه الله تعالى به أعمال الكُفَّار

في القيامة فقال جل من قائل : "وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً" ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المراد بالذرة المذكورة في القرآن بقوله تعالى : "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" ولأهل النظم والنثر أيضاً فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،

وهي على أصناف)

الصف الأول

(الجبال ، والأودية ، والفقار)

فأما الجبال فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادّت لها دحاها الله تعالى على الماء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه الماء قبل أن يدحو الله الأرض . وأن الأرض منها دُحيت ، فلما مادّت وأُرسيت بالجبال ، كان أول جبل أُرسي منها جبل أبي قبيس بمكة المشرفة فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا ، وقد نقل أن قاف جبل محيط بالدنيا عنه لتفترع جميع جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والعلو وصعوبة المسلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالانساع وبهد المسافة والعُمق ، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما التفار، فهي البرارى المنسمة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسعة
وبعد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك، وما يجرى مجرى ذلك .

الصنف الثاني

(المياه الأرضية ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول — الماء الملح

ووقع في لغة الإمام الشافعي رضي الله عنه الماء المالح، وهو أحد العناصر
الأربعة، وسيأتي في الكلام على الأرض في المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من
جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الإلهية لعبارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها
الأعلى، وأنه تفرعت منه بحار منبثة في جهات الأرض لتجرى السفن فيها بما ينفع
الناس، وقد ذكر الحكماء أن في الماء الملح كثافة لا توجد في الماء العذب، ومن
أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب في الماء العذب، حتى يقال: إن
السفن التي تفرق في البحر الملح لا تبلغ أرضه بخلاف التي تفرق في الأنهار فإنها تنزل
إلى قعرها. وشاهد ذلك أنك إذا طرحت في الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها
غرقت فيه، فإذا أذبت في ذلك الماء ملحا بحيث يغلب على الماء وطرحت
فيه البيضة، عامت؛ وقد اختلف في الماء الملح هل هو كذلك من أصل الخلقة
أو عرضت له الملوحة بسبب ملاقاه من سبخ الأرض على مذهبين؛ ومن خصائص
البحر الملح أنه في غاية الصفاء حتى إنه يرى ما في قعره على القرب من سطه.
ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتى يقال في المثل "حلت
عن البحر ولا حرج".

الضرب الثاني — الماء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأنجوة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها .
وهو على ثلاثة أنواع :

النمط الأول — ماء الأنهار ، وهي ما بين صفار وكبار وقريبة المدى وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهي سيجون ، وجيجون ، والمدجلة ، والفرات ، ونيل مصر . والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء على ما سيأتي ذكره في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى . وفي الأنهار الجبار تسير السفن .

النمط الثاني — العيون : وهي مياه تنبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قوتها قد حُفرت لها ، وهي منبثة في كثير من الأقطار .

النمط الثالث — البئار : وهي حفائر تخفر حتى ينبع الماء من أسفلها ويرتفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد اختلف في الماء الذي ينبع من الأرض هل هو الذي نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذي نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ " الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذي ينبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّطَهَّرٍ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا " . ويوصف الماء للاستحسان بالعدوية ، والصفاء ، والرقة ، والحلقة ، وشدة البرد ، وفي معناه الشيم . ويشبه في شدة البرد بالزلزال : وهو ما يترتب داخل الثلج في تجاوزه يوجد فيه فيكون من أشد الماء بردا .

الصنف الثالث

(النبات ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول — في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ، نرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قضييا مودعة أصناف الثمر ، منها عشرة لها قشر : وهي الجوز ، واللوز ، والبلوط ، والشاه بلوط ، والصوبر ، والتاريخ ، والرمان ، والحشخاش . ومنها عشرة لثمرها نوى : وهي الزيتون ، والرطب ، والمشمش ، والخوخ ، والإجاص ، والغيراء ، والنبق ، والعناب ، والمخيطي ، والرعرور . ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى : وهي التفاح ، والسفرجل ، والكثيري ، والعنب ، والتين ، والأترج ، والخرنوب ، والثوت ، والقثاء ، والبطيخ .

المقصد الثاني

(فيما يختص به أرض دون أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الأفاق ، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض ، وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية : أن بلاد سجلماسة من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترفع نصف قامة أو أرجح ، ورقها كورق الغار ، إذا عميل منها لا كليل ولبسه الرجل على رأسه ومثني أو عدا أو عميل عملا ، لم يتم مادام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يناله من ضرر السهر وضعف القوة ما ينال من سهر وعميل . وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها مأس أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

(١) كنا في المفردات لأبن البيطار أيضا ولكن في القاموس (وكثامة وجيز) فعمل فيه لغة نادرة .

قلت ومما يختص بأرض دون أرض البلسان : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع
تنتفخ فروعا، لا تنبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص من بلدة
يقال لها المطرية، على القرب من مدينة عين شمس، وتسمى من ثمر هناك ويقال إنه
أغتسل فيها المسيح عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون البلسان ويتبركون به .

المقصود الثالث

(في ذكر أصناف النبات التي أولع الكتاب والشعراء بوصفها وتشبيهها :
وهي على ضرب)

الضرب الأول — ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بتمسارها أو نورها، في الوصف
والتشبيه ثرا ونظما : كالأوز ، والمُسْتَق ، والجَلْوَز : وهو البُنْدَق ، والشاه بلوط :
وهو القَصْطَل ، والصَّنَوْبِر ، والرَّمَان ، والجُلْنَار ، والإجاص ، والقَرَأصِيَا ، والزعرور ،
والخَوْخ ، والمِشْمِش ، والعُنَاب ، والنبق ، والينب ، والتين ، والتوت ، والتفاح ،
والسَفْرَجَل ، والكُمَّزِي ، والتفاح ، والخروب ، والأترج ، والمارنج ، والليمون ،
والطلع ، والبالح ، والبُسْر ، والتمر ، والرمانج : وهو جوز الهند ، والتجار يسمونه النارجيل .
وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرها .

الضرب الثاني — ماله ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه به عن ذلك الزرع : من البر والشعير ونحوهما ،
ويتبع ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الخشخاش ، والكنان ، والبطيخ الهندي : وهو
الأخضر ، والخراسانى : وهو العبدلى : نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله

من حُرَّاسَانِ إِلَى مِصْرَ، وَالْبَطِّيخِ الصَّبِيّ : وَهُوَ الْأَصْفَرُ، وَالرَّسَيْتِيُّ : وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِاللَّفَّاحِ، وَالْقَنَاءُ، وَالْحَبِيَارُ، وَالْبَادِئُجَانُ، وَالسَّاجِمُ : وَهُوَ اللَّقْمُ، وَالْحَزْرُ، وَالثُّومُ، وَالْبَصَلُ، وَالْكُرَّاثُ، وَالرِّيَّاسُ، وَالْهَلْيُونُ، وَالنَّعْنَاعُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

وَالَّذِي أَوْلَعَ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْهُ الْوَرْدُ عَلَى اِخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ : مِنْ أَحْمَرَ، وَأَبْيَضَ، وَأَصْفَرَ . وَأَزْرَقَ، وَأَسْوَدَ، وَالنَّسِيرِيْنَ ، وَالْبَانُ ، وَالْحَلَّافُ ، وَالنَّيْلُوفَرُ . وَالْبَنْتَسَجُ ، وَالنَّبْرِيْجِسُ ، وَالْيَاسْمِيْنَ ، وَالْأَسُ ، وَالزَّعْفَرَانُ ، وَالرَّيْحَانُ .

الضرب الرابع — الأزهار

وَالَّذِي وَقَعَ الْوَلُوعُ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْ ذَلِكَ الْحَبِيْرِيْ : وَهُوَ الْمَنْتُورُ : مِنْ أَصْفَرَ أَوْ أَزْرَقَ ، وَالسُّوسَنُ ، وَالْأَدْرِيُونُ : وَهُوَ وَرْدٌ أَصْفَرٌ لَهُ رِيْحٌ ، وَالْحَزْمُ : وَهُوَ الْحُرَّامِيُّ ، وَالشَّقِيْقُ (١) ، وَيَسْمَى الشَّقَاقُ ، وَيُقَالُ لَهُ شَقَاقُ الثُّمَانِ : لِأَنَّ الثُّمَانَ بْنَ الْمَسْدَرِ حَمَى ظَهَرَ الْكَوْفَةَ وَبِهِ هَذَا النَّبَاتُ فَمُرِفٌ بِهِ ، وَالْبَهَّارُ : وَهُوَ تَوْرُ أَحْمَرَ . وَالْأَقْحُوَانُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الخامس — الرياض

وَهِيَ الْأَمَاكِنُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْأَشْجَارِ ، وَالْأَزْهَارِ ، وَالْمِيَادِ الْجَارِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَدْ اِتَّفَقَ جَوَابُ الْأَرْضِ عَلَى أَنَّ مَتْرَهَاتِ الْأَرْضِ أَرْبَعَةٌ مَوَاضِعٌ : وَهِيَ سَعْدٌ سَمْرَقَنْدًا ، وَشَعْبٌ بَوَانَ ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ ، وَغُوطَةُ دِمَشْقَ . وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِ الرِّيَاضِ وَوَلَّعَ الْكُتَّابَ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

(١) نمله والشقيقة ففي اللسان أن الشقاق لا واحد له أو واحدته شقيقة وعلى ذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

(في صنعة الكلام ، ومعرفة كيفية إنشائه ، ونظمه ، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في الأصول التي يبنى الكلام عليها : وهي سبعة أصول)

الأصل الأول

(المعرفة بالمعاني ، والنظريه من وجهين)

الوجه الأول

(في شرف المعاني ، وفضلها)

اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب . فالألفاظ تابعة ، والمعاني متبوعة ، وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني ؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وضعت ، وعليها بُنيت ، فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ : لأنه إذا كان المعنى صوابا واللفظ منحطاً ساقطاً عن أسلوب الفصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه ، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لأرواح فيه . ولو كان على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" : ومما رأيت من المذيعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور . وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغنّة ، التي لا حاصل وراءها ، أنهم إذا أتت هذه الحالة عليهم ، وقيل لهم إن

الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفِقر على حرف واحد فقط، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة، وإنما هو أمر وراء هذا، وله شروط متعددة، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته، وإذا أنكر عليهم الأقتصار على الألفاظ المسجوعة، وهُدُوا إلى طريق المعاني، يقولون: لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة، فإنهم إنما آعتنوا بالألفاظ، ولم يمتنوا بالمعاني آعتناءهم بالألفاظ. فلم يكنهم جهلهم فيما آرتكبوه حتى آذعوا الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين. قال: ولم يعلموا أن العرب، وإن كانت تعنى بالألفاظ فتُصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدراً في نفوسها. ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها، وزينوها وبالغوا في تحسينها: ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد. ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لذَّ لسامعه حفظه، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسَّنوها ورققوا حواشيتها وصمغوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني، فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء في الحُلل الموشاة والأثواب المحبَّرة، فإنما قد نجد من المعاني الفاتحة ما شوّه من حسنه بدآذة لفظه وسوء العبارة عنه.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: ومن عرف ترتيب المعاني وآستعمل الألفاظ على وجوهها بلغته من اللغات ثم آنتقل إلى لغة أخرى، تها له فيها من صنعة الكلام ما تها له في الأولى. ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب آستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، وحوّلها إلى اللسان العربي. فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الآستعمال.

قال في "المثل السائر": وأعلم أن المعاني الخطابية قد حُصرت أصولها، وأول من تكلم في ذلك حكيم اليونان، غير أن الحصر كلي لا جزئي، ومحال أن تحصر جزئيات المعاني وما تفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها، لا بحرَم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفة صاحب هذا العلم، ولا يفترق إليه، فإن البدوى البادى راعى الإبل ما كان يترشئ من ذلك بفهمه، ولا يحطّر بياله، ومع هذا فإنه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا. قال: ولقد فوَضنى بعض المتفلسفين في هذا، وأنساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يقال له اللوغاذيا، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره، فلما وقفت عليه أستجھته، فإنه طَوَّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذي ذكره لهو، لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا، ثم مع هذا جميعه فإن معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي أنه يُورد على مقدمتين ونتيجة، وهذا مما لم يحطّر لأبي علي بن سينا بيال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله، وعند إفاضته في صوغ ماصاغه لم تحطّر المقدمتان والنتيجة له بيال، ولو أنه فكر أو لا في المقدمتين والنتيجة، ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك، لما أتى بشيء يُنتفع به، وإطال الخطب عليه. قال: بل إن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم، لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولانتيجة، وإنما هذه أوضاع توضع وتطول بها مصتفات كتبهم في الخطابة والشعر، وهي كما يقال:

قَعاقِعٌ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ « كَأَنَّهَا شِعْرُ الْإِيوَرْدِيِّ

الوجه الثاني

(في تحقيق المعاني ، ومعرفة صوابها من خطئها ، وحسنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما كان من المعاني مستقيماً حسناً : كقولك رأيت زيدا ،

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال في الصناعتين : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يجوز
إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطياً .

فأما المعنى المستقيم الحزول من النظم ، فمن الوعظ قول الثميرين تَوَلَّى بِذَمِّ طُولِ
الْحَيَاةِ :

يُودُّ الْفَتَى طُورَ السَّلَامَةِ وَالْبَغْيِ « فكيف ترى طول السلامة يفعل »

يَكَادُ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَجْهِهِ « ينوء إذا رام القيام ويحمل

وقول أبي العتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وَكَاثَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ « وأنت اليوم أوعظ منك حياً !

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صُرْنَ كَأَهْوَاءِ « عجائب حتى ليس فيها عجائب

ومن المدح قول أمية بن أبي الصلت :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ « بسبب وما شغل العطاء يزين

وليس بسبب لأمرى بذل وجهه « إليك كما بعض السؤال يسئ

وقول أبي تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مِنَابَهُمْ كَانَهُمْ * لَا يَيْشُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

وقول الآخر :

هُمُ الْأَوْلَى وَهَوُوا لِجِدِّ أَنْفُسِهِمْ * فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

ومن الفخر قول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهَدَيْتُ كَفَى لِرَيْبَةٍ * وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَا حِشَةِ رَجُلِي !

وَلَا قَادَنِي سَمِعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا * وَلَا دَلَّتْنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي !

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدِ اصَابَتْ قَتْلِي !

وَأَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِّتُ لُنْتُكَرِي * مِنَ الْأَمْرِ لَا يَمِشِي إِلَيَّ مِنْهُ مِثْلِي !

وَلَا مُؤَثِّرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * وَأَوْثَرُ صَبِيٍّ مَا أَقَامَ، عَلَى أَهْلِي !

وقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الْغَنِيِّ * إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقِيرِ

وقول الشنفرى :

أَطِيبُلُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أَمِيتَهُ * وَأَضْرِبُ عَنْهُ الْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ

وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الْعَارِ لَمْ يُلَفْ مَشْرَبٌ * نَعِشُ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إِنَّ الْعُبُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا نَحْمَ لَمْ يَحْيِيَنَّ قَتْلَانَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَالِدَ بِهِ * وَهَنَّ أضعفُ حَلْقِي اللهُ أَرْكَانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي قَالَمَ خَدِّهِ * فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ

وَصَالِحُهُ قَلْبِي فَأَلَمْ تَكْفِهِ * فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ حَفْرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِرًا بَغْرَحْتَهُ * وَلَمْ أَرْ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ

ومن التشبيب قول القائل :

وَمِنْ عَجَبِ أُنَى أَحْسَنِ الْبَيْمِ * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْفَهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَى

وقول الآخر :

إِنْ لَمْ أُرْزَرْ رَبُّكُمْ سَعِيًا عَلَى حَدَقِي * فَإِنَّ وُدِّي مَسْنُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
تَبَّتْ يَدِي إِنْ شَتَّيْتِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ * بِيضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ * ذَا عَمَّةٍ فَلِعَامَةٍ لَا يُظْلِمُ

وقول الآخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى * ظَلِمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمَسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلُكُهُ * عَلَى شَعْبِ أَى الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ؟

ومن الهجو قول الطرمح في تميم :

تَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا * وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ صَلَّى

وقول الآخر :

لَوْ أَطْلَعَ الْعَرَابُ عَلَى تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السُّوءَاتِ شَابًا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهيجة الرائعة .

ومما يخطر في هذا السلك من النثر ما يحكى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة اللوى فقال : رحم الله امرأ لم تمنح أذناه كلامي ، وقدم معاذة من سوء مقامي ، فإن البلاد مجذبه ، والحال مسغبه ، والحيا زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر ، يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر بغيره أو دعا بغيره .

ومعاني القاضى الفاضل هي التي ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويحجم قلوبها على النفوس من غير حاجب ولا بواب . فمن ذلك قوله :

”يا بنى أبوب لو ملكتم الدهر لا متطيتم ليليه أداهم ، وقدتم أيامه صواريم ، وأفنتم شموسه وأقارده في الجباب ، دنائير ودراهم ، وأيامكم أعراس وما تم فيها على الأموال مآتم ، والجود في أيديكم حاتم ، ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السحر الحلال ، والمعاني التي تخضع لها شئ الجبال . ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثاني

(ما كان مستقيا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال في ”الصناعتين“ وإنما قبح لأنك أقصدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعاني التعقيد . وسماه ابن الاثير في ”المثل السائر“ المعاطاة المعنوية ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنى يختل به ويضطرب . قال في ”المثل السائر“ وهو ضد

الفصاحة : لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عاير عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبحت بعد خطِّ بهجتها « كان قفراً سُومها قلباً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأنَّ قلباً خطَّ رسومها فقدم خبر كأن ، وهو خطُّ عليها بجاء محتملاً مضطرباً ، وأقبح منه وأكثر اختلافاً قول الفرزدق :

إلى ملكٍ مأمته من محاربٍ - أبوه ، ولا كانت كُليبٌ تُصايرُه

يريد إلى ملك أبوه مأمته من محارب ، والمعنى مأم أبيه من محارب ؛ يمدحه بذلك ذمّاً لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مملكا - أبو أمه حتى أبوه يُقاربه

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ؛ فلمَّا استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير" : وقد استعمل الفرزدق من التعاضل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يجيء إلا متكلِّناً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سببها وطبيعتها في الاسترسال ، لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ؛ ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ، ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرها .

الصف الثالث

(ما كان مستقياً ولكنه كذب : كقولك حَمَلْتُ الجبل ،

وشربت ماء البحر ، وما أشبه ذلك)

وأعلم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جار على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية ، فإنه مقدمات تخيلية تُوجب في النفس انقباضاً وانبساطاً على ما هو مقرر في علم المنطق . وقد قال في "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنة ، والنموت الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة : من قنف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول المتهنأ ، ولا سيما الشعر الجاهل الذي هو أقوى الشعر وأفعله . قال : وليس يراد منه إلا حُسْن اللفظ وجودة المعنى ، فهذا الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب رحمه الله في كتابه تحرير التحجير : وأنا أقول قد آخِئْتِ في المبالغة ، وقوم يرون أن أجود الشعراً كذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه . ويحتجون بما جرى للناطقة الديانية مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النابغة عليه تلك المواقع الحجية في قوله :

لنا الحفقاتُ القرى يَمَعْنَ بالضحى . وأسيفنا يَقَطُرُونَ من نُجْدَى دَمَا

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة ، قال : والصواب مع حسان وإن روى عنه انقطاعه في يد النابغة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على متهج الحق ، ويرحمون أن المبالغة من سَعَف المتكلم وتجزئه عن أن يفتزع معنى ، أو يفتزع

معنى من معنى ، أو يحملي كلامه شيئا من البديع ، أو يتخَبَّ ألفاظا موصوفة بصفات الحسن ، ويحيد تركيبها ؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يستد بها خَلله ويتم نقصه : لما فيها من التهويل على السامع ، ويدعون أنها ربما أحوالت المعاني فأخرجتها عن حدِّ الإمكان إلى حدِّ الامتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان . أما الأول فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه ، وهذا قول من لا نظره لأننا نرى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصدق المحض خارجا مخرج البحث ، وهو في غاية الجودة ، ونهاية الحسن ، وتام القوة ، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تُحصَرُ ضروبها ؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على أفراده يفضل سائر ضروب المحاسن على كثرتها ؛ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ؛ ومن كان مذهبه توحي الصدق في شعره غالباً ، ليس فوق أشعارهم غايةً لمترق ؛ ألا ترى إلى قول زهير :

ومهما يكن عند أمرئ من خَلِيقَةٍ ۖ وإن خالفاً تخنى على الناس تُعَلِّمُ
وإلى قول طرفة :

لعمرك إن الموت ما أخطأ القتي ۖ لكا أطول المرئى وثباته في اليد
وإلى قوله :

سُئِدِي لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ۖ وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ
وإلى قول الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ ۖ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة ، وإن خلت من المبالغة ؛ والذي يدل على أن مذهب أكثر المحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب

مارؤى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضي الصُفْرِيَّة من الخوارج
أنها قالت له يوما : أنت أعطيت الله تعالى عهدا أن لا تكذب في شعرك ،
فكيف قلت :

فهنالك بجرأة بن ثور : ركان أشجع من أسامه .

فقال : يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة
قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعرُكُبُ المرء يعرضه : على الخبالس إن كدسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله : بيت يُقال إذا أُنشدته : صدقا

على أن هؤلاء الفحول وإن رَجَّحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضده ، ولا
يُحَدِّثُونَ فضله ، وقبلما تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توتحي الصدق كان الغالب
عليهم ، وكانوا يكثرُونَ منه ، ومن أكثر من شيء عُرفَ به كما أن النابضة ومن تابعه
على مذهبه لا يكرهون ضد المبالغة ، وإلا فكل احتجاج جاء به على الثعنان في الاعتذار
جار مجرى الحقيقة كقوله :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رية : وليس وراء الله للدرء مذهب

فما شب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير
مصيب ، وخير الأمور أوسطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حد الإمكان ، ولم تجر مجرى الكذب
المحض ، فإنها لا تُندَم بحال ، كقول قيس بن الخطيم :

طمنتُ ابن عبد القيس طمئة نائر : طأ نغد لولا الشعاع أضاءها
ملكْتُ بها كفى فأنهتُ فقها : يرى قائم من دونها من وراءها^(١)

(١) في اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ
النهاية في وصف الطعنة ، وكذلك قول أبي تمام .

نَكَادُ تَنْقَلُ الأرواحُ لو تُرِكَتُ * من الجُؤومِ إليها حين تَنْقَلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلاً عن الجواز بتقديم كاد ،
حتى قال : لو تُرِكَتُ ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حدّه
ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح ممدوحه فقال :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرٍّ * وما فوقُ شُكْرِي للشُّكُورِ مَزِيدُ
ولو كان مما يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ * ولكن ما لا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فإن هذا الشاعر ألقي بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر برّ هذا
الممدوح ، وفطن أنه لو اقتصر على ذلك ، لأحتمل أن يقال له : عجزك عن شكره
لا يدل على كثرة برّه : لأحتمل أن يكون لضعف مادتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من
عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ولا بُدَّ : لأحتمل أن يكون العجز لضعف
الإنسان ، فأحترز عن ذلك بقوله :

* وما فوقُ شُكْرِي للشُّكُورِ مَزِيدُ *

ثم تمّ المعنى بأن قال للشُّكُورِ ، للمبالغة في الشكر ، فإن شكورا معدول عن شاكر
للمبالغة كما تقدم ، ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

* ولو كان مما يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مخرج المثل السائر ليكثر دورانه على الألسنة
فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين ، والتنويه بذكوره في كل زمان حيث قال :

* ولكن ما لا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حد الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتعاشون الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ» وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَيْبِدٍ: ﴿الْأَكْثَلُ شَيْءٌ مَا خَلَا اللَّهُ بِاطِلٌ﴾»

إشارة لتلك أيضا .

فن المبالغة في الشعر المشبهة إلى حد الكذب قول البهترى :

ولو قَسَّتْ يوماً حِجْلَهَا حِقَاقِيهَا * لَكُنَا سَوَاءً، لَابِلُ الْجِجْلِ أَوْسَعُ
وَصَفَّهَا بِرِقَّةِ الْخَصْرِ وَغَلَّظَ السَّاقِ حَتَّى جَعَلَ حِجْلَهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى سَاقِهَا أَوْسَعَ مِنْ
حِقَاقِيهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى خَصْرِهَا، وَأَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

من الحيف لو أن الخَلَاخِيلَ صَيَّرَتْ * لَهَا وَثَقًا، جَاءَتْ عَلَيْهَا الْخَلَاخِيلُ
بِجَعْلِ الْخَلَاخِيلِ يَجُولُ فِي جَمِيعِ بَدَنِهَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَدْحِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّ الْخَلَاخِيلَ
لَوْ صَارَتْ شَاغَا لِلرَّأَةِ، لَكَانَتْ فِي ذَايَةِ الدَّمَامَةِ حَتَّى تُصِيرَ فِي خِلْقَةِ الْحِرِّ وَالْمِجْرِ .
وَأَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ .

وَرَحْبُ صَدْرِي لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَسَعَةٌ * كَوْسَمِيهِ، لَمْ يَصِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ
يَجْعَلُ صَدْرَهُ فِي السَّعَةِ وَالرَّحْبِ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَحْوَهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
وَيَوْمَ كَطُولِ الذَّهْرِ فِي عَرَضٍ مِثْلِهِ * وَوَجِدِي مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ أَطْوَلُ
إِلَّا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْعَرَضَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، إِذِ الذَّهْرُ يُوصَفُ بِالطُّوْلِ لَا بِالْعَرَضِ،
وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لَهُ طَوْلًا وَعَرَضًا، وَيَقْرَبُ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

كَفَى بَجْسَمِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ * لَوْلَا مَخَاطَبَتِي إِيَّاكَ، لَمْ أَبْنِ^(١)

(١) الجروم مثل الجيم (٢) المشهور في الرواية لم ترفى وهو التي شرح عليها العكبري .

بجعل كلامه هو الذي يدل عليه من شدة التحول . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبغ : ومما يجري به التمثيل في باب المبالغة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فَيَغْضَبُ قبل أن يَطْلُبَهَا ، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمها . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة على المتني عليك أن لا يخلو من مساعد ، ولا يحشى من معاند ، ولا تلحقه نقیصة المُكذِّب ، ولا يُكرِّهُ عَوْرُ الأوصاف بالتطلب ، ولا ينتهي من القول إلى منتهى إلا وجد بعده مقتضى ووراءه منجى ، وسبب من المبالغة في أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها في قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

(ما كان محالا : وهو ما لا يمكن كونه البتة : كقولك آتيتك أمس ، وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك)

قال في الصناعتين : فإن اتصل الكذب بحال ، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظان نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال لعدم إمكان الجمع بين التقيضين ، وقد تقدم في النوع الثالث أن أكثر الشعر مبني على الكذب والاستحالة : من الصفات المتنعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، وذلك في الكذب مما لا نزاع في كثرته في الشعر كما تقدم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع ، نادر في النظم والنثر ، معدود من المعاييب ، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

وإن إذا ما الموت حلَّ بنفسها ، * يُرَأَى بنفسي قبل ذلك فأقبر

قال العسكري : هذا من المحال الذي لا وجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل :
إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال المتنع الذي
لا يجوز ، يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم
الدور ، وهو محال ، فيحكم فيه بالبطان وقطع الدور .

ومما يلتحق بالمحال ويخترط في سلكه تناقض المعاني وأضطرابها .

فمن ذلك قول المسيب بن عيسى في وصف ناقة :

تَسَلُّ حاجتها إذا هي أعرضت * بمخيسة سُرج اليدى وساع
فكأت قنطرة بموضع كورها * ملساء بين غواميض الأتساع
وإذا أظفت بها ، أظفت بكل كل * بيض القرايص مجفرة الأضلاع

قال في "الصناعين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بمخيسة ، ثم قال موضع
كورها قنطرة ، وهي مجفرة الأضلاع فكيف تكون مخيسة وهذه صفتها ؟
وقريب منه قول الحطيتي :

حرج يلاوُد بالكِناس كأنه * متطوف حتى الصباح يدور
حتى إذا ما الصبح شق عموده * وعلاه أسطع من سناه منير
وحصى الكتيب بصفحته كأنه * حبت الحديد أطارهن الكبير

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكتيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ؟ . وقول المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أنب ذكوة * إذا خطرت دارت به الأرض قائما
وكيف صحا عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقُ لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضَرَبْتِي زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ ضَرْبَتِي زَيْدًا)

قال في "الصناعين" : فإن تعمدت ذلك ، صار كذبا ، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذي قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط في الماماني كثيرة : فمن ذلك الغلط في الأوصاف ، وهي على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكرة بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعي في وصف المسك :

يَكْمُو الْمَقَارِقَ وَاللَّبَّاتِ ذَا أَرْحِجٍ * مِنْ قُضْبِ مُعْتَلِفِ الْكَافُورِ دَرَجِجِ

بفعل المسك من قُضْبِ الطَّيِّبِ ، وهو معاه ، وجعل الطَّيِّبَ يعتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط ، وقريب منه قول زهير يصف الضفادع :

يَخْرُجْنَ مِنْ ثَرَبَاتٍ مَأْوَاهَا طَيْلٌ * عَلَى الْجُلُوعِ تَحَافُ التَّمَّ وَالغَرَقَا^(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق ، ونشوءها فيه . وقريب منه قول ذى الرمة :

إِذَا أَنْجَابَتِ الظَّامَاءُ ، أَضْحَتِ رَعُوسَهَا * عَلَيْنِ مِنْ جَهْدِ الْكُرَى وَهِيَ صُلْعٌ

فوصف الرءوس بالصلع ، قال ابن فروة : ما أغفلت هذا ، ولقد قلت لذي الرمة : ما علمت أحدا أضلع الرءوس غيرك ، قال : أجل .

(١) في اللسان يحتمل لنا في الاصل رواية له .

قال في الصناعتين : ومما لم يُسمع مثله قط قول عدي بن زيد في الخمر :
 وَالْمُشْرِفُ الْمَيْدَبُ يَسْعَى بِهَا ۖ أَخْضَرَ مَطْمُونًا بِمَاءِ الْحَرِيصِ
 فوصف الخمر بالظفرة ، والحريص السحابة تُحرصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُهَا ،
 ومنه سميت إحدى الشجاج في الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .
 ومنها وصف الثوب على خلاف المهود والعادة المعروفة .
 فمن ذلك قول المرار :

وَحَالَ عَلَى حَدَيْكَ يَبْدُو كَأَنَّهُ ۖ سَنَا الْبَدْرِ فِي دَعَجَاتِ بَادِ دُجُونِهَا
 والمعروف أن الحيلان سَوْدٌ أَوْ سَمْرٌ ، والحدود الحسان إنما هي البيض ، فأتى
 هذا الشاعر بقلب المعنى ، ومثله قول الآخر :

كَأَنَّمَا الْحِيلَانُ فِي وَجْهِهِ ۖ كَوَأَكْبُ أَحَدَقْنَ بِالْبَسْدَرِ
 قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُحتج لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه
 الحيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .
 ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف الفرس أيضا :
 وَلِلسُوطِ الْهُوبُ وَالسَّاقِ دِرَّةٌ ۖ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْدِبٌ
 قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أحسن حمار وأضعفه ، ما زاد على ذلك ،
 وقول القائل :

صَبِينَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا ۖ فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ
 فجعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تتوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول
 امرئ القيس :

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ حَيْفَانَةً ۖ كَمَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها، وإذا غطى الشعر عين الفرس لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذئب البعير :

كأن جناحي مَضْرَحِيٌّ، تكذِّفًا ، حِفَافِيهِ، سُكَا فِي الْعَيْبِ بِمَسْرِدٍ
بِجَعْلِ ذَنْبِهِ كَثِيفًا ، طَوِيلًا عَرِيضًا ، وَإِنَّمَا تُوصَفُ النَجَابُ بِخَفَةِ الذَّنْبِ
وَرِقَّةِ الشَّعْرِ .

ومنها أن يجرى في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول
جُنَادَةَ :

من حبها أتمنى أن يلاقيني * من تحوِّلَ دلتها ناعجَ فينعاها
لكني يكونَ فراقُك لآلِفاءَ له * وتُضْمِرُ النَّفْسُ بِأَسْمَاءٍ تَسْلَاهَا
فإذا تمنى المحب للمحب الموتَ فماذا عسى أن يتمنى البغيضُ لبغيضه ؟
وقول الآخر :

ولقد هممتُ بقتلها من حبِّها * كما تكونُ خصيمتي في الحشيرِ
فذكر أن شدة الحبِّ حملته على قتل محبوبته حتى تخصصمه في الحشر لطلب حقها،
وشدة الحب لا تحمل إلا على الإكرام والبرِّ، على أنها قد تكون تكريمه، فتترك حقها
له حتى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نصيب :

فإن تصلي ، أصلك وإن تعودى * بهجرٍ بعد ذلك ، فلا أباي
والعاشق يلاطف قلب محبوبه ولا يحاجه، ويلاينه ولا يلاجه .

الأصل الثاني

(من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأول

(في فضل الألفاظ وشرفها)

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصريح يزداد حسنا بالخليل الفاتحة ، والملابس البهية ، والقيح يزول عنه بعض القبح : كما أن الحسن ينقص حسنه برثائه ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ، والقيح يزداد قبحا إلى قبحه . فالألفاظ ظواهر المعاني ، تحسن بحسنها وتقبح بقبحها ، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والمعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفائه . وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، وانحلو من أود النظم والتأليف . قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقتنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما تقدم من نونه . ثم قال : ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطيب الرائعة ، والأشعار الرائجة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم منثنيته ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني ، وتوحي صواب المعاني أحسن من توحي هذه الأمور في الألفاظ ، فلماذا يتأنق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، ويالغون في تجويدها ، ويغنون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ،

وَحَدِّقِهِمْ بِصَنَاعَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذَلِكَ فَرَجَّحُوا كَثِيرًا ،
وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعْبًا طَوِيلًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلُولًا عَدْبًا ،
وَسَيِّئًا سَهْلًا ، وَمَعْنَاهُ وَسَطًا ، دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيْدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ ،
كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَمَّا قَضَيْتَ مِنْ مَنِي كُلِّ حَاجَةٍ ، « وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَأْسُوحٌ ،
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارِيِّ رِحَالُنَا » . وَلَمْ يَنْظُرِ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِعٌ ،
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ، « وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَافِ كَثِيرٌ مَعْنَى ، وَهِيَ رَائِعَةٌ مُعْجَبَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ : وَلَمَّا
قَضَيْتَ الْحَجَّ وَمَسَّحْنَا بِالْأَرْكَانِ ، وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَارِيزِ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ بَعْضُنَا
بَعْضًا ، جَعَلْنَا نَعْتَدُ وَتَسْبِرُنَا الْإِبِلُ فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَوَابًا
وَاللَّفْظُ بَارِدًا فَاتْرَاكَ كَأَنَّ مَسْتَهْجِنًا مَأْفُوظًا ، وَهَذَا وَمَا مَرَدُودًا ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ
فِي أَبِي عَثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ « رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عَثْمَانَ أَبُكَيْتِ عَيْنِي » يَا أَبَا عَثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

الوجه الثاني

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذي ينبغي أن يستعمل في النظم والنثر من الألفاظ هو الرائع الصريح الذي
تقبله النفس ، ويميل إليه الطبع ، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح في أصل اللغة هو الظاهر البين ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان
ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وظهر ، وأفصح الأعشى وقصح إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبينُ ، وأفصح الرجل عما في نفسه ، إذا أظهره . قال في المثلي السائر : وأهل البيان يَقْفُونَ عند هذا التفسير ، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وهذا القول لا تدين حقيقة الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيناً لم يكن فصيحاً جيداً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً ، على أنه قد يكون اللفظ ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً للعمرو ، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر ، وليس كذلك ، بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ في فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرِفَ ما هي ، لم يبق في اللفظ المختص بها خلاف ، وأيضاً فإنه لو جرى بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، فينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن الفصاحة وصفٌ حَسَنٌ للفظ لا وصفٌ قُبْحِهِ . قال : وتحقيق القول في ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى أستخراج من كتب اللغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنِها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غرّبوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسرّبوا وقسموا فاختاروا الحسَن من الألفاظ فاستعملوه ، ونفّوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسُن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، فالفصيح إذنٌ من الألفاظ هو الحسَن . ثم قال : والمرجع في تحسين الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسَن ، وما يكرهه ويتبر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البليل من الطير وصوت الشجرور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ويتبر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يحد ذلك في صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا الجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المُرْتَنَة والذميّة يستلذهما السمع ، ولفظة البُعاق

فبيحة يكرها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترى لفظي المُرْتَبَة والمدِيمَة وما جرى مجراها ما لوفة الاستعمال وترى لفظ البُعَاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشيء إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما حرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

(أن لا يكون غريبا : وهو ما ليس مانوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى)

ويسمى الوحشي أيضا ، نسبة إلى الوحش لِنَقَارِهِ وعدم تأنسه وتألفه ، وربما قلب قيل الحُوشِي نسبة إلى الحوش : وهو النَّقَار . قال الجوهري : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجن وراء رمل يبرين ، لا يسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحشي والحوشي كله بمعنى .

ثم الغريب على ضربين .

الضرب الأول - ما يُعَابَ استعماله مطلقا : وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث

وتحقيق ، وكشف من كتب اللغة : كقول ابن جهمر .

حَلَقْتُ بِمَا أُرْقَلْتُ حَوْلَهُ ، هَمْرَجَلَةٌ خَلَقَهَا شَبِطُمُ

وما شَبِقَتْ مِنْ تُوْفِيَةٍ = بها من وحى الجن زيزيم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخبب ، يقال منه أُرْقَلْتُ الناقة تُرْقَلُ

إرقالا ، والهمرجلة الناقة السريسة ، وقال أبو زيد : الهمرجلة الناقة النجبية الراحلة .

(١) كذا في الضوء أيضا وفيه سهل لأن النقار معنى لانحاش لالحاش نظر الفاموس .

وَالشَّيْطَمُ الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبِلِ وَالْحَيْلِ وَالْأَنْثَى شَيْطَمَةٌ . وَالشَّبْرَقَةُ الْقَطْعُ ، يُقَالُ شَبْرَقْتُ الثَّوْبَ أَشْبَرَقَهُ شَبْرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ ، وَشَبْرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا وَالتَّنَوُّفَةُ الْمَقَاذَةُ ، وَيُقَالُ فِيهَا تَنَوُّفِيَةٌ أَيْضًا . وَالْوَحَى هُنَا الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يُقَالُ سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ ، وَهُوَ صَوْتُهُ الْمَتَدُّ الْخَفِيُّ ، وَقَوْلُهُ زُرَيْرِمٌ حِكَايَةُ لِأَصْوَاتِ الْجَنِّ إِذَا قَالَتْ زَى زَى ؛ وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ حَلَفْتُ هَذِهِ الْخَلْفَةَ بِمَا سَارَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ الشَّدِيدَةَ السَّيْرِ الْعَظِيمَةَ الْخَلْقُ ، وَمَا قَطَعْتَ مِنْ مَقَاذَةٍ لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا أَصْوَاتُ الْجَنِّ ؛ وَهَذَا مِمَّا لَا يَوْقِفُ عَلَيْهِ مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدِّ وَتَعَبٍ فِي كَشْفِهِ وَتَتَبُّعِهِ مِنْ كِتَابِ اللُّغَةِ .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعيد : كلفظ مسرج من قول العجاج .

وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبًا مُرَبَّجًا . وَفَاحِمًا وَمَرَسِنًا مُسْرَجًا

فَالْمُقَلَّةُ شَحْمَةُ الْعَيْنِ ، وَالْحَاجِبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْمُرَبَّجُ الْمُقَوَّسُ مَعَ طَوِيلٍ ، وَدَقَّةٌ فِي طَرَفِهِ وَالْفَاحِمُ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْقَحْمِ ، وَالْمَرَسِنُ الْأَنْفُ ، وَصِفَهُ بِكَوْنِهِ مُسْرَجًا إِمَّا أَنَّهُ كَالسَّيْفِ الشَّرِيحِيِّ فِي الدَّقَّةِ وَالْأَسْتَوَاءِ ، وَالشَّرِيحِيُّ نِسْبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى سَرِيحًا تَنْسَبُ إِلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَإِمَّا أَنَّهُ كَالسَّرَاجِ فِي الْبَرِيقِ وَاللَّمَعَانِ ؛ أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ سَرَجَ اللَّهُ وَجْهَهُ إِذَا هَجَّجَهُ وَحَسَّنَهُ . فَهَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا لَا يَوْقِفُ عَلَيْهِ مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ التَّصْرِيفَ وَأَتَقَنَهُ .

إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ يَخْتَلِفُ فِي الْغَرَابَةِ وَعَدْمِهَا بِاخْتِلَافِ النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ ، فَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ مَالُوفًا مُتَدَاوِلًا فِي الْأَسْتِمَالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا فِي زَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا عِنْدَ قَوْمٍ ، مُسْتَعْمَلًا مَالُوفًا عِنْدَ آخَرِينَ .

وهو أربعة أصناف .

الـصـنـف الأول

(المالوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما تداول استعماله الأوّل والآخِر من الزمان القديم وإلى زماننا : كالسياه والأرض ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، وما أشبه ذلك ، وهو أحسن الألفاظ ، وأعتدّها ، وأعلاها درجة وأعلاها قيمة ، إذ أحسن اللفظ ما كان مالوفاً متداولاً كما تقدم ، وهذا لا يقع عليه اسم الوحشيّ بحال . قال في : "المثل السائر" وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام ، وجدته سهلاً سلساً ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً - وهذا وقد أنزل في زمن العرب العرّباء ، والألفاظ كلّها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالاً وكفى بالقرءان الكريم قدوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، "ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القرءان وهي السبع المتاني" يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى ما أشتملت عليه من الألفاظ ، وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوق ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وهكذا فلنكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها ، والمقتضى بألفاظ القرءان يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة ، وقد كانت العرب الأوّل في الزمن القديم تتعاشى اللفظ الغريب في نظمها ونثرها ، وتميل إلى السهل وتستعذبه ، ويكتفى من ذلك كلام قيسمة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه ، فقال له : "إنك في النحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحبّه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تكبير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سوّد من صبك وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب تحبّه يحمل ما حمل عليه :

من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة - ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان : من الخطب الحليل ، الذي عمّت رزيبته نزارا واليمن ، ولم تخصص بذلك كندة دوننا : للشرف البارح الذي كان محجرا ولو كان يقضى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بحت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيلا لا يرجع أخراه على أولاده ، ولا يلحق أقصاه أدناه . فأحد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن احترت من بنى أسيد أشرقها بيتا ، وأعلها في بناء المكرمات صوتا ، فقدناه إليك بنسمة تذهب مع شقرات حسامك بياق قصرته . فتقول : زجل امجن بهالك عزيز فلم يستل تخيمته إلا تمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهي أئوف تتجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجانها لم يرددها تسليط الإحن على البراء . وإما أن وادعنا إلى أن تضع الحوامل قسديل الأزر وتمقد الخمر فوق الزيات . فبكي أمرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال .

”لقد علمت العرب أنه لا كفة حجر في دم ، وأنى لن أعتاص به جلا ولا ناقة ، فأكتسب به سبة الأيد ، وقت العصد ، وأما النظرة فقد أوجبتنا الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعظها سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حنقا وفوق الأسته علقا .

إذا جالت الحرب في مازق . . . تصافح فيه المتأيا القوسا !

أقيمون أم تصرفون ؟ “ قالوا بل تصرف بأسوا الاختيار وأبى الاجترار ، بحرود وأذية ، وحرب وبلية .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتأمل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ * كَثَائِبُنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ مُعْطِرُ
فَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ لَا وَاللَّهِ ! وَلَكِنْ أَسْتَعِذُّ بِهِ ، فَرُوَيْدَا يَنْفِرُجُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ
فُؤَسَانَ كِنْدَةَ وَكَثَابَ حَمِيرٍ . وَلَقَدْ كَانَ ذِكْرُ غَيْرِ هَذَا بِي أَوْلَى إِذْ كُنْتَ نَازِلًا بِرَبِيعِي ،
وَالكِنْتُ قُلْتُ فَأَوْجِبَتْ .

فَقَالَ قَبِيصَةَ مَا يُتَوَقَّعُ فَوْقَ قَدْرِ الْمَعَاتِبَةِ وَالْإِعْتَابِ ، فَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ هُوَ ذَلِكَ .
قَالَ فِي : ” الْمَثَلُ السَّائِرُ ” فَالْيُنْظَرُ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الرَّجُلَيْنِ : قَبِيصَةَ وَأَمْرِي
الْقَيْسِ حَتَّى يَدْعَ الْمُتَمَعِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ فِي اسْتِمَالِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الْأَلْفَاظِ . فَإِنَّ هَذَا
الْكَلَامَ قَدْ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ هُوَ كَلَامٌ كُلُّ
فَصِيحٍ مِنَ الْعَرَبِ مَشْهُورٌ ، وَمَا عَدَاهُ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ . قَالَ : وَهَذَا الْمَشَارُ إِلَى هَاهُنَا
هُوَ مِنْ جَرَلِ كَلَامِهِمْ ، وَهُوَ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ السَّلَاسَةِ وَالْعُدُوبَةِ ، وَإِذَا تَصَفَّحْتَ
أَشْعَارَهُمْ أَيْضًا وَجَدْتَ الْوَحْشِيَّ مِنَ الْأَلْفَاظِ قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسْلُوسِ فِي النَّصْرِ
وَالسَّمْعِ ، وَعَلَى هَذَا الْمُنْتَهَجِ فِي الْجَزَالَةِ وَالسُّهُولَةِ يَجْرِي مِنَ النَّظْمِ قَوْلُ أَمْرِي الْقَيْسِ :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ، * كَفَّانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِجَبْدِ مَوْئَلٍ * وَقَدْ يُدْرِكُ الْجَبْدُ الْمَوْئَلَ أَشْأَلِي

فَانْظُرْ إِلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا لَفْظَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَلَا كَرَاهٌ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْجَزَالَةِ
وَكَذَلِكَ آيَاتُ السَّمْعِ الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَجْعَلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمًا ، * فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ

تَعَبِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ

وَمَا ضَرَبْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا ۖ وَتَكْرَهُهُ أَجَاهُكُمْ فَتَطُولُ
 وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ ۖ وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قِيْلُ
 وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِيقٍ ۖ بِهَا مِنْ قِرَاعِ النَّارِ عَيْنَ قُلُوبِ
 مُعَوَّدَةٍ أَنْ لَا تُسَلَّ نِصَالُهَا ۖ فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قِيْلُ

فإذا نظرت ماتضمته هذه الأبيات من الجزالة، خلقتها زبراً من الحديد مع ما هي عليه من السهولة والمعدوبة وأنها غير قطة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكاد تدوب لرقة القلوب : كقول عروة بن أذينة :

إِن الَّتِي زَعَمْتَ فَوَإِذْكَ مَلَّهَا ۖ خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَىٰ لَهَا
 بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّيْمُ فَصَاغَهَا ۖ بَلْبَاقَةٌ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
 حَجَّجْتَ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : ۖ مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا !
 وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةٍ ۖ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَلَمَّهَا

وقول يزيد بن الطثرية في محبوبته من بني حرم .

بِنَفْسِي مِنْ لَوْمَةٍ بَرْدٌ بِنَانِهِ ۖ عَلَى كَيْدِي، كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ

وإذا كان هذا قول ساكن الفلاة، لا يرى إلا شبيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أو يربوعاً، فما بال قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الألفاظ وشطف العبارات ؟ ولا يُجَلِّدُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ ، أو عاجز عن سلوك طريقها ، فإن كل أحد ممن حصل على نبذة من علم الأدب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام ، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها . وأما الفصيح المنتصف بصفة الملاحه ، فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه .

قال : وإن ماري في ذلك مُتَمَارٍ ، فليَظنر إلى أشعار علماء الأَدب من كان يُتَمَارُ إليه حتى يعلم صحَّةَ ذلك ، فإن ابنَ دُرَيْدٍ قد قيل إنه أشعر علماء الأَدب وإذا نظرت إلى شعره ، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجددين مُنَحَطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأَدب عَشْرَ مِئْثَارٍ ما علمه ، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشعراء المُحدِّثين ، وشعره كمن نسيم على عَدَبَاتِ أغصان ، أو ككؤلواتِ طَلِّ على طُرُرِ رِيحَانٍ ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة ، كقوله :

وإني ليرضيني قليل نوايكم * وإن كنت لأرضي لكم بقليل

بحرمة ماقد كان بيني وبينكم * من الوُدِّ إلا عدو يجيل

وقوله في محبوبته قوز :

يا قوز يا مئة عباس * قلبي يُفدى قلبك القاسي

أسأت إذ أحسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس

يُقلِّفني شوق فاتيكم * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الأبيات؟ وأعلق بانخاطر، وأسرى في السمع؟ ومثلها تسهر راقدات الأبقان ، وعن مثلها تتأخر السوايق عند الرهان ، ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة ، قرية بعيدة؟ ، وقد كان أبو العتاهية أيضا في عُرة الدولة العباسية ، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري ، رقة الفاظ ، وأطاقة سبك ، وليس بركك ولا واه ، وأنظر إلى قصيدته التي يمدح بها المهدي ويشبب بجاريته عتب وهي :

ألا ما لسيدي ما لها * تبدل ، فأحسِلْ إدلأَلْها

ألا إن جاريةً للإمام * م قد أسكن الحسنُ سريراً لها
 لقد أتعبَ اللهُ قلبي بها * وأتعبَ في اللومِ عدلها
 كأنَّ بعيني في حيثُ ما * سلكت من الأرضِ تماثلاً
 فلما وصل إلى المدبح قال من جلته :

أنته الخلافَةُ متفادَةٌ * إليه تُحمرُّ أذيالها
 فلم تك تصلحُ إلا لهُ * ولم يك يصلحُ إلا لها
 ولو رامها أحدٌ غيره * زلزلت الأرضُ زلزالها
 ولو لم تطعمهُ نباتُ القلوبِ، * ما قبل اللهُ أعمالها

فهذه الأبيات من أرق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، حتى قال بشارٌ عند سماع المهدي لها من أبي العتاهية : "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواذه" يريد هل زال عن سريره طرباً بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نؤاس في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك فُتِم على شعراء عصره مع ما فيه من فحول الشعراء ومفاهيم كسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وسهولته : كقوله في محبوبته جنان :

ألم تر أنني أفنيتُ عمري * بمطلبها ومطلبها عسير
 فلمّا لم أجد سبباً إليها * يقربني وأغيبني الأمور
 تحججتُ وقلت : قد تحجّت جنان * فيجمعني وإياها المسير

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منخفة، وكذلك سائر شعره، وكان هو وأبو العتاهية كأنما يتفقان من كس واحد . ومن لطيف ما يحكى في توافق طريقتهما

وأتحد مأخذها أن أبو نُوَاسٍ جلس يوماً إلى بعض التجَّار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى أبو نُوَاسٍ ماءً فلما شرب قال :

« عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابًا »

ثم قال : أجزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجازاً فقال : ما شأكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وَكَيْتَ وقد قال أبو نُوَاسٍ :

« عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابًا »

فقال أبو العتاهية مجزأه :

« حَبَّدَا الْمَاءُ شَرَابًا »

فَعَجِبُوا لقوله على الفور من غير تلبث ، فهذا هو الكلام السهل المتع تراه يُطْعِمُكَ أن تأتي بمنه ، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن .

ومن الثر قول سعيد بن حُيَيدٍ : وأنا من لا يُحَاجُّكَ عن نفسه ، ولا يغالطك عن جُرمِهِ ، ولا يستدعي رُكَّ إلا من طرفته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرم ، نَبَّتْ بي عنك غِرَّةُ الحَدَاثَةِ ، ورددتني إليك الحُنُكَةُ ، وباعدتني منك الثقةُ بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقبل الصديعة بقبول العُدر ، وتجدد النعمة باطِّراح الحفد ، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام القدرة وإن طالقت قصيرة ، والمنعمة بها وإن كثرت قليلة ، فَعَلَّتْ إن شاء الله تعالى .

فانظر إلى قوَّة هذا الكلام في سهولته ، وقُرب مأخذه مع بُعد تساوله والإتيان بمشاكله . وأجزل منه مع السهولة قول الشعبيِّ للهجاج ، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المثل، فاستحلستنا الحذر،
 واكتحلنا السم، وأصابتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقيا، ولا فجرة أقويا" فعمفا عنه .
 قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام
 إذا لم يقفوا على معناه إلا بكده ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه ككرة غليظة ،
 وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا ، ولم يعلموا
 أن السهل أمتع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا
 قيل "أجود الكلام السهل المتع" وكان المفضل يخار من الشعر ما يقل تداول الرواة
 له ، ويكثر الغريب فيه . قال العسكري : وهذا خطأ في الاختيار ؛ لأن الغريب
 لم يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته
 أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، فإذا رامها ؛ تعذرت عليه ،
 وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال ذلك
 عي في زمانى ، وتكلف منى لو قلته ، وقد رزقت طبعاً وآتساعاً في الكلام ، فإنا
 أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشدنى :

أيا رب إني لم أريد بالذى به . مدحتُ علياً غير وجهك فارحم

قال في الصناعتين : فهذا كلام عاقل يضع الكلام موضعه ، ويستعمله في إبانته .
 ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعاني رفق ، والتشادق في غير أهله نقص ،
 والنظر في وجوه الناس عي ، ومس الخيبة هلك ، والأستعانة بالغريب عجز ، والخروج
 عما نبئ عليه الكلام إسهاب ؛ فأجود الكلام ما كان جراً سهلاً ، لا يتغلق معناه ،
 ولا يستنبهم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكراً ، ومتوعراً متقعراً ، ويكون بريئاً من

الغثائفة، عاريا من الرثائفة، فالكلام إذا كان لفظه غثا، ومعرضه رثا، كان مردودا، ولو احتوى على أجل معنى وأنبله، وأرقعه وأفضله. قال في "المثل السائر": أما البداوة والعنجهية، فملك أمة قد حلت، ومع أنها قد حلت وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على استعمالها في ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحضر؟

الصف الثاني

(الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الأول ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوحشي الغليظ، والمعكر، والمتوعر وهو على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(ما يباب استعماله في النظم والنثر جميعا)

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عربي بادي، ولا قروي متحضر. قال: وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا، وهو ما يجبه سمك، ونبا عنه لسانك، وتقل عليك النطق به، على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المقلقين من العرب والمحدثين. فمن ذلك لفظ الجحيش في قول تابط شبرا من أبيات الحماسة :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمِيسِي بِغَيْرِهَا * جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جَحِيشٍ من الألفاظ المُنكَرَةِ القبيحة، قال في "المثل السائر" : وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيدٌ ؟ وفَرِيدٌ لفظة حَسَنَةٌ راقية لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيشٍ لما آخِثِلَ شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما استعماله القبيح، والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يَعْدِلْ عنها، وأقبح من ذلك لفظ أَطْلَحَمَ في قول أبي تمام :

فَدَقَلْتُ لِمَا أَطْلَحَمَ الْأَمْرُ وَأُنْبَعَثَتْ ۖ عَشْوَاءُ قَالِيَّةٌ غُبْسًا دَهَارِيَسَا

فإن لفظة أَطْلَحَمَ من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كرية على الدُّوق، وكذلك لفظة دَهَارِيَسٍ في آخر البيت المذكور .

وعلى حد ذلك ورد لفظ جَيْدَرٌ في قوله من أبيات في وصف فرض :

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ ۖ أَرْوَعُ لِاجَيْدَرِ وَلَا جَيْبُسُ

فاللفظة جيدر وحشية غليظة، وأغاظ منها لفظة جَفَحَتْ في قول أبي الطيب المتنبي :

جَفَحَتْ وَهَمْ لَا يَجْفَحُونَ بِهَا بَهْم ۖ سِيمٌ عَلَى الْحَسْبِ الْأَعْرَ دَلَائِلُ

فإن لفظة جَفَحَ مَرَّةً الطعم، وإذا مَرَّتْ عَلَى السَّمْعِ أَقْشَعَرَّتْ مِنْهَا، وكان له مندوحة عن استعمالها فإن جَفَحَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَيَفْخَرُونَ مكان جَفَحَتْ وَيَجْفَحُونَ، لاستقام وزن البيت وحطى في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كَنَابَظٌ شَرًّا في لفظة جَحِيشٍ في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع، ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقْدُ

في قول زهير :

تَقَى نَقِيٌّ لَمْ يُكْثِرْ غَيْمَةً ۖ بِنَهْكَ ذِي قُرْبَى وَلَا حَقْدًا

وَالْحَقْلَدُ الْمَسِيُّ الْخَلْقُ. قَالَ فِي «الصَّنَاعَاتِينَ»: وَقَدْ أَخَذَ الرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ فِي لَفْظَةِ الْحَقْلَدِ فَاسْتَبْشَعُوها، وَقَالُوا: لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْجَرِيثِيِّ فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ وَأَسَمِهِ عَلِيٌّ:

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرُ الْأَقْبِ * كَرِيمُ الْجَرِيثِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

فَلَفْظُ الْجَرِيثِيِّ مِمَّا يَكْرَهُهُ السَّمْعُ، وَيُنْبِئُ عَنْهُ اللِّسَانُ، وَالْجَرِيثِيُّ بِمَعْنَى النَّقِيسِ بِفَعْلٍ أَسَمَهُ مُبَارَكًا، وَلَقَبَهُ أَغْرًا، وَنَفْسَهُ كَرِيمَةً، وَنَسَبَهُ شَرِيفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُسَمَّى عَلِيًّا وَهُوَ أَسْمُ مُبَارَكٍ لِمُؤَاظَمَةِ أَسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: عَلِيِّ كَرِيمِ اللَّهِ وَجْهَهُ وَيَلْقَبُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ وَهُوَ لَقَبُ أَعْرَابِيٍّ مَشْهُورٍ، وَأَغْرًا أَخَذًا مِنْ غَزَاةِ الْفَرَسِ لِأَنَّهَا أَشْهَرُ مَا فِيهَا، وَوَصَفَهُ بِكَرَمِ النَّفْسِ إِمَّا بِاعْتِبَارِ الْحَسَبِ وَالْعَرَاقَةِ، وَإِمَّا بِاعْتِبَارِ بَدَلِ الْمَالِ وَكَثْرَةِ الْعَطَاءِ، وَأَشَارَ إِلَى شَرَفِ نَسَبِهِ بِاعْتِبَارِ عَرَاقَتِهِ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ وَعَرَاقَةِ حَسَبِهِ .

الضرب الثاني

(ما يعاب استعماله في النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه استخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولاً لغيره . قال : وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة، وربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة .
منها لفظ شَرْنَبْتَةٍ مِنْ قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

وَلَوْلَا حَيَاءٌ، زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً * إِذَا سِيرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي
شَرْنَبْتَةٌ شَمَطَاءٌ مِنْ يَرِّ مَائِيهَا * يُسَبِّهُ لَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطُّفْلِ

(١) في القاموس «الحققد في قول زهير الاثم» ومثله في اسان العرب .

قال : فلفظة شَرَّيْنَةَ من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام منشور من كتاب أو خطبة ، لعبت على مستعملها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٌ الواردة في أبيات بشر في وصفه لقاء الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المَهْنَدَ عن يميني « فَقَدَلَهُ من الأضلاع عَشْرًا

فَخَرَّ مُضْرَجًا بِدَمٍ كَأَنَّ « هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا

وكذلك في قول البُحَيْرِيِّ في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌ تَعَلُّوْهُ شُرْفَاتٌ « رُفِعَتْ فِي رُؤْسِ رَضْوَى وَقُدَيْسِ

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والماكتبات ، ولا بأس بها

في الشعر ، وقد وردت في حُطْبِ الشَّيْخِ الخَطِيبِ ابنِ نُبَاتَةَ كقولهِ في حُطْبَةِ يَذْكَرُ فِيهَا أهوال يوم القيامة : أَقْمَطَرُ وَبَالُهَا ، وَأَشْمَخِرُ نَكَالُهَا ، فَمَا طَابَتْ وَلَا سَاعَتْ .

ومنها لفظة الكَنُهَوْرِ من أوصاف السحاب كقول أبي الطَّيِّبِ :

يَأْلَيْتَ بِأَكْبَةِ شَعْبَانِي دَمْعَهَا « نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ قَتَعِدْرًا

وَرَأَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةً « الشَّمْسُ سُورِقُ وَالسَّحَابُ كَنُهَوْرًا

فلفظة الكَنُهَوْرِ لاتعاب نظماً ، وتعاب نثراً .

ومنها لفظة العَرْمِسِ ، وهو اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها

في الشعر ولا يعاب مستعملها كقول المتنبي :

وَمَهْمِهِ جِبْتُهُ عَلَى قَدَمِي « تَعَجَّزُ عَنْهُ الْعَرْمِسُ الدَّلِيلُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ، ولو استعملت في الكلام المنشور من

الخطب لما طابت ولا ساحت؛ وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام في قوله :

هي العرْمُسُ الوجناء وابن مَيْمَةَ * وجاش على ما يحدث الدهرُ خافِضُ

ومنها اللفظة الشَّدِيَّة في قول أبي تمام أيضا .

« بأوضع الشَّدِيَّة الوجناء »

وهي ضرب من التوق ، فإن الشَّدِيَّة لاتعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتابة أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال : وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فأعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنشور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنشور . قال : وذلك شيء استنبطته وأطلعت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دلني عليه ، فمن شاء أن يقدني فيه ، وإلا فلْيُدِّمِ النظرَ حتى يطلع على ما أطلعت عليه . والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت ، على أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله قد تابعه على ذلك في شرح اللخيص فلا أعلم أقلده في ذلك أم ذوقه أذاه إليه ؟ .

الضرب الثالث

(ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة)

قال في "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليّة ، ومكانة شريفة ، وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مدعي فنّ الفصاحة وفأوضتهم وفأوضوني ، وسألتهم وسألوني ، فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضوع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أَسْبِقْ إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فننقل من القبح إلى الحسن
وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح
والطبع السليم، وقد نبه منه على تسعة أخطاء .

الخط الأول - ما يرجع فيه الأسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ
خَوْدٌ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خَوْدٌ على
وزن فَعْلٍ بتشديد العين ومعناها أسرع، يقال: خَوْدُ البعير إذا أسرع في مشيه،
فهو على صيغة الأسم حسنة رائقة، قد وردت في النظم والثر كثيراً، وإذا جاءت
على صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبي تمام:

وإلى بنى عبد الكريم تَوَاهَقَتْ « رَنَكُ النِّعَامِ رَأَى الطَّرِيقَ فَخَوْدًا ^(١)

إلا أن لفظة خَوْدٌ قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها
بعض القبح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة:

أقولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوْدَ رَأَاهَا : « رُوَيْدِكَ لِمَا سُنِّيَ حِينَ مَسَّقِي

رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَجَلِي « عَمَايَةُ هَذَا الْعَارِضِ الْمُنَاقِي

والرأى النعام، والمراد أنت نفسه فزت وفرعت، شبه بإسراع النعام في فراره
وفزعه فلما أورد ذلك على سبيل المجاز، زال بعض القبح. قال: وهذا يدركه
الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بين بين، ويقاس على
ذلك أشباهه ونظائره .

الخط الثاني - ما يرجع فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي
وذلك في مثل لفظة ودَّع، وهي فعل مضارع ثلاثي لا ينقل بها على اللسان، ومع ذلك

(١) في المثل السائر . الظلام . وكذا في ديوان أبي تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُسْتَحْسَنَةٍ، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى: "فَذَرَهُمْ ^{يُحَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا} يَحَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة، وأما على صيغة الاستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: "لَوْ مَدَدْنَا الشَّهْرَ لَوَاصِلًا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَمَعِّقُونَ تَعْمَقَهُمْ" وقد استعملها أبو الطيب على هذا الوجه في قوله:

تَشْتَكُمُ بِهَا كُلَّ سَاهِيَةٍ * وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَائِدَعٍ

جاءت في كلامه بهجة رائقة، وأما الماضي من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسنَ له، كقول أبي العتاهية:

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قُبُورَهُمْ * شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَّعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعًا، ولا أصابت من الطَّلَاوةِ غَمْرًا، وهذه لفظة واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نقات من صيغة إلى صيغة، وكذلك لفظة وَذَرٌ فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "ذَرَهُمْ ^{يَاكُلُوا} يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا"، وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: "سَأُصَلِّبُ سَفَرًا وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين، وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة الماضي، فإنها أقيح من لفظة وَدَعَ، وقد استعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا.

النقط الثالث - ما يرجع فيه الأفراد في الأبتعمال على التنثية، وذلك في مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى: "وَدَّعْ أَدَاهُمْ".

الأخديج ، فإنها يحسن استعمالها في حالة الإفراد دون التثنية ؛ فما وردت فيه مفردة
بغايات حسنة رائعة ، قول الصَّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي * وَجِئْتُ مِنَ الإِصْفَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بغاء تقييلا مستكرها قول أبي تمام :

يَادَهُرُ قَوْمٌ مِنْ أَخْدَعِكَ فَقَدْ * أَحْجَجْتَ هَذَا الأَئَامَ مِنْ حُرُوقِكَ

هكذا ذكره في المثل السائر ، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة
في أحدهما فَحَسُنَتْ ، وجاءت مشاة في الآخر فَبُيِّحَتْ .

النظ الرابع - ما يترجح فيه الإفراد في الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض
فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله
تعالى : " وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا " أو قُرِئَتْ بالسماء مفردة كما في قوله تعالى :
" وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ " أو مجموعة كما في قوله تعالى :
" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ " ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا ،
لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها
بمجموعة قال : " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ " وكذلك لفظة
البُقعة ، وكذلك لفظة طَيْفٌ في ذكر طَيْفِ الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوفٍ ، وهي
في حالة الإفراد من أَرْقِ الألفاظ والطفوا ، فإذا جمعت زالت عنها تلك الطالوة ،
وفارقتها تلك البهجة ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الإفراد قال تعالى :
" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ " . ولم تزل
الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يلزموا
بإستعماله مجموعا ، قال في المثل السائر : وبالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدة ووزنا، وهي ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يعلم السر فيه، والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما، وكذلك يجري الحكم في جميع المصادر، فإنها في حالة الأفراد أحسن منها في حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بغيات غنة مستكرهة، كما في قول عنبرة:

فَإِنْ يَبْرَأُ فَلَمْ أَتَيْتُ عَلَيْهِ ۖ وَإِنْ يَفْقَدُ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفقد فقداً، وليس له من الروثي والطلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فقْدٌ، وإن كان جائزاً من جهة العربية.

النمط الخامس - ما يترجم فيه الجمع في الاستعمال على الأفراد كلفظة اللب الذي هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع في غاية الحسن والبهجة والطلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: "وَلَيَنْدُرُّ أُولُو الْأَلْبَابِ" وقوله: "وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما في حالة الأفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المخارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة، قال في المنل السائر: وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره، وجدت هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الأفراد فإن أضيفت أو أضيف إليها، حسن استعمالها، وساغ في طريق الفصاحة إيرادها. أما إضافتها فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء: "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَاعَشْرَةَ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إِنَّ الْعُبُودَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ ۖ قَتَلْنَا، ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا عَرَكَ بِهِ ۖ وَهُنَّ أضعُفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْفِئَانَا

قال في المثل السائر : فإن عيرت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلاً على ذلك إلا مجرد الذوق السليم ، وكذلك لفظة كواب فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا بمجموعة ، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمائية في قوله تعالى : " يَطْلُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَؤُوسٍ مِنْ مَعِينٍ " وعلى هذا النحو لفظ رَجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله تعالى : " وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا " أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكسبها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الإفراد ، فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه ، حسنت كما في حالة الجمع . قال في المثل السائر : وليس كذلك لفظ الصوف والأصواف ، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا بمجموعاً حيث قال تعالى : " وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ " لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الإفراد كما في حالة الجمع . قال : وإنما قبح ذكره في قول أبي تمام :

كَأَنُوا بَرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا ۖ فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفًا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان . قال : وعلى هذا التهج وردت لفظة حبر وأحبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد في القرآن الكريم إلا بمجموعة .

اللفظ السادس - ما يترجم فيه بعضُ الجوع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقال في الجمع سهام صواب وصائبات وصيب بالتشديد ، وهذه الجوع كلها حسنة ، رائقة ، معجبة ، دائرة على السنة أرباب الثرو والنظم ، ويقال في جمعه أيضاً صُيبٌ على وزن كُتِبَ ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الاستعمال، تقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نؤيس في شعره حيث قال :

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعْتُ ۖ عَيْنُهُ تَلِكُ الْعَشِيَّةِ بِرِي
قَتَلَتْ إِنْسَانَهَا كَيْدِي ۖ بِسَهَامٍ لِلرَّدَى صُيِّبِ

جاءت غنة كريمة نايبة عن السمع، نافرة عن اللسان، وكذلك الجمع في قيد، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، سائغ الاستعمال، ويقال في جمعه أيضا أقياد، وهو من الجروع المستكرهه الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عوفيف القوافي من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحْسُ رُقَادُ ۖ مِمَّا تَشْبَكَكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ
لَمَّا أَنَانِي مِنْ عُبَيْدَةَ أَنَّهُ ۖ أَمَسَتْ عَلَيْهِ تَطَاهُرُ الْأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يرق، وكذلك القول في جمع قبة، فإنه يجمع على قباب وهو جمع حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قُبَب، وليس بمستحسن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قيد، وقد استعمله ابن محكان التميمي في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أُنْدِيَهُمْ لِأَرْحَانَا ۖ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبِي لَمْ قُبِيَا ؟

فلم يحسن كسب قباب بل جاءت كريمة مستشعة، وأعجب ما في هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا في لفظه واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال في الجمع باختلاف المعاني حتى لو جمع في مكان جمع لم يحسن استعماله وإن كان جائزا من جهة العربية : كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النبيه منهم، والعين الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شد هذا الموضع على المتفني في قوله :

وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَرَرٌ * وَالْحَيْلُ فِي أَعْيَانِهِمَا قَبْلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين، قال في "المثل السائر": وكانت الذوق بأبي ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزا، وأعجب من ذلك كله أنك ترى وزنا واحدا من الألفاظ، فتارة تجد مفردة حسنا، وتارة تجد جمعه حسنا، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه خبرور : وهو قَرُوحُ الحَبَّارِي، فإنه يجمع على حَبَّارِيَر ومفردة أحسن من جمعه ، وكذلك طُنْبُورٌ وطنابير ، وعَرَقُوبٌ وعراقيبُ ، وما أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بَهْلُولٌ وبهاليل ، ولَهْمُومٌ ولهاميم ، وهذا ضد الأول . ومما مفردة حسن وجمعه حسن جمهورٌ وجمادير ، وعَرَجُونٌ وعراجينُ وما أشبه ذلك .

النمط السابع - ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثالث والربع إلى العشر، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائفة الأمتثال فإذا تحركت أو ساطها فقلت ثُلُثٌ ، ورُبُعٌ ، وُخْمُسٌ وكذلك إلى عَشْرٌ ، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثُلُثُ ، والخُمُسُ ، والسُدُسُ أما الربعُ ، والسبعُ ، والثلثمُ ، والتسعُ ، والعشر فليس كذلك في حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك في السبعُ ، والتسعُ ، والعشر خاصة فإن الثقل ظاهر فيها، أما الربعُ والثلثمُ فانهما في الحسن مع تحريك الوسط كالثُلُثُ ، والخُمُسُ ، والسُدُسُ ، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط فيهما في سورة النساء حيث قال تعالى : «وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لِرَبِّهِمْ إِحْسَانًا قَدْرًا قَلِيلًا لَمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنَّ كَانَتْ لَكُمْ لَدَيْهِمْ أُلُوفٌ فَلَهُمْ آسَنُ وَآسَنُ وَآسَنُ وَإِذَا كُنْتُمْ لِلْجَنَّةِ كَارِهِينَ لَمَّا تَرَكْتُمْ أَفْوَاجًا

اللكريم ؟

النمط الثامن - ما يترجح فيه أبدية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض كاسم الفاعل المبنى من قِيلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفعل بكسر العين وفعلان نحو حَمِدَ فهو حامد، وَحَمِدَ، وَحَمَدَانٌ، وَفَرِحَ فهو فرح، وَفَارِحٌ، وَفَرِحَانٌ، وَغَضِبَ فهو غضبان، وَغَاضِبٌ، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد، وصيغُ أسماء الفاعلين المبنية منها مختلفة في الأحسن الغالب استعماله، فحامد من حَمِدَ أحسن من حَمِدٍ وَحَمَدَانٍ، وَفَرِحَ من فرح أحسن من فرح وَفَرِحَانٍ، وَغَضِبَ من غضب أحسن من غضب، وقد جاء بناء اسم الفاعل من فرح على فرح في قول بعض شعراء الحماسة :

فَمَا أَنَا مِنْ حُرَيْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا يُسْرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحٌ

فلم يحسن كسَنَ فَرِحٍ، أما ما جاء منه على وزن فَعَلَةٍ نحو هَمَزَةٍ وَنَمَزَةٍ وَجَمَعَةٍ وَنَوْمَةٍ وَكَيْفَةٍ وَحَيْثَةٍ، وما أشبه ذلك، فقد قال في "المثل السائر": الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع - ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وأقعدت فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة أقعدت لها موضع تستعمل فيه ، تقول : أقعدت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأقعدت غارب الجمل ، إذا ركبت عليه ، ولا يحسن أن تقول أقعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزا ، وكذلك أقعدت وأقوعت فإنك تقول أقعدت المكان ، فإذا كثرت عشبة قلت : أقعدت فلفظة أقعدت للتكثير، وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيبة

عذبة، وكذلك سائر ما في وزنها نحو آخسوشن المكان، وأغر ورقت العين، وأحلوون الطعم، وما أشبه ذلك، قال في "المثل السائر": وهذا كله مما أخذته بالاستغراء، وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به الألفاظ عرضة على ذوقه الصحيح، فما يجده الحسن منها موحّدا وحده، وما يجده الحسن منها مجتمعا جمعه، وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

الصنف الثالث

(المتوحش في زمن دون زمن)

وهو ما كان متداول استعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وحشياً، ولا لديهم غريباً كما سيأتي التنبيه عليه، وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قَصُرَ فهمهم عنه، وقلّت معرفتهم به، وقد كان كلام العرب مشحوناً به في نظمهم ونثرهم، دائراً على ألسنتهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وأنظر إلى ما تضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عياناً؛ فمن ذلك قول أبي المنعم الهذلي:

أبي الهَضِيمَةِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مِثْلَ لُفِّ الْكَرِيمَةِ جِلْدٌ غَيْرُ نَيْسَانَ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَأَلُ الْوَدِيقَةَ مِعْشَتَانُ الْوَسِيقَةِ، لِأَنْكَسَ وَلَاوَانَ
رَبَاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَغَلَبَةٍ * وَهَابُ سَلَهَةِ، قَطَاعُ أَقْرَانَ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةِ حَمَالُ الْوَيْةِ * شَهَادُ أُنْدِيَةِ سِرْحَانُ قِيَانَ

وقول أعرابي في وصف إبل : كُومٌ مَهَّازِرٌ ، مَكْدٌ خَنَابِرٌ ، عِظَامُ الخَنَابِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، أَجَوَافُهَا رِقَابٌ ، وَأَعطَانُهَا رِحَابٌ ؛ تُنَمَّعُ مِنَ اللَّبَمِ ، وَتَبْرُكُ لِلجُحَمِ . يريد بالكُومِ جمع كُومَةٍ ، وهى الناقة العظيمة السنام ، والبَهَّازِرُ جمع بَهْرُزَةٍ : وهى الناقة العظيمة ، والمُكْدُ جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخَنَابِرُ جمع خُنْجُورٍ : وهى بمعنى المَكُودِ أيضا ، والعِظَامُ الخَنَابِرُ غِلَاطُ الأعناقِ ، وَسِبَاطُ المَشَافِرِ أى مرسلات المشافر ، والمَشْفَرُ من الناقة كالجَحْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى ويخرف في هذا السلك ؛ فهذا ومثله لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم غربيا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا على ألسنتهم في نظمهم ونثرهم ؛ وأعظم شاهد لاستحسان استعماله عندهم ووضوح منتهجه لديهم أن القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد أشتمل على ألفاظ من ذلك كقوله تعالى : " وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ " وقوله : " إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ " وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومة المعانى عند المخاطبين : لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، واخطاب بما لا يفهم بعيد ، وقد قال تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ " . وكذلك ورد في الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم " مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهُ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللهُ تَعَالَى تِرَةٌ " أى نقص ، وقيل تَبَعَةٌ ، وقيل حَسْرَةٌ . وقوله صلى الله عليه وسلم " لَيْسَ تَرْجِعُ أَحَدُكُمْ حَتَّى فِي شَيْءٍ نَعَلَهُ فَإِنَّهَا مِنَ المَصَائِبِ " والشَّيْءُ أحد سبور النعل ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : " أَلْطَوُوا بِيَاذَا الجَلَلِ وَالِإِكْرَامِ " أى أَلْزَمُوا هذه الدعوة وأكثرُوا منها . وقوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء : " وَأَسْأَلُ حَوَاتِي وَأَسْأَلُ سَخِيمَةَ قَلْبِي " وأشبه ذلك .

وحديث أم زرع صريح في شيوع ذلك فيهم، وعمومه في مخاطباتهم ومكالماتهم؛ وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : "جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَمَاهَدَنَ وَتَمَاقَدَنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أزواجهن شيئاً .

قالت الأولى : زوجي لَمْ يَحْمِلْ عَثَّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ، لَا سَهْلٌ فَيَرْتَقِي وَلَا سَهِينٌ فَيُنْتَقِي ، وَفِي رِوَايَةٍ فَيَنْقَل .

قالت الثانية : زوجي لَا أَبُثُّ خَبْرَهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْرَهُ ، إِنْ أَذْكُرُهُ أَذْكُرُهُ ^{بِسَدِّ مَسْرُورِهِ} عَجْرَهُ وَبِحَجْرِهِ .

قالت الثالثة : زوجي العَشْتَقُ ، إِنْ أَنْطِقُ أُطَلِّقُ ، وَإِنْ أَسْكُتُ أُعَلِّقُ .

قالت الرابعة : زوجي كَلِيلُ تَهَامَةٍ ، لِأَحْرٍ وَلَا قُرٍّ وَلَا خَوْفٍ وَلَا سَامَةٍ .

قالت الخامسة : زوجي إِنْ دَخَلَ قَهْدٌ ، وَإِنْ نَجَحَ أَسَدٌ ، وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا عَيْهَدَ .

قالت السادسة : زوجي إِنْ أَكَلَّ لَفٌّ ، وَإِنْ شَرِبَ أَشْتَفَّ ، وَإِنْ أَضْطَجَعَ أَتَنَّفَّ ، وَلَا يُوَلِّجُ الكَفَّ ، لِيَعْلَمَ البَثَّ .

قالت السابعة : زوجي عَيَّايَهُ طَبَّاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ ، تَحْجِكُ أَوْ فَلَكَ أَوْ جَمَعَ كَلَالِكَ .

قالت الثامنة : زوجي الرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ ، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْبٍ .

قالت التاسعة : زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ ، طَوِيلُ النِّجَادِ ، عَظِيمُ الرَّمَادِ ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ .

قالت العاشرة : زوجي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، لَهُ إِبِلٌ قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ ، كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَ أَنَّهُنَّ هُوَ المَلِكُ .

قالت الحادية عشرة : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ ؟ أَنَّاسٌ مِنْ حُلِيِّ البُرَّةِ ،

وَمَلَأَ مِنْ نَحْمِ عَضُدِي ، وَيَجْعَلُنِي فَبَجَعَتْ لِي نَفْسِي ، وَوَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ يَبْرُقُ ،
فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنْقٍ ، فَمِنْدَهُ أَوَّلُ فَلَاقِبِحْ ، وَأَرَقْدُ نَاتَصِحْ ،
وَأَشْرَبُ فَاتَمَحِحْ ، (وفي رواية فَاتَمَحِحْ) ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَسَأَلْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ عُوْمَهَا
رَدَّاحٌ ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ، إِبْنُ أَبِي زَرْعٍ فَسَأَلْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضَّجَهُ كَسَّالٌ شَطْبِيَّةٌ ،
وَشُجِعُهُ دِرَاعُ الْحَفْرَةِ ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَسَأَلْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوَّعُ أَيُّهَا ، وَطَوَّعُ
أُمُّهَا ، وَمِلُّ كِسَائِيهَا ، وَغَيْظُ جَارِيَتِهَا ، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَسَأَلْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟
لَا تَلْتُ حَدِيثَنَا تَمِيئًا (وفي رواية لَا بَأْسَ حَدِيثَنَا تَمِيئًا) ، وَلَا تَمَتُّتْ مِيرْتَنَا تَمِيئًا ، وَلَا
تَمَلَّأْ بَيْنَنَا تَمِيئًا . قالت : نَحْرُ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ مُخْصَصٌ ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا
وَأَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَابَانِ مِنْ تَحْتِ حَصْرِهَا بِرُقَاتَيْنِ فَطَلَفَنِي وَنَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ
بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وَأَخَذَ خَطْبًا ، وَأَرَّاحَ عَلَيَّ نَعْمًا شَرِيًّا ، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ
رَائِحَةٍ زَوْجًا ، (وفي رواية فَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَائِحَةٍ زَوْجًا) ، وَقَالَ : كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي
أَهْلِكِ ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْفَرَ آتِيَةِ أَبِي زَرْعٍ

قالت عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت لك كأي زرعٍ لأم زرعٍ (وفي رواية غير أئى لا أطلقك) .

فإذا كان هذا كلام نسائهم الدائرياً بينهم من محادثاتهم مع بعضهم في خلواتهم ،
فما ظنك بقرسان الكلام في نظمهم وترهم ؟ فأنت ربما عليهم ذلك ، ويبتكر عليهم
الإتيان بمثله ؟

وقد آخضهم رجل وامرأة إلى يحيى بن يعمر ، وهو من أكابر التابعين وجليلهم ،
فقال للرجل : أأنت سألته ممن شكرها وشبرك ، أنشأت تطلها وتضم لها ؟ ، أما غير
العرب ممن تكلف ذلك وأتى به في كلامه المعتاد في مخاطباته أوثره ونظمه فإنه
يعاب عليه ذلك ، ويحط به عن درجة الفصاحة ، ويخرج به عن قانونها ، إذ

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كل أحد بما يفهمه ولا يكلف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد . قال بشر بن المعتمر : إياك والتوسر ، فإنه يسلمك إلى التعميد والتقييد ، وهو الذي يستهلك معانيك ، ويمسك مراميكَ .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي ، والمملوك والأعجمي ، بالفاظ أهل نجد ، ومعاني أهل السراة ، وحكاياتهم في ذلك كثيرة . قال أبو نصير الجوهري : سقط عيسى بن محمد عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُكُمْ عَلَى تَكَاكُكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ افرِّقُوا عَنِّي . أى مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على ذى جنة فمزقوا عني . وذكر الجاحظ هذه الحكاية عن أبى علقمة الدحوى زيادة فقال : مر أبو علقمة ببعض طرُق البصرة فهاجت به مرة فوثب عليه قوم يعضون إبهامه ويؤذنون في أذنه ، فأقلت من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُكُمْ عَلَى تَكَاكُكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ افرِّقُوا عَنِّي . فقال بعضهم : دَعُوهُ فَإِنَّ شَيْطَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِالْهِنْدِيَّةِ .

وقال أبو علقمة يوما لحاجه : أَشَدُّ قَصَبِ الْأَهْزَامِ ، وَأَرْهَفِ طُبَاتِ الْمَشَارِطِ ، وَأَمْرٌ الْمَسْحِ ، وَأَسْتَجِلِ الرَّشْحِ . وَخَفِّفِ الْوِطْءَ ، وَعَجِّلِ التَّرْعَ ، وَلَا تَكْرِهَنَّ أَيْيَاءَ ، وَلَا تَرْدَنَّ أَيْيَاءَ ، فقال له الحجام : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل ونحسه بغل مصرى حسن المنظر ، فقال : إِنْ كَانَ مَحْبَرُ هَذَا الْبَغْلِ كَمَنْظَرِهِ فَقَدْ كَلَّ ! فقال أبو علقمة : وَاللَّهِ لَقَدْ نَحَرَجْتُ عَلَيْهِ مِنْ مِصْرَ فَتَكَبْتُ الطَّرِيقَ مَخَافَةَ السَّرَاقِ وَجَوْرِ السَّاطِرَانِ ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ ، قَتَمَاءَ ، طَخِيَاءَ مُدْهِمَةً ، حِنْدِسَ ، دَاجِيَةً ، فِي صَوَّحِ أَمْلَسَ ، إِذْ أَحْسَسُ بِنَبْأَةٍ مِنْ صَوْتِ نَفْرٍ ، أَوْ طَيْرَانِ صَوَّعٍ ، أَوْ نَفِضِ سَبَدٍ ، فَحَاصَّ عَنِ الطَّرِيقِ مُسْتَكْبِحًا لِعِزَّةِ نَفْسِهِ . وَفَضَّلَ

قُوَّتِهِ ، فَبِعَثْتِهِ بِالْحِجَامِ فَمَسَّلَ ، وَحَرَكْتَهُ بِالرَّكَابِ فَسَلَّ ، وَأَنْتَعَلَ الطَّرِيقَ يَقْتَالُهُ مُعْتَرِمًا ،
وَأَتَحَفَّ اللَّيْلَ لِأَيَّابِهِ مُظْلِمًا ، فَوَاللَّهِ مَا شَبِهَنِي إِلَّا بِظَبْيِيَّةٍ نَافِرَةٍ تَحْفِرُهَا فَتَحَاءُ سَاعِيَةً ،
فَقَالَ الرَّجُلُ فَادْعُ اللَّهَ وَسَلَّهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَكَ هَذَا الْبِغْلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟
قَالَ : لِيُعِيرَكَ الصَّرَاطُ بِطَفْرَةٍ .

وَكَانَتْ أَمْرَأَةٌ تَأْكُلُ الطَّيْنَ فَخَصَلَهَا بِسَبَبِهِ إِسْهَالٌ مَرَصَّتَ مِنْهُ ، وَكَانَ لَهَا
وَلَدٌ يَتَكَلَّمُ بِالْغَرِيبِ ، فَكَتَبَ رِقَاعًا وَطَرَحَهَا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ . فِيهَا
صَيْنَ أَمْرُؤٌ وَرُوعِي ، دَعَا لِأَمْرَأَةٍ إِتْمَحَلَّةٍ مُقْسِنَتَةٍ قَدِ مِينَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوقِ فَأَصَابَهَا
مِنْ أَجَلِهِ الْأَسْتِحْضَالُ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْأَطْرِغَشَاشِ . فَكَلَّ مِنْ قَرَأَتْ رُوعَتَهُ ، دَعَا عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَلَعَنَ أُمَّهُ .

وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْمَغَازِي الصَّبِيَّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ
إِلَّا بِالْغَرِيبِ ، فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى خَجْرِ ، مَعَهَا مَهْرٌ فَأَقْلَنْتُ ، فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مَهْرُهَا
فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَتَزِيحِيَّاطُ فَقَالَ : يَا ذَا النَّصَاجِ وَذَاتِ السَّمِّ ، الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ
وَعَى لَغَيْرِ عَدِي ، هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ ؟ كَأَنَّ عُرَّتَهُ
الْقَمَرُ الْأَزْهَرُ ، يَنْبِرُ فِي حُضْرِهِ كَأَنَّ الْبُرْدَ ، فَقَالَ الْخَيْطُ : أَطْلُبُهَا فِي تَرْلُجٍ ؟
فَقَالَ : وَيْحَكَ مَا تَقُولُ ! قَبَّحَكَ اللَّهُ ، فَإِنِّي مَا أَعْرِفُ رَطَانَتَكَ . قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ
أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأْنَا مَنطِقًا .

وَضَرَبَ عَمْرُؤٌ عَمْرِيَّةً عَيْسَى بْنِ عَمْرِو النَّحْوِيِّ ضَرْبًا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ وَدِيعةٍ
فَكَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَضْرِبُ : مَا مِثِّي إِلَّا أَثْيَابٌ فِي أُسْفَاطٍ أَخَذَهَا عَشَارُوكَ . وَسَأَلَهُ
رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ . فَقَالَ : لَيْسَتْ مَسْأَلَتِكَ يَدْنًا : أَيْ لَيْسَتْ مَسْأَلَتِكَ بِمَسْأَلَةٍ وَأَصْلُ الْيَدْنِ
خُرُوجُ رَجُلٍ الْوَلَدَ قَبْلَ رَأْسِهِ . وَسَأَلَهُ آخَرَ عَنْ كِتَابَتِهِ ، فَقَالَ : كَتَبْتُ حَتَّى آقْطَعُ

(١) كَذَا فِي الصَّاعَتَيْنِ أَيْضًا وَرَأْسُهُ مَصْحُفٌ عَنِ الطَّرِيقِ بِالرَّامِ بَدِيلٌ بَقِيَّةُ الْكَلَامِ فَإِنَّ الطُّرْمُوقَ اسْمٌ بِمِثْلِ اسْمِ عَمْرِيَّةٍ وَهُوَ
مِنْ الطَّرِيقِ .

سوائى أى ظهري ، على ان أبا جعفر النحاس قد عد عيسى بن عمر من المطبوعين فى ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون فى كتبهم هذا الكلام فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودَقُّوه لأنه يدل على فصاحة و بلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة و البلاغة ، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأيسات من شعر العجاج وشعر الطرميخ وأشعار هُدَيْلٍ تاتى لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأَصْمَعِيِّ بِمِثْلِ هذا الكلام ، لظننتُ أنه يستجهل نفسه ، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصف الرابع

(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك كلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضْرَمِثِ منهم ، فإن أهل الحَضْرَمِثِ بالفون السهل من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقة ، ولا يستعملون الغريب إلا فى النادر ، وأهل البادية بالفون اللفظ الجَزَلُ ويميلون إلى استعمال الغريب ، وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبيئت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرومتهم ، وكلام أهل حَضْرَمَوْتِ وما جاورها من اليمن ومخالف الحجاز ، علمت فرق ما بين الكلامين ، وتباين ما بين الطرفين ، حتى كأن البادى يَرْتَضِنُ بالنسبة إلى الحاضر ، ويتكلم بلغة غير العربية ؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعام ، لغة قريش وحاضرة الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أوفى جوامع الكلم وجمع إلى سُهولة الحاضرة جزالة البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وبنى سامة وقبائل اليمن بلغتهم ، ويخاطبهم فى الكلام الجَزَلِ على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهْدِيّ وكأبه إلى بنى نَهْدٍ ، وذلك أنه لما قدم وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زهير

النَّهْدِيِّ . فقال : أئتيك يا رسول الله من غَوْرِيَّامَةَ عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ ، تَرْمِي بِنَا
 الْمَيْسِ ، فَتَسْحَلِبُ الصَّيْرَ ، وَتَسْتَخَابُ الْخَيْرَ ، وَتَسْتَعِضُدُ الْبَرِيرَ ، وَتَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ ،
 وَتَسْتَحِيلُ الْجَهَامَ ، مِنْ أَرْضِ عَائِلَةِ النَّطَاءِ ، غَلِيظَةِ الرِّوَاءِ ، قَدْ جَفَّ الْمُدَّهْنُ ، وَبَسَّ
 الْحَمَيْنُ ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجُ ، وَمَاتَ الْعُسْلُوجُ ، وَهَلَكَ الْهَدْيُ ، وَفَادَ الْوَدْيُ ، بَرِثْنَا
 إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَتَنِ وَالْعَمَنِ ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ؛ لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةُ
 الْإِسْلَامِ مَا طَلَا الْبَحْرَ ، وَقَامَ تَعَارٌ ، وَلَنَا نَعْمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، مَا تَيْضُ بَيْلَالٌ ، وَوَقِيرٌ كَثِيرٌ
 الرَّسْلِ ، قَلِيلُ الرَّسْلِ ، أَصَابَتْهَا سُدْيَةٌ حَرَاءٌ مُؤَزَلَةٌ ، لَيْسَ لَهَا عِلٌّ وَلَا نَهْلٌ . فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم بارك لهم في مَحِيضِهَا وَمَحِيضِهَا وَمَدَقِهَا وَفَرَقِهَا ، وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا
 فِي الدَّنْثِ بِيَانِعِ الثَّمَرِ ، وَأَفْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَالِدِ ، مَنْ أَهَامَ الصَّلَاةَ ،
 كَانَ مَسَامًا . وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ ، كَانَ مُحْسِبًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَانَ مُحْلِصًا .
 لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعَ الشَّرْكَ ، وَوَضَائِعَ الْمُلْكِ ، لَا تُلْطِطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُلْجُدُ فِي الْحَيَاةِ ،
 وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ " .

وكتب بعد كتابا إلى بني نهد فيه "بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من آمن بالله
 ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ، وانكم العارض والقريش وذو العنان
 الركوب ، والقلمو الضبيس ، لا يمنع سركم ، ولا يعضد طاحككم ولا يمنع دركم ، ألم
 تُضيمروا الإاق ، وتاكلوا الرباق ، من أقر فله الوفاء بالعهد والدمية ، ومن أبى
 فعليه الربوة . "

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة همدان ، وذلك أنه لما قدم عليه
 صلى الله عليه وسلم وفود العرب قدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه
 وسلم منهم مالك بن سميط أبو ثور ، وهو ذو المشمار ، ومالك بن أيفع ، وخصام
 ابن مالك السدائي ، وعميرة بن مالك الخارقي ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

مَرَّجَهُمْ مِنْ تَبُوكَ وَعَلَيْهِمْ مَقَطَّاتُ الْحَبْرَاتِ وَالْعَاهِمُ الْعَدْنِيَّةُ ، بِرَحَالِ الْمَيْسِ عَلَى
الْمَهْرِيَّةِ وَالْأَرْحِيَّةِ ، وَمَالِكُ بْنُ تَمِيمٍ وَرَجُلٌ آخَرٌ يَتَجَزَّانِ بِالْقَرَمِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا :

هَمْدَانُ خَيْرُ سَوْقَةٍ وَأَقْبَالُ * أَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ

مَحَلُّهَا الْمَضْبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتُ بَهَا وَأَكَالُ

ويقول الآخر :

إِلَيْكَ جَاوِزَنَ سَوَادَ الرَّيْفِ * فِي هَبَّاتِ الصَّيْفِ وَالخَوْرِيفِ

* مَحَطَّمَاتٍ بِجِبَالِ اللَّيْفِ *

فقام مالك بن تميم بين يديه ، ثم قال : يا رسول الله ! نَصِيَّةٌ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوبِ نَوَاجِحِ ، مَتَّصِلَةٌ بِجِبَالِ الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّا أَخَذَهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
لَا تُنْمِ ، مِنْ مَخْلَافِ خَارِيفِ ، وَيَا مِمْ ، وَشَاكِرَ ، أَهْلَ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ، وَمَا جَرَى الْعَقُورُ بِصُلْعِ .

فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
هَذَا كِتَابٌ مِنْ مَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَخْلَافِ خَارِيفِ وَأَهْلِ جَنَابِ
الْمَضْبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَاقِدِهَا ذِي الْمِشْعَارِ : مَالِكُ بْنُ تَمِيمٍ ، وَلَيْمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعَهَا وَيَوْعَاطُهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ ، يَا كَلُونَ عِلَاقَهَا وَيَرْعُونَ
تَأْفِيهَا ؛ لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَدِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ . "

فقال في ذلك مالك بن تميم :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي قَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَالِدِ

وَهُنَّ بِنَا حَوْصُ طَلَايُحِ تَعْتَلِي * بِرُبُكُنَّهَا فِي لِاحِبِ مُمْتَدِدِ

عَلَى كُلِّ قَبْلَاءِ الدَّرَاعِينَ جَسْرَةٍ * تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الْجِجْفِ الْخَفِيدِ

حَلَفْتُ رَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنِي ۞ صَوَادِرَ بِالرَّكْبَانِ مِنْ هَضْبِ قَرَدٍ
 ۞ بَانَ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ ۞ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
 فَاحْتَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ۞ أَبْرٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ ۞ وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِقِ الْمُهَنْدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم، إن لكم فرائعها ووعاظها وعزازها تاكلون علافها
 وترعون عقامها، لنا من ديقهم وصرامهم ما سألوا بالميثاق والأمانة، وهم من الصدقة
 الثلب والنسب، والفصيل والعارض، والداجن والكبش الحورى، وعليهم فيها
 الصالح والقارح .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لا تكبير دومة. قال أبو عبدة أنا قرأته فإذا فيه
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، لا تكبير حين أجاب إلى الإسلام، وخلع
 الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد، سيف الله في دومة الجندل وأكافها، إن لنا
 الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر
 والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، لا تغدل سارحتكم، ولا
 تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها،
 عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم بذلك الصلح والوفاء، شهد الله ومن حضر
 من المسلمين".

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت، وهو
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الأقبال العاهلة من أهل حضرموت
 بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعية الشاة، والبيعة لصاحبها، وفي السبب

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء. ويروى "لكم الضاحية من البعل" وهو النخل

الشمس ، لا إخلال ولا وراط ، ولا سناق ولا سفار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام ، وفي رواية أنه كتب إليهم "إلى الأقبال العباهلة والأزواع المشايب ، وفي السعة شاة لمقورة الألياط ولا ضناك ، وأنطوا التبيجة وفي السيوب الشمس ، ومن زنى من أميكر فأصقعه مائة ، وأستوفضوه عاماً ، ومن زنى من أمييب فصرجه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا نعمة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن محجر يتقل على الأقبال" .

قلل الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "في المنل السائر" : فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه أولاً متداولاً بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصح أن لا يكون مبتدلاً عاماً ، ولا ساقطاً سوقياً)

واللفظ المبتدل على قسمين

القسم الأول

مالم تغيره العامة عن موضعه اللغوي إلا أنها اختصت باستعماله دون الخاصة فابتدل لأجل ذلك وتختلف لفظه ، وأخطت رتبته لأختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعماله من الخاصة ملوماً على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ، وقد وقع ذلك بلجاعة من فحول الشعراء فعيب عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من قصيدة :

وأصبح مبيض الضرب كأنه « على سروات التبت فطن مندوف

فقوله مندَف من الألفاظ العامة المتبدلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال نَدَف القطن إذا ضربه بالْمَسْدِف ، ولذلك قيل للقطن المندوف نَدِيف .
ومن ذلك قول أبي نُوَاس :

وَمُلِحَّةٌ بِالْعَدْلِ تَحْسَبُ أُنْحَى * بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو في أصل اللغة اسم لمن أعبأ أهله حُبْنَاءً يقال منه شَطَرَ وشَطَّرَ بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما ، ثم استعمل في الشجاع الذي أعبأ الناس شجاعةً ، وعلب دَوْرَانَهُ على لسان العامة فَأَمْسَيْنَ وَأَبْتَدِلَ ، فاستعمل أبو نُوَاس له غير لائق ، وكذلك قوله أيضا :

يَأْمَنُ جَفَانِي وَمَلَأ * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا
وَمَا تَمَرَّحْتِ لِمَا * رَأَيْتِ مَا لِي قَلِيلًا
إِنِّي أَظُنُّكَ فِيمَا * فَعَلْتَ تَحْكِي الْفِرْيَئِ

فالغظ الفِرْيَئِ من أشد الأفظ العامة ابتدالا ، وهو اسم لطائر صغير من طيور الماء يخطف صغار السمك من الماء برجليه وسنقاره ، فإذا سقط على الماء ولم يحصل على صيد ، أرتفع بُسرعة ، فتضرب به العامة المثل تقول : فلان كأنه فِرْيَئِ ، إن وجد خيرا نَدَيْتُ ، وإن وجد شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وَأَتَمَّرِ الْجِلْدَةَ صَيْرْتُهُ * فِي النَّاسِ زَانِعًا وَشِقْرَاقًا
مَا زِلْتُ أُبْرِي كَلْكَلِي فَوْقَهُ * حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقًا

فقوله فَأَقَا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فقلت بفلان كذا وكذا حتى قال : قاق ، وأقبح من ذلك كله في الأبتذال بين العامة والسخافة قول المتنبي :

ومن الناس من يجوزُ عليهم * شعراءُ كأنها الحارِ بازٍ

قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة الرِسام الذي ذكره في قوله :

إن بعضًا من القرِيضِ هُذَاءُ * ليس شيئًا ، وبعضه أَحكامُ -

فيه ما يجلبُ البراعةُ والفهْمُ ، وفيه ما يجلبُ الرِسامُ

وعنه منه في "المثل السائر" قول البحري :

وجوهُ حُسادِكِ مُسَوِّدَةٌ * أم صُبيحتُ بعدى بالزَّاجِ ؟

قال : فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وكذلك عد منه قول النابغة الذبياني :

أو دُمِيَّةٌ في مَرَمِيٍّ مرفوعة * بُنِيَتْ بِأَجْرٍ يُسَادُ بِقَرَمِدٍ

قال : فلفظة أجر مبتذلة جدا ، وإذا شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضحها القراءان الكريم ، فأنظر إلى هذا الموضع فإنه لما جرى فيه بذكر الأجر لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمد أيضا ، ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر في القراءان على وجه آخر ، وهو قوله تعالى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا" فعبّر عن الأجر بالوقود على الطين ، نعم من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكئس ، وما أشق منه ، ولذلك عابها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سناء الملك في بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يُزْحَرَفُ مِنْهَا وَجْهَهَا فَهِيَ جَنَّةٌ * وَيُحْضَرُ مِنْهَا نُضْرَةٌ فَهِيَ سُنْدُسٌ
صَلْبِيٌّ وَهَذَا الْحُسْنُ بَاقٍ فَرُبَّمَا * يُعَزَّلُ بَيْتُ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيُكَنَسُ

فلما وقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة، كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل: وما قلت هذه الغاية، إلا وأعلمني أنها البداية، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا ما بعده: وَمَا يُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَفْسِحْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهَجَ الناس بما تحتها، ودونوا مادونها، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لا يقارنها، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مدّها ولا تصيفه، والقصيدة فائقة في حسنها، بديعة في قمتها، وقد دأبت السنين فيها وأنقادت، فلو أنها الرء لما رادت، وبيت يُعَزَّلُ وَيُكَنَسُ أردت أن أشكّنه من القصيدة، فإن لفظه الكنس غير لائقة في مكانها.

فأجاب ابن سناء الملك قائلا: وعلم المملوك مانبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكشّه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوقا بهذا البيت، مستجليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد ملّح فيه، وأن قافية بيته أميره ذلك الشعر وسيدة قوافيه، وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعترف بقوله:

وقَوَّامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْمَطِّ وَخَدَيَّ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر، ويطلب مطالبه فتتسر عليه وتتعدرب، ولا آس ناره إلا لما وجد عليها هدى، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميلة إليه طبعه، ولا سار قلبه إلا إلى من دلّه عليه سمعه، ورأى المملوك أبا عبادة قد قال:

وإِعَادِلِي فِي عِبْرَةٍ قَدْ سَفَحْتَهَا * لِيَبِينُ، وَأُنْحَرِي قِبَالَهَا لِلتَّجَنُّبِ
تُحَاوِلُ مِنِّي شَيْعَةً غَيْرِ شَيْعَتِي، * وَتَطْلُبُ مِنِّي مَذْهَبًا غَيْرَ مَذْهَبِي؟

وقال :

وما زارني إلا وهنت صباية ۞ إليه ، وإلا قلت : أهلا ومرحبا
 فعل المملوك أن هذه طريقة لا تسلك ، وعقيلة لا تملك ، وغاية لا تُدرَك ؛ ووجد
 أبا تمام قد قال :

۞ سلم على الربيع من سلمى يدي سلم ۞

وقال : ۞ خُشِنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُ بَنِي خُشَيْنِ ۞ ؛

فاشتمأز من هذا التَّطِطُّ طبعه ، وأقشعر منه فهمه ، وتبا عنه ذوقه ، وكاد سمعه
 يجزعزه ولا يكاد يُسيغه ، ووجد هذا السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقَفْتُ فِي الرُّوضِ أَبْكِي فَقَدْ مُشِبِّهِ ۞ حَتَّى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الرَّهْرِ

لَوْلَمْ أَعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا ۞ لِرَحْمِي ، لَأَسْتَعَارْتَهَا مِنَ الْمَطَرِ

وقال :

قَدْكَ غُضُنٌ لَأَشَكَّ فِيهِ كَمَا ۞ وَجْهَكَ شَمْسٌ نَهَارُهُ جَسَدُكَ

فوجد المملوك طبعه إلى هذا التَّطِطُّ مائلا ، وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلا ؛
 فنسج على هذا الأسلوب ، وغلِبَ عليه خاطره مع علمه أنه المغلوب ؛ ”وَجْهَكَ الشَّيْءُ ،
 يُعْمَى وَيُصَمُّ“ ، فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليدا
 لابن المعتز حيث قالها ، وحمل أنقالها ، وهي تُفَقَّرُ لِدَاكِ فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فأما
 المملوك فهي عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ أَسَانِهِ ؛

فأجابه القاضي الفاضل رحمه الله بقوله : ولا حجة فيما أحتج به عن الكنس
 في بيت ابن المعتز ، فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يُقَدِّدُ إلا في الصواب فقط ؛
 وقد علم ما ذكره ابن رَشِيْقٍ في عمدته من تهاقت طبعه ، وتباين وضعه ؛ فذكر من
 محاسنه ما لا يُعَلَّقُ معه كتاب ، ومن بارده وغنّه ما لا تُلبس عليه الثياب .

وقد تَعَصَّبَ القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه من حظه ، وللبُصْرِيّ فأعطاه
أكثر من حقه ، وما أنصفهما :

ولو كان هذا موضع العتب لأشتق * فؤادِي ولكن للعناب مواضعُ

قال المولى صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في شرح لامية العجم : وقد
استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يَعمَظ
بنبي الفاضل ولا أروعوي ، ولا أزدجر عما قبجه لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

تَوَسَّسَ شِعْرِي بِهِ مُدَّة * وما بَرِحَ الحليُّ والوسوسة

وَحَلَّصَنِي مِنْ يَدَيْ عِشْقِهِ * ظلامٌ على حنّه حنّده

كَنَسْتُ فؤادِي مِنْ عِشْقِهِ * وَلِحَيْثِهِ كانتِ المِكنَسَةُ

قال : وأما القاضي الفاضل ، فما أظنه خلا في هذا الإيراد ، من ضعف آتقاد ،
وأحاشي ذاك الذهن الوقاد ، من هذا الاعتقال في ورطة هذا الاعتقاد ، وما أراه
إلا أنه تعمد أن يعكس مراده ، ويوهي ماشده ويوهن ماشاده ، ويرميه ببلاء
البلاء ، إما على سبيل التكال أو التكاذه : لأن الفاضل رحمه الله عن يتوشى هذه
الألفاظ ويقصدها ، وينشئها وينشدها ، ويورى زنادها ويوردها .

فمن كلام القاضي الفاضل في بعض رسائله ، وما استطاعت أيديهم أن تقيض
بحره ، ولا ألبهم أن تسبخ نمره ، ولا سيوفهم أن تكتس قيمه . قال في "المثل
السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام ، وضعت من قدره ولو كان معناه
شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن
منهم المُفِلُّ ومنهم المُكثِر .

القسم الثاني

(ما كان من الألفاظ دألاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته

العامه وجعلته دألاً على معنى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأول - ما ليس بمستقيح في الذكر ولا مستكره في السمع . وذلك كتسميتهم الإنسان إذا كان دميث الأخلاق ، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ظريفاً ، والظرف في أصل اللغة مخصص بنطق اللسان فقط ، كما أن الصبابة مخصصة بالوجه ، والوضاء مخصصة بالبشرة ، والجمال مخصص بالأنف ، والحلاوة مخصصة بالعينين ، والملاحاة مخصصة بالشم ، والرشاقة مخصصة بالقدم ، واللباقة مخصصة بالشاغل ، فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعم من موضوعه كما تقدم ؛ ومن وقع له التهور عن ذلك فنلظ فيه أبو نؤاس في قوله :

اِحْتَمَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ * فَبِكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ

فقال هذا يمينه لي * للعرف والبذل والنوال

وقال هناك وجهه لي * للظرف والحسن والكمال

فافترا فبك عن تراض * كلاهما صادق المقال

فوصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق كما تقدم ؛ وكذلك أبو تمام

في قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الْحَرِيمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتِ * أَجْأَ إِذَا تَهَلَّتْ ، وَكَانَ خَفِيْفَا

وحلاوة الشيم التي لو ما زجحت * خلق الزمان القدم ، عاد ظريفاً

فوصف الشيم بالحلاوة وهي مخصصة بالعينين ، ووصف الخلق بالظرف وهو

مخصص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستصح ذكره كما في لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والصُّرم
بالسين، فإن الصُّرم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يصرمه
صَرْمًا وصرمًا بالفتح والضم إذا قطعته، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد
كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها،
قال أبو صخر الهذلي:

قد كان صُرْمٌ في المآت لنا . فعجّلت قبل الموتِ بالصُرْمِ

فأستعمله بمعنى القطع ولم يصب عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل
كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا
وأستعملت لفظ الصُّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا
وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطَّيِّب أستعمله في قوله:

أذاق الغواني حُسْنَهُ ما أذقنني * وعَفَّ، بخازاهن عني بالصُّرمِ

على أنه إنما يكره أستعمله بصيغة الاسم لما تقدم، أما إذا أستعمل بصيغة الفعل
مثل صَرَمَ ويَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حرج في أستعمله، وقد أستعمله ابن
الرومي بالسين على بابهِ بقاء أقبَحَ وأشنع، فقال يهجو الوردي:

كانه سُرمٌ بقل حين يُخرجه * عند البراز، وباقي الرُّوثِ في وَسَطِهِ

قال الصلاح الصفدي: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الورد أيضا:

كانه وَجْنَةُ الحبيبِ وقد * نَقَطَها عاشقٌ بدينار

قال: فانظر إلى هذا، وَجْنَةُ، وحبيب، ودينار، وإلى ذلك، سرم، وبقل،

وروث. وشتان ما بينهما.

الصفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصح أن لا يكون متنافر الحروف ، فإن كانت

حروفه متنافرة بحيث يشقل على اللسان ويعسر النطق به فليس بفصح)

وذلك نحو لفظ المصحح في قول بعض العرب عن ناقة : تركتها ترعى المصحح :

بالحاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسود ، وكذلك لفظ مستشزرات من

قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي من جملة القصائد السبع الطوال :

غَدَايْرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَى ۖ تَضِلُّ الْمَدَايِرُ فِي مَنَى وَمُرْسَلِ

لفظ مستشزرات من المتنافر الذي يشقل على اللسان ، ويعسر النطق به ، قال الوزير

ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب

على امرئ القيس هذا اللفظ فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس

أشعر الشعراء ، فمجبت من ارتباطه بمنزل هذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع

إحسان امرئ القيس من استقباح ماله من القبيح ، بل منال ذلك كمنال غزال

المسك فإنه يخرج منه المسك والبعر ، ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خبيث

ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذادة ذلك الطيب حامية للخبيث من الاستكراه ،

فأسكت الرجل عند ذلك .

إذا علمت ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك ، لأن الواضع قسمها

في وضعه إلى ثلاثة أقسام : ثلاثياً ، ورباعياً ، وخماسياً ، فالثلاثي من الألفاظ هو

الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا النادر ، والخماسي هو الأقل ، ولا يوجد فيه

ما يستعمل إلا الشاذ النادر ، والرابعي وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عدداً

وأستعمالاً ، فيكون أكثر اللغة مستعملاً غير مكروه . قال : ولا تقتضي حكمة هذه

اللغة التي هي سيّدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضعُ منها حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استنقالا وأستكراها ، فلم يؤلّف بين حروف الخلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلّف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتبايدِ الخارجِ دون المتقارب ، وكيف كان الواضعُ يُخَلُّ بمثل هذا الأصل الكليّ في تحسين اللغة وقد أعنى بأمر جريئة دون ذلك ؟ كماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلْيَانِ ، والضَّرْبَانِ ، والتَّقْرَانِ ، والنَّزْوَانِ ؛ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يخلّ بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يمتدّ بخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهي متباعدة أو متقاربة ؟ لطلّ الحطّب في ذلك وعسر ، ولما كانت الشاعر ينظّم قصيداً ، ولا الكاتب ينشئ كتاباً إلا في مدّة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقييح آخر ، على أنه قد يجيء من المتقارب الخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية : (وهي الجيم والشين والياء) متقاربة الخارج : لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسناً رائقاً ، فإن لفظة جَيْشٍ قد أجمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تقارب مخرجها حسنة راقية ، وكذلك الحروف الشفهية (وهي الباء والميم والقاء) متقاربة الخارج فإن مخرج جميعها من الشفة ، وإذا تركب منها لفظ جاء سلباً غير متناظر ، كقولك أكلت بضمي ، وهو في غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها؛ وقد يبيح من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَع بمعنى عدا، فإن الميم من الشفة والعين من حروف الخلق واللام من وسط اللسان، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريمة الاستعمال، ينبو عنها الذوق السليم، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح؛ على أنه لو عكست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد الصبح منها حسنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها، على أن اللام لم تنزل فيها وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشفة إلى الخلق في مَلَع أعسر من إخراجها من الخلق إلى الشفة في علم، فإن لفظة مَلَع فيها الباء وهي من حروف الشفة واللام وهي من وسط اللسان والعين وهي من حروف الخلق وهي غير مكروهة .

قال في "المثل السائر" : ولربما اعترض بعض الجهال بأن الاستئصال في لفظ مستشزرات إنما هو لطولها وليس كذلك ، فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزرا، لكان ثقيلًا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي ، فنقل النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء قلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثم ظهر لك أن اعتبار آبن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غير معتبر، وقد ورد في القرآن العظيم ألفاظ طوأل لاشك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَتَخْلِفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن لفظ فسيفكفهم مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف. قال : والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي : كقولك عَدَبٌ وَعَسَجَدٌ ، فالأولى ثلاثية

والثانية رُبَاعِيَّة ، أما الخمسة من الأصول ، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِقُ وَجَحْمَرِيْشٌ ، وما جرى تجرأهما ، ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخمسة الأصول شيء ، إلا ما كان من اسم نبيٍّ عَرَبِيٍّ أَسْمُهُ ، ولم يكن في الأصل عَرَبِيًّا كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصح ، أن لا يكون على خلاف القانون المستنبط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو في حكمها)

كوجوب الإعلال في نحو قام والإدغام في نحو مَدَّ ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فكَّ الإدغام في مَدَّ فقال مَدَّد ، لم يكن فصيحاً ، وعلى حدِّ ذلك جاء قول بعض العرب .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ »

فإن قياس بابه الإدغام فيقال الأَجَلِّ .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح التلخيص : وأما نحو أبنِي وأبْنِي وَعَوْرٍ وَأَسْتَحْوَذَ وَقَطِطَ شِعْرَهُ وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة في شيء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد ، وقطب دائرة حسنه ، فتميَّ أنصف بها وسلم من أضدادها ، كانت بالفصاحة مَنِيًّا ، وبالحسن والرواق مشتتلا ، وللطبع ملائماً ، وللسمع موافقاً ، ومتى عَرِي عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلى المُجَنَّة ، قَبَّجَهُ السَّمْعُ ، وَقَلَّاهُ الطَّبْعُ ورفضته النفوس ، ونفرت منه القلوب ، فلزم العيبُ قائله ، وتوجه العتبُ على مستعمله . قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل

لا حدم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكرك ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الفصن ولفظة العُسلوح ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِيط ، وبين لفظة السِّيف ولفظة الخنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة القَدْوَكِس ، فلا يبنى أن يُخاطَبَ بخُطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك وشأنه كما قيل : "أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعفر في رحله"

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شواه الخلق ذات عين حمرة ، وشفة غليظة ، وشعر قَطَط ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل ، وطرف حكيل ، ومبسم كأنما يُظَم من أقاح ، وطرة كأنها ليل على صباح . فإذا كان بإنسان من سُقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا يفرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسة وهذه حاسة ، وقياس حاسة على حاسة غير مُمتنع ، ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشذوية ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فإننا لو رأينا من يُحبُّ أكل الفَحْم والحِصَّ والتراب ، ويختار ذلك على مَلَأذ الأَطعمة ، فإننا لاستجيد هذه الشهوة بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدَة ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أذن بصيرة يعلم أن الأذن نعمة لذيذة كنعمة الأوتار ، وصوتها مُتكرراً كصوت الحمار ، وأن لها في القم حللوة كحللوة العسل ، ومراة كمرارة الحنظل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن أسحسان الألفاظ واستباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت ، علم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام ، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأول

(في بيان فضل المعرفة بذلك ، ومسبب حاجة الكاتب إلى معرفته ، والإشارة إلى خفي سره وتوهم مسئلكه)

قال أبو هلال العسكري : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل ، والخطب ، والشعر ، وجميعها يحتاج إلى حسن التأليف ، وجودة التركيب ، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سيئا ، ورصف الكلام رديئا ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة . فإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جميل كل حُرزة منه إلى ما يليق بها ، كان رائقا في المرأى ، وإن لم يكن مرتفعا نبيلًا ، وإن اختل نظمه قُضمت الحلية منه إلى ما يليق بها ، أفصحته العين وإن كان فاتقا ثمينًا ، وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن من أمانتها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يُفسد الكلام ، ولا يعمى المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى وقفها ، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها . وقد قال العنابي : الألفاظ أجهاد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت منها مقدمًا ، أفسدت الصورة وضربت المعنى ، كما أنه لو حوّل رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل ، لتحوّلت الحلقة وتغيرت الحليّة .

قال في "الصناعتين" : وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : وهذا الموضع يَضَلُّ في سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تتفحهم منه رائحة ؟ ومن الذي يؤتبه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشق، ألا ترى أن ألفاظ القرءان الكريم من حيث أفرادها قد استعملتها العرب ومن بعدهم، وهي مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وانظر إلى قوله تعالى : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْي مَائِكَ وَيَأَسْمَاءُ أَقْلِي وَيَغِيضُ الْمَاءُ وَقَضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطلاوة والرواق والمائية التي لا يقدر البشر على الإتيان بمنها، ولا يستطيع أفصح الناس وأبلغ العالم مضاهاتها، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، ففوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز وأختمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لا بسنة من الحسن والرواق مألوفة في موضعها من الآية، ولكل كلمة مع صاحبها مقام .

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد، كلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يُفَرَّقُ بينهما في مواضع السبك، وهذا مما لا يدركه إلا من دق فهمه، وجعل نظره . وإذا نظرت إلى قوله تعالى : " مَا جَعَلَ اللَّهُ

لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ“ وقوله تعالى : ”رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا“ رأيت ذلك عياناً ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد استعمل الجوف في الآية الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يستعمل أحدهما مكان الآخر ، وكذلك قوله تعالى : ”مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى“ وقوله : ”إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْبٌ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ“ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن ، ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلُ

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقول أبي الطيب المتنبي :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ * رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي قِمَاهَا شَهْدُ

فلفظة الشهيد ولفظة العسل كلاهما حسن مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهيد

في بيت أبي الطيب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل

قد وردت في القرآن دون لفظة الشهيد بخافت أحلى من الشهيد في موضعها ، وكثيراً

ما تجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المقلقين وبلغاء الكُتَّاب ومصانف الخطباء ، وتحبها

دقائق ورموز ، إذا علمت وقيس عليها كان صاحب الكلام قد انتهى في النظم والنثر

إلى الغاية القصوى في وضع الألفاظ في مواضعها اللاتفة بها . قال : وأعجب من

ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تروك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتركها ،

وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بوجه رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها

في كلام آخر بفاءت ركيكة نائية عن الذوق ، بعيدة من الاستحسان ، فمن ذلك

لفظة يؤذي فإنها وردت في قوله تعالى : ”إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئِي

مَنْكُمْ وَأَنْتَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ“ بفاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت في قول أبي الطيب :

تَلَذُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي ۖ وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ

بفءت رثمة مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعر، والسبب في ذلك أن لفظة تؤدى إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية الكريمة حيث قال : ” إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤَدِّي النَّيِّ “ وفي بيت المتنبي جاءت مقطعة ليس بعدها شيء لتعلق به حيث قال :

ۖ تَلَذُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي ۖ

ثم أستأنف كلاماً آخر فقال :

ۖ وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ ۖ

وقد جاءت هذه اللفظة بمينها في الحديث النبوي - مضافة إلى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما أشتكى النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فرأاه فقال : ” بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ“ فصارت إلى الحسن بزيادة حرف واحد، وهذا من السر الخفي الذي يندق فهمه . وعلى نهج لفظة يؤدى يرد لفظة لى، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحقها هاء السكت في قوله تعالى : ” مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ “ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به، بخلاف قوله : ” إِنْ هَذَا أَحْبَبَ لَهُ نَسْعٌ وَتَسْمُونَ نَعْبَةً وَلِي نَعْبَةٌ وَاحِدَةٌ “ فإنه لم تلحقها هاء السكت اكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجزئ لفظة القمّل، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 "فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ" بغات في غاية الحسن،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عَزْرِهِ أَجْتَحَرَتْ كَلْبٌ عِنْدَهُ ۖ زَرْبًا كَكَأْتَهُمْ لَدِيهِ الْقُمَّلُ

بغات منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجةً في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت قافيةً أقطع الكلام عندها . هذا
 ماخص ما ذكره ابن الأثير، وقال : إنه لم يُسبق إليه، وجعل الحاكم فيه الذوق
 السليم دون غيره . وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يُعطي الكلام من
 القوة والضعف ما تزيد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحطُّ
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

(في بيان ما يبنى عليه تركيب الكلام وترتيبه . وله مكان)

الركن الأول - أن يُسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللكنة والمُجَنَّة .
 والفصاحة في المركب بان يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولى

(أن يكون سليماً من ضَعْفِ التَّأْلِيفِ)

بان يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون الحوى المشتهر فيما بين معظم أصحابه
 حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمار قبل الذكر لفظاً أو معنى ، نحو ضرب
 غلامه زيداً ، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضميراً المفعول به

مما أجازته الأخفش وتبعه ابن جني لشدة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ،
وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مُصْعَبًا * أدى إليه الكيل صاعًا بصاع

وقوله :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير * وحسن فعل كما يحزى سينمار

وقوله :

آلايت شعري ، هل يَأْمُرُ قَوْمَهُ * زهيراً على ما جرّ من كلِّ جانب

الصفة الثانية

(أن يكون سليماً من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذي يراد منه ، وهو على

ضربين .

الضرب الأول - وهو الذي يسميه ابن الأنثير (المعاظلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب
الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير
ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد، وإن كان ثابتاً في الكلام، جارياً على القوانين
كقول الفرزدق، في مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي، خال هشام بن
عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُمَّاكَ * أبو أمه حتى أبوه يُقَارِبُه

أى وما مثل هذا المدوح في الناس حتى يقاربه ويُشَبِّهه في الفضائل إلا مُمَّاكَ ،
أبو أم ذلك المملك أبو المدوح ، فيكون المدوح خال المملك ، والمعنى أنه لا يماثل

أحد هذا المدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام، أفسده وعقد معناه،
وأخرجه عن حد الفصاحة إلى حد الأكلنة؛ وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك :
إلى ملك، ما أتته من محارب . أبوه، ولا كانت كليب تصاهره
يريد إلى ملك ما أتت أبيه من محارب، وقوله :

تعال فإن عاهدتني لا تحوتني . تكن مثل من ياذب يسطحجان
يريد تكن ياذب مثل من يسطحجان، وقوله :

ولست نخراسان التي كان خالد . بها أسد، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي نخراسان ووليها أسد بعده، فمدح خالد
بأنه كان سيفاً، بعد أن كان أسد أميرها، فكأنه يقول وليست نخراسان بالبلدة التي كان
خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير ففي كان
الثانية ضمير الشأن والحديث، والجملة بعدها خبر عنها، وقد قدم بعض ما إذ مضافة
إليه وهو أسد عليها، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح
والإخفاء به . قال : وأيضاً فإن أسداً أحد جزأى الجملة المفترسة للضمير، والضمير
لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولما
سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها . كأن قفراً رسومها قلماً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها، فقدم خبر كأن وهو
خط عليها بفاء عنقلاً مضطرباً، قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أفتح هذا
النوع لأن معانيه قد تداخلت، وركب بعضها بعضاً، على أن ذلك قد وقع لجمع من
يقول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

هما أخوا في الحرب من لآخاله . إذا خاف يوماً نبوة فدهأهما

يريد أخوا من لأخوى له في الحرب، وقول النابغة :

يُثْرِنَ الثَّرِيَّ حَتَّى يَبْأَشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمس مجت ريقها، بالكلا كل

قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جداً لأن المعنى تعمى فيه ،

يريد يُثْرِنَ الثَّرِيَّ حَتَّى يَبْأَشِرْنَ بَرْدَهُ بالكلا كل إذا الشمس مجت ريقها ، وقول
أبي حية التميمي :

كَمَا خُطَّ الكَتَابُ بِكَفِّ ، يَوْمَا ، * يَهُودِيٌّ يَقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودي يوما يقارب أو يزيل ، وقول ذى الرمة :

نَضًا البُرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ، ذُو جُنُونِهِ * أَجَارِيٌّ ، صَهَّالٌ وَصَوْتُ مَبْرَسَمٍ

يريد وهو من جنونه ذو أجاري ، قال في "الصناعين" : كأنه تخطيط كلام مجنون

أو هجر مبرسم ، وقول الشماخ :

تَحَامَصُ عَنْ بَرْدِ الوِشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَحَامَصَ حَافِي الخَيْلِ فِي الأَمْعَزِ الوَجِي

يريد تَحَامَصَ حَافِي الخَيْلِ فِي الوَجِي الأَمْعَزِ ، قال أبو هلال العسكري : وليس

للحدث أن يجعل هذه الأبيات حجةً ويبنى عليها فإنه لا يعذر في شيء منها ، لإجماع

الناس اليوم على مجانبة أمثاله واستجدادة ما يوضح من الكلام ويستبين ، وأستردال

ما يشكك منه ويستتهم ، وقد كان عمر رضي الله عنه يمدح زهيراً بأنه لم يكن يعاقل

بين الكلام .

قال في "المثل السائر" : والفردق أكبر الشعراء تعاطلاً وتعقيداً في شعره ، كأنه

كان يقصد ذلك ويتعمده ، لأن مثله لا يجي ، إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك

مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيها وطبعها في الأسترسال لم يعرض له شيء من

هذا التعقيد ، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثاني من التعقيد - أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد يخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثاني المقصود ، لإيراد اللوازم البعيدة المفترقة إلى الوسائط الكثيرة ، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود ، كقول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يريد إلى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا مني ، وتسكب عيناى الدموع لتجمد وتكف الدمع بمحصول التلاقي ، والمعنى أتى طبت نفسا بالبعد والفراق ، ووطنت نفسي على مفاصة الأحزان والأشواق ؛ وأتجرع العُصَص ، وأحتمل لأجلها حُرنا يُقْبِضُ الدموع من عيني لأنسب بذلك إلى وصل يدوم ، ومسرّة لا تزول ، فتجمد عيني ويرقأدمي ، فإن الصبر مفتاح الفرج ؛ فكثي بسكب الدموع عن الكآبة والحزن ، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يُجْعَلُ دليلا عليه ، يقال أبكاني المسهر وأضحكني بمعنى ساءني وسرّني ؛ وكثي بجمود العين عما يوجبه دوامُ التلاقي من الفرح والسرور ؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بخلها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ماقصده الشاعر من التعبير به عن الفرح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركة بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء ، وبين زمن السرور الذي لم يُطلب فيه بكاء ؛ وكذلك يجري القول في كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما ، كما صرح به الرماني وغيره ، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذي يدل عليه اللفظ المشترك

مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الحيانة التي لا توجب الحد : من الضرب وغيره ، والمعنيان ضدان بحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة رائقة ، وكانت في أعلى درجات الفصاحة ؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَزَّرْهُ وَتَوَقَّرْهُ ﴾ وقوله : «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ» الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن الموقع ، ولو وردت مهملتا بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن ، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح ، كما لو قلت عزز القاضى فلاناً وأنت تريد أنه عظمه ، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه ، وعلى هذا النهج يجرى الحكم في الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فما ورد مع القرينة بقاء حسنا قول تأبط شرا :

أقول للحَيَّانِ ، وَقَدْ صَفَّرْتُ لَكُمْ ۖ وَطَائِي وَيَوْمَى صَبِقَ الْجَحْرِ مَعُورُ

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هُجْنَةَ الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب ببحر الحية واليربوع ونحوهما ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملتا بغير قرينة مُتَخَصِّصُهُ سبق إلى الفهم المعنى القبيح لأشتهاره دون غيره . وما ورد مهملتا بغير قرينة بقاء قبيحا قول أبي تمام :

أَعْطَيْتَنِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي ۖ عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمُ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذى هو ضد الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثقل على اللسان ويعسر النطق به على المنكلم ، وإليه ذهب السكاكي وغيره من علماء البيان . وهو على ضربين .

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ۞ معى ، وإذا ماثمته ، أئمه وحدى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعض الثقل على اللسان في النطق به ، وذلك أن الاء والهاء متقاربان في المخرج ، وقد اجتمعا في قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تقارب مخرج الحرفين فنقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك أن الصحاح بن عبّاد أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد ، فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهجينة ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقال له ابن العميد : غير هذا أريد ، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل التنافر ، فاستحسن الصحاح بن عبّاد ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن

الثقل في لفظة أمدحه دون تكرار ، فإن مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى :

”فَسَبَّحَهُ“ والقول باشتغال القراءان على كلام غير فصيح مما لا يجزئى عليه المؤمن .
الضرب الثانى - ما كان شديد النقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة
النطق به، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ يَمَكَّانٍ قَفْرٌ * وليس قُرْبٌ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف ، فصاح واحد منهم
على حَرْبٍ بن أمية فأت ، فقال ذلك الجنى هذا البيت . قال المسعودى فى ”مروج
الذهب“ : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه
لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعَتَّعَ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير :
والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه ، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها
سلسلة ، ولا حَقَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يعجز الحكم فى كل
ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطَاقِ على ذلك أسم التنافر . وجعل التنافر قسما
مستقلا برأسه كما سيأتى . وعد هذا من أنواع المعاطلة اللفظية ، ثم ذكر من أمثله
قول الحريرى فى مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كشافهم :

وَالزَّهْرُ وَالقَطْرُ فى رُبَاها * مَايِنَ نَظْمٍ وَيِنَ نَفْرِ
حَدَائِقُ ، كَفَّ كُلَّ رِيحٍ * حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَّتُ مِطَالَ مَوْلُودِ مُفَدَّى * مَلِيحٌ مَانِعٌ مَنَى مُرَادَى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرَى الَّتِى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ * رَأَاهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَأَى

وعاب بيت الحريرى لتكرار العين فيه في قوله :

* وَعَافَ عَافِي العُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثاني من بيتي كشاحم لتكرار الكاف فيه في "كَنَفٌ وَكَلٌّ" الاولى و"كَلٌّ" الثانية ، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى رِكَاكِ بضعه في شِدْقِهِ حَتَّى يديره له ؛ وعاب البيت الذي يليه لتكرار الميم فيه في أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عَقْدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لتكرار الجيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعرِضُ لقائله في نوبة الصَّرع التي تنوبه في بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسم من المعاطلة كثيرا في كلامه ثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلك الطريق كقوله في وصف رجل سخي : "أنت المُرِيحُ كِيدِ الرِيحِ ، والمُليحُ إن تَجَهَّمُ المَلِيحُ بالتحكيح ؛ عند سائل يَلُوحُ ، بل تفوق إذ تَرُوقُ مَرَأَى بُوْحِ ؛ يامقبوق كَأيسَ الحمد يامصبوح ضاق عن نَدَاك اللُّوحِ ، وبيابك المفتوح يستريح ويرِيحُ ذو التبرِيحِ ، ويرُقُّه الطَّلِيحُ" فانظر إلى حرفي الزاء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بغاء على ما تراه من الثقل والقثالة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أذغموه استحسانا ، فقالوا في جعل لك : جَعَلَكْ ، وفي تصريوئني تصربوئى ، وكذلك قالوا : أستعد فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه أستعدد ، وأستتب الأمر إذا تهيأ والأصل فيه أستتب ، وأشبه هذا كثيرا في كلامهم حتى إنهم لشدت كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أمليت

(١) موابه أحد الحرفين كما هو نفس العبارة في المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أمّلت ، فأبدلوا اللامَ ياءً طلباً للخفة وِفْراً من النقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضاً .

قلت : ليس تكرر الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وِخْفَتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كيف اجتمع فيه ست عشرة ميماً في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع ، مع ما أشتملت عليه من الطلاوة والرواق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثاني - أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثاني غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكرى في "الصناعين" فما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموهلي :

فَنَحْنُ كِهَامِ الْمُرْنِ مَا فِي نَصَابِنَا * كِهَامٌ وَلَا فِينَا يَمَعْدُ بَجَيْلٌ

فليس بين قوله ما في نصابنا كِهَامٌ وقوله فنحن كِهَامِ المرزى مناسبة لأن المراد بالكِهَامِ الذي لا غِنَاءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كِهَامٌ أي لا غِنَاءَ عندهم ، ورجل كِهَامٌ أي مُسِنٌ ؛ كذلك سَيْبٌ كِهَامٌ أي كَلِيلٌ ، ولسان كِهَامٌ أي عَيْءٌ ، وفرس كِهَامٌ أي بطيء ، فهو يصف قومه بالنجدة والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يفتي ، وماء المرزى إنما يحسن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعين" : ولو قال : ونحن كِهَامٌ أي الحرب وأولو الصرامة والنجدة ، ما في نصابنا كِهَامٌ ، لكان الكلام مستوياً ،

أو فنحن كجاء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف، لكان جيدا، ومن ذلك قول طرفة:
ولست بخلال التلّاح مخافة * ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالمصراع الثاني من البيت غير مشاكل للصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحا لأنه أراد ولست بخلال التلّاح مخافة السؤال ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني وأرْفَدَهُمْ، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفًا كثيرا فصار كالتنافر، وأدواء الكلام كثيرة؛ ومنه قول الأعشى:

وإن أمراً أسرى إليك ودونه * سهوب ومومةً وبيداء سملق،
لمحذوفة أن تسجبي لصوته * وأن تعلمي أن المعان موفق

فقوله: وأن تعلمي أن المعان موفق غير مشاكل لما قبله؛ وعلى نحو ذلك ورد قول عنترة:

حرق الجناح كأن لحى رأسه * جلمان بالأخبار هش مولع
إن الذين نعت لي يفراقهم * هم أسلموا ليل التمام وأوجعوا

فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفة جناحيه ولحيته؛ وقريب منه قول أبي تمام:

محمد ابن الحاسدين شهود * وإن مصاب المزن حيث تريد

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء؛ وكذلك قول الطائي:
قوم هدى الله العباد بعبدهم * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت ونحوه بوجه.

وعند بعض الأدباء من هذا النوع قول القيس:

كأن لم أركب جواداً للدة، * ولم أبتطن كاعياً ذات خلخال
ولم أسيا الرق الروى ولم أقل * ليحلي كرى كزة بعد إجمال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل في استواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * نجلي تُكْرِى كِرة بعد إجمال
ولم أسبأ الزق الروى للذة، * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن . قال في "الصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يعرى هذا المجزئ . قال أبو هلال العسكري : أخبرني أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب فنختلف إلى مُدْرِك نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعت الكلمة مع لِقِيهَا، كنتم شعراء . ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* أَلَا بِأَمَّا الدُّنْيَا مَتَاعٌ غُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشيء، فلم يرضه . فقلت أنا :

* وَإِنْ عَظَمْتُ فِي أَنْفُسِ وَصُدُورِ *

فقال : هذا هو الجيد المختار . قال : وأخبرني أبو أحمد الشطرنجى قال : حدثنا أبو العباس بن عربى، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن مسلمة رجلا من أهله ثم قال :

* تَرُوحُ وَتَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* لِحْتَى مَتَى هَذَا الرَّوَّاحُ مَعَ الْعُدُودِ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئاً ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

« فإلك مَعْدَى مَرَّةٍ وَمَرَّاحًا * »

فقال : لم تصنع شيئاً ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

« وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا تَرُوحُ وَلَا تَقْدُو * »

فقال : الآن تم البيت ، وأشبه ذلك ونظائره كثيرة . ومما اختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وإني وتركي ندى الأكرمين * وقدحى يكفى زئداً شحاحاً

كأركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحاً

وقول الفرزدق :

فإنك إذ تهجو تمياً وترثني * سراويل قيس أو سجوف العائم

ككهريق ماء بالقلابة ، وغرّه * سراب أذاعته رياح السائم

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيت الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وإني وتركي ندى الأكرمين * وقدحى يكفى زئداً شحاحاً

ككهريق ماء بالقلابة ، وغرّه * سراب أذاعته رياح السائم

مع تغيير إحدى القافيتين ، ويقال في الثاني :

وإنك إذ تهجو تمياً وترثني * سراويل قيس أو سجوف العائم

كأركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحاً

مع تغيير إحدى القافيتين حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعاً .

المذهب الثالث - أن المراد بتناثر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لاقية بمكانها، وهو ما أصطلح عليه ابن الاثير في "المثل السائر"، وهو على ضربين .

الضرب الأول، ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا، وهو على أنواع شتى .

منها فك الإدغام في غير موضع فكّه، كقول ابن أمّ صاحب :

مَهَلًا أَعَادَلْ قَد جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي * أَنِي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنِّي ضَنْبُونَا

فك الإدغام في ضنونا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أي يجنلوا .

وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فَلَا يَبْرُمُ الأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ * وَلَا يُجَلُّ الأَمْرُ الَّذِي هُوَ بَرُّمٌ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارة في مكانها، غير قلقة ولا نافية؛ وكذلك كل ما جاء

على هذا النهج فلا يحسن أن يقال بلّ التوبّ فهو بالل؛ ولا سلّ السيف فهو سائل،

ولا همّ بالامر فهو هامم، ولا خطّ الكتاب فهو خاطط، ولا حنّ إلى كذا فهو حانن؛

وهذا لو عرّض على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟

لكن لا بد لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه، كقول دجيل :

شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي الحَوَائِجِ، إِنَّهُ * يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها، نافية عن مكانها . قال الوزير ضياء

الدين ابن الاثير : أنشدني بعض الأديباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت

حسن، وأما صدره فقيح : لأن سبكه قلبي نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهي في زيادتها كزيادة الكرش، فقال : لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه : كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ وهي مثل قولك : آمسِ فَأَسْرِعْ ، وقلْ فَأَبْلِغْ ، وليست الفاء التي في قول دِعْبِيلِ : شَفِيعِكَ فَاشْكُرْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، بل هي زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو تيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه ، وحاشا فصاحة القراء أن من ذلك . فاذعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراحح في علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبي تمام :

قَرَأَنِي اللَّهْمَا وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَنَّما * أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ بِأَقَانِي الرِّمَانِ مِنْ أَجَلِهِ * بِأَعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِي

فقوله من أجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر؛ وعلى حدّه ورد قول أبي الطيّب :

يُوسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا لِالْتِنْتَظَارِ

فقوله لا الانتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أَرَى إِثْنَيْنِ أَحْمَلِ شَيْمَةَ * عَلَى حَدَاتَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمَلِ

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في "النسل السائر" فقال . وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول

دعبل ويستقلها ... إلى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذهن الخ .

وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ « يَنْشُرُ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل في لفظ الإثنيين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفترق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحري :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ « وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها، فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي

هي المتعلق بالضمير الذي هو بها ، قُبِحَ ذلك . ولو قال من قلب بها متعلق لزال

ذلك القبح وزهبت تلك الهُجْنَةُ . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

(المعرفة بالسجع الذي هو قوام الكلام المنثور وعلو رتبته ،

ويتعلق به ستة أعراض)

العرض الأول

(في معرفة معناه في اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه في حائتي الدرج والوقف)

أما في اللغة فقال في "مواد البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم

لأستقامته في الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت

على حد واحد ، يقال منه سَجَعَتِ الْحَامَةُ تُسَجِعُ سَجْعًا فَهِيَ سَاجِعَةٌ ، سُمِّيَ السَّجْعُ

في الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتي على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات

متوازنة متماثلة . فأشبه ذلك الترجيع .

وأما في الأصطلاح ، فقال في "مواد البيان" : هو تَفْصِيَةٌ بِمَقَاتِعِ الْكَلَامِ مِنْ ذِي

وزن ، وذكر نحوه في "المثل السائر" فقال : هو تَوَاطُؤُ الْفَوَاصِلِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ

عَلَى حُرُوفٍ وَاحِدَةٍ ، وَيُقَالُ لِلْحِزْمِ الْوَاحِدِ مِنْهُ سَجْعَةٌ ، وَتَجْمَعُ عَلَى تَجْمَعَاتٍ ، وَفِقْرَةٌ (بكسر

الفاء) أخذاً من فِقرَةِ الظهر : وهي إحدى عظام الصُّلبِ ، وتجمع على فِقَرٍ وفِقرَاتٍ بكسر الفاء وسكون القاف وتفتحها ، وربما فصححت الفاء والقاف جميعاً ، ويقال لها أيضاً قَرِينة لمقارنة أختها وتجمع على قَرَائِنَ ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرُّوى والفاصلة .

وأما بيان حكمه في الوقف والدرج فأعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأبيحاج ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها بالسكون في حالتى الوقف والدرج : لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفِقرِ ، وذلك لا يتم إلا بالوقف . ألا ترى أن قولهم : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هوات ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن ويفوت الساجع غرضه .

الغرض الثاني

(في بيان حُسن موقعه من الكلام)

قال في "الصناعين" : لا يحسن مشور الكلام ، ولا يخلو حتى يكون مُزْدِجاً ، ولا تجيد ليلج كلاماً محلولاً من الأزواج ، وناهيك أن القرآن الكريم الذى هو عنصرُ البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لا تخلو منه سورة من سورِهِ وإن قصرت . بل ربما وقع السجع في فواصل جميع السورة ، كما في سورة النجم ، وأقربت ، والرحمن وغيرها من السور . بل ربما وقع في أوساط الآيات ، كقوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَمَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وقوله : " لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ نُجُومًا " ونَطَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وقوله : " وَوَلَّسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُنْمِضُوا فِيهِ " وما أشبه ذلك . وكذلك وقع في الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : ” أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام ” . بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريح اللغة طلبا للزوجة : كقوله في تعويذه لابن آبنته : ” أعيذه من الهامة والسامة ، والعين اللامة ” وأصلها في اللغة الملمة لأنها من ألم ، فعبر عنها بالامة لموافقة الهامة والسامة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : ” أنصرفن مازورات غير ماجورات ” والأصل في اللغة أن يقال موزورات أخذا من الوزر ، فعبر بمازورات لموافقة ماجورات ؛ وعلى ذلك كان يجري كلام العرب في مهم كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إن كنت قد آليت ، فطالما عاقبت . وقول الآخر : اللهم هب لنا حيك ، وأرض عنا خلقك ، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجنين بغرة عبيد أو أمة ، فقال الرجل : أأدى من لأشرب ولا أكل ؛ ولا نطق ولا أستهل ، ومثل ذلك يُطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ” أتجمعا كسجع الكهان ” فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبأ عن السجع طبعه ، ونفرت منه قريحه . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكهان ، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري ، وإما بخر يانه على عادتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لانفس السجع الماتى به كما اختاره صاحب ” المنهل السائر ” ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لاقصر على قوله أصحبا ولم يقيد بسجع الكهان .

الغرض الثالث

(في بيان أقسام السجع ، وهي راجعة إلى صنفين)

الصنف الأول

(أن تكون القريبتان متفقتين في حرف الروي ، ويسميه الرّمائي السجع الحالي

وعليه عمل أكثر الكُتّاب من زمن القاضي الفاضل ، وهلمَّ جرّاً

إلى زماننا ، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون ألفاظ القريبتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء

ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في النثر قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ

لَفِي جَحِيمٍ ﴾ . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : ﴿ اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،

وَأَغْسِلْ حَوْبَتِي ﴾ . وقوله للأَنْصَارِ ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتَكُرُونَ عِنْدَ الْقَرْعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ ﴾

وقول بعض الأعراب في وصف سيدة جذبة : سيدة جردت ، وحال جهدت ، وأيد

جدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَجُودُ الْحَلِيقَةِ ، مَهْدِي الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعُ وَضَرَارِ !

جَوَابُ قَاصِيَةِ ، بَرَّازُ نَاصِيَةِ ، عِنْدَادُ أَلْوِيَةِ ، لِجِلِّ جَرَّارِ !

المرتبة الثانية - أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من القريتين فقط ، دون

ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾

ثم قال : ﴿ وَتَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزُرَّابِي مَبْنُوتَةٌ ﴾ ، وكقول الحريري في مقاماته : أَبْجَائِي

حُكْمٌ دَهِيرٌ قَاسِطٌ ، إِلَى أَنْ تُنْجِعَ أَرْضٌ وَأَسِطٌ ، وَقَوْلُهُ : وَأَوْدِي النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ،

وَرَتِي لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّائِتُ ، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة - أن يقع الاتفاق في حرف الروى مع قطع النظر عن التوازن في شيء من أجزاء الفقرة في آخر ولا غيره، ويسمى المطرف . كقوله تعالى : ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم : جنابه محط الرجال، ومحيم الآمال . وما يجري هذا المجرى .

الصنف الثاني

(أن يختلف حرف الروى في آخر الفقرتين ، وهو الذى يعبرون عنه بالأزدواج . والرمانى يسميه السجع العاطل ، وعليه كان عمل السلف من الصحابة ومن قارب زمانهم : وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يقع ذلك في الشعر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولى - أن يراعى الوزن في جميع كلمات القريبتين أو في أكثرها، مع مقابلة الكلمة بما يعادلسها وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلىها . كقوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وكقول الحريري : أسود يومى الأبيض ، وأبيض قودى الأسود .

المرتبة الثانية - أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من القريبتين فقط ، ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ﴾ وقولهم : اصبر على حر القتال ، ومصص النزال ، وشدة التصاع ، ومداومة البراز ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

(السجع الواقع في الشعر)

ويسمى التصريح في البيت الأول، ومحل الكلام عليه علم البديع . وقد ذكره في المثال السائر في أعقاب الكلام على السجع في الكلام المشور، وجعله على سبع مراتب .
المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه، ويسمى التصريح الكامل : كقول امرئ القيس :
أَفَاطِمٌ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ * وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أُوْمَعْتِ هَيْرِي فَأَجْبِلِي
فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية - أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضا :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَتْرَلٍ * بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلٍ
فإن المصراع الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطاً به .

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح الموجه، كقول ابن سحاح :

مِنْ شُرُوطِ الصُّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِصْفَةُ الشَّرْبِ مَعَ حُلُومِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المصراع الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة - أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن . كقول المتنبي :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَعَانِي * بِمَتْرَلَةِ الرِّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المصراع الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون المصراع الثاني .
 المرتبة الخامسة - أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية،
 ويسمى التصريح المكرر؛ ثم اللفظة التي يقع بها التصريح قد تكون حقيقة لا مجاز
 فيها، كقول عبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يُثَوِّبُ * وغائبُ الموتِ لا يُثَوِّبُ

وقد تكون اللفظة التي يقع بها التصريح مجازية كقول أبي تمام الطائي :

فَتَى كَانَ شِرْبًا لِلْعُقَاةِ وَمَرْتَعًا * فأصبح للهنديّة البيضَ مرْتَعًا

المرتبة السادسة - أن يكون المصراع الأول معلقا على صفة يأتي ذكرها في أول
 المصراع الثاني؛ ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا أنجلي * يصُبحُ وما الإصباحُ فبك بأمتل

فإن المصراع الأول معلق على قوله يصُبحُ، وهو مستقبح في الصنعة .

المرتبة السابعة - أن يكون التصريح في البيت محالًا لقافته؛ ويسمى التصريح
 المشطور، وهو أزل درجات التصريح وأقبحها . كقول أبي نؤاس :

أقلني قد ندمتُ على الذنوبِ * وبالإقرارِ عدتُ من الجُودِ

فإنه قد صرَّع في وسط البيت بالباء ثم في آخره بالدال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر
 لأنه قد يقع مثله في النثر إذ الفقرة من النثر كالبيت من الشعر، فالقرتان كالبيتين،
 وأيضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(السجعات القصار)

وهي ما صيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال في "حسن التوسل": وهي تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَشِيبَاكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَأَلْمِصْنَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأَ أَعْيُنُهُمْ لِيَفْهَمُوا آيَاتِهِمْ لِيَخْشَوُا اللَّهَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا آتَيْنَاهُمُ الرِّيحَ وَلَدْنَا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثاني

(السجعات الطوال)

قال في "حسن التوسل": وهي الالذ في السمع، يتشوق السامع إلى ما يرد متزايداً على سمعه، وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حوفاً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ رَدَدْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُوفٌ وَلَكِنَّ أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسِيئَةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأولى من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَىٰ لَهُمْ كَثِيرًا لقَشْنَمُ وَلِنُنَازِعَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ يَقْتُمُونَ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَالُكَ فِي آعِيهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَلَمَّا اللهُ رُجِعَ الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القرآن الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع ووفقاً مع ماورد به القرآن الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

وأعلم أنه قد جرت عادة كتاب الزمان ومصطلحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف القصر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الغرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر ؛ وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن لا يزيد السجع على سجتين ؛ وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداها على الأخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك .
 المرتبة الثانية - أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا مَهًا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ، أما إذا طالت الثانية عن الأولى طولاً يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستفح حينئذ ، ووجهه في "حسن التوسل" بأنه يُبعد دخول القافية على السامع فيقبل الألتذاذ بسماها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة - أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في "المثل السائر" :
 وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يبيء الفصل الثاني قصيراً فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الإتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكِ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسع عشرة ، بل قد أختار تحسين ذلك أبو هلال العسكري في "الصناعتين" محتجاً له بكثرة وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ : " إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمْعِ " وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَشْكَاؤُ دِمَائِهِمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَقِيمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ " .

الحالة الثانية

(أن يزيد السجع على سجتين . ولها أربع مراتب)

المرتبة الأولى - أن يقع على حد واحد في التساوي ، وهو مستحسن ، وقد ورد في القراءات الكريمة بعض ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿١٠﴾ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١١﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين ، والثالثة زائدة عليهما ؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على آئنتين فلا يضرب تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة ، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة ، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يُبْيِنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يُعْجِدَ وَلَدًا ﴿١٢﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر ، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتص عنك بخالف ، ولم يُعَامِلْكَ معاملته الخالف ، وإذا بلغه أذنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف ؛ فالأولى : وهي لم يعتص عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القبيل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بأن لا تتجاوز المثل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة. قال في "حسن التوسل": "ولا بد من الزيادة في آخر القرائن ."

المغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمر آخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديده الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، نرجح السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة ، لا غثة ولا باردة ، موقفة المعنى ، حسنة التركيب ، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو نواطئ الفقير ، فيكون كمن نَشَّ أثوابا من الكُرْسُفِ ، أو نظم عقدا من الحرز الملتون . قال في "المثل السائر" : وهذا مقام ترل عن الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ، ولولا ذلك كان كل أديب سجعاً إذ ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة .

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، لأن اشتغال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقترن فى علم البيان . قال فى "المثل السائر" : فلا يكون مثل قول الصابى فى وصف مُدَبَّر : "يسافر رأيه وهو دان لم يترج ، ويسير تديره وهو ناي لم يبرح" ، ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم يترج ، ويُخِينُ الجِرَاحِ فى عنقه وسيفه فى العنق لم يبرح ، لسلم من هُجْنَةِ التكرار : فإنه تصير كل سجعة محتوية على معنى بجياله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إِذَا قَلَّتِ الْأَنْصَارُ ، كَلَّتِ الْأَبْصَارُ ، وَقَوْلُهُمْ : مَا وَرَاءَ الْخَلْقِ الذَّمِيمُ ، إِلَّا الْخَلْقُ الذَّمِيمُ ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً فى سجع ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آطَمَسْنَا عَلَىٰ أَمْوَالِنَا وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِنَا فَلَآ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَآعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فإن قوله : ﴿ عَلَىٰ أَمْوَالِنَا ﴾ وقوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِنَا ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ بِآخِذِيهِ ﴾ وقوله : ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها : ﴿ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وعدة المعركى منه قولهم : عَادَ تَمْرِيضُكَ تَصْرِيحًا ، وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا ،

وأما قبحه فيعتبر بأمر .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامةً : أن كتباً كتبت فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

ما يَنْتَعِدُ الجزء، وإن كان قديم العبودية، وَيَسْتَفْرِقُ الشكر، وإن كان سالف فضلك لم يَبْقَ شيئاً منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل، فيما ذكر قَدَامَةً وغيره : وهو أنت يحيى الجزء الأول تطويلاً فيحتاج إلى إطالة الثاني بالضرورة . كما حكى قَدَامَةً أن كاتباً كتب في تعزية : إذا كان للمحزون في لقاء مثله كبير الراحة في العاجل، وكان طويل الحزن راتباً إذا رجع إلى الحقائق وغير زائل . قال في "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأول، وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون مثله أو أطول، احتاج إلى تطويل الثاني فأقرب باستكراه وتكلف . قال في "مواد البيان" والإطالة بقوله وغير زائل .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع، والقدرة على الاختراع)

وأعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المسلك الأول

(طريقة الاتباع)

وهي نظر الكاتب في كلام من تقدمه من الكُتَّابِ، وسلوك من جهم، وأقتفاء سبيلهم، وسماعها من الأثير التقليدي؛ وهي على صنفين .

الصنف الأول

(الاتباع في الألفاظ)

وهو اعتماد الكاتب على ما رتبته غيره من الكُتَّابِ، وأنشأه سواه من أهل صناعة النثر، بأن يَتَعَمَدَ إلى ما أنشأه أفاضل الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذ به برُمَّته، ويأتي عليه بصيغته؛ وغايته أن يكون ناسخاً ناقلاً للكلام غيره، حاكياً

له . ولشمل ذلك توضع الدساتير ، وتدوّن الدواوين . على أنه ربما غير وبتل ، وحرف وصحف ، وأزال اللفظ عن وضعه ، وأحال المعنى عن حركه . وبعضهم ربما حملته الألفه وانطوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته ، فعدل إلى الكلام غيره ، فالتقط من كل مكان سمعتين أو سمعات ، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده ، وينتهي إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق ، حسن الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختر من خلال السجع لطيفه ، وأحسن رصفه وتأليفه ، جاء بهجاً رائعاً . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر ، وتفريق مادون من كلام الأفاضل ، وتبديد شمله ، ونخروج الكلام عن أن يعرف قائله ، ويعلم منشئه ، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه ، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حسن الاختيار ، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكاً ، نابياً عن الذوق ، بعيداً عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلى المسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده في وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى ، والمصيبة العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتبجح به ، ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته ، محتجاً بذلك بقول الحريرى : "إن صناعة الحِسَاب موضوعة على التحقيق ، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق" . طائناً أن التلفيق هو ضم سمجات منتظمة ، وقفات مؤلفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها ، وإضافة كلمة إلى مشاكتها . وستأن ما بين التلفيقين ، وبعداً لما بين الطرفين :

وللزنبور والبازى جميعاً * لدى الطيران أجنحةً وحقق

ولكن بين ما يضطادُّ بازٍ * وما يعطّاده الزنبور فرق

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كانت ظاهراً مكشوفاً فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخاً للكلام غيره، ونافلاً له؟ فأى فضيلة في ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنى بلفظه كان سارقاً، ومن أخذ بعض لفظه كان سائلاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده كان أولى به ممن تقدمه، وأين من هو أولى بالشئ من سبقه إليه ممن يعدُّ سارقاً وسائلاً؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ جمعة أو سبعين في خطبة أو رسالة، أو بيتاً أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكلمها، أو الخطبة أو الرسالة برمها، أو لفظها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعدُّ ناسخاً إن أحسن النقل، أو ماسخاً إن أفسد.

وأعلم أن الناثر الماهر والشاعر الملق قد يأتي بكلام سبقه إليه غيره، فيأتي بالبيت من الشعر أو القرينة من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأول من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذي يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر. وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشعراء إن يتفقان على لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجال توافقت على ألسنتها.

والواقع من ذلك في كلامهم على قسمين.

القسم الأول

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى واللفظ جميعاً)

كقول الفرزدق:

وَعَرَّ قَدَّ وَسَقَّتْ مُشَمَّرَاتٍ * طَوَالِحَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابًا
بِكُلِّ نَيْبَةٍ وَبِكُلِّ تَقَرٍّ * غَرَائِهُنَّ تَنْسِبُ أَنْسَابًا
بَلَّغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقًا * وَمَسَقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

وواقفه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص ، وروى أن عمر بن
أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تَسَطَّ غَدَا دَارُ جِيرَانِنَا *

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

* وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَمَدٌ *

فقال عمر : والله ما قلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" :
وأنشدت الصحاح إسماعيل بن عباد رحمه الله :

* كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلَمِهِ *

فسبقنى وقال :

* فَفَعَدَتْ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قلتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل
الساير" : ويحكى أن امرأة من عُقَيْل يقال لها لَيْلَى ، كان يتحدث إليها الشَّابُّ ،
فدخل القَرَزْدُقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه فدخل إليها
فأقبلت عليه وتركت القَرَزْدُقَ ، فعاطفه ذلك فقال للفتى : أتصارعنى ؟ فقال : ذاك
إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ القَرَزْدُقَ فَصَرَعَهُ وجلس على صدره فَصَطَّرَ ،
فوثب الفتى عنه وقال يا أبا فِرَاسٍ : هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردت ما جرى ،
قال : ويحك ! والله ما أبى أنك صرعتنى ولكن كأتى بآبِنِ الْإِنَانِ ، (يعنى جريرا) وقد
بلغه خبرى ، فقال يهجوئى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لِتَحْظَى بِقُرْبِهَا * نَفَاكَ دُبُرٌ لَا يَزَالُ يَحْوُنُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ شَدَدَتْ وَكَأَهُ ، * سَكَ شَدَّ جُرْبَانَ الدَّلَاصِ قِيُونَ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبير، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضوع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة ، في أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم
وشمائلهم تكون متضارعة . قال في "المثل السائر" : ويقال إن الفرزدق وجريراً كانا
ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد ، فإن
ظاهر الأمر يدل على خلافه ، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإلا فإذا رأينا شاعراً
متقدماً الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده ، علمنا بشهادة الحال
أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة ،
فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافقه بالتعب على المتأخر ، وإن ادعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

(ما وقع الإكتمال فيه في المعنى وبعض اللفظ ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما اتفق فيه المعنى وأكثر اللفظ)

كقول امرئ القيس :

وَقُوفاً بِهَا صَحِي عَلَى مَطِيهِمْ * يَقُولُونَ : لَاتَهْلِكْ أَسِي ، وَتَجَلِّدِ

وَقَوْل طَرْفَةَ :

وَقُوفاً بِهَا صَحِي عَلَى مَطِيهِمْ * يَقُولُونَ : لَاتَهْلِكْ أَسِي ، وَتَجَلِّدِ

فالتخالف بينهما في كلمة القافية فقط .

وقول البعيث :

أترجو كليب أن يحيى حديثها * بخير ، وقد أعيا كليباً قديمها ؟

وقول الفرزدق :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها * بخير ، وقد أعيا ربيماً كبارها ؟

فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة القافية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء :

أجاد طويس والسريجي بعده * وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقول الفرزدق بعده :

محاسن أصناف المغنين جملة * وما قصبات السبق إلا لمعبد

فاتفقا في النصف الثاني ، وأختلفا في النصف الأول . إلى غير ذلك من الأشعار

التي وقعت خواطر الشعراء عليها ، وتوافق عقولهم عندها .

الضرب الثاني

(ما اتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ)

فمن ذلك قول البحتري في وصف غلام :

فوق ضعيف الصغير إن وكل الأمر إليه ، ودون كيد الكبار

أخذه من قول أبي نويس :

لم يجف من كبير عما يراد به * من الأمور ، ولا أزرى به الصغر

وقول أبي تمام :

ولم أمدحك تفخياً بشعري * ولكنني مدحت بك المديح

أخذه من قول حسان بن ثابت ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 مَالٌ مَدَحْتُ عَمَّادًا بِمَقَالِي * لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالِي بِمَحَمَّدٍ
 وقول أبي الطيب :

أين أزمعت أيشاذ الهمام * نحن نبت الربا، وأنت الغمام
 أخذه من قول بشير :

كأن الناس حين تغيب عنهم * نبات الأرض أخطاه القطار

الصف الثاني

(التقليد في المعاني)

وهذا مما لا يستغنى عنه ناظم ولا نائر . قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم
 والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها ممن سبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد آسماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنين
 علي كرم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد ، لنفد . ومن كلام بعضهم : كل
 شيء إذا شئت قصر إلا الكلام ، فإنك إذا شئت طال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء ،
 فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 ورفصتها ، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ وقصّر فيه عمّت تقدمه . قال في «الصناعتين» : وما يُعرَفُ للتقدم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عترة :

وَحَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ * غَمْرِدًا كَمَنْعِلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ

هَرَبًا جَاءَ يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ * قَدَحَ المِكْبُ عَلَى الزَّنَادِ الأَجْدَمِ

فإنه مأثورٌ في علمه على جودته . قال : وقد رامه بعض المحمّدين فانفضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذي ابتكره وسبق إليه ، فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوقة إليه ، والوسط وسط ، والردى ردى ، وإن لم يكن مسبوقة إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنى مُبتدعٌ ، محتجاً لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طُرق مرارا . قال في «المثل السائر» : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لانهاية له ؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأوّل . كقولهم فى الغزل :

عَصَتِ الدِّيارُ وما عَقَّتْ * آتَاهُنَّ مِنَ القُلُوبِ

وقولهم فى المديح : إن عطائه كالجبر أو كالمسحاب ؛ وإنه لا يمنع عطائه اليوم عطاء غد ؛ وإنه يجود بما له من غير مسألة ؛ وأشبه ذلك .

وقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أول حادٍ ؛ وإنه استوى فيه الأبعد والأقرب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ؛ وإن بعد هذا الذاهب لا يعدّ لثنيته ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعاني الظاهرة التى تنوارد عليها الخواطر من

غير مُكَلِّفَةٌ؛ ويستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَقُ عَلَى الْآخِرِ
فِيهِ أَسْمُ السَّرْفَةِ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ أَسْمُ السَّرْفَةِ فِي مَعْنَى مَخْصُوصٍ . كَقَوْلِ
أَبِي تَمَّامٍ :

لَا تُسْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ . مَثَلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ ،
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَفْلَ لِنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم
قصيدته السَّيِّئَةَ التي مطلعها :

* مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَاسٍ *

أتهى إلى قوله منها :

إِقْدَامِ عَمْرٍو فِي سِمَاحَةِ حَاتِمٍ ، * فِي جِلْمٍ أَحْنَفَ ، فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فقال الحكيم الكندي : وأتى نغز في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟
فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمر وحاتم وإياس ،
فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا
له ، وكذلك كلُّ ماجرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني
من قبلهم ، ويبنون على بناء من تقدمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

خُلِقْنَا ، رَجَالًا لِلتَّجَدُّدِ وَالْأَسْمَى * وَتِلْكَ الْعَوَايِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مُصَعبُ بن الزبير : وَإِنَّمَا التَّسْلِيمُ
وَالسُّلُوكُ لِحُزْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَإِنِ الْجُرْعُ وَالْمَلْعُ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ ، وقوله أيضا :
تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جَسْمِي نَحِيحًا * كَأَنَّ الْجُبْدَ يُدْرِكُ بِالصَّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلي : لولا أنك ضعيف
لاستعملتك ، وقول أبي الأسود له في جواب ذلك : إن كنت تُريدني للصرع فإني
لا أصلح له وإلا فغير شديد أن أمرَ وأنهى ، وقوله من قصيدة البيت المنتقم :

أطالَ يَدِي عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى * جَزَيْتُ صُرُوقَهَا صَاعًا بِصَاعٍ

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

إِن تُقْسِلَا أَوْ يُكَيِّنَ اللَّهُ مِنْكُمْ * نَكَلُ لَكُمَا صَاعًا بِصَاعِ الْمَكَايِلِ

وقول أبي الطيب المتنبي :

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ بَكَارًا * تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك

الجسم دون بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر :

مَنْ رَاقِبِ النَّاسَ مَاتَ عَجْمًا * وَفَارَ بِاللَّدَّةِ الْجَسُورُ

أخذه من قول بشر :

مَنْ رَاقِبِ النَّاسَ لَمْ يَطْفُرْ بِحَاجَتِهِ . * وَفَارَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ الْأَلْهِجُ

فلما سمع بشر بيت الخاسر ، قال : ذهب ابن الفاعلة بيتي . ومثل هذا وأشباهه

مما لا ينحصر كثرة ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكاتب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله في فصل

من كتاب : إذا كان للحسن من الثواب ما يُقْنِعُهُ ، وللسيء من العقاب ما يُقْمَعُهُ ،

أزداد الحسن في الإحسان رغبة ، وأنقاد المسيء للحق رهبة . أخذه من قول علي

كرم الله وجهه ! : يجب على الوالي أن يتعهد أموره ، ويتسقد أعوانه ، حتى

لا يُخْفَى عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيءٍ، بعم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن وأجترأ المسيء، وقد أمر، وضاع العمل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب في فصل وهو : لو سكت لساني عن شُكرك، لنطق أترك علي . وفي فصل آخر : ولو حمدتُك إحسانك، لا كذبتني آثارك، وتمت علي شواهدُها . أخذه من قول نُصَيْب :

« ولو سَكُنُوا أَثَمْتُ عَيْدِكَ الْحَقَائِبِ »

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل، وهو : أحق من أنبت لك العذر في حال شُكرك، من لم يخل ساعة من رُك في وقت قرأتك . أخذه من قول علي رضي الله عنه ! : لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أولي، ويلتمس الزيادة فيما بقي .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقدم الكلام عليه قبل ذلك . قال في "الصناعتين" : ومن أخفى أسباب السرقة أن يأخذ معنى من نظم فيورده في ثوب، أو من ثر فيورده في نظم، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة نحر فيجمله في مديح . أو في مديح فينقله إلى وصف . إلا أنه لا يصل لهذا إلا المبرز الكامل المقدم .

وقال في "المتل السائر" : أشكل سرقات المعاني، وأدقها، وأغربها، وأبهدها مذهبا أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ . قال : وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتي إلا قليلا، ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض .

فمن ذلك قول أبي تمام في المدح :

فَتِي مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً * تَقُومُ مَقَامَ النَّصِيرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا * مِنَ الْمَالِ ، يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
يُلْبِغُ عُذْرًا أَوْ يَتَالَ رَغِيْبَةً * وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مَنْجِجٍ

فعروة جعل آجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية أجهتاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار . قال في "المثل السائر" : وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف . وأظهر من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عرّى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود

أخذه من قول ابن المقفع في باب المرائي من الحماسة :

وقد بحر نفعا فقدنا لك أننا * أمنا على كل الزايات من الخزع

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه ، من غير أن يلزم به التأخر ولم يسمعه . ولا استبعاد في ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال العسكري : وهذا أمر قد عرفته من نفسي فلا أمتري فيه ! وذلك أي كنت عملت شيئا في صفة النساء ، فقلت :

* سَفَرْنَ بِلُورًا وَاتَّقَبْنَ أَهْلَةً *

وظننت أي لم أسبق إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجدت ذلك بعينه لبعض البغداديين فكأن تعجبي ، وعزمت على أن لا أحكم على التأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى المجرد عن اللفظ لا تخرج عن آئني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . قال في "المثل السائر" : وهذا من أدق السرقات مذهبها وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلا . فمن ذلك قول المتنبي :

وإذا أتتكَ مَنَّمِي من نَاقِصٍ ، « فهِى الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّى كَاطِلٌ

وهذا المعنى استخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة ، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَدْ زَادَنِى حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي « بَغِضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ

قال في "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى عسر غامض غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة الشعر ، وغاص على استخراج المعاني . قال : وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إياى قد زاد نفسى حبا إلى أى قد جعلها في عيني وحسنها عندى كون الذى هو غير طائل منقضى ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذنا من هذا الضرب قول البُحْتَرِيِّ في قصيدة يفخر فيها بقومه :

شَيْخَانٍ قَدْ ثَقَلَ السَّلَاحُ عَلَيْهِمَا « وَعَدَاهُمَا رَأَى السَّمِيعُ الْمُبْصِرِ

رَبِّمَا الْقَنَّا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلْنَا الْقَنَّا « فِي عَسْكَرٍ وَتَحَامِلٍ فِي عَسْكَرِ

أخذه من قول أبي تمام في وصف جميل :

رَعَتْهُ الْفِيَّافِي بَعْدَ مَا كَانَ يَحْقَبُهُ « رَعَاهَا ، وَمَاءُ الرُّوْحِ يَنْهَلُ سَائِرِكُهُ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الارض، ثم سار فيها فوعته أى أهرقته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها، والبُحْرِيُّ نقله إلى وصف الرجل بعنق السن والهرم، فقال: إنه كان يحمل الرمح في القتال، ثم صار يركب الرمح أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الأخذ قول البُحْرِيِّ أيضا:

أَعَانِكَ مَا كَانَتِ الشَّابُّ مُقَرَّبِي * إِلَيْكَ، فَأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مَبْعِدِي
أخذه من قول أبي تمام:

لَا أَظِلُّ النَّأْيَ، قَدْ كَانَتْ خَلَاةُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِ النَّوَى عِنْدِي نَوَى قُدْفَا

الضرب الثاني

أن يؤخذ المعنى فيعكس، قال في "المثل السائر": وذلك حسن يكاد يخرج منه حسنة عن حد السرقة.

فمن ذلك قول أبي نؤاس:

قالوا: عَشِقْتُ صَغِيرَةً، فَأَجَبْتُهُمْ * أَشْبَى الْمَطِيَّ إِلَى مَا لَمْ يُرْكَبِ،
كَمْ بَيْنَ حَبِيَّةٍ لَوْلُو مَثْقُوبَةٍ * نِظْمَتْ وَحَبِيَّةٍ لَوْلُو لَمْ تُثَقَّبِ؟
وقول ابن الوليد في عكسه:

إِن الْمَطِيَّةَ لَا بَلَدٌ رُكِبَهَا * حَتَّى تَدُلَّ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَبَا.

والدَّرَ لَيْسَ بِسَائِعٍ أَرَابَهُ، * حَتَّى يُزِينَ بِالنِّظَامِ وَيُقَبَّأَا.

ومنه قول ابن جعفر:

وَمَا بَدَأَ لِي أَنهَا لَا تُرِيدُنِي * وَأَنْ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُجْعَلِي،

تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا * تَدْوُقُ صَبَابَاتِ الْهَوَى فَتَرِقَ لِي

وقول غيره في عكسه :

وَلَقَدْ سَرَىٰ صُسُودُكَ عَنِّي * فِي طَلَابِيكَ ، وَأَمْتَنَاكَ مِنِّي
حَدْرًا أَنَا كَوْنُ مِفْتَاحِ غَيْرِي ، * وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتَ التَّمَنَّى

أما ابن جعفر فإنه ألقي عن منكبيه رداء الغيرة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضد من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشَّيْص :

أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لِذِيذَةِ * شَعْفًا بِذِكْرِكَ ، فَلَيْلِي الْيَوْمُ

وقول ابن الطيب في عكسه :

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ، * إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تمام :

وَلَوْلَا خِلَالٌ سَهَّبَهَا الشَّعْرُ مَا دَرَىٰ * بُعَاةَ الْعُلَىٰ مِنْ أَيْنَ تُوتَى الْمَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَوَّاهُ مِنْ كَرَمٍ ، * لَمْ يَذُرْ قَائِلُ شِعْرٍ كَيْفَ يَتَدَخُّ

الضرب الثالث

(أن يؤخذ بعض المعنى دون بعض)

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبدالله بن جُدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * يَسْنَلِي ، وَمَا كَلَّ الْعَطَاءُ يَزِينُ

وقول أبي تمام بعده :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَقَرَأَ ، وَهِيَ إِنْ شُهِرَتْ ، * كَانَتْ فَضَارًا لِمَنْ يَعْقُوهُ مُسَوِّفَاتًا
مَا زِلْتُ مَحْظَرًا أَنْجَسُوبَةً زَمَانًا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤَالَا يُجْتَنَى شَرَفًا

فامية بن أبي الصلتِ أتى بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك ليس بزین ، وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول علي بن جبلة :

وأثل ما لم يحويه مُتقدِّمٌ ، * وإن نال منه آخراً فهو تابعٌ

وقول أبي الطيب بعده :

ترفع عن عون المكارم قدره ، * فما يفعل الفعلات إلا عذارياً

فأبن جبلة أتى بمعنيين ، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد من تقدمه ، وإن نال الآخريشينا فهو مقتدي به وتابع له ، وأبو الطيب أتى بالمعنى الأول فقط ، وهو أنه فعل ما لم يفعله غيره مشيراً إلى ذلك بقوله : فما يفعل الفعلات إلا عذارياً أى يستبكرها ويُزيل عُذرتها .

ومنه قول الآخر :

أنج الفضل أو تحل عن الدنيا ، فهما تان غاية الهمم

وقول البحتري بعده :

إذفع بأشغال أبي غليب * عادية العدم ، أو استعفف

فالبحتري أقصر على بعض المعنى ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر . قال في "المثل السائر" : وهذا النوع من

السرققات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

فمن ذلك قول الأحنس بن شهاب :

إذا قصرت أسافاً ، كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا ، فنضارب

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إِنْ قَصُرَ الرَّحْمُ لَمْ تَمْسِ الخُطَا سَدَا • أَوْ عَزَدَ السَّيْفُ لَمْ تَهْمُ بتعريف

أخذ مسلم المعنى الذى أورده الأحنس : وهو وصل السلاح إذا قصُر بالخطأ إلى العدو وزاد عليه عدم تعريفهم أى فرارهم إذا عزد السيف . ومنه قول جرير في وصف أبيات من شعره :

غَرَابِيبُ آلاَفٍ إِذَا حَانَ وَرُدُّهَا • أَخَذَنَّ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعَامَا

وقول أبي تمام بعده :

غَرَابِيبُ لَأَقَتَ فِي فِنَائِكَ أَنَسَهَا • مِنْ الْمُجِدِّ فَهِيَ الْآنَ غَيْرُ غَرَابِيبِ

فزاد أبو تمام على جرير قرآن ذلك بالممدوح ومدحه مع الأبيات . ومنه قول المعدل بن عيلان :

وَأَسْتَبْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الغِنَى • إِذَا كَانَتِ العَالِيَاءُ فِي جَانِبِ الفَقْرِ

وقول أبي تمام بعده :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُدُودًا • وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَدْرَاءِ نَاهِدِ

فزاد عليه قوله :

« وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَدْرَاءِ نَاهِدِ »

ومما أنفق في نظمه في هذا الباب أنه لما عُمِّرت مدرسة الظاهر برقوق بين القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير حرّكس الخليلي- أمير اخور الظاهري- ، وكان قد أتممت بناءها بالصخور العظيمة التي لا تُقَالُ الجمال حملا ، ولا تحمّل إلا على العجل الخشب فأولع الشعراء بالنظم في هذا المعنى ، فنظم بعض الشعراء أبياتا عرض فيها بذكر الخليلي وقيامه في عمارتها ، ثم قال في آخرها :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لخدمته • يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلِ

والزمنى بعض الإخوان بنظم شيء في المعنى، فوقع لى أبيات من حملتها :
 وبالليل قد راجت عمارتها * في سرعة نبتت من غير ما مهل
 كم أظهرت عجبا أسواط حكيته * وقد غدت مثلا ناهيك من مثل
 وتم محوور تحال الحن تنقلها * فإنها بالوفا تأتي وبالعجل

فزدت عليه ذكر الوفا الذى معناه السرعة أيضا وصار مطابعا لما أتى به المعزومون
 فى عزائمهم من قولهم الوفا الوفا العجل العجل مع ما تقدم له من التوطئة بقولى
 تحال الحن تنقلها. على أنى لست من فرسان هذا الميدان، ولا من رجال هذا الوعى

الضرب الخامس

أن يؤخذ المعنى فيكسب عبارة أحسن من العبارة الأولى قال فى "المثل السائر"
 وهذا هو المحمود الذى يجرح به حسنه عن باب السرقة؛ فمن ذلك قول أبى تمام :
 إن الكرام كثير في البلاد وإن * قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
 أخذته البحرى فقال :

قل الكرام فصار يكثر فذمهم * ولقد يقل الشئ حتى يكثر
 ومنه قول أبى نواس :

يدل على ما فى الضمير من الفتى * تقلب عينه إلى شخص من جهوى
 وقول أبى الطيب بعده :

وإذا حامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

ومنه قول أبى العلاء بن سليمان فى سرية :

وما كلفة البدر المبرقديمة * وليكنها فى وجهه أثر اللطم

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدرُ ساجداً * أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ آثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ابن الرومي :

إِذَا سَنَّتْ عَيْنُ أَمْرِي شَيْبَ نَفْسِهِ * فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّئَاءِ أَحْدَرُ

وقول من بعده :

إِذَا كَانَ شَيْبِي بَيْضًا إِلَى * فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَيًّا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا قال في "المثل المائر" وهو من أحسن السراقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

بَرَزْتَ فِي طَلِبِ الْمَعَالِي وَاحِدًا * فِيهَا تَسِيرُ مُغَوَّرًا أَوْ مُنْجِدًا

عَجِبًا بِأَنَّكَ سَأَلْتُمْ مِنْ وَحْشَةٍ * فِي غَايَةِ مَا زِلْتُمْ فِيهَا مُفْرَدًا

وقول ابن الرومي بعده :

غَرَبْتَهُ الْخَلَّاقُ الزَّهْرُ فِي النَّأ * سِ وَمَا أَوْحَشْتَهُ بِالْغَرِيبِ

فاخذ معنى البيتين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وَإِنِّي لَمَعْدُورٌ عَلَى فَرْطِ حُبِّهَا * لِأَنَّ لَهَا وَجْهًا يَدُلُّ عَلَى عُدْرِي

أخذه أبو تمام فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرُ * تَهُ نَاجَكَ عَنْ سُدْرِي

فاوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كَانَتْ مُسْأَلَةُ الرَّجُلَانِ تُخْبِرُنِي * عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ أَطِيبِ الْخَبِيرِ

حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاقِهِ مَا سَمِعْتِ * أُذُنِي بِأَحْسَنِّ مِمَّا قَدَّرَ أَيْ بَصِيرِي !
أخذه أبو الطيب فأوجزني أخذه فقال :

وَأَسْكُرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ
ومنه قول بعض الشعراء :

أَمِنَ خَوْفِ فَكْسِيرٍ تَعَجَّلْتُهُ * وَأَخَّرْتَ إِهْشَاقَ مَا تَجَمَّعُ ؟
فَصَرَّتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعُدُّو الَّذِي تَصْنَعُ
أخذه أبو الطيب فقال :

وَمَنْ يُنْقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * مَخَافَةَ فَكْسِيرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيقرب له مثال يوضحه،
فمن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصُّعُّ إِنْ يُعْجَلُ فَنَعَّعَ وَإِنْ رِيَّتْ * فَلَلرَّيْتُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ
أخذه أبو الطيب فقال :

وَمِنَ الْخَسِيرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي * أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ
فزاده وضوحاً بضرب المثال له بالجهام : وهو السحاب الذي لا مطر فيه .
ومنه قول أبي تمام أيضا :

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَقَاتُهُ مِنْ حَفِيفَاتِهِ * نَجِيلَ مِنْ شِدَّةِ التُّعْبِيسِ مُبْتَسِمًا
أخذه أبو الطيب فقال :

وَجَاهِلٍ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ صَحْبِي * حَتَّى أَنْتَهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمِ
إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً * فَلَا تَطُنُّ أَنْ اللَّيْلَ مَبْتَسِمُ

فضرب له مثلا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذاك لم تُفْرِطْ كَأَنَّهُ عَاطِلٌ • حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالٍ

أخذه الجحترى فقال :

وقد زادها إفراطاً حُسنَ جَوَارِهَا • لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ حُبِّبِ

وَحُسْنِ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى • طَوَالِعَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْبِ

فضرب له مثلا بالكواكب في ظلام الليل ، فأوضحه وزاده حُسناً .

الضرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المقصود ، مثل أن يسلك الشاعران طريقاً واحدةً

فتخرج بهما إلى مَوردين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَاقَ فَوْقَهُ • عَصَابُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِمَصَابِ

جَوَانِحٍ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ • إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديماً وحديثاً ، وأوردوه بضروب من العبارات ،

فقال أبو نؤاس :

يَتَوَشَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ • نِقَّةً بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَزَدَ الطَّيْرُ عَادَاتٍ وَتَمَنَّ بِهَا • فَهَنْ يَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَمْتَ عِقَابُ أَعْلَامِهِ صُحَى • بِعِقَابِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ تَوَاهَلُ

أقامت مع الرأيات حتى كأنها * من الجيش إلا أنها لا تقايل
وكل هؤلاء قد أتوا بمعنى واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك
أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذا الطريق
مع اختلاف مقصده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفاً فأنصتها إليك تطير
لو حاكنتك فطالبتك بذحليها * شهدت عليك تعالبي وسور

فهذا قد فضل به مسلم غيره في هذا المعنى . ولما انتهى الأمر إلى أبي الطيب سلك
هذه الطريق التي سلكها من تقدمه إلا أنه نرجح فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه
فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجمته ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره فقال :

سحاب من العقبان يزحف تحتها * سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه
فحوى طرق الإغراب والإعجاب

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١)

(١) يُقصر في الضوء على أحد عشر نوعاً ورجل العاشر تاسعاً الخ وكذلك عددها صاحب المثل السائر .

الضرب العاشر

أن يكون المعنى عاماً فيجعل خاصاً أو خاصاً فيجعل عاماً، وهو من السرقات التي يسامح صاحبها؛ فأما جعل العام خاصاً، فمن ذلك قول الأخطل^(١) .

لَاتَنَّهُ عَن خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ ۖ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

أخذه أبو تمام فقال :

أَلْوَمٌ مِّنْ بَخِلْتِ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي ۖ لِلْبُخْلِ رَبِّبًا ؟ سَاءَ ذَلِكَ صَنِيعًا !

فالأخطل نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً بغناء بالخلق منكراً بفعله شائماً في بابه ؛ وأبو تمام خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .
وأما جعل الخاص عاماً، فمن ذلك قول أبي تمام .

وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَدْرَتْ لِفَاحِهَا ۖ وَلَكِنْ مَنَّعَ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ حَافِلٌ

أخذه أبو الطيب بفعله عاماً فقال :

وَمَا يُؤْلِمُ الحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِيمٍ ۖ كَمَا يُؤْلِمُ الحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ

الضرب الحادي عشر

قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة . قال في "المثل السائر" وهذا لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحاً وتهذيباً ، فمن ذلك قول أبي نُوَاسٍ في أرجوزة يصف فيها اللعيب بالكرة والصوبلجان فقال من حملتها :

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ ۖ كَأَنَّهَا خِيَطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْر

أخذه المتنبي فقال :

فَكَأَنَّهَا نَبِجَتْ قِيَامًا عَنَّتَهُمْ * وَكَأَنَّهَا خُلِفُوا عَلَى صَهْوَاتِهَا

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضاً - وفي ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل اللبي -

فهذا في غاية العلو والأرتقاء بالنسبة إلى قول أبي نُوَاسٍ ، ومنه قول أبي الطيب .
 لو كَانَ مَا تُعْطِيهِمْ مَوْ مِنْ قَبْلِ أَنْ « تُعْطِيهِمْ وَلَمْ يَعْرِفُوا النَّامِيَا
 وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يُبْقِ جُودَكَ لِي شَيْئًا أَوْمَلُهُ « تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ

فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا ، وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ، وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
 بالمسخ ، وهو من أزدل السرقات وأقبحها ، فن ذلك قول أبي تمام :
 قَتِي لَا يَرَى أَنْ الْقَرِيصَةَ مَقْتَلٌ « وَلَكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلٌ
 أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا مَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ « بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَابِئٍ

ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعْزِيكَ وَمِنْكَ الْمُدَى « مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلٌ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وَبِالْفَاظِكَ آهْدِي فَإِذَا عَزَاكَ قَالَ الدِّي لَهُ قُلْتَ قَبْلًا

المسلك الثاني

(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المشمل السائر " فهي أن لا يتصفح كتابة
 المتقدمين ولا يطلع على شيء منها ، بل يصرف همهته إلى حفظ القرءان الكريم وكثير
 من الأخبار النبوية وعامة من دواوين فنون الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة

في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم إلى طريق يفتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى أسانا هجاءا ، وخاطرا رقاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا يثنى كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نَقب عن ذلك تنقيب مطّلع على معانيه ، مفتش على دقائقه ، وقنّه ظهرا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتيف فيما ينشئه من ذات نفسه ، وأسعان بالمحفوظ على الفرزة الطبيعية . على أنه لا بد للكاتب المرتقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والاشتغال من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني واستخراجها فيرقأ إلى درجة الاجتهاد في الكتابة ، كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ، وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، استخرج بفكره حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده . فالمجتهد في الكتابة يستخرج المعاني من مظانها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصرف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بقرن الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم ، وخلق الفكر عن المشوَّش)

أما وجود الطبع فقال في "مواد البيان" : أول معاون هذه الصناعة الجليلة القريبة الفاضلة ، والغريزة الكاملة ، التي هي مبدأ الكمال ، ومنشأ التمام ، والأساس الذي ينبت عليه ، والركن الذي يُستند إليه ، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب ، ويتوفر على آقتناء العلوم واكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما آكتسبه ، بخلاف المطبوع على ذلك ، فإنه وإن قصر في آقتباس العلوم واكتساب المواد فقد يلتحق بأوساط أهل الصناعة ، وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبع ، والمناسب بفرزته للصناعة دون المتصنع ، ولا سبيل إلى آكتساب سهولة الطبع ولا كرازته ، بل هو موهبة تُحْص ولا تُتم ، وتوجد في الواحد وتُفقد في الآخر .

قال ابن أبي الأصبح في "تحرير التحبير" ومن الناس من يكون في البداية أبرع منه في الروية ، ومن هو مُجيد في الروية وليست له يدية ، وقلمًا يتساويان .

وممنهم مَنْ إذا خاطب أبداع ، وإذا كاتب قَصْر ، ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوِي ثَرَهُ ضَعْفُ نَظْمِهِ ، ومن قَوِي نَظْمِهِ ضَعْفُ ثَرِهِ : وقاماً يتساويان ، وقد يَرِزُ الشاعِرُ في معْنَى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعرُ الناسُ أمرؤُ القميس إذا ركب ، وزهيرٌ إذا رعب ، والنابغة إذا رهب ، وعنترة إذا كلب ، والأعشى إذا طرب . قال في "المثل السائر" بل ربما نَفَدَ في بعض أنواع الشعر دون بعض فُرِيَّ مُجِيداً في المدح دون المَجْوهِ ، أو بالعكس ، أو ماهراً في المقامات ونحوها دون الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال ابن أبي الأصبغ : ولربما واتاه العملُ في وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إنِّي ليمرُّ عليَّ الوقتُ ولقَلْعُ حِرْسٍ من أضراسي أيدبرُ عليَّ من قول الشعر ، ولذلك عز تاليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة والمهارة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبو طبياعتهم عن تركيب بسائط الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم وصعب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ، فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدّمه في اللغة ومهارته في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتبها له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يا بني جيّدُهُ وأبي رديته ، مشيراً بذلك إلى أن طبيعته غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسّن نسبه إلى مثله . وقيل للفضل الضبيّ "ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ، فقال علمي به يعني من قوله وأبشده :

أبي الشعرُ إلا أن يُنيء رديته = عليّ ويأني منه ما كان محمّكا
فيا ليتني إن لم أجد حوك وشيه = ولم أك من قُرسايه كنت مُفحّما

وأشدد أبو عبيدة خَلْفًا الأحمر شعرا له فقال : اخبأ هذا كما تخبأ السَّوْرَةَ حاجتها ، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها ، وما يجرى مجرى ذلك من مواد تأليف الكلام ونظمه ، ويحكى عن أبي العباس المبرد أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقين يحتاج في نفسه مسألةً مُشْكَلَةً إلا ليقبى بها وأعدنى لها ، فأنا عالم ومُعلِّم ، وحافظ ودارس ، لا ينجى على - مشبه من الشعر ، والنحو ، والكلام المنثور ، وأنحطب ، والرسائل ، ولربما آحجت إلى اعتذار من قلّة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذى أقيصد نُصِبَ عيني ثم لأجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بحميل فأولت أن أكتب إليه رُقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أمورى فاتعبت نفسى يوما في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فيتحرف لسانى إلى غيره ، ولذلك قبل زيادة المنطق على الأدب خُدعة ، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك ، على أن الطبع بمفرده لا ينهض بالمقصود من ذلك فهو ضمه مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالى ، والإتقان من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر وأنحطب ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى مجرى ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومسهلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوته ، إذ معرفته هذه الأمور قائمة من الإنشاء مقام المأذة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم توجد المأذة والآلة جميعا ، ولو كان حصول المأذة

كافياً في التوصل إلى حسن التأليف الذي هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعاني المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلة، والمشاهد بخلاف ذلك : لقصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلق الفكر عن المشوش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

(صفاء الزمان)

فقد قال أبو تمام الطائي في وصيته لأبي عبادة البحرى مرشدا له للوقت المناسب لذلك : تخيير الأوقات وأنت قليلُ الهُموم ، صِفْرٌ من الغُوم ؛ وأعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم، وخف عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأدخنة، وسكنت الغمائم، ورفقت النسايم، وتفتت الحمايم .

وخالف ابن أبي الأصبغ في اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل، أخذاً من قول أبي تمام في قصيدته البائية :

حُدِّثْنَا آيَةَ الْفِكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدُّجَى * وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْمَةِ الْخَلْبَابِ

مفسراً للدجى بوسط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة، ونالت قسطها من النوم، وخف عنها ثِقَلُ الغِذاء، فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحاً ، والبدن نشيطا، والقلب ساكنا . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يرقى النسيم وينهض الغداء ، إلا أنه يكون قد آنتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجرى الكثير من الحركات، ويتقشع بعض العلماء بطلان أوائل الضوء، وربما آنتهض عن بعض

- الناس الغذاء فتحزكت الشهوة لإخلاف ما أنهضم منه وخرج من فضلاته، فكان ذلك داعياً إلى شغل الخاطر، وبعثاً على انصراف الهم إلى تدبير الحدّث الحاضر، فيقسم الفكر، ويتذبذب القلب، ويتفوق جميع الهم . بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثاني

(صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكان الذي هو فيه خالياً من الأصوات ، عارياً عن المخوفات والمهولات والظوارق ، وأن يكون مع ذلك مكاناً رائعاً ممتعاً رقيق الخواشي فسيح الأرجاء ، بسيط الرحاب ، غير غم ولا كدور، فإن أنضم إلى ذلك ما فيه بسط للخاطر : من ماء وخضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر . وقد ذهب بعضهم إلى أنه ينبغي خلو المكان من المقوش الغريبة والمرآئي المعجبة ، فإنها وإن كانت مما ينشط الخاطر فإن فيها شغلاً للناظر فيتبعه القلب فيتشتت .

المقصد الثاني

(من الطرف الثالث في بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ،

وكيفية إنشائه ، وتأليفه ، وتهذيبه ، وتأديته ، وبيان ما يستحسن من الكلام

المصنوع ، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبي الأصعب في "تمهيد التحبير" : يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أولاً نفسه ويمتنعها بالنظر في المعاني ، وتدقيق الفكر في استنباط المفترعات ، فإذا وجد لها فطرة سليمة وجيدة

• موزونة وذكاء، وقادا وخطرا ستمها وفكرا ناقبا وفهما سريما وبصيرة مبصرة
والمعية مهذبة وقوة حافظه وقدرة حاكية وهمة عالية وملكة فصيحة وفطنة
صحيحة، أخذ حينئذ في العمل، وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء، ولا
يُضطر إليه أكثر الشعراء، ولكن إذا اكملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر، كان
موصوفا في هذه الصناعة بكال الأوصاف النقيسة .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر
معانيه ببالك ، واتق له كرائم اللفظ ، فأجعلها على دُكر منك ليقرُب عليك تناوُّها ،
ولا يتعبك تطُّبُّها ، واعملْه مادمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الثُّمور ، وتحونك
الملال ، فأمسك : فإن الكثير مع الملل قليل ، والتفيس مع الضجر خسيس ،
والخواطر كالينابيع يسقي منها شيء بعد شيء ، فتجد حاجتك من الرمي ، وتنال أربك من
المتفعة ، فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها ، فقل عنك غناؤها . ويأبى أن تخرج مع
الكلام معارضة ، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته ، أو معني بديع تعلقت
بذيله . وتحرز أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت في تطُّبُّه ، ولعالك لا تلحقه على
طول الطلب ، ومواصلة الدأب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا صَيَّعَتِ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ « أبت أعجازه إلا البواء

وقد قالوا ينبغي لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام تقدما ولا يتبع ذناباه تبعًا ،
ولا يجعله على لسانه حملا ، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجمه
والشارد منه ، وإن تبعه فاتته سوابقه ولواحقه ، وتباعدت عنه جياده وغرره ، وإن
حمله على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مساويه في محاسنه ، ولكنه
يجرى معه فلا تبتد عنه نادة تعجبه شيئا إلا كبحها ، ولا تختلف عنه متقلة هزيلة
إلا أرهقها ، وطورا يفزقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت أسانه ، ولا يسلط المثل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عقوه ويستغزر دهره ، ولا يكره آتيا ولا يدفع آتيا ، وإياك والتعقيد والتوعر ، فإن التوعر هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهما عما يذئسهما ، ويفسدهما ويهجنهما ، فتصير بهما إلى حد تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتب نفسك في ملابستها ، ولكن لفظك شريفا ، عذبا ، فخما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفاً ، فإن وجدت اللفظة لم تقع مرقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قليقة في موضعها ، نافرة عن مكانها ، فلا تكبرها على اغتصاب أماكنها ، والنزول في غير أوطانها ، وإن بليت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجلالة الفكر ، فلا تعجل ، ودعه سخابة يومك ، ولا تضجر ، وأمهله سواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرف ، وينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال في "مواد البيان" ويكون استعمال كل من جزل الألفاظ وسهله ، وفصيحتها وسلسلها وبهجتها في موضعه ، وأن يسلك في تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجها عن حكم الكلام المنثور العاطل ، الذى تستعمله العاقبة في المحاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلف الخالي بجمل البلاغة والبديع ، كالأستعارات ، والتشبيهات ، والأشباع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال في "الصناعتين" وإن عملت رسالة أو خطبة فتخطأ ألفاظ المتكلمين :
كالجسم ، والجوهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ،
فإن ذلك محجبة .

قال في "مواد البيان" وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصناعة فيخرج
منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب في هذا
الباب من جهة أن يكون له شركة في صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام
وغيرهما : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات
ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والنحوض في الصناعة ؛ ومن
عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة
به ، فيوقعها في الكتب التي ينشئها لغلبة عادة استعماله إياها فيهجتها بإدخاله فيها
ماليس من أنواعها .

قال في "الصناعتين" وتخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التمام
الكلام ، وهو من أحسن ثمرته وأزین صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من
حروف سهلة الخارج ، كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ، وإن أضيق له أن يكون
موقعه في الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جاسما
للحسن ، بارعا في الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده شبيك عن مصادره ،
وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال في "مواد البيان" وإذا سلكت طريقا فتر فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت
رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة . وخالف ابن أبي الاصبع ، فقال : ولا تجعل
كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضيعا نازلا ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن العقود إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده ، ولا يبين جمالَ واسعته ، فإن الكلام إذا كان متوقفا في البلاغة ، أفتتت الأسماع فيه ، ولا يلحق النفوس مللٌ من ألفاظه ومعانيه ؛ ولا يخرج عن غرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا في العدل والتوبيخ ، فيشوبُّ ألفاظه بالفاظ أخرى تخرج عن الحشونة إلى اللين ، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشد عيوبه .

قال في "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حوشيا بدويا ، ولا مبتدلا سوقيا ، ورتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدم منها ما يحسن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر ما كانت التقديم به أليق ، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد : "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئا ينبي بحقك ، ورأى أن تقرظك بما يبلغه اللسان وإن كانت مقصرا عن حقا أبلغ في أداء ما يجب لك" . فكرر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير . على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام ، وأتقن نظام ، في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله في القرآن الكريم كثير .

قال في "الصناعتين" فإن أحتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي آبتأ به : كما قال معاوية : "من لم يكن من بني عبد المطلب جوادا فهو دحيل ، ومن لم يكن من بني الزبير نجبا فهو لزيق ، ومن لم يكن من بني المغيرة تياها فهو سيند" . فقال دحيل ، ثم قال لزيق ، ثم قال سيند والمعنى واحد ، والكلام على ما ترى

حسن . ولو قال لزيق ثم أعاد اسمع . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" قد ذكر ميناقي ذلك ، وتعقب أبا إسحاق الصابي في قوله في تحميدة كتاب : الحمد لله الذي لا تُدرِكُهُ الأعينُ بالحِصَاظِها ، ولا تُحَدِّدُهُ الألسُنُ بِأَنبَاطِها ، ولا تُحَلِّقُهُ العُصُورُ بِمُرُورِها ، ولا تُهَرِّمُهُ الدُّهُورُ بِكُرُورِها ، وقوله بعد ذلك في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم يرَ لِدُكُفْرِ أَتْرَا إِلَّا طَمَسَهُ وَمَحَاهُ ، ولا رَسَمًا إِلَّا أزاله وَعَقَّاهُ ، فقال لافرق بين مرور العصور ، وكُرُورِ الدهور ، وكذلك لافرق بين نحو الأثر وإعفاء الرسم ، ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين في جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق في اللفظة الأخيرة فقط .

قال في "الصناعتين" وتجنَّبَ كُلُّ ما يُكْسِبُ الكلامَ تعمية : كما كتب سعيد ابن حميد ، يذكر مَظْلَمَةَ إنسان في كتابه : لفلان وله بي حُرْمَةٌ مَظْلَمَةٌ ، يريد لفلان مظلمة وله بي حرمة ، بمعنى أنه راعى حرمة . قال : وأعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخُطَب هو أن تجعلها مُرَدَّوَجَةً فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن مالم يكن في سجعك استكراه ، وتأنف ، وتعقيد ، وكثيرا ما يقع ذلك في السجع ، وقلمًا يسلم إذا طال من استكراه وتأنف .

قال ابن أبي الأصبغ : ولا تجعل كلامك كله مبدأ على السجع ، فنظهر عليه الكلفة ، ويتبين فيه أثر المشقة ، وتتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع بخاءت نافرة من أخواتها ، فقلعة في مكانها . بل أصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعاني ، وأجهد في تقويم المباني ، فإن جاء الكلام مسجوعا عقوا من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فائركد . وإن اختلفت أبعاجه وتباينت

في التقية مقاطعه ، فقد كان المتقدمون لا يملكون السجع جملة ، ولا يقصدونه ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وأتفق من غير قصد ولا آكساب ، وإنما كانت كلماتهم متوازية ، والفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصعة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجل كلامهم مماثل ، وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن أتفى أثره من فُرسان الكلام : كابن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الأزدواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : ويذنب أن يحتب إعادة حروف الصلوات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسيله أن يداويه حتى يزله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : أئمتُّ به شهداء عليه ، كقول المتنبي :

وَتُسْعِدُنِي فِي عَمْرَةٍ بَعْدَ عَمْرَةٍ ۖ سُبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن أبي الاصبغ : وليراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ويتجنب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : ويذنب أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجلية ، والترصيع والتجلية ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويليق بالمكان الذي يُوقع فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالى عن الابتدال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرُّك والزينة ، لا ليُجعل حشواً في الكلام ، وإذا استعير منه شيء أتى به على صورته ، ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكذا لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يَحْتَلَّى كَلَامَهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ تَحِيَّةً لَهُ ، فَإِنْ خَلَقَ الْكَلَامَ مِنَ الْقِرَاءَانِ يَطْمِئِنُّ بِحَاسِنَتِهِ ، وَيَنْقُصُ بِهَجَّتِهِ ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَسْمُونِ الْخُطْبَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْقِرَاءَانِ بَقْرَاءً .

وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَسْتَعْمَلَ فِي كِتَابَتِهِ مَا جَاءَ بِهِ الْقِرَاءَانُ الْعَظِيمُ مِنَ الْحَذَفِ وَمَخَاطَبَةِ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ ، وَالْعَامِّ بِالْخَاصِّ ، وَالْجَمَاعَةَ بِفِظِ الْوَاحِدِ ، وَالْوَاحِدَ بِفِظِ الْجَمَاعَةِ ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، لِأَنَّ الْقِرَاءَانَ قَدْ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَخُوطِبَ بِهِ فُصْحَاؤُهُمْ ، بِخِلَافِ الرِّسَالِ .

قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهَا مَا يَخْتَصُّ بِالشَّعْرِ مِنْ صَرْفٍ مَا لَا يَنْصَرَفُ ، وَحَذَفٍ مَا لَا يُحَذَفُ ، وَقَصْرٍ الْمُدُودِ ، وَمَدٍّ الْمَقْصُورِ ، وَالْإِخْفَاءِ فِي مَوْضِعِ الْإِظْهَارِ ، وَتَصْغِيرِ الْأَسْمِ فِي مَوْضِعِ تَكْبِيرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَرِيدَ تَصْغِيرَ التَّعْظِيمِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ "أَنَا جَدِّيلُهَا الْمُحَكَّمُ ، وَعَدِّيْقُهَا الْمُرْجَبُ" . وَمَا يُسْتَحْسَنُ مِنْ وَصِيَةِ أَبِي تَمَامٍ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَّارِيِّ فِي الشَّعْرِ مَا لَا يَسْتَعْنِي النَّاسُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَالنَّسْجِ عَلَى مَثْوَالِهِ : لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَنْسَابَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ ، وَيَكُونُ كَحَيَّاطٍ يَقْدَرُ التِّيَابَ عَلَى قَدْرِ الْأَجْسَامِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ شَهْوَتَهُ لِأَلْفِيفِ الْكَلَامِ هِيَ الذَّرِيعَةُ إِلَى حُسْنِ نَفْطِهِ ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ نَعْمَ الْمَعِينُ ! وَيَعْتَبِرُ كَلَامَهُ بِمَا سَلَفَ مِنْ كَلَامِ الْمَاضِينَ ، فَمَا اسْتَحْسَنَهُ الْعُلَمَاءُ فَلْيَقْصِدْهُ ، وَمَا اسْتَقْبَحُوهُ فَلْيَجْتَنِبْهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْتَ يَجْعَلَ السَّجْعَاتِ مَفْرُوقَةً بِحَسَبِ مَا يَجُودُ بِهِ الْخَاطِرُ ثُمَّ يَرْتَبُهَا فِي الْآخِرِ وَيَحْتَرِزُ عِنْدَ جَمْعِهَا مِنْ سُوءِ التَّرْتِيبِ ، وَيَتَوَشَّى حُسْنَ النَّسْجِ عِنْدَ التَّهْذِيبِ ، لِيَكُونَ كَلَامُهُ بَعْضُهُ آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ ، فَإِنَّهُ أَكْمَلُ لِحْسَنِهِ ، وَأَمْثَلُ لِرِصْفِهِ ، وَأَنْ يَجِيدَ الْمَبْدَأَ وَالْمَخْلَصَ وَالْمَقْطَعِ ، وَيَمِيزُ فِي فِكْرِهِ مَحَطَّ الرِّسَالَةِ قَبْلَ الْعَمَلِ ، فَإِنَّهُ أَسْهَلُ لِلْقَصْدِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَجْوِيدِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَتَحْسِينِهَا ، وَيُوضِّحُ مَعَانِيَهُ مَا اسْتَطَاعَ .

قُلْتُ وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ فِي بَيَانِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ مِنَ الْأَنْوَاتِ

وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر إلى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المنشور وما يجري هذا الجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" إن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتحير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين معاطفه ، وأستواء تقاسيمه ، وتعادُل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهوآديه ، وموافقة أواخره لبآديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه وكال صوغه وتركيبه ؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، وأشتمل على الروق والطلاوة ، وسلم من ضعف التأليف ، وبعد من سحابة التركيب ، صار بالقبول حقيقا ، وبالتحفظ خليقا ؛ فإذا ورد على السمع المصيب آستوعبه ولم يحجبه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق عن الجائسي البشع ؛ وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها وتنفر عما يضادها ويخالفها ؛ والعين تألف الحسن ، وتقذئ بالقيح ؛ والأنف يرتاح للطيب ويعاف المنين ؛ والفم يتد بالخلو ، ويحج المتر ؛ والسمع يشوق للصوت الرائع ، ويفزوى عن الجهير الهائل ؛ واليد تنعم باللين ، وتنادى بالحشيش ؛ والفهم يأنس من الكلام المعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصفي إلى الصواب ، ويهرب من الخال ، ويتقبض عن الوخم ، ويتأثر عن الخافى الغليظ ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي ، والقروى والبديوي ، إنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وجهاته ، وزاخرته وقائه ، وكثرة

طَّلَاوَتِهِ وَمَائِهِ ، وَصَحَّةِ السَّبَكِ وَالتَّرَكِيبِ ، وَالتَّحْلُؤِ مِنْ أَوْدِ النِّظْمِ وَالتَّالِيفِ ، وَابْسِ
يُطَلَّبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا ، وَلَا يُقْتَنَعُ مِنَ الْإِظْفَاقِ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى
مَا وُصِفَ مِنْ نَعْوَتِهِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ . أَلَا تَرَى أَنَّ التَّحْطَابَ الرَّائِعَةَ ، وَالأَشْعَارَ الرَّائِقَةَ ،
لَمْ تُعْمَلْ لِإِفْهَامِ الْمَعْنَى فَقَطْ : لِأَنَّ الرَّدَى مِنَ الْإِظْفَاقِ يَقُومُ بِمَقَامِ الْجِيدِ مِنْهَا
فِي الْإِفْهَامِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ حَسْنَ الْكَلَامِ ، وَإِحْكَامَ صِنْعَتِهِ ، وَرَوْتَقَ أَلْفَاظِهِ وَجُودَةَ
مَقَاطِعِهِ ، وَبِدِيعَ مَبَادِيهِ ، وَغَرِيبَ مَبَانِيهِ ، عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَمَنْشِيهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ
الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظًا حُلُومًا عَذْبًا وَسَطًا دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجِيدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ .
وَأَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا تَلَامَمَ نَسْجُهُ وَلَمْ يَسْخُفْ ، وَحَسُنَ نِظْمُهُ وَلَمْ يَرَّجُنْ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ
فِيهِ الْغَلِيطُ مِنَ الْكَلَامِ فَيَكُونَ خَلْقًا بَعْضِيًّا ، وَلَا السُّوْفِيُّ مِنَ الْإِظْفَاقِ فَيَكُونَ مُهْلَهَلًا
دُونًَا ، وَلَا خَيْرٌ فِي الْمَعْنَى إِذَا اسْتَكْرِهَتْ قَهْرًا ، وَالأَلْفَاظُ إِذَا أُجْبِرَتْ قَسْرًا ، وَلَا خَيْرٌ
فِيهَا أَجِيدٌ لَفْظُهُ إِلَّا مَعَ وَضُوحِ الْمَقْرَى وَظُهُورِ الْمَقْصِدِ . قَالَ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى قَوْمِ
الْجَهْلِ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقْفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَتْدٍ ، وَيَسْتَفْصِحُونَهُ
إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَرَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً ، وَيَسْتَحْقِرُونَ الْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا
عَذْبًا ، وَنَهْلًا حُلُومًا ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا ، وَأَعَزُّ مَطْلَبًا ، وَهُوَ أَحْسَنُ
مَوْقِعًا ، وَأَعْدَبُ مَسْتَعْمَلًا ، وَهَذَا قِيلَ أَجُودُ الْكَلَامِ السَّهْلُ الْمُنْتَمِعُ . وَقَدْ وَصَفَ الْفَضْلُ
أَبْنُ سَهْلٍ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَلْبَغُ النَّاسِ ، وَمَنْ بَلَغَتْهُ أَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ
أَنَّهُ يَكْتُبُ مِثْلَ كُتْبِهِ ، فَإِذَا رَامَهَا تَعَدَّرَتْ عَلَيْهِ ، وَأَنْشَدَ إِبرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ نَحْوَهُ
الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سَبَّلَ لَمْ « يَسْتَدُلُّ وَإِنْ عُوِّبَ لَمْ يُعْتَبِ

صَبٌّ بِمَعْصِيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي « لَا تُشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ هَذَا وَاللَّهِ الشَّعْرَ الْحَسَنَ الْمَعْنَى ، السَّهْلَ اللَّفِظَ ، الْعَدْبَ الْمُسْتَمِعَ ، الْقَلِيلَ

النظير، العزيز الشبيه، المَطْمَعِ الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّغْبُ مع سُوءِته، قال
بفعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره، وقيل لبعضهم: أَلَا تَسْتَعْمَلُ الغريب
في شعرك؟ فقال: ذلك عِيٌّ في زمانِي، وتكأف مَنِي لوقلته، وقد رُزقت طَبْعًا وآسَاعًا
في الكلام فإنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الذرية، وجناحها رواية الكلام
وحلها الإعراب، وبهاؤها تحبير الألفاظ، والمجبة مقرونة بقلة الاستكراه، وما كان
من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفًا بينًا فهو من جملة الردىء المردود، لا سيما
إذا ارتكبت فيه الضرورات، فأما الجزل المختار من الكلام، فهو الذى تعرفه العامة
إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها، وأجود الكلام ما كان سهلا جزلا، لا يتعلق
معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكذودا مستكرها، ومتوعرا متقعرا، ويكون
بريئا من العتاة، عاريا من الزناة. فن الجزل الجيد من الثر قولُ سعيد بن حميد:
وأنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلبس رضاك إلا من جهته،
ولا يستدعى بك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك
إلا بالاعتراف بالجرم، نبت بن عنك غرة الحدأة، وردتني إليك الحنكة، واعدتني
منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول
العذر، وتجند النعمة بأطراح الحقد، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما
من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة، فقلت
إن شاء الله تعالى.

وأجزل منه قول الشعبي للعجاج، وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث
أجذب بنا الحساب، وأحزن بنا المزل، فاستحلستنا الحدر، واكتحلنا السهر،
وأصابنا فتنة لم نكن فيها بررة أتياء، ولا بقرة أقوياء. ففعا عنه.

ومن النظم قول المتراد :

لَأَسْأَلِي الْقَوْمَ عَنِ مَالِي وَكَثْرَتِهِ « قَدْ يُقْصِرُ الْمَدْرَةُ يَوْمًا وَهُوَ تَحْمُودُ
أَمْضَى عَلَى سُنَّةٍ مِنَ الْيَدِي سَأَلْتُ « وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبَغُ الْعُودُ
فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض منه وَيَقْفُونَ عَلَى أَكْثَرِ
معانيه حَسَنَ تَرْبِيَةٍ وَجُودَةٍ تَسْجَعُ ،

قال في "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غثًا، ومعرضه رثًا، فإنه يكون
مَرْدُودًا، ولو أحوى على أجل معنى وأنبهه، وأرقبه وأفضله، كقول القائل :
أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى الدِّينِ قَدِ قَعُوا « وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالْهُدُونِ
فَاسْتَعْنِ بِالَّذِينَ عَنِ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا آسَتْ تَعْنَى الْمُسْلُوكِ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
قال : فهو لا يدخل في جملة المختار، ومعناه كما ترى جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجزل
الردىءُ الفج، الذي ينبغي ترك استعماله فقد مر في الكلام على الغريب الحوشى .

المقصد الثالث

(في بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقصره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها على
ثلاثة ضروب .

الضرب الأول

(الإيجاز)

وهو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثر آي القرآن الكريم
فمن ذلك قوله تعالى في مَفْتَحِ سُوْرَةِ الْفَاتِحَةِ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أنتظم
فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشدَّ عنه شيء في أوجز لفظ وأقربه

وأسهله ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوعب جميع الأشياء على الاستقصاء في كلمتين لم يخرج عنهما شيء ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً : من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة نجر أهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْقَوْنَ ﴾ انتظم بقوله : ولا هم عنها يرقون عدم ذهاب العقل وذهاب المال وفقد الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ بجمع فيها مكارم الأخلاق بأسرها : لأنت في العفو صلة القاطعين ، وإعطاء المانعين ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغيض الطرف عن المحرمات ، والتبرئ من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئاً من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : " نَبِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ " وقوله عليه السلام : " حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ " إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

(الإطناب)

وهو الإنباع في القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جل وعز : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ في الموضوعين تأكيداً للأمر وإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ فَتَرَوْا إِلَى اللَّهِ إِخْرَاجًا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فكرر إلى

لكم منه نذيرٌ مبين من حيث إن الكفر وإن تعددت أقسامه لا يخرج عن تعطيل أو شرك ففى قوله قَفَرُوا إِلَى اللَّهِ نَفَى التَّعْطِيلِ بِإِثْبَاتِ الْإِلَهِ وَفِي قَوْلِهِ : وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ نَفَى الشُّرْكَ . وقد كرر سبحانه فى سورة الرحمن قوله : ﴿ فَيَأْتِي الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ حيثُ عَدَّدَ فِيهَا نِعْمَهُ : وَأَذْكَرَ عِبَادَةَ آلَاءِهِ ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى قَدْرِهَا ، وَقَدَّرْتَهُ عَلَيْهَا ، وَأَطْفَقَهُ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، تَهْدِيًّا عَلَى مَوْضِعِ مَا أَسْدَأَهُ إِلَيْهِمْ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ كَرَّرَ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ : ﴿ رِوَيْلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّكْذِبِينَ ﴾ تَأْكِيدًا لِأَمْرِ الْقِيَامَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهَا . وقد وقع التكرار للتأكيد فى كلام العرب كثيرا كما فى قول الشاعر :

أَتَاكَ أَتَاكَ الْأَحْقُونُ أَتَاكَ

وقول الآخر :

كَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

إلى غير ذلك مما وقع فى كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

(المساواة)

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعانى فى القلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكرى فى "الصناعتين" بقوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْجَنَّاتِ ﴾ وقوله : ﴿ وَدَوَّاءُ لَوْ تَدَهَّنُ فَيُدْهِتُونَ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا تَرَالُ أُمَّتِي بِحَيْرٍ مَا لَمْ تَرِ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالزَّكَاةَ مَغْرَمًا " وقوله " إِيَّاكَ وَالْمُشَارَةَ ، فَإِنَّهَا تُحْمِتُ الْغَنَةَ " (١)

(١) فى الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور فى البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبها له بقرعة القرم . والقرعة العمل النسيء تشبها له بالقرعة . انظر انسان .

وَنَحْيِي الْعُرَّةَ“ . وقول بعض الكُتَّاب : سالتَ عن خَبْرِي وأنا في عافية لا عيبَ فيها
إلا فُقِدْتُكَ ، وَنِعْمَةٌ لَأَمْزِيدُ فِيهَا إِلَّا بِكَ . وقول آخر : وقد عَلَّمَتْنِي نَبْوَتُكَ سَلَوَتُكَ ،
وَأَسَلَمَتْنِي بِأَسَى مِثْكَ ، إِلَى الصَّبْرِ عِنْدَكَ . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ ،
وتولَّى إصلاحَكَ والإصلاحَ بِكَ ، وأحزَل من الخَيْرِ حَظَّكَ والحِطَّ مِثْكَ . ومنَ عَلَيْكَ
وعَلِينَا بِكَ . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ ۖ عَلَى- وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَيْبِهَا
وَمَا هَجَرَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ عِنْدَهَا ۖ قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلقاء في أيُّ الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام ، فذهب
قوم إلى ترجيح الإيجاز ، محتجِّينَ له بأنَّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدار الحاجة
من الكلام فضيلة داخلية في حيز اللغو والهُدْر ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما
دلالة على بِلَادَةِ صاحب الصَّنَاعَةِ وَغَبَاوَتِهِ . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم
بالإيجاز فإن له إِنْهَامًا وَاللَّاطِلَةَ آسَبِيهَا . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قَدَرْتُمْ
عَلَى أَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَافْعَلُوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز اتَّجَمَعُ
من البيان بالإطناب ، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لابن حازم
لم لا تُطِيلُ القِصَائِدَ فأنشد :

أُبْرِي أَنْ أُطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي ۖ إِلَى الْمَعْنَى وَعَلِمِي بِالصَّوَابِ
وإيجازي بِمُخْتَصِرٍ قَرِيبٍ ۖ حَذَفْتُ بِهِ الْقُصُولَ مِنَ الْجَوَابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أَرَجَحُ . وَأَحْتَجُّوا لذلك بِأَنَّ الْمُنْطِقَ إِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ
والبیان لا يحصل إلا بإيضاح العبارة ، وإيضاح العبارة لا يتها إلا بمراعاة الألفاظ
على المعنى حتى يُحِيطَ بِهِ إِحَاطَةً يُوَمِّنُ مَعَهَا مِنَ اللَّبْسِ وَالإِهْمَامِ . وإن الكلام الوجيه
لا يُؤمِّنُ وَقَوْعُ الإِشْكَالِ فِيهِ . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواص أهل اللغة

العارفين بدلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبِع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في جهته . ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خازجة : ما عندك في حالات ذات حُسن ؟ قال : عندي قرى كل نازل . ورضا كل ساخط ، وخطبة من لذن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، أمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . فقيل لأبي يعقوب الجرمي هلاً آكتفى بقوله أمر فيها بالتواصل عن قوله وأنهى عن التقاطع ؟ فقال : أو ما علمت أن الكتابة والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف ؟ ألا ترى أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأحزاب أخرج الكلام مُخْرَج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب نبي إسرائيل أو حكي عنهم جعل الكلام مبسوطاً ، وقلماً تبع قصة نبي إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع مُعادة لبعده فهمهم ، وتأخر معرفتهم ؛ بخلاف الكلام المُشْبِع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في فهمه .

وذهبت فرقة إلى ترجيح مساواة اللفظ المعنى ، واحتجوا لذلك بأن مترع الفضيلة من الوسط دون الأطراف وأن الحُسن إنما يوجد في الشيء المعتدل .

قال في "مواد البيان" : والذي يوجب النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا يتخلف فيه رديفه ، إذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع ، وإذا وُضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برُسوم الصناعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك ، وذوى الأخطار العالية ، والمهم المستقيمة ، والشؤون السنية ، ومن لا يجوز أن يُشغل زمانه بما هتمته مصروفة إلى مطالعة غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومحاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى المجتاج في فتح الأزارقة من الحوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعده صيته، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصداً ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعمه، وقضى أن لا ينقطع المزيّد وحبله، حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم إننا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين، نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسرهم، ويرؤن منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرون الله ويخذلهم، ويخصصنا ويحققهم، حتى بلغ الكتاب بناديبهم أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، فإن الذي حمّله على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكاتبات التي تُكتب إليه. بخلاف ما لو كُتِبَ به عن السلطان إلى غيره، فإنه يتعين فيه بسط القول وإطائه على ما سيأتي ذكره في أول المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمحاطبة الأكفاء والنظرّاء والطبقة الوسطى من الرؤساء، فكأن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخصَّص بها الطبقة الوسطى من الناس. قال أما لو أستمعتم كتب ترديد الألفاظ ومصادقها على المعنى في المكتابة إلى ملك مصروف الهمّة إلى أمور كثيرة متى أنصرف منها إلى غيرها دخلها الخلل، لرُبب كلامه في غير رتبته، ودل على جهله بالصناعة. وكذا لو بُني على الإيجاز كتابا يكتبه في فتح جليل الخطر، حسن الأثر، يُقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأشهاد من العامة ومن يُراد منه تفخيم شأن السلطان

في نفسه، لأوقع كلامه في غير موقعه، ونزله في غير منزلته : لأنه لا أفتح ولا أفتح من أن يُستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين، فإذا حضر الناس كان الذي يمسر على أسماعهم من الألفاظ واردا مؤرد الإيجاز والأختصار لم يحسن موقعه ونجح من وضع البلاغة أوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبنى عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه، ولا يُسمح بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتّمات التي يكمل بها الكاتب: من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة، تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قصر أو تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في "المنهل السائر" وأبي هلال العسكري في "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل" كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب، فليطلب ذلك من مظانه من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة، وتصانيف متعددة، أو يكون في المصنف الواحد منه النبذة غير الكافية، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

(من الباب الأول من المقالة الأولى)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف
الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصلة إليها، ومعرفة
أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأول

(في الأيام ، وفيه ست جمل)

المسألة الأولى

(في مدلول اليوم ومعناه، وبيان ابتداء الليل والنهار)

وقد اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين .

المذهب الأول (وهو مذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمان جامع لليل والنهار ، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وملك نصف النهار . والحدائق من المنجمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل بذلك في بعض أعمالهم ؛ لأن اختلاف دوائره في سائر الأوقات اختلف واحد ، وبعضهم يؤثر استعمال الأفق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للعيان ، وهو الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس ويحتم بغروبها من اليوم القابل موعلي ذلك عمل المسالمين وأهل الكتاب ، وهو مذهب العرب : لأن شهورهم مبنية على مسير القمر ، وأوائلها مقدرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدم النهار على الليل فيفتح اليوم بطلوع الشمس ويحتم بطلوها من اليوم القابل ، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة ، والدائرة لا يعلم لها أول ولا آخر ، ولا أعلى ولا أسفل .

المذهب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجته أنت طالق يوم يقدم فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبيعي وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لذن غروب الشمس وأستارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق ، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيوبة نصفها في الأفق في المغرب ، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ، وهو المراد بالخطيب الأبيض من قوله تعالى : (رَحِيحٌ يَبَيِّنُ لَكُمْ الْخَطِيبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَطِيبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها .

وأعلم أن الشمس في الليل تكون غائبة تحت الأرض ، فإذا قربت منا في حال غيبتها أحسنا بضيائها المحيط بظل الأرض الذي هو الليل ، وهذا الضياء طليعة أماتها يطلع في السحر بياض مستطيل ، مستدق الأعلى ، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له في الشريعة ، ويُشبهه بذنب السرحان لانتصابه وأستطالته ودقته ، ويبقى مدة ثم يزداد هذا الضوء إلى أن يأخذ طولا وعرضا وينسط في عرض الأفق ، وهو الفجر الثاني ويسمى الصادق ، وعليه تقرب جميع الأحكام الشرعية المتعلقة

(١) لعله المحجوب بظل الأرض كما بيده المقام .

بالفجر، وبعد مجز الأفق لأقتراب الشمس وسطوع ضيائها على المدورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع، وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتقدم فيبقى الأفق مجزا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تزول الحمرة ويبقى البياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمها عند الحنفية، ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم يذهب، وهذا لا حكم له في الشرعيات، والهند لا يعدون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويعملونهما قسما مستقلا وهذا في غاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

(في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والأستواء باختلاف الأمكنة)

واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبدا، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان)

وذلك في البلاد التي لا عرض لها، وهي مامرة عليه خط الأستواء، والعلة في التساوي هي أن أصحاب الهيئة لما توهوا أن بين قطبي فلك البروج دائرة عظيمة تقسم سطح السماء نصفين على السواء وتسمى دائرة معذل النهار، توهوا أيضا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الأرض نصفين وتسمى دائرة الأستواء، وخط الأستواء، وكل بلد يمز عليه هذا الخط لا عرض له، وذلك لأنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمس أبداً على رؤوس ساكنيه ، وميلها في ناحيتي الشمال والجنوب بقدر واحد .
 ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدل النهار بنصفين نصفين .
 فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذي من طلوع الشمس إلى غروبها مساوياً
 لقوس الليل : وهو الزمان الذي من غروب الشمس إلى طلوعها فيكون الليل والنهار
 متساويين أبداً في هذه المواضع في جميع السنة .

القسم الثاني

(ما يختلف فيه الليل والنهار في السنة بالاستواء والزيادة والتقصان .

وهي البلاد ذوات العروض)

والعلة في الزيادة والتقصان أن المواضع التي تميل عن خط الاستواء إلى الشمال
 تميل في كل موضع منها دائرة معدل النهار إلى الجنوب وتمحط الشمس ويرتفع
 القطب الشمالي من الأفق وبصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، ويقدر
 بعده عن الخط . وإذا مالت الدائرة قطعت الأفاق كل دائرة من الدوائر الموازية
 لها بقطعتين مختلفتين : فيكون ما فوق الأرض من قسميها أعظم من الذي تحتهما :
 لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من
 نصفها وأمحط مدار الشمس عن سمت الرأس إلى جهة الجنوب فبعد مشرق
 الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصرا الليل ، وكما زاد ارتفاع القطب
 في الاقاليم زاد الاختلاف الذي هو بين هذه القطع إلى أن تكون نهاية الأطوال
 حيث يكون ارتفاع القطب اثنتي عشرة درجة ونصفاً وربعاً وهو أول المعمور ،
 اثنتي عشرة ساعة ونصفاً وربعاً وحيث يكون ارتفاعه تسعاً وعشرين درجة وهو
 آخر الإقليم الثاني ، ثلاث عشرة ساعة ونصفاً وربعاً وحيث يكون ارتفاعه ثلاثاً

وثلاثين درجةً ونصفاً وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعةً وربعا . وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الأقسام السادس خمس عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجةً وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعةً وربعا .

ولا يزال اختلاف مطالع البروج يزداد بالإيمان في الشمال ويتسع شرقا المنقلبين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم : وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستا وستين درجةً . وفي هذا الموضع يكون قطب فلك البروج في دوره يمر على سمت الرؤوس ، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبداً ، ومدار أول الجدي فقط غائبا أبداً . فيكون مقدار النهار الأطول أربعة وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أول الحمل في المشرق ، وأول الميزان في المغرب ، وأول السرطان في الأفق الشمالي ، وأول الجدي في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطب فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرقي من فلك البروج وانخفض النصف الغربي فيطلع حينئذ ستة بروج دفعةً واحدة ، وهي من أول الجدي إلى آخر الجوزاء ، وكذلك تغرب الستة الباقية دفعةً واحدة . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مدار ما بين النصف من الجوزاء إلى النصف من السرطان ظاهرا فوق الأرض أبداً ، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدي غائبا أبداً ، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعة. وحيث يكون ارتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مدار برجي الجوزاء والسرطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجي القوس والجدي غالبا تحت الأرض أبدا . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهارا كله . وشهرين من الشتاء ليلا كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسد ظاهرا أبدا والأجزاء النظيرة لها غائبة أبدا ، فيكون مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهارا كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلا كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثمانا وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مدار الثور والجوزاء والسرطان ظاهرا أبدا والبروج النظيرة لها غائبة أبدا ، فيكون أربعة أشهر من الصيف نهارا كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلا كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعاً وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السنبلة ظاهرا أبدا والبروج النظيرة لها غائبة أبدا فيكون خمسة أشهر من الصيف نهارا كله وخمسة أشهر من الشتاء ليلا كله .

ومما يعرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج في دائرة نصف النهار مما يلي الجنوب كانت أول الحمل في المشرق وأول الميزان في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبدا فوق الأرض والجنوبية غائبة تحتها ، وهناك يطغى ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدي والسرطان منكوسا ، فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسة؛ وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس فهناك تكون دائرة معادل النهار منطبقة على الأفق أبدا ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحْوِيًّا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالي عن معقل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجنوبي غائبا تحما، فذلك إذا كانت الشمس في البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معقل النهار، وإذا كانت في البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولِيَّةٌ، وهي في خط الاستواء ؛ وإما حَامِلِيَّةٌ، وهي في الأفاق المائلة عنه . وإما رَحْوِيَّةٌ : وهي في المواضع التي ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسمعان من أتمن ما صنع !

الجملة الثالثة

(في معرفة زيادة الليل والنهار وقصانهما بتقل الشمس في البروج)

اعلم أن للشمس حركتين : سريعة وبطيئة .

أما السريعة فحركة فلك الكُلُّ بها في اليوم والليلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، ولتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لا تتغيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب، وإن اختلفت مطالعتهما . قال تعالى (رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) أي جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها في الشمال وتلك الغاية مشرق ومغرب وهو مشرق الصيف ومغربها، ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماء الراجع، ولها غاية تنحط إليها في الجنوب، وتلك

الغاية أيضا مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ : وهو مَشْرِقُ الشَّوَاءِ وَمَغْرِبُهُ ، ومَطْلَعُهَا حينئذٍ بِالْقُرْبِ من مَطْلَعِ بَطْنِ الْعَقْرَبِ ، وهَذَانِ الْمَشْرِقَانِ وَالْمَغْرِبَانِ هُمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغابتين مائة وثمانون مَشْرِقًا وَيُقَابِلُهَا مائة وثمانون مَغْرِبًا ، ففي كل يوم تَطْلُعُ في مَطْلَعٍ من المشرق غير الذي تَطْلُعُ فيه بِالْأَمْسِ ، وتَغْرُبُ في مغرب غير الذي تغرب فيه بِالْأَمْسِ . وذلك قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ونقطة الوسط بين هاتين الغابتين : وهي التي يعتدل فيها الليل والنهار يُسْحَى مَطْلَعُ الشَّمْسِ فِيهَا بِمَشْرِقِ الْأَسْتَوَاءِ ، وَمَغْرِبِ الْأَسْتَوَاءِ ، ومَطْلَعُهَا حينئذٍ بِالْقُرْبِ من مَطْلَعِ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ .

وقد قسم علماء الهيئة ما بين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسمًا ، قالوا : والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدأ الأول لما سارت مسيرها الذي جعله الله خاصًا بها قطعت دَوْرَ الفلك التاسع في ثلثائة وستين يومًا ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية ورسمت بحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلى ثلثائة وستين جزءًا وسموا كل جزء درجةً ، ثم قسمت هذه الدرَجَ إلى اثني عشر قسمًا على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجًا ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا في كل قسم من هذه الأقسام نجومًا تتشكّل منها صورة من الصور فسموا كل قسم بأسم الصورة التي وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذي ابتدأوا به نجومًا إذا جمّع متفرّقها تشكلت صورة حمل ، فسموها بالحمل . وكذلك البواقي .

قال صاحب "منهاج الفكر" : وذلك في أول ما رصّدوا ، وقد آتت الصور عن أمكتها على ما زعموا فصار مكان الحمل الثور ، وهي تنقل على رأي بطليموس في ثلاثة آلاف سنة وعلى رأي المتأخرين في ألفي سنة .

إذا علمت ذلك فأعلم أن الثَّوْرَةَ الفلكية في العُرُوض الشَّمَالِيَّة تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً منقسمة على الأثنى عشر برجاً المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزع عليها الخمسة أيام والربع يوم . والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر ، وذلك أنها إذا حلت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برمهات من شهور القبط ، ويوافقها الحادى والعشرون من آذار من شهور السريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، اعتدلت الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدلين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعي : أوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة ، والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليل على مائة وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كل يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً : اصعودها في جهة الشمال .

ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكثر راجعة إلى جهة الجَنُوب، ويسمى ذلك المُنْقَلَبَ الصيفيًّا، وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط، ويقع من حزيران من شهور السُّريان، ويؤنيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سُدَسَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بأخره على مائتين وخمس درجات، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة.

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بأخره على مائة وخمس وتسعين درجة، والليل على مائة وخمس وستين درجة.

ثم تنقل إلى السُّنْبُلَة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بأخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي: لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً هابطاً، لهُبُوطها في الجهة الشماليَّة.

ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في الهبوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بأخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة.

ثم تنقل إلى العقرب ، فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ، وذلك غاية حبوبها في الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوبياً هابطاً ، طُبوها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجدى في السابع عشر من كيهك وتكر راجعة . فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان ، فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك ،

ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً صاعداً : لصعودها في الجهة الجنوبية ، وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها ؛ فإذا اختلفت العروض كان الأمر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أي برج من البروج وتم قطعت منه في أي وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذي أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه^(١)

الجملة الرابعة

(في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار)

وقد تقدم أن النهار الطبيعي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها ، والنهار الشرعي أوله طلوع الفجر الثاني وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء ، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام . أما الفجر فإن أمره خفي لا يعرفه كل أحد ، وقد تقدم أنقسامه إلى كاذب وهو الأول ، وصادق وهو الثاني ، وعليه التعويل في الشرعيات ، فيحتاج إلى توضيح يوضحه ويظهره للبيان وقد جعل المنتحمون وعلماء الميقات له نجوماً تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط ، وهي منازل القمر ، وعددها ثمان وعشرون منزلة : وهي الشرطان ، والبطين ، والثرياء ، والمدبران ، والهنعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجنبة ،

(١) يابض في الأصل .

والخمرتان، والصرفة، والعماء، والسمك، والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب،
والشولة، والتعائم، والبدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد
الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، ووطن الحوت،

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قربت من كوكب من الكواكب الثابتة
أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر^(١) نهارا ويختفي ليلا ويكون خفاؤه
غيبته له، ولا يزال كذلك خافيا إلى أن تبعد عنه الشمس بعدا يمكن أن يظهر معه
للأبصار وهو عند أول طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلا يفلج
نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهرا، وحصه كل منزلة من هذه
المازل من السنة ثلاثة عشر يوما وربع سبع يوم ونصف ثم سبع يوم على التقريب
كما سيأتي^(٢) على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور
ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما؛ وهي ثلاث عشرة درجة
من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد انقضاء أيام
المنازل الثمانية والعشرين فكان يوما وربعًا يجعل يوما في المنزلة التي توافق آخر السنة
وهي الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما. وبقى ربع يوم وثلثي أربع سنين حتى
صار يوما فزيد على الجبهة أيضا، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر
منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما.

فأما الشرطان: وهما المنزلة الأولى، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين
من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور السريان.

وأما البطين: وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من بشنس من
شهور القبط، وهو أول يوم من أيّار من شهور السريان.

(١) لعله يخفى نهارا ويظهر ليلا. ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة.

(٢) كما في الأصل ولعله فإن أيام السنة إذا قسمت على الخ.

وأما الثُّرَيَّا : وهي المنزلة الثالثة فأول طلوعها بالفجر في التاسع عشر من بشنس من شهور القبط ، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .

وأما الدِّبْرَان : وهو المنزلة الرابعة فطلوعها بالفجر في الثاني من بؤنه من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الحَقْفَعَة : وهي المنزلة الخامسة ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس عشر من بؤنه من شهور القبط ، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعَة : وهي المنزلة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن والعشرين من بؤنه من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الدَّرَاع : وهو المنزلة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر في الحادي عشر من أيدب من شهور القبط ، وهو الخامس من تموز من شهور السريان .

وأما النَّثْرَة : وهي المنزلة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر في الرابع والعشرين من أيدب من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السريان .

وأما الظَّرْف : وهو المنزلة التاسعة ، فأول طلوعه بالفجر في السابع من مسرى من شهور القبط ، وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السريان .

وأما الحَبِيبة : وهي المنزلة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر في العشرين من مسرى من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَمْرَتَان : وهو المنزلة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر في الرابع من أيام النسيء القبطي ، وفي السنة الكبيسة في الخامس منه ، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفَة : وهي المنزلة الثانية عشرة ، فأول طلوعها بالفجر في الثاني عشر من توت من شهور القبط ، وهو التاسع من أيلول من شهور السريان .

- وأما العَوَاءُ : وهى المنزلة الثالثة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط ، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السريان .
- وأما السَّكَّ : وهى المنزلة الرابعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن من بايه من شهور القبط ، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .
- وأما النَّقْرُ : وهى المنزلة الخامسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بايه من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .
- وأما الزُّبَانِ : وهى المنزلة السادسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط ، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .
- وأما الإِكْلِيلُ : وهى المنزلة السابعة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع عشر من هاتور من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .
- وأما القَلْبُ : وهى المنزلة الثامنة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السريان .
- وأما الشُّوْلَةُ : وهى المنزلة التاسعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط ، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .
- وأما النَّعَائِمُ : وهى المنزلة العشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من كانون الأول من شهور السريان .
- وأما البَلْدَةُ : وهى المنزلة الحادية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط ، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .
- وأما سَعْدُ النَّبَاحِ : وهى المنزلة الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهر القبط، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهر
السريان .

وأما سَعْدُ بَلَعٍ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر في الخامس
من أُمشير من شهر القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهر السريان .

وأما سَعْدُ السَّوَدِ : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر في الثامن
عشر من أُمشير من شهر القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهر السريان .

وأما سَعْدُ الأَخْيَبِيَّةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر أول
يوم من برمهات من شهر القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهر
السريان .

وأما الفَرِغُ المُقَدِّمُ : وهو المنزلة السادسة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر
في الرابع عشر من برمهات من شهر القبط ، وهو السابع من آذار من شهر السريان .

وأما الفَرِغُ المُؤَخَّرُ : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر في السابع
والعشرين من برمهات من شهر القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهر
السريان .

وأما بَطْنُ الحَوْتِ : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأقول طلوعها بالفجر في العاشر
من برمودة من شهر القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهر السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أباياتاً يعلم منها
مطالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غلط
بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، وهي هذه :

تبيص تهكع بحس بكأغ همدز « هيزاء هلق كيجش ككون برز

ططب طكبذ أهب أيجس بأخ * يسدم بكرم بيت بكجش رصن^(١)
 وأيس فيها من الحشوات قط سوى * أوأحر النظم فافهم شرحها لعر
 وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة اسم للشهر الذي تطلع فيه تلك المنزلة
 والحرف الآخر منها اسم المنزلة وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحسب
 الجمل ، مثال ذلك التاء من تبصص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصرفة ،
 والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمل أشنا عشر ، إذ الياء بعشرة والياء باثنين فكانه
 قال في الثاني عشر من توت تطلع منزلة الصرفة بالفجر ، وكذلك البواقى ، إلا أنه
 لا عبرة بأواخر البيتين ، وهى برز في البيت الأول ، ورمز في البيت الثانى .
 ونظم الإمام محب الدين جار الله الطهرى أبياتنا كذلك على شهور السربان ،
 وهى هذه :

تمس نجسغ نلز نجىء * توكق كطاش كبكن نزول

كدب كويذ كلب شيس * شهكح أريم أبكم أول

نهب نجيش آب * أوكد حطت حبكه صجول

والحال في هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوسطها كالحال في الأبيات
 المتقدمة ، فالتاء من تمس إشارة لتشرين الأول والسين إشارة للسياك ، والهاء بينهما
 بخسة ففي الخامس من تشرين الأول يطلع السياك ؛ وعلى هذا الترتيب في البواقى .
 وأعلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة منزلة منها ظاهرة فوق الأرض في نصف
 الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافية تحت الأرض في نصف الفلك ، وهى مراقبة
 بعضها لبعض لأستواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة في الأفق الشرقى غربت
 واحدة في الأفق الغربى ، وكانت أخرى متوسطة في وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالأصل وبه تكلل الشهور والمنازل .

والقاعدة في معرفة ذلك أنك تتدنى بأية منزلة شئت، وتمتد منها ثمانية من الطالع
فالثامنة هي المتوسطة والثامنة عشرة هي الغاربة، فإذا كان الطالع الشرطين فالمتوسط
الثمة والغارب الغفر، وكذلك في جميع المنازل، وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول
بعض الشعراء مقيدا لها على الترتيب بادئا بطلوع النطح : وهو الشرطان وغروب
الغفر حيثئذ :

كَمْ أَمَأَلُوا مِنْ نَاطِحٍ بِاعْتِفَارٍ * وَأَحَالَوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزَّيَانِي
وَالشَّرِيًّا تَكَلَّتْ فَرَأَيْنا الْمُثَقَّلَبَ مِنْهَا يُشَقِّرُ الدَّرَبَانَا
هَقَعُوا سُؤْلَهُ وَهَنُوا نَعَامًا * بَعْدَ مَا دَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانَا
تَهَرُّوا ذَبْحُهُمْ بِطَرْفِ بُلْبَعٍ * جَبْهَةَ السَّعْدِ فِي حَرَاتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا وَفِي الْمُقَدَّمِ عَزَا * آخِرًا وَالسَّمَاءُ مَبْدُ رِشَانَا
وقال آخر :

النَّطْحُ يَغْفِرُ وَالْبُطَيْنُ مُزَابِنٌ * ثُمَّ الشَّرِيًّا تَبْتغَى الْإِكْلِيلا
وَالقَلْبَ لِلدَّرَبَانِ خِلٌّ عَادِرٌ * مِنْ أَجْلِ هَقَعَةِ سُؤْلِهِ مَا قِيلا
تَهْوَى الْهُنَيْعَةُ لِلنَّعَامِ مِثْلَ مَا * يَنْوِي الدَّرَاعُ لِبَلْدَةِ تَرْجِيلا
وَالشَّرِيذِخِ عِنْدَ طَرْفِ بُلْبُوعِهِ * وَجَبْهَةَ سَعْدٍ غَدَا مَنقُولَا
وَلزُبْرَةَ وَسَطِ انْجِبَاءِ إِقَامَةٍ * فاصْرِفْ مُقَدَّمْ ذَكَرَهَا تَعْجِيلا
يَهْوَى الْمُؤَخَّرَ إِنْ سَمَّاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرِّشَاءَ بِجَيْدِهِ تَسْكِيلا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوري الشير بالسهروردي أرجوزة، ذكر
فيها الطالع، ثم الغارب في بيت وبعده المتوسط ثم الوند وهو الذي يقابله تحت
الارض في بيت ثان - قال :

(١١)

إن طلع الشرطان

بُطِيمًا نُورَ الزَّيْبَانِ خَلَعَ * فَنَاعِسُ الطَّرْفِ رَمِي سَعْدُ بَلَعِ
 تُرِيًّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوَقُودِ * تُتَوَّرُ الْجِبَةِ فِي السُّعُودِ
 وَالذَّرَّانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَخْفِقُ * فَالْحَرَاتَانُ لِلْغِيَاءِ يَطْرُقُ
 وَهَقْعَةٌ شَوْلَتْهَا مُنْزِمَةٌ * وَصَرْفَةٌ بَفَرْغِهَا مُقْسِمَةٌ
 وَهَنْعَةٌ مِنْهَا التَّعَائِمُ تَقْرَتُ * بِمَوَّةٍ بِالْفَرْغِ قَدْ تَأْتُرَتْ
 رَمَى الذَّرَاعُ بِلَدَّةٍ أَصَابَهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوْرِ مَا أَصَابَهَا
 فَهَذِهِ جَمَلَتَا مَكْمَلُهُ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرٍ مِثْلُهُ

الجملة الخامسة

(في ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركا بحركات متعددة يتلو بعضها بعضا ، جعل مقدار كل حركة منها يوما ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارة تكون ظاهرة لاهل الربع المعمور وتارة مستترة عنهم بحدبة الأرض ، انقسم لذلك مقدار تلك الحركة إلى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس على ساكني ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ، فإنه يوجد وقت الصبح في موضع وقت طلوع الشمس في موضع آخر ، وفي موضع آخر وقت الظهر ، وفي موضع آخر وقت المغرب ، وفي موضع آخر وقت نصف الليل . ولما كانت منطقة البروج مقسومة إلى اثني عشر برجا ، وكل برج إلى ثلاثين درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل لها في زمان اليوم

الجامع لليل والنهار، قُسم كل واحد منهما إلى اثني عشر جزءاً، وجعل قسماً كل جزء منها خمس عشرة درجة، وتسمى ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على ما مر، اضطُرَّ إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمى المعتدلة، وزمانية وتسمى المعوجة. فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قصر كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمس عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً إلى اثني عشر ساعة، مقدار كل واحدة منها نصف سدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في القصير. والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانية دون المستوية، فكانوا يقسمون كلا من الليل والنهار إلى اثني عشر ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماءً مخصوصة.

فأما ساعات الليل فسموا الأولى منها الشاهد، والثانية النسق، والثالثة العتمة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهن، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة الحنكة، والتاسعة التباشير^(١)، والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض.

وأما النهار فسموا الساعة الأولى منه الدرور، والثانية البروغ، والثالثة الضحى، والرابعة الغزالة، والخامسة الهاجرة، والسادسة الزوال، والسابعة الدلوك، والثامنة العصر، والتاسعة الأصيل، والعاشر الصبوب، والحادية عشرة الحدود، والثانية عشرة الغروب.

(١) العاشرة غير موجودة في الاصل. وعند في نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم

المعترض وبه تمل ما هنا (٢) لعل صوابه الحدرد.

وتروى عنهم على وجه آخر، فيقال فيها : البُكُور، ثم الشُّروق ، ثم الإِشراق ،
ثم الرُّاد ، ثم الضُّحى ، ثم المُنُوع ، ثم الهاجِرة ، ثم الأَصِيل . ثم العَصْر ، ثم الطَّفَل
(بتحريك الفاء) ، ثم العِشى ، ثم الغُروب . ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب".
قال في "مناهج الفكر" : ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة آدم عليه
السلام ، وصَحَن ذلك وصيةً لابنه شيث عليه السلام ، وعرفه ماؤظف عليه كل ساعة
من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(في أيام الأسبوع ، وفيها أربعة مدارك)

المُدْرَكُ الأوَّلُ

(في ابتداء حَلَقِهَا وأصل وجودها)

وقد نَطَّق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .
أما الإجمال فقال تعالى : **يَرْوَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** .
وأما التفصيل فقوله تعالى : **رَزَقْنَاكُمْ لَكُنْتُمْ أَكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَالْأَرْضِ انبِئِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** .
والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليَوْمَيْنِ المتقدمين ، ومثله في كلام العرب كثير ،
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم **"إِذَا نَامَ أَحَدُكُمْ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَعَقَدَ نَحْتَ رَأْسِهِ ثَلَاثَ
عُقَدٍ ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَوَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَتَانِ ، فَإِذَا
صَلَّى انْحَلَّتْ الثَّلَاثُ"** فالمراد بقوله عقدةان عُقْدَةٌ والعُقْدَةُ الأولى . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريح الآيات في غير هذه الآية أن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابن جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، تسأله عن خلق السموات والأرض ، فقال خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع ، وخلق يوم الأربعاء المدائن والشجر والعمران والحراب ، فهذه أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه ، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء ، مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة " قالت اليهود ، ثم ماذا ؟ قال " ثم استوى على العرش " قالوا : أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم استراح ففضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل به ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب " قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أول الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدي فقال خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل " قال ابن كثير وهو من غرائب الصحيح ، وعاله البخاري في تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار ، وهو أصح . فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة وتوحيح الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولي من الحديث الذي قبله ، وأستدل بأن الفَرَاغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء الحُدُاق النُّظَّار . وقالوا دليله دليلٌ على خَطِّيه : لأن الخلق في ستة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخل في الأيام لكأن الخلق في سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الأبتداء يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام كما في التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بتناقضين ، لأننا إن عملنا على الأبتداء بالأحد فالخلق في ستة أيام وليس في التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئاً وإن عملنا على الأبتداء بالسبت فليس في التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئاً .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين أبتدائه عز وجل في خلق ذلك وخلق القلم الذي أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم : وهو ألف عام ، فصار من أبتداء الخلق إلى آتتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق في سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا بابٌ مداره على النقل دون الآراء .

المُدْرَكُ الثَّانِي

(في أسمائها . وقد اختلف في ذلك على ثلاث روايات)

الرواية الأولى - ما نقلت به العربُ المستعمِرة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاشان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في تلك مَرْوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء، ثم خلق خامساً فسماه الخميس" ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ۖ وَقَالَ جُلُوعًا ۖ وَإِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا ۖ ۝ وَسَيَاتِيَانِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْاِخْتِلَافِ فِيمَا اسْتَدَى فِيهِ الْخَلْقُ مِنْهَا .

فالأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ورجحه النحاس ، وهو المطابق لتسمية الثاني بالاثنين . والثالث بالثلاثاء . وقيل أصله وحده بفتح الواو والحاء كما أن أناة أصلها وناة ، ويجمع في المِثْلَةَ على آحادٍ وأحداتٍ ، وفي الكثرة على أحوادٍ وأوحدٍ ويحكي في جمعه أحد أيضاً قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنان بمعنى الثاني . قال النحاس ، وسببه أن لا يثنى ، وأن يقال فيه : مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريون الأثن والجمع الثني . وقال ابن قتيبة في أدب الكاتب : إن شئت أن تجمه فكأنه مني للواحد قلت أثنين . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة ، وهي أن يقال اليوم الاثنان فتضم النون فتصير مثل عمران فتثنيه وتجمعه على هذا . وحكى عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة أنان فتقول مضت أنان مثل أسماء وأسام قال : وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيبويه فيما حكاه اليوم الثني فتقول على هذا في الجمع الأثناء .

والتلثاء بمعنى الثالث، ويجمع على تَلَاثَاوَاتٍ وحقى الفراء أَنَاثًا . قال النحاس
ويجوز أَنَاثِيثٌ ، وكذا تَلَاثِيثٌ مثل جمع ثلاثة لِأَنَّ أَلْيَنِي التَّأْنِيثُ كَالهَاءِ . وتقول
فيه مضت التَّلَاثَاءُ عَلَى تَأْنِيثِ اللَّفْظِ وَمَعْنَى عَلَى تَذْكِيرِ الْيَوْمِ ، وكذا فِي الْجَمْعِ تَقُولُ
مَضَتْ ثَلَاثُ تَلَاثَاوَاتٍ ، وَثَلَاثَةُ تَلَاثَاوَاتٍ .

وَالْأَرْبَعَاءُ بِمَعْنَى الرَّابِعِ ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَرْبَعَاوَاتٍ وَكَذَا أَرْبَعِيْمٌ وَالبَاءُ فِيهِ عَوْضٌ
مَا حُذِفَ ، فَإِنْ لَمْ تَعْوِضْ قَلْتَ أَرْبَاعٍ . وَأَجَازَ الْفَرَاءُ أَرْبَعَاءَاتٍ مِثْلَ ثَلَاثَاتٍ وَمَنْعَهُ
الْبَصْرِيُّونَ لِلْفَرْقِ بَيْنَ أَلْفِ التَّأْنِيثِ وَغَيْرِهَا .

وَالخَمِيْسُ بِمَعْنَى الْخَامِسِ ، وَيَجْمَعُ فِي الْقِلَّةِ عَلَى أَلْخَمِيْسَةِ . وَفِي الْكَثْرَةِ عَلَى أَلْخَمِيْسِ
وَأَلْخَمِيْسَانِ كَرُغْمٍ وَرُغْمَانٍ . وَيُقَالُ أَلْخَمِيْسَاءُ كَأَنْصِبَاءٍ ، وَحَقَى عَنِ الْفَرَاءِ فِي الْكَثْرَةِ أَلْخَمِيْسُ .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وأختلف في سبب تسميته بذلك
فقال النحاس: لأجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر في أن الاسم كان بها قديماً وقيل
لأجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية وأُجْتَجَّحَ لَهُ
بِمَا حَكَاهُ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ الْأَوَائِلَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمَّى الْجُمُعَةَ جُمُعَةً كَعَبُّ
أَبْنِ لُؤَيٍّ جَدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَمَعَ قُرَيْشًا وَخَطَبَهُمْ فَسَمِيَتْ جُمُعَةً
وَكَانُوا لَا يَعْرِفُونَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا الْعَرُوبَةَ . وَقِيلَ إِنَّمَا سَمِيَتْ بِذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ وَذَلِكَ
أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا : إِنْ لِلْيَهُودِ يَوْمًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ بَعْدَ كُلِّ سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَلِلنَّصَارَى
كَذَلِكَ فَهَاتُمَا يَجْمَعُ لَنَا يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ نَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَنُصَلِّيَ ، فَقَالُوا يَوْمَ السَّبْتِ
لِلْيَهُودِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ لِلنَّصَارَى فَاجْعَلُوا يَوْمَ الْعَرُوبَةِ لَنَا فَاجْتَمِعُوا إِلَى سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ
الْأَنْصَارِيَّ فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ رَكْعَتَيْنِ وَذَكَرَهُمْ فَسَمَّوْهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِيهِ فَأَنْزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْجُمُعَةِ . عَلَى أَنَّ السَّهْبِيَّ فَقَدْ قَالَ فِي الرُّوضِ الْأَنْفِ : إِنْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
كَانَ يُسَمَّى بِهَذَا الْأِسْمِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْأَنْصَارُ الْجُمُعَةَ .

أما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياما ثم خرج يوم الجمعة عائدا إلى المدينة فأدركته الصلاة في بنى سالم بن عوف في بطن واديهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .

والسبت ومعناه التقطع بمعنى أنه قُطِعَ فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آخر أيام الجمعة ، وأنه لخالق فيه على ما سياتى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لاعتباره به لمصاحبة قول اليهود فيه على ما سياتى إن شاء الله تعالى . ويجمع في القلة على أسبت وسبتات بالتحريك ، وفي الكثرة على سبوت بضم السين مثل قرح وقروح .

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجرهم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمون الأحد أول لأنه أول أعداد الأيام ويسمون الاثنين أهون أخذا من الهون والهوين ، وأرهد أيضا أخذا من الوهدة : وهى المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأول في العدد . ويسمون الثلاثاء جبّارا (بضم الجيم) لأنه جبره العدد . ويسمون الأربعاء دُبّارا (بضم الدال المهملة) لأنه دبّر ماجبر به العدد بمعنى أنه جاء دُبّره . ويسمون الخميس مؤنسا لأنه يؤنس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا في الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يسافر إلا فيه وقال : " اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها " . ويسمون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفي لغة شاذة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البيت أخذا من قولهم أعرب إذا أبان ، والمراد أنه بيت العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمين . قال في المصباح كثرات في وجوهها .

تعظيماً ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه دخل الجنة ، وفيه أخرج منها " . ويسمونه أيضاً حرّة بمعنى أنه مرتفع عالٍ كالحرّة التي هي كالرُح ، كما يقال مخراب لأرتفاعه وعلو مكانته ، ويسمونه السبت شياراً (بفتح الشين المعجمة وكسرهما مع الياء المشاة تفتح) أخذاً من شرت الشيء إذا استخرجته وأظهرته من مكانه إما بمعنى أنه أستخرج من الأيام التي وقع فيها الخلق على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن ابتداء الخلق الأحد وانهاء الجمعة ، وإما بمعنى أنه ظهر أول أيام الجمعة على مذهب من يرى أنه أول الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه ، وإلى هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أؤمّل أن أعيش وأن يومي * لأوّل أو لأهون أو جبار
أو التالى دبار فإن أفته * فؤنيس أو عروبة أو شيار

الرواية الثالثة - ما حكاه النحاس عن الضحّالك : إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أيجد هوز حطّى كلين سعفص قرشت . وقد حكى السهيلي رحمه الله أن الأسماء المتداولة بين الناس الآن مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة : وهي أيجد هوز حطّى كلين سعفص قرشت التي خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات : علويها وسفليها . وهذا يخالف ما تقدم في الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماء للأيام التي وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أيجد اسماً للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له في هذه الرواية .

(١) أسقط الناصح الأجنال الثاني وقد ذكره في الضوء بقوله (ويحتمل أن أيجد اسم السبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُذْرَكُ الثالث

(في بيان أول أيام الأسبوع ، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .
وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق الأحد . واحتج لذلك بما تقدم من حديث ابن عباس " أن اليهود أنت النبي صلى الله عليه وسلم فسأته عن خلق السموات والأرض فقال خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد " الحديث ومجديته الآخر " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد " وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق السبت . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدم " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله القرية يوم السبت " الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت .

المذهب الثالث - أن أول أيام الأسبوع الأحد ، لحديث " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق نارا فسماه الاثنين " الحديث . وأبتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُذْرَكُ الرابع

(في التفاؤل بأيام الأسبوع والتطير بها وما يعزى لكل منها
من خير أو شر ، على ما هو متداول بين الناس)

وأعلم أنه لا أصل لذلك من الشريعة . ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعة عن جعفر الصادق رضي الله عنه في توزيع الأعمال على الأيام : أنه قال : السبت يوم منكر وخديعة ؛ ويوم الأحد يوم غرير وعمارة ؛ ويوم الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دم وحرب ومكافأة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء؛ ويقال يوم الخميس مستمر؛ ويوم الخميس يوم دخول على الأسماء وطلب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خلوة ونكاح. ووجهوا هذه الدعوى بأن قرىشا مكّرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارة يوم الاثنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عاداً وثموداً^(١)، وأن إبراهيم دخل على التمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة. وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً * لصيد إن أردت بلا أمراء
وفي الأحد البناء فإن فيه * تبتئ الله في خلق السماء
وفي الإثنين إن سافرت فيه * سترجع بالنجاح وبالغناء
وإن تُرد الحجامة في الثلاثاء * ففي ساعته هبّرق السماء
وإن شرب أمرؤ منكم دواءً * فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس قضاء حاج * فإن الله يأذن بالقضاء
ويوم الجمعة الترويح حقاً * ولذات الرجال مع النساء

وسياتى الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهر في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) مود بصرف ولا بصرف.

الطرف الثاني

(في الشهور، وهي على قسمين : طبيعي وأصلاحي)

القسم الأول

(الطبيعي والمراد به القمري)

وهو مدة سير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى :
وهي على ضربين :

الضرب الأول

(شهور العرب)

والشهر العربي عبارة عما بين رؤية الهلال إلى رؤيته ثانياً، وعدد أيامه تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم على التقريب، ولما كان هذا الكمر في العدد غيراً عدوا جملة الشهرين تسعةً وخمسين يوماً، أحدهما ثلاثون وهو التمام، والآخر تسعةً وعشرون وهو الناقص. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف لا يدخل على بعض نسائه شهراً فلما مضى تسعةً وعشرون غدا عليهم أو راح فقبل يارسول الله حلفت لا تدخل عليهن شهراً فقال الشهر يكون تسعة وعشرين ». وذلك بحسب مسير الثيرين : الشمس والقمر بالمسير الأوسط . أما بالمسير المقوم فإنه يتفق إذا استكمل الشهر برؤية الهلال عياناً أن يتوالى شهران وثلاثة تامة وتوالي كذلك ناقصة وعلى ذلك عمل العرب واليهود .
ولهم في استعماله طريقتان .

الطريقة الأولى

(طريقة العرب)

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وهي أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع، وبها نطق التنزيل قال تعالى: رَبِّمَآلُونَكَ عَنِ الْآحِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ . وفيها جنتان :

الجملة الأولى

(في أحوال الأهلة التي عليها مدار الشهور في ابتدائها وانتهائها)

واعلم أن مسير القمر مقدر بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى: فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَالشَّمْسُ تَغِيبُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا تَبْتَغِي بِهِ نِصْفَ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى يَكُلَّ ثُمَّ تَسْلُبُهُ مِنَ اللَّيْلِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ نِصْفَ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ نُوْرٌ فَيَسْتَرُ . وروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه سُئِلَ عن القمر فقال : يُحَقِّقُ كُلَّ لَيْلَةٍ وَيُوَلِّدُ جَدِيدًا ، ويعدُّ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمت ذلك فلتحضر حركات : سريعة وبطيئة كما تقدم في الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة فلک الكحل به من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق في اليوم واللييلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسابيع ساعة من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه في الليلة السابعة نصف الليل، وفي الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغدأة .

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطالع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضي من الشهر خمس ليال تقديراً فأضربها في ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنتان فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أي ليلة شئت، وإن أردت الطلوع وكان قد مضي من الإبدار ست ليال مثلاً فأضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أي ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالي الشهر بعد استهلاله كل ثلاثة أيام قسماً وسمتها بأسم فالثلاث الأول منها جلال، والثلاث الثانية قمر، والثلاث الثالثة بهر، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض، لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة درع، لأن أولها تكون سوداً وسائرها بيض، والثلاث السابعة ظلم، والثلاث الثامنة حنادس، والثلاث التاسعة دأدي (الواحدة منها دأداة على وزن فعلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها حقاق وليلة سرار لإحراق الشمس القمر فيها .

وممن من يقول ثلاث غرر : (وغرة كل شيء أوله) ، وثلاث شهب ، وثلاث زهر، وثلاث تسع : لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بهر، بهر فيها ظلام الليل، وثلاث بيض، وثلاث درع، وثلاث دهم وهم حنادس، وثلاث دأدي . ويروي عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدخا، وإيلة تسع وعشرين

(١) ليل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التي قلها بدليل التعليل .

الدَّهْمَاءُ، وَبِلَّةُ ثَلَاثِينَ اللَّيْلَاءُ، وَهَمْ يَقُولُونَ فِي أَجْمَاعِهِمْ : الْقَمَرُ آيُنُ لَيْلِهِ ، رَضَاعُ
 سُحَيْلِهِ ، حَلَّ أَهْلِهَا بِرُمَيْلِهِ ، وَآيُنُ لَيْلَتَيْنِ «حَدِيثُ أَمْتَيْنِ» ، كَذِبٌ وَمَيْنٌ ، وَآيُنُ ثَلَاثٌ ، قَلِيلٌ
 اللَّبَّاتُ ، وَآيُنُ أَرْبَعٌ ، عَتَمَةُ أُمِّ رُبَيْعٍ ، لِاجْتِمَاعِ وَلَا مُرْضِعٍ ، وَآيُنُ نَحْمَسٌ ، حَدِيثٌ وَأَنْسٌ ،
 وَعَشَاءٌ خَلْفَاتُ قُمْسٍ ، وَآيُنُ سِتٌّ ، سِرْوَيْتٌ ، وَآيُنُ سَبْعٌ ، دُبْلَةُ ضَبْعٍ ، وَحَدِيثٌ
 وَجَمْعٌ ، وَآيُنُ ثَمَانٌ ، قَمْرٌ إِصْحِيَانٌ ، وَآيُنُ تَسْعٌ ، مَعْدُوُ النَّسْعِ ، وَيُقَالُ الشَّعْ ، وَآيُنُ
 عَشْرٌ ، مُحَقِّقُ الْفَجْرِ ، وَثَلَاثُ الشَّهْرِ .

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر ،
 وكأنها والله أعلم مصنوعة ، وهي على السنة العرب موضوعه ، وهي : وَآيُنُ إِحْدَى
 عَشْرَةَ ، يُرَى عِشَاءً وَيُرَى بُكْرَةً ، وَآيُنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ، مُرْهَقُ الْبَشْرِ بِالْبَدْوِ وَالْحَضْرَةَ ، وَآيُنُ
 ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، قَمْرٌ بَاهِرٌ ، يُعْيَشِي النَّاطِرَ ، وَآيُنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مُقْبِلُ الشَّبَابِ ، مَضِيٌّ
 دُجْنَاتِ السَّحَابِ ، وَآيُنُ خَمْسَ عَشْرَةَ تَمَّ التَّحَامُ ، وَتَقَدَّتْ الْأَيَّامُ ، وَآيُنُ سِتَّ عَشْرَةَ
 تَقَصَّ الْخَلْقُ ، فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، وَآيُنُ سَبْعَ عَشْرَةَ ، أَمَكْنَتِ الْمُقْتَفِرِ الْقَفْرَةَ ، وَآيُنُ
 ثَمَانَ عَشْرَةَ قَلِيلُ الْبَقَاءِ ، سَرِيعُ الْفَنَاءِ ، وَآيُنُ تِسْعَ عَشْرَةَ يَطِيءُ الطَّلُوعَ ، سَرِيعُ
 الْخُشُوعِ ، وَآيُنُ عِشْرِينَ يَطْلُعُ سُحْرَهُ ، وَيَغِيْبُ بُكْرَهُ ، وَآيُنُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ كَالْقَبَسِ ،
 يَطْلُعُ فِي الْغَلَسِ ، وَآيُنُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ يَطِيلُ السُّرَى ، رَيْتِمَا يُرَى ، وَآيُنُ ثَلَاثَ
 وَعِشْرِينَ يُرَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيَالِ ، لَا قَمْرٌ وَلَا هِلَالٌ ، وَآيُنُ خَمْسَ وَعِشْرِينَ دَنَا الْأَجَلَ ،
 وَأَنْقَطَعَ الْأَمَلُ ، وَآيُنُ سِتَّ وَعِشْرِينَ دَنَا مَا دَنَا ، فَسَا يُرَى إِلَّا سَنَا ، وَآيُنُ سَبْعَ
 وَعِشْرِينَ يَشُقُّ الشَّمْسَ ، وَلَا يُرَى لَهُ حَسٌّ ، وَآيُنُ ثَمَانَ وَعِشْرِينَ ضَبِيلُ صَغِيرٍ
 لَا يَرَاهُ إِلَّا الْبَصِيرُ .

(١) في بعض الروايات . الشمس . . . والحضرة .

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى : وَالْقَمَرَ قَدْرَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۚ فَمَا تَقْطَعُهُ الشَّمْسُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ وَبِالعَكْسِ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ يَقْطَعُهُ الْقَمَرُ فِي ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ يَوْماً . وَالْمَنَازِلُ لِلْقَمَرِ كَالْبُرُوجِ لِلشَّمْسِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَتَصَلَ إِلَى الْعَرَبِ مَا حَقَّتْهُ الْقُدَمَا بِرُصْدِهِمْ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ ، وَكَانَ لِأَعْيُنِهِمْ لَهْمُ عَنِ مَعْرِفَةِ كَوَاكِبِ تَرْشُدُهُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِفُصُولِ السَّنَةِ وَأَزْمَنَتِهَا ، رَصَدُوا كَوَاكِبَ وَأَمْتَحَنُوهَا ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوا صُورَ الْبُرُوجِ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ قَسَمُوا فَلَكِ الْكَوَاكِبِ عَلَى مَقْدَارِ الْأَيَّامِ الَّتِي يَقْطَعُهُ الْقَمَرُ فِيهَا ، وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْماً ، وَطَلَبُوا فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا عَلَامَةً تَكُونُ أَبَدًا مَا بَيْنَهَا وَيَبِينُ الْعَلَامَةُ الْأُخْرَى مَقْدَارَ سَيْرِ الْقَمَرِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَسَمَّوْهَا مَنَزَلَةً إِلَى أَنْ تَحْقُقَ لَهُمْ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى طُلُوعِهَا بِالْفَجْرِ ؛ لِأَنَّ الْقَمَرَ إِذَا سَارَ سَيْرَهُ الْوَسْطَى اتَّهَمَى فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ إِلَى الْمَحَاقِقِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ ، فَخَذَفَتْ الْمَتَكَرَّةُ ، فَبَقِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرِينَ وَزَادَ بِالشَّرْطَيْنِ ؛ لِأَنَّ كَوَاكِبَهُ مِنْ جَمَلَةِ كَوَاكِبِ الْحَمَلِ ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْبُرُوجِ .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طُلُوعُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ ، وَتَسْمَى الشَّامِيَّةَ ؛ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهَا مِنْ نَقْطَةِ الْإِعْتِدَالِ ، الَّتِي هِيَ رَأْسُ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ صَاعِدًا إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ، وَهِيَ : الشَّرْطَانُ ، وَالْبَطِينُ ، وَالثَّرْيَاءُ ، وَالْمَدْرَانُ ، وَالْمَهْقَمَةُ ، وَالْمَهْمَعَةُ ، وَالذَّرَاعُ ، وَالنَّشْرَةُ ، وَالظَّرْفُ ، وَالْجَمْبَةُ ، وَالْحَرْتَانُ ، وَالصَّرْفَةُ ، وَالْعَوَاءُ ، وَالسَّيَّكُ . وَيَطْلُوعُهَا يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ . وَالْجَنُوبِيٌّ مِنْهَا مَا كَانَ طُلُوعُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ وَتَسْمَى اِيمَانِيَّةً ؛ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهَا مِنْ نَقْطَةِ الْإِعْتِدَالِ الْمَذْكُورِ هَاطِلًا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ .

وهي : العَقْر، والزَبَان، والإِكْلِيل، والقَلْب، والشَوْلَة، والنَعَام، والْبَلْدَة، وسَعْدُ الدَّامِح، وسَعْدُ بُلَع، وسَعْدُ السُّعُود، وسَعْدُ الأَخِيَّة، والْفَرِغُ المَقْدَم، والْفَرِغُ المُوْخِر، وبطن الحوت، وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور، وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن ^(١) لاجن الكواكب، وإنما الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى، فعدل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

وتزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما بينها وبين التي تليها وإما محاذيا لها خارجا عن السميت شمالا أو جنوبا . وقد تقدم الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل وتزوله في غيرها .

وتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها : فالشَّرطَان والبُطَيْن وثلاث التريا لَحْمَل، وثلاث الأثريا والدَّبْرَان وثلاث الهَقْعَة لِلتُّور، وثلاث الهَقْعَة والْمَنَعَة والدَّرَاع لِجُوزَاء، والثَّوْرَة والطَّرْف وثلاث الجبهة للشَّرطَان، وثلاث الجبهة والخِرْتَان وثلاث الصَّرْفَة لِلسُّد، وثلاث الصَّرْفَة والعَوَاء والسَّيْءُ لِلسَّنْبَلَة، والغَفْر والزَبَان وثلاث الإكليل لِليزَان، وثلاث الإكليل والقَلْب وثلاث الشَوْلَة لِلْعَقْرِب، وثلاث الشَوْلَة والنَعَام والْبَلْدَة لِلْقَوْس، وسَعْدُ الدَّامِح وسَعْدُ بُلَع وثلاث سعد السُّعُود لِجَدَى، وثلاث المَفْرَغ المَقْدَم والمَفْرَغ المُوْخِر وبطن الحوت لِحُوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو متى مضى له فيها من الأيام، فخذ ما مضى من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما

(١) يباح بالامل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلاث سعد السُّعُود وسعد الأعبية وثلاث المَفْرَغ المَقْدَم كدلت] .

وَأَبْسَطُهَا أَيَّامًا ، وَأَضْفُ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَطْرَحُ الْمَجْمُوعَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ عَدَدُ نُبُتِ الْقَمَرِ فِي كُلِّ مَنزَلَةٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَجْعَلُ أَوَّلَ كُلِّ مَنزَلَةٍ مِنَ الْعَدَدِ الْخَرْتَانِ ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ فَهُوَ تَعْدُدُ مَاضِيٍّ مِنَ الْمَنزَلَةِ الَّتِي آتَتْهَا الْعَدَدُ إِلَيْهَا .

مثال ذلك أن يمضي من سنة القبط شهر توت وأربعة أيام من بابه فبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بسنة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة ، وهي ماضية من المنزلة الثالثة وهي العواء .

وإن أردت أن تعرف في أي برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربي يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسة وأبدأ من البرج الذي فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأبنا تعد حسابك فالقمر في ذلك البرج ، والاعتقاد في ذلك على كم مضى من الشهر العربي بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجملة الثانية

(في أسمائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولى - ما نطقت به العرب المستعربة ، وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نطق القرءان الكريم بصِدْقِهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرءان بلغتهم ، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين . الشهر الأول منها المحرم ، سمي بذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال ، ويجمع على محرمات ومحاريم ومحاريم . الشهر الثاني صفر ، سمي بذلك لأنهم كانوا يغيرون فيه على بلاد يقال لها

الصَّفْرِيَّةُ ، ويجمع على صَفْرَاتٍ وَأَصْفَارٍ وَصُفُورٍ وَصِفَارٍ . الشهر الثالث ربيع الأول
سمى بذلك لأنهم كانوا يُحْصِلُونَ فِيهِ مَا أَصَابَهُ فِي صَفَرٍ ، والرَّيْبِعُ فِي اللُّغَةِ الخِصْبُ ،
وقيل لأرباعهم فيه ، قال النحاس والأول أولى بالصواب ، ويقال في التثنية ربيعان
الأولان وفي الجمع ربيعات الأولات . ومن شرط فيه إضافة شهر قال في التثنية شهرا
ربيع الأولان وفي الجمع شَهْرَاتُ ربيع الأولات والأوائل ، وإن شئت قلت في القليل
أشهر وفي الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأربعة الأوائل ، وعن غيره رُبْعُ الأوائل .
الشهر الرابع ربيع الآخر - والكلام في تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام في ربيع
الأول . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمي بذلك بخروج الماء فيه : لأن الوقت
الذي سُمِّيَ فِيهِ بِذَلِكَ كَانَ الْمَاءُ فِيهِ جَامِداً لَشِدَّةِ البَرْدِ ، ويقال في التثنية جُمَادَيَانِ
الأولَيَانِ وفي الجمع جُمَادِيَاتِ الأوَّلِيَّاتِ . الشهر السادس جمادى الآخرة - والكلام فيه
تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام في جُمَادَى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمي بذلك
لتعظيمهم له أخذاً من التَّجِيبِ : وهو التَّعْظِيمُ ، ويجمع على رَجَبَاتٍ وَأَرْجَابٍ ،
وفي الكثرة على رَجَابٍ وَرُجُوبٍ . الشهر الثامن شَعْبَانُ : سمي بذلك لتشعبهم فيه لكثرة
الغارات عَقِبَ رَجَبٍ ، وقيل لتشعب العود في الوقت الذي سُمِّيَ فِيهِ . وقيل لأنه
شَعَبَ بَيْنَ شَهْرَيْ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ويجمع على شَعْبَانَاتٍ وشعابة على حذف الزوائد ،
وحكى الكوفيون شَعَابِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيويه كما لا يجوز عنده
في جمع عُثْمَانَ عَثَامِينَ . الشهر التاسع رمضان - سمي بذلك أخذاً من الرَّمْضَاءِ لأنه
وافق وقت تسميته زَمَنَ الحَرِّ ، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ وحكى الكوفيون رَمَاضِينَ ،
والقول فيه كالقول في شَعَابِينَ ، وَمَنْ شَرَطَ فِيهِ لَفْظَ شَهْرٍ قَالَ فِي التَّثْنِيَةِ شَهْرَا رَمَضَانَ
وفي الجمع شَهْرَاتِ رَمَضَانَ وَأَشْهُرُ رَمَضَانَ وَشُهُورُ رَمَضَانَ . الشهر العاشر شَوَّالٌ سمي
بذلك أخذاً من شَالَتْ الإبلُ بِأَذَانِهَا إِذَا حَمَلَتْ : لكونه أول شهور الحج وقيل من

شال يسؤل إذا ارتفع : ولذلك كانت الجاهلية تكره الترويح فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلام بهدم ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت في صحيح مسلم " تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني في شوال فأبى نساءه كان أحظى عنده مني " ويجمع على شوالات وشواويل وشواويل . الشهر الحادي عشر ذو القعدة ، ويقال بالفتح والكسر ، سمي بذلك لأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم ، ويجمع على ذوات القعدة ، وحكى الكوفيون أولات القعدة . وربما قالوا في الجمع ذات القعدة أيضا . الشهر الثاني عشر ذو الحجة سمي بذلك لأن الحج فيه ، والكلام في جمعه كالكلام في ذى القعدة ، ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حرم كما قال تعالى : **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ** وقد أجمعت العلماء على أن الأربعة المذكورة هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . وقد اختلف في الابتداء بعددها فذهب أهل المدينة إلى أنه يبدأ بذي القعدة فيقال ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويحتجون على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم عندها في خطبة حجة الوداع كذلك فقال **" السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب "** وأختره أبو جعفر النحاس . وذهب أهل الكوفة إلى أنه يبدأ بالمحرم فيقال المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة : يأتوا بها من سنة واحدة وإليه ميل الكُتّاب . قال النحاس : ولا تُحجّة لهم فيه لأنه إذا علم أن المقصود ذكرها في كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين . وكانت العرب في الجاهلية مع ما هم عليه من الضلال والكفر يعظمون هذه الأشهر ويحرمون القتال فيها حتى لولق الرجل فيها قاتل أبيه لم يهجه ، إلى أن حدث فيهم الذم فكانوا يُنسئون المحرم فيؤخرونه إلى صفر فيحرمونه مكانه ويُنسئون رجباً فيؤخرونه إلى شعبان فيحرمونه مكانه يستبجوا القتال في الأشهر الحرم .

وأعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي. على أن منها ثلاثة أشهر لم تكدر العرب تنطق بها إلا مضافةً إليها، وهي شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال: "لا تقل رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل شهر رمضان فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا جاء رمضان أغلقت التيران وصفدت الشياطين" الحديث. وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة.

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أحدها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقاً، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصمت رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم. والثاني المنع مطلقاً، والثالث إن حقت قرينة تدل على الشهر كما في قوله صمت رمضان فقد جازت التعرية، وإن لم تحف قرينة لم تجز. وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضاً. وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة. ويقال في المحرم أيضاً شهر الله المحرم ويقال في الربيعين ربيع الأول وربيع الآخر وفي الجمادين جمادى الأولى وجمادى الآخرة. قال ابن مكى: ولا يقال جمادى الأولى بالتذكير وجوزته في كلامه على "تنقيف اللسان"

قال الدحاس وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثاني وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية: لأنه إنما يقال الثاني والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن هذين ثالثاً ولا ثالثة قيل فيهما الآخر والآخرة

كما قيل الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب القردُ : لأفراده عن بقية الأشهر الحرم، ويقال فيه أيضا رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرم لتكرمه وعلو قدره ، في رمضان المعظم والمعظم قدره : لعظمته وشرفه ، وفي شوال المبارك : للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة ، ويقال في كل من ذى القعدة وذى الحجة الحرام . قال النحاس وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصم ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مرة الهمداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقية حمراء محضرة ، فقال : أتدرون أي يوم يومكم هذا ؟ قلنا : يوم النحر قال : صدقتم يوم الحج الأكبر ، أتدرون أي شهر شهركم هذا ؟ قلنا : ذو الحجة قال : صدقتم شهر الله الأصم ."

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة : وهو أنهم كانوا يقولون في المحرم المؤتمر : أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يعزمون فيه القتال فيكثرون . وقيل أخذنا من الأتجار بمعنى أنه يؤتمر فيه بترك الحرب ، ويجمع على مؤتمرات ومأمير ومأمير . ويقولون في صفر ناجر إما من النجر والنجاز (يفتح النون وكسرها) الأصل ، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يتبدأ فيه بعد المحرم ، وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوتهم الخليل إلى الحرب فيه ، وإما من النجر ، وهو شدة الحز لشدة حرارة الحرب فيه ، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول حوان (بالحاء المعجمة) : لأن الحرب تشتد فيه فتحونهم فتقتصمهم : ويجمع على حوانات وحواوين وحواوين ، ويقولون في ربيع الآخر وبصان ، أخذنا من الوبيص وهو البريق : لبريق الحديد فيه : ويجمع على وبصانات ، وحكى قطرب فيه بصان فيجمع على أبصنة

(١) أي قطع طرف أذنهما . فاموس .

وفي الكثرة بَصَان . ويقولون لجادى الأولى حَيْن : لأنهم يحنون فيه إلى أوطانهم :
 لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أَحِنَّة وَحُنٌّ كَرِغِيفٍ وَرُغْفٍ . ويقولون
 لجادى الآخرة رُبَى وَرُبَى : لأنه يجتمع به جماعة من المشهور التي ليست بجرم :
 وهي ما بعد صفر . قال أبو عبيد رُبَان كل شئ جماعته ، ويجمع على رُبِيَاتٍ وَرَبَابًا مثل
 حَبَالٍ . ومن قال رُبَى جمعه على مَارِيب . ويقولون في رجب الأصم^(١) : لما تقدم
 من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَامٍ . قال النحاس
 ولا تنقل صم لأنه ليس بنعت كما أنك لو سميت رجلا أحمر جمعه على أَحَامِرٍ ولم
 تجمه على حمر . ويقولون في شعبان عادل ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لشعبهم
 في القبائل ويجمع على عَوَادِل . ويقولون في رمضان نَاتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه
 لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نَوَاتِقٍ . ويقولون في شَوَالٍ وَعِلٌّ
 أخذًا من قولهم : وَعَلَّ إِلَى كَذَا إِذَا جَلَا إِلَيْهِ لِأَنَّهُمْ يَرُوبُونَ فِيهِ مِنَ الْغَارَاتِ لِأَن يَعْدَهُ
 الأشهر الحُرْمَ فَيَلْجَأُونَ فِيهِ إِلَى أَمَكِنَةٍ يَحْتَصِنُونَ فِيهَا ، ويجمع على أَوْعَالٍ كَكَتِيفٍ
 وَأَكْتَفٍ ، وفي الكثرة وُعُولٌ . ويقولون في ذى القعدة وَرَبَّةٌ وَالْوَاوِيهِ مَتَقَلِبَةٌ عَنِ
 هَمْزَةِ أَخْذًا مِنْ أَرِنَ إِذَا تَحَرَّكَ : لأنه الوقت الذي يتحركون فيه إلى الحج ، أو من
 الأُرُونِ ، ودو الدتو : لقربه من الحج ويجمع على وَرَدَاتٍ وَرَانَ كَبَدَانٍ . ويقولون
 في ذى الحجة بَرُكٌ ، غير مصروف : لأنه معدول عن بَارِكٍ ، أو على التكنيب كما يقال
 رجل حَكَمٌ وهو مأخوذ من البركة : لأن الحج فيه ، أو مِنْ بَرَكَ الْجَلَلِ لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي
 تَبَرَّكَ فِيهِ الْإِبِلُ لِلْوَسْمِ ، ويجمع على رِكَانٍ مِثْلَ نَعْرِ وَنِعْرَانٍ .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله مصحف عن رَبَابٍ أَوْ رَبَّى تَأْمَلُ

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال .

بِؤْتَمِرٍ وَنَاجِرٍ ابْتَدَأْنَا * وَالطَّلَوَانِ يَتَّبِعُهُ الْبُصَانُ
وَرُبِّيْ ثُمَّ أَيْدَةٌ تَلِيهِ * تَعُودُ أَصْمُ صُمَّ بِهِ السَّنَانُ
[وَعَادِلَةٌ وَنَاطِلَةٌ جَمِيعًا * وَوَاغِلَةٌ فَهِيَ غُرَّرِ حِسَانُ^(١)
وَوَزْنَةٌ بَعْدَهَا بَرَكٌ قَمَّتْ * شُهُورٌ الْحَوْلُ يُعْرِبُهَا الْبَيَانُ

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طُرُق، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم ، ثم تعدّكم مضي من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسّمها نصفين ، فإن كان النصف صحيحاً أضفت على الجملة مثل نصفه ، وإن كان مكسوراً كتته وأضفته على الجملة ، ثم تتبدئ من أول يوم من السنة وتعدّ منه أياماً على التوالي أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف فحيث انتهى عدتُك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعدّ من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر ، ثم تتبدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون اثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان وكان أول

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" للويزي فأنتهاه كما ترى وبه

المحرم الأحد كما تقدم فتعدّ ماضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكلمها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم يتدئ عدد الأيام من أول المحرم ، وهو الأحد كما تقدم فيكون آتباء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطرقّ المعتمدة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربى فا كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه ، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وأنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم أنظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما أجمع معك . وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بق فهو عدد ما مضى من الشهر العربى، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربى ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أول شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربى الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله .

الضرب الثاني

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الأجتاع إلى الأجتاع، وهو أقتان الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك توافق شهورهم في التقدير شهور العرب، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنهما لا تطابق شهرا لشهر، فإن شهور العرب غير مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة، وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر. ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والقمر، وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي، وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثاني مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادي عشر آب، الشهر الثاني عشر أيلول، وفي السنة التي يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتي بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثاني، وسيأتي ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأمر في ملتهم، وسيأتي الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى.

القسم الثاني

(من الشهور الأَصْطِلَاحِيَّةُ والمراد به الشمس :)

وهي مدة قطع الشمس مدار بُرْج من بروج الفلك الاثني عشر، وذلك ثلاثون يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسريان، والروم .
وهي على صنفين :

الصنف الأول

(ما يكون كلُّ شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسبتاً بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسب لدقظيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام
النساء في آخر الثاني عشر منها، وهي خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودخوله في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره
السادس والعشرون من أيلول منها؛ فيه يدرك الرطب، ويكثر السفرجل والعنب
الشثوي، وتبتدئ الحمضات . وأزل يوم منه يوم التبروز وهو رأس سنة القبط؛
وفي سابعه يتدئ لقط الزيتون؛ وفي سابع عشره عيد الصليب، فيه تفتح أكثر
الترع بمصر؛ وفي ثامن عشره أول فصل الخريف؛ وفي تاسع عشره يتدئ هيجان
السوداء في البدن؛ وفي العشرين منه يقصد اللسان؛ وفي الحادي والعشرين منه
يتدئ بيض النعام؛ وفي الرابع والعشرين منه أول دى ماه من شهور الفرس؛
وفي الثامن والعشرين منه يذهب الحر؛ وفي التاسع والعشرين منه أول رعي
الكراتي؛ وفي الثلاثين منه وهو آخره يزرع الهليون .

(١) له ثلاثة أشهر يوم .

الشهر الثاني بابه ، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول ، من شهر السريان ،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها ، فيه يُبَدَّرُ كُلُّ مالا تُشَقُّ له الأرضُ
 كالبرسيم وغيره ؛ وفي آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد ؛ وفيه يُحصَدُ الأرز ، ويطيب
 الرمان ، وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية ؛ ويستخرج دهن الآس واللينوفر ،
 ويُدْرِك الثمر والزبيب وبعض الحمضات ؛ وفي ثلثه رأس سنة السريان ؛ وفي رابعه
 أول تشرين الأول من شهرهم ؛ وفي خامسه عُرس النيل ؛ وفي سادسه يطيب
 تُرْبِ الدواء ؛ وفي سابعه نهاية زيادة النيل ؛ وفي ثامنه يكره خروج الدم ؛ وفي حادى
 عشره يتبدئ النيل في النقص ؛ وفي ثالث عشره بداية الوحم ؛ وفي رابع عشره
 يكثر التاموس ؛ وفي خامس عشره يتبدئ زرع القُرط ؛ وفي سادس عشره يتبدئ
 كثرة السعال ؛ وفي تاسع عشره يتبدئ زرع الساجم ، وفي الثاني والعشرين منه
 يتبدئ صلاح المواشى ؛ وفي الثالث والعشرين منه يتبدئ كثرة العُيُوم ، وفي الرابع
 والعشرين منه يتبدئ أهل مصر الزرع . وفي السابع والعشرين منه يتبدئ سن
 الحيتان . وفي الثامن والعشرين منه أول المد ، وفي التاسع والعشرين منه أول
 الليالى الباقى .

الشهر الثالث هتور ؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول ؛ وآخره
 انعامس والعشرون من تشرين الثاني . فيه يُزرَع القمح ويطلع البنفسج والمنثور ،
 وأكثر البقول ، ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه ، ويُجَمَل العنب من
 قوص ، وفي ثانيه يتبدئ حصاد الأرز ، وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهر
 السريان ، وفيه يتبدئ برد المياه ، وفي سادسه أول المطر الوسمى ، وفي سابعه يتبدئ
 أهل الشام الزرع ، وفي ثامنه يتبدئ هبوب الرياح الجنوبية ، وفي تاسعه يتبدئ
 زرع الخشخاش ، وفي حادى عشره يتبدئ اختفاء الهوام ، وفي ثالث عشره يتبدئ

غليان البحر، وفي رابع عشره تسمى الحيات، وفي سادس عشره يُجمع الزعفران، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش، وفي الثامن والعشرين منه يُخلق البحر المالح وتمنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح، وفي الثالث والعشرين منه يتبدئ سخونه بطن الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهر القُرس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهر السريان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأول منها. فيه تدرك الباقلاء، وتزرع الخلبة وأكثر الحبوب، ويدرك التريجس والبنفسج، وتلاحق المحمضات، وفي أوله ابتداء أربيعيات مصر، وفي ثابته يتبدئ موت الدباب، وفي خامسه أول كانون الأول من شهر السريان، وفي سابعه آخر الليالي البلي وأول الليالي السود، وفي حادى عشره يتبدئ الشجر في رمى أوراقه، وفي ثانى عشره تظهر البراغيث، وفي سابع عشره أول فصل الشتاء: وهو أول أربيعيات الشام، وفي ثامن عشره يتنفس النهار، وفي الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر، وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماد^(١) من شهر القُرس، وهو نوروزهم وأول ستمهم، وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم، وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل، وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل، وفي الثلاثين منه يتبدئ تقليم الكروم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهر السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثاني منها، في زرع القمح فيه تغرير، وفيه تُسقى الأرض للقصب والقفاص، ويتكامل التريجس، وفي أوله تبتت الرياح الشديدة، وفي ثانيه يدرك القرط، وفي سادسه أول كانون الثاني من شهر السريان،

(١) سبأى قريبا أن يبروز القرس وأول ستمهم أفرودين ماه وظله الصواب لأنه الذى ورد في مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في أسماء الشهور الآتية .

وفي عاشره آخر أربعمائة . مصر ، وفي حادي عشره أول نصب الكروم ، وفي ثاني عشره يشتد البرد ، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات ، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار ، وفي ثامن عشره يتبدى كثرة الندى ، وهو آخر الليالي السود ، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع التاج بالشام وغيره ، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل ، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح .

الشهر السادس أمشير ، ودخوله في الخامس والعشرين من كانون الثاني من شهر السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها . فيه تُغرس الأشجار ، وتعلم الكروم ، ويُدرِك النبق واللوز الأخضر ، ويكثر البتسج والمنتور ، وفي رابعه يتبدى إفراخ النخل ، وفي سادسه أول شباط من شهر السريان ، وفي حادي عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف ، وفي ثاني عشره يتبدى تحرك دواب البحر ، وفي الثاني والعشرين منه تأتي جرة فارة ، ويتبدى مرض الأطفال ، ويتبدى خروج ورق الشجر ، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب لأرضي ، وفي الرابع والعشرين منه أول حرادماه من شهر القُرس . وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح ، وفي السابع والعشرين منه يتبدى ثالث جرة حامية ، وفي الثامن والعشرين منه أول المفربات ، وفي التاسع والعشرين منه آخر نهي ابقراط .

الشهر السابع برمهاث ، ودخوله في الرابع والعشرين من شباط من شهر السريان ، وآخره الخامس والعشرون من آذار . فيه زهر الأشجار ، ويعقد أكثر الثمار ، ويُرزع أوائل السمس ، ويُقلم الكنان ، ويُدرك الفول والعدس ، وفي ثانيه يحدد خروج الدم ، وهو أول الأعجاز ، وفي ثالث عشره تفتح الحيات أعينها ، وفي خامس عشره تطيب الألبان ، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز ، وفي ثامن عشره يبيح الدم ، وفي تاسع عشره تظهر الطوام ، وفي العشرين منه يُزرع السمس ، وفي

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهر الفُرس ، وفي السادس والعشرين منه
يتبدئ شُرْبُ المُسْتَهْل ، وفي السابع والعشرين منه خروج الدُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهر السريان ،
وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقَطَّفُ أوائل عَسَل النحل ، وفيه تكثر
الباقلاء ، ويُقَضَّ جَوْز الكَكَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأول من الجُرْبِ ، ويقطع
بعض الشعير ، ويُذْرِك الخيار شديراً . وفي أوله يُؤْكَل الأَرِيك ، وفي رابعه يُعَصَّر دُهْن
البَّسَان ، وفي خامسه يتبدئ كثرة الزهور ، وفي سادسه أول نيسان من شهر
السَّريان ، وفي ثاني عشره يُخَاف على بعض الزرع ، وفي ثامن عشره أترقلع
الكَكَّان ، وفي العشرين منه يُهْبَى عن أكل البُمُول ، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
الكَكَّاء ، وفي الثالث والعشرين منه الحِتَام الكبير للزرع ، وفي الرابع والعشرين منه أول
تردماه من شهر الفرس ، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مَدَّ القُرَات ، وفي الثامن
والعشرين منه يبيض النعام .

الشهر التاسع بشنس : ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهر
السريان ، وآخره التاسع والعشرون من آيار منها . فيه يكثر التَّفَاح المَقَاسِمِي ، ويتبدئ
التَّفَاح المِسْكِي . والبطيخ العَبَسِي والحَوْفِي ، والمِشْمِش . والخوخ الزُهْرِي ، والورد
الأبيض . وفي نصفه يُبَدَّر الأرز ، ويحصدُ القمح ، وفي سادسه أول آيار من شهر
السَّريان ، وفي رابع عشره يجع الخَشْخَاش ، وفي ثامن عشره يجع العَصْفَر ، وفي
الحادي والعشرين منه يتبدئ بُرُودَةُ الأَرْض ، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
برماه من شهر الفُرس .

الشهر العاشر بئونه ، ودخوله في الخامس والعشرين من آيار من شهر السريان ،
وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحِطْرَم ، ويطيب بعض العنب

والتين البوق وهو الديقور، والخوخ الزهري والمُشعر، والكثري البوهي، والقراصيا،
 والثوت، ويطلع البلح، ويُقطف جمهور العسل، وفي ثلثه يتدئ توحم النيل،
 وفي سادسه يكمل الدرياق، وفي سابعه أول حزيران من شهر السريان، وفي تاسعه
 يتدئ مهب الريح الشمالية، وفي عاشره يتدئ تنفس النيل، وفي خامس عشره
 تتحرك شهوة الجماع، وفي ثاني عشره عيد ميكايل، في ليلته يؤزن من الطين زنة ستة
 عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع في مكان ويؤزن عند طلوع الشمس فإ
 زاد كان بكل خروبة زادت على السنة عشر ذراع، وفي ثالث عشره يتدئ نقص
 الثمرات، وفي رابع عشره تهب الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث،
 وفي العشرين منه تريج الصفراء، وفي الثاني والعشرين منه يعقد الجوز، ويقوى
 أندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يشور وجع العين وهو أول مهرماه من شهر
 القوس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه
 يتأدى طيه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادي عشر أييب، ودخوله في الرابع والعشرين من حزيران من شهر
 السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل
 البطيخ العبدلي ويطيب البلح ويُقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه
 أول نبي أبقراط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهر السريان،
 وفي عاشره يتدئ وقع الطاعون، وفي ثاني عشره يتدئ قوة السائم، وفي ثالث
 عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تغور العيون، وفي ثامن عشره يجع السماق،
 وفي الثاني والعشرين منه يدرك الفستق، وفي الرابع والعشرين منه أول أبانماه من
 شهر القوس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعرى اليمانية، وفي التاسع
 والعشرين منه يدرك نخل الجماز.

الشهر الثاني عشر مسرى، ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهر
السريان، وآخره السابع والعشرون من آب منها. فيه يُعْمَلُ الخَلُّ، و يُدْرِكُ البُسْرُ
والمَوْزُ وتتغير طعموم الفاكهة لظلمة الماء على الأرض، و يُدْرِكُ اللِّيمُونُ التَّفَاحُ،
و يبتدئ إدراك الرُّمَّانِ، وفي رابعه تُقْصَأُ الدَّجَلَةُ، وفي خامسه أولُ العَصِيرِ، وفي ثامنه
أولُ آب من شهور السَّريَانِ، وفي ثاني عشره فَصَالُ المَوَاشِي، وفي رابع عشره تَقَلُّ
الإليَانُ، وفي خامس عشره تَسْحُنُ الميَاهُ، وفي سابع عشره تَخْتَلِفُ الرِّيحُ، وفي ثامن
عشره يُخْتَرُّ سَعُّ الهَوَامِّ، وفي الثاني والعشرين منه آخرُ العَصِيرِ، وفي الرابع والعشرين
منه يَبِيجُ التَّعَامُ، وفي الخامس والعشرين منه تَكْتُرُ القُيُومُ، وفي الثامن والعشرين منه
آخرُ السَّيَاهِمِ، وفي التاسع والعشرين منه أولُ آذرمَاه من شهور الفرس .

أيام النسيء - ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضع الناس طُرُقًا لإخراج أول الشهر القبطي بالحساب أقربها أن تعرف يوم
النيروز ثم تعد ماضياً من الشهور القبطية بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله فما كان
فأضعفه فما تحصل فأسقط منه واحداً أبداً، ثم أسقط الباقى سبعة سبعة فما فضل
فعد من يوم النيروز إلى آخر الباقي بعد الإسقاط على توالي الأيام نائماً انتهى العدُّ
فذلك اليوم هو أول الشهر المطلوب .

مثال ذلك: كان يوم النيروز الأحد، وأردنا أن نعرف أول أمشير، عددنا كم مضى
من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير، وجدنا ذلك ستة، أضعفناها صارت
أثنى عشر، أسقطنا منها واحداً بقي أحد عشر، أسقطنا منها سبعة بقي أربعة،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلمنا أن أول
أمشير الأربعاء .

وأما شهر القُرس، فهي اثنا عشر شهراً كلُّ شهر منها ثلاثون يوماً وأيامُ النسيء، خمسة أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأول منها افرودين ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأول يوم منه نيروزُ القرس ورأسُ سَنَم . الشهر الثاني اريدِهشماه، ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمودة منها . الشهر الخامس تردماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمودة من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برمهاث، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من أييب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أييب من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى منها . أيامُ النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من مسرى، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله في التاسع والعشرين من مسرى من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العاشر دى ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابَه منها . الشهر الحادى عشر من ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بابَه من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر

(١) وقع في الأصل شيء من السقط والتعريف وقد صححناها من نهاية الأرب ومن النسخة وبمؤونة ترتيب الشهور القبطية فكتبه .

الثاني عشر] اسفندارماه، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهر القبط،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة
موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهر القبط ما يقع في هذه الشهور من
وغيرها .

المصنف الثاني

(من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والتقصان .

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر .

وهو شهر السريان والروم)

فأما شهر السريان وتنسب للإسكندر فأثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها
ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول
منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في الرابع من بابه من شهر
القبط، وآخره الرابع من هاتور منها، ويوافقته أكتوبر من شهر الروم، وهو الشهر
العاشر منها . الشهر الثاني تشرين الثاني - وهو ثلاثون يوما، ودخوله في الخامس من
هاتور من شهر القبط، وآخره الرابع من كيهك منها . ويوافقته نوفمبر من شهر الروم،
وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما،
ودخوله في الخامس من كيهك من شهر القبط، وآخره الخامس من طوبه منها،
ويوافقته ديسمبر من شهر الروم، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون
الثاني، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في السادس من طوبه من شهر القبط،

وآخره السادس من أمشير منها ، ويوافقه يئير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوماً ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمات منها ؛ ويوافقه فبراير من شهر الروم . وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوماً ، ودخوله في الخامس من برمات من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهر الروم . وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوماً ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه إبريل من شهر الروم . وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيار ، وهو أحد وثلاثون يوماً ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايو من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوماً ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، ويوافقه يونيو من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تموز ، وهو أحد وثلاثون يوماً ، ودخوله في السابع من أبيب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليو من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادي عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوماً ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوماً ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه سنبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ، وبذهابه يذهب الحر جملته ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أَيْلُولٌ وَأَرْتَفَعَ الْحَرُّورُ ، وَأَخْبَتُ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشوري في أبيات آبتدا فيها بأيلول فقال :

وَأَبْتَدَأُ بِأَيُّلُولٍ مِنَ السَّرْيَانِي « تَشْرِينُ الْأَوَّلُ يَدْبَعُهُ الشَّانِي
كَانُونُ كَانُونُ شَبَاطُ يَطْلَعُ • آذَارُ نَيْسَانَ أَيَّارُ يَبْسَعُ
ثُمَّ حَزِيرَانُ وَتَمُوزُ وَأَبُ « تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ يَهْدِي مَنْ أَحَبَّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزاني رحمه الله أبيانا ذكر فيها الأشهر التي منها ثلاثون يوما والثانفصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل ، وهي هذه :

شُهُورُ الرَّوْمِ أَوْلَانُ • زِيَادَاتُ وَنُقْصَاتُ
فَتَشْرِينُهُمُ الشَّانِي • وَأَيُّلُولُ وَنَيْسَانُ
ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ • سَوَاءٌ وَحَزِيرَانُ
شَبَاطُ خُصَّ بِالْقِصَصِ • وَقَدَرُ النَّقْصِ يَوْمَانُ

ونظم صاحب "مناجح الفكر" تداخلها مع شهور القبط في أرجوزة بجماعت في غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طويلا ، وهي هذه :

مَتَى تَمَّ نَسَأُ مَعْرِفَةَ التَّدَاخُلِ • مِنْ أَوَّلِ الشُّهُورِ فِي الْمَازِلِ
فَعُدَّ مِنْ تَوْبٍ بِلَا تَطْوِيلِ • أَرْبَعَةٌ فَهِيَ آبْتَدَأُ أَيُّلُولِ
وَبَابَةٌ كَذَلِكَ مَعَ تَشْرِينِ • الْأَوَّلِ السَّابِقِ فِي السَّنِينِ
وَالخَامِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ هَوْرٍ • أَوَّلُ تَشْرِينِهِمُ الْأَخِيرِ
أَوَّلُ كَانُونٍ بِغَيْرِ دَلْسِهِ • إِذَا نَقَّصْتَ مِنْ كَيْبِكَ خَمْسَةَ
وَطَوْبَهُ إِنْ مَرَّ مِنْهُ سِتَّةٌ • أَمَّاكَ كَانُونُ الْأَخِيرِ بِغَيْبِهِ
وَمِنْ شَبَاطٍ أَوَّلُ يُوَافِقُ • سَابِعَ أَمْسِيرِ حَسَابٍ صَادِقِ
أَوَّلِ آذَارِ إِذَا جَعَلْتَهُ • لَبْرَمَهَاتِ خَامَسًا وَجَدْتَهُ

أول يسان لدى التجريد « السادس المحدود من رمود
ومثله أبار مع بنس « واحدة مقرونة بخمس
أما حيزرات فيحسونه « أوله السابع من يؤنه
كذلك السابع من أييب « أول تموز بلا تكذيب
أول آب عند من يحصل « فأمين مسرى ذاك مالا مجهل

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة في بيت واحد، الحرف الأول
من الكلمة منه للشهر السرياني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام
التي إذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أدت تدب تبه كهك كوط أزا « أهب نوب أوب حزب تراحم
فالأنف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والهاء
إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففي
الرابع من توت يدخل أيلول، والياء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة
لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تسرين الأول، والياء من تبه
إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لتوت، والياء المتوسطة بينهما بخمسة ففي
الخامس من هاتور يدخل تشرين الثاني، والكاف أول من كهك إشارة لكانون
الأول والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كيهك
يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطوبه،
والواو بينهما بستة، ففي السادس من طوبه يدخل كانون الثاني، والأنف الأولى
من أزا إشارة لأشباط، والأنف الأخيرة إشارة لأمشير، والراي بينهما بسبعة،
ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والأنف من أهب إشارة لآذار، والياء إشارة
لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففى السادس من برموده يدخل نيسان ، والألف من أوب إشارة لأيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففى السادس من بشنس يدخل أيار ، والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففى السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من ترأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأيب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففى السابع من أيب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما ثمانية ، ففى الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغسطس ملك الروم) وهو قيصر الأول ، فأثنا عشر شهراً ، بعضها ثلاثون يوماً ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما فى شهور السريان ، وهى مطابقة لشهور السريان فى العدد ، مخالفة لها فى الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير ، ويوافق كانون الثانى من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفى أول يوم منه يكون القلداس ، ويوقد أهل الشام فى ليلته نيراناً عظيمة ، لاسمياً مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصرى . الشهر الثانى فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع أبريل ، ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايو . ويوافق أيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيو ، ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليو ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغسطس ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شنب ، ويوافق أيلول من شهور

السريان ، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ووافقته تسرين
الأول من شهور السريان ، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نونبر ،
ووافقته تسرين الثاني من شهور السريان ، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني
عشر دجنبر ، ووافقته كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ،
وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشوري فقال :

يَسِيرُ فَيَسِيرُ مَارِسٌ لِرُومٍ : أبريل مائة خامس المعلوم
يُنْبِئُهُ وَيُنْبِئُهُ ثُمَّ آغَشَتْ شَنْبِرُ : أكتوبر نونبر دجنبر

الطرف الثالث

(في السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول السنة والعام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ؛ وقد نطق القراءن بالأسماء الثلاثة قال تعالى :
(فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا) فاتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ،
وقال جل وعز : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) وقد تختص السنة
بالجذب والعام بالخُصْب . وبذلك ورد القراءن الكريم في بعض الآيات قال تعالى :
(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعِصْرُونَ) فعبر بالعام عن الخُصْب
وقال جل ذكره : (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَقَلْبِ مِمَّنْ الثَّمَرَاتِ) فعبر
بالسنين عن الجذب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الخُصْب أيضا في قوله
تعالى : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّهُ فِي سُنْبُلِهِ) . أما الحول
فإنه يقع على الخُصْب والجذب جميعا .

الجملة الثانية

(في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعية وأصلاحية كما تقدم في الشهور)

القسم الأول

(السنة الطبيعية : وهي القمرية)

وأولها استمالة القمر في غرة المحرم ، وآخرها سلخ ذي الحجة من تلك السنة ، وهي اثنا عشر شهرا هلالياً قال تعالى : ﴿ تَرَى أَنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ . وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وسدس يوم تقريباً ، ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم في كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي أجمع شيء ، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد ، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة ، وتسمى تلك السنين بكائس العرب .

قال السهلي : كانوا يؤثرون في كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، فلما كانت سنة حجة الوداع : وهي سنة تسع من الهجرة ، عاد الحج إلى وقته اتفاقاً في ذي الحجة كما وضع أولاً فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : "إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" ، بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحجة . وفي بعض التعاليق أن سبب العرب كانت موافقة لسبب الفرس في الدخول والأستلاخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكبس في أول السنة السادسة من ملك أعيطش ، وذلك بعد ملك ذي القرنين بامتئين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسئوا كبس

الربع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سنينهم بعد ذلك الوقت محفوظةً المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سنيها إلى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعملوا الكهس من اليهود والله أعلم
أي ذلك كان .

القسم الثاني

(الأصلاحية : وهي الشمسية)

وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم
دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما بحملة واحدة وإما بتفرقة وسمتها
سنيئاً ، بحسب ما اصطالحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف : من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حذائق المفسرين في قوله
تعالى ﴿ وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية
فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة هي تفاوت
زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلثمائة سنة تسع سنين لا يُحْتَلُّ بالحساب أصلاً
قال صاحب " مناهج الفكر " ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسْقِطُونَ عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنةً ويسمونها سنة الأزديلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
القرآن من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
 المصطلح الأول - مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين
 يوما كما تقدم فإذا انقضت الاثنا عشر شهرا اضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام
 النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة اضافوا إلى خمسة
 النسيء المذكورة ما اجتمع من الربيع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية
 فتصير سنة أيام ، ويجعلونها كيسة في تلك السنة ، وبعض ظرفاتهم يسمي الخمسة
 المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس . وكانوا من قبل
 يتركون الربيع إلى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى
 وستين سنة ويسقطونها من سنينهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية
 في الإقطاعات ، والزرع ، والحراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس ؛ وشهورهم كمشهور القبط في عدد الأيام
 على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع من شهورهم اضافوا إليه
 الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة
 الاندركاه ، ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في أيام الشهر ؛ ولما لم يحز في معتقدهم
 كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه إلى أن يتم
 منه في مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يلي فيها بهرك ،
 قال المسعودي في "مروج الذهب" وإنما أخروا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن
 أيامهم كانت سعوذا ونحوها فكروا أن يكبسوا في كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك
 أيام السعوذ إلى أيام النجوس ، ولا يكون التبروز أول يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يلا ما تقدم . (٢) في مروج الذهب - الحارث . وفي النزه - بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُعْبَى الحَرَّاج للخفاء، وتُتَمَشَّى الأحوال البدوانية في بداية الأمر وعليه العمل في العراق وبلاد فارس إلى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدم : من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها، وتارة ناقصة عنها، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيء في شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والفُرس موزعة على رؤوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين : وهي تشرين الأول، وكانون الأول، وكانون الثاني، وآذار، وأيار، وتموز، وآب، فتكون الزيادة سبعة أيام بكل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهي نظير النسيء في سنة القبط والفُرس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية، فإذا انقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملقاة إلى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذي كبسه القبط ويضيفونه إلى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قريّة كالعربية كما تقدم فقد اضطُروا إلى أن تكون سنتهم شمسية : لأنهم أمروا في التوراة أن يكون عيد الفطر في زمان القريك فلم يتأت لهم ذلك حتى جعلوا سنينهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهي القمرية ، والثاني معبارة ، ومعناه كبيسة وهم يكتبون شهرا كاملا ، ومعبارة أسم موضوع عندهم على الكامل ، فإنه لما كان في بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها بإضافة الشهر المكبوس إليها، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها حسارين ومعناه ناقصة ، وهي التي يكون الشهر الثاني والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ؛

والنوع الثاني سلاميم ومعناه ناقة، وهي التي يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين ناقما، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة، وهي التي تكون أشهرها ناقص يتلوه نام، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يميزون أن يكون رأس سقيم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معيارت فإنها تكون في كل تسع عشرة سنة سبع مرات . ويسمونها الجملة مخزورا ومعناه الدور، وهذه السبعة لا تكون على التوالي، وإنما تكون نارة سنتان بشيطان يتلوها معيارت، ونارة سنة بشيطان يتلوها معيارت، كل ذلك حتى لا تخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التي لا يختارونها أن تكون أول سقيم، فإذا انقضت آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثاني، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا ومحلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المتجمين فالسنة عندهم من حلول الشمس في أول نقطة من رأس الحمل إلى حلولها في آخر نقطة من الحوت، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس في أول نقطة من رأس الميزان إلى حلولها في آخر نقطة من الثبلية . والأول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هي من كون الشمس في نقطة ما من فلک البروج إلى عودها إلى تلك النقطة، ويقال إن سنة الهند والمرترقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح، وبه يعملون في الإقطاعات ونحوها .

الجملة الثالثة

(في فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مهائج)

المهيج الأول

(في الحكمة في تغيير الفصول الأربعة في السنة)

وأعلم أن الفصول تختلف بحسب اختلاف طبائع السنة لتباين مصالح أوقاتها
حكمة من الله تعالى . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلى تغيير الفصول ، فالشتاء
للتجميد ، والصيف للتخليل ، والخريف للتدريج ، والربيع للتعديل . وعلى ذلك
يقال : إن أصل وضع الحُمام أربعة بيوت بعضها دون بعض على التدريج ترتيبها
على الفصول الأربعة .

المهيج الثاني

(في كيفية انقسام السنة الشمسية إلى الفصول)

وأعلم أن دائرة منطقة البروج لما قاطعت دائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين
مال^(١) عنهما في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد فالنقطة التي تجوز عليها الشمس
من ناحية الجنوب إلى الشمال عن معدل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي ،
وهي أول الحمل ، والنقطة التي تجوز عليها من الشمال إلى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال
الخريفي : وهي أول الميزان . ويتوهم في الفلك دائرة ثالثة معترضة من الشمال إلى
الجنوب تمر على أقطاب تقابل الدائرة المخطوطة على الفلكين تقطع كل واحد من
فلك معدل النهار وفلك البروج بنصفين ، فوجب أن يكون قطعها لفلك البروج على

(١) لعله مال تصنها في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب كما استفاد من المقرئ .

النقطتين اللتين هما في غاية الميَل والبُعد عن معدّل النهار في جهتي الشمال والجنوب :
 فتسمى النقطة الشمالية نُقطة المُتَقَلِّبِ الصَّيفِيِّ : وهي أَوَّلُ السَّرَطَانِ ؛ وتسمى النقطة
 الجنوبية نُقطة المُتَقَلِّبِ الشِّتَوِيِّ ، وهي أَوَّلُ الجَدِيِّ . واختلافُ طبائع الفصول
 عن حركة الشمس وتقلُّبها في هذه النقط ، فإنها إذا تحركت من الحمل ، وهو أَوَّلُ
 البروج الشمالية أخذَ الهواءُ في السَّخُونَةِ لقربها من سَمْتِ الرُّؤْسِ وتواتر الإسخان إلى
 أن يصل إلى أَوَّلِ السرطان ، وحينئذ يشتدَّ الحَرُّ في السَّرَطَانِ والأَسَدِ إلى أن تصل
 إلى الميزان ، فحينئذ يطيبُ الهواءُ ويَسَدُّ ، ثم يأخذُ الهواءُ في البرودة ويتواترُ إلى
 أَوَّلِ الجَدِيِّ ، وحينئذ يشتدَّ البَرْدُ في الجَدِيِّ والدَّلُو لُبُعدِ الشمس عن سَمْتِ الرُّؤْسِ
 إلى أن تصل إلى الحَمَلِ فتعود الشمس إلى أَوَّلِ حركتها .

المهيج الثالث

(في ذكر الفصول ، وأزمنتها ، وطبائعها ، وما حصة كلِّ فصل منها)

من البروج والمنازل ؛ وهي أربعة فصول)

الأوَّلُ - فَصْلُ الرَّبِيعِ - وأبداؤه عند حُلُولِ الشمس برأس الحَمَلِ . وقد تقدّم
 ومدته أحدُ وتسعون يوماً وربعُ يومٍ ونصفِ ثَمَنِ يومٍ . وأوَّلُهُ حُلُولُ الشمس برأسِ
 الحَمَلِ ، وآخرُهُ عند قطعها بَرَجِ الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر ، والزَّهْرَةَ ؛ ومن
 المنازل السَّرَطَانِ ، والبَطِينِ ، والأُرْيَا ، والدَّبْرَانِ ، والمَقَمَّةِ ، والمُهَنَّةِ ، والدَّرَاعِ بما
 في ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ؛ ومن الرياح
 الجنوب ؛ وطبعه حارٌّ رطب ؛ وله من السنن الطُّفُولِيَّةُ والحَدَاثَةُ ؛ ومن الأخلاط
 الدَّمُ ، ومن القوى الهاسِئِمَةُ . وفيه تحوُّكُ الطبائع ، وتظهِرُ الموادُّ المتولدة في الشَّاءِ ،
 فيطلُعُ النباتُ ، وتُزهِرُ الأشجارُ وتُورِقُ ، ويهيج الحيوانُ للسَّفَادِ ، وتذوب الثلوجُ ،

وتتبع العيون ، وتسيل الأودية ، وأخذت الأرض زخرفها وأزانت فتصير كأنها
عروس تبتت لخطابها ، في مصبقات ثيابها ، ويقال : إذا نزلت الشمس رأس
الحمل تصرم الشتاء ، وتنفس الربيع ، وأخالت الأرض في وشيها البديع ، وتبرجت
للنظارة ، في معرض الحسن والنضاره .

ومن كلام الوزير المغربي : لو كان زمن الربيع شخصاً لكان مقبلاً ، ولو أن الأيام
حيوان لكان لها حلياً ومجلاً : لأن الشمس تخلص فيه من ظلمات حوت السماء ،
تخلص بؤس من ظلمات حوت الماء ، فإذا وردت الحمل وافت أحب الأوطان
إليها ، وأعز أما كنما عليها .

وكانت عبدوس الخراعي يقول : من لم ينتهج بالربيع ولم يستمتع بأنواره ،
ولا أستروح بنسيم أزهاره ، فهو فاسد المزاج ، محتاج إلى العلاج .

ويروى عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله "فهو فاسد المزاج" فهو عديم
حسب ، أو سقيم نفس . وجلالة محل هذا الفصل في القلوب ، ولنزوله من النفوس
تزلة الكعب الخلوب ، كانت الملوك إذا عدمته استعملت ما يضيئه زهره من
البسط المصورة المنقشه . والمبارق المنقوشة . وقد كان لأتوشروان بساط
يسميه بساط الشتاء مرصع بأزرق الياقوت والجواهر وأصغره وأبيضه وأحمره .
وقد جعل أخضره مكان أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزهر والنوار . ولما أخذ
هذا البساط في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في واقعة القادسية ، حمل إليه فيها
إفاء الله على المسلمين ، فلما رآه قال : " إن أمة أدت هذا إلى أميرها لأبنة " ثم
مرقه فوق منه لعل عليه السلام قطعة في قسمه مقدارها شبر في شبر فباعها بخمسة
عشر ألف دينار .

وقد أطلب الناس في وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بما يقصر عن شرحه ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التغالى ، وفضلوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي ، وما أحلى قول البحرى ! :

أناك الربيع الطلق يتنال ضاحكاً * من الحُسن حتى كاد أن يتكلمنا
وقد نبه التوروز في غسق الدجى * أوائل ورد كُن بالأمس نوماً
بفتحها برد الندى فكأما * بيت حديثاً بينهن مكنما
ومن شجر رد الربيع رده * كما نشرت نوباً عليه مكنما
أحل فنبى للعبون بشاشة * وكان قدى للعين إذ كان محرماً
ورق نسيم الحو حتى كأما * يحيى بانفاس الأجابة نوماً
وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوى :

أوما ترى الأيام كيف تبرجت * وربيعها وإل عليها قيم ؟
ليست به الأرض الجمال فحسبها * متأزر بروده متعم
أظُر إلى وثى الرياض كأنه * وشئ تشبه الألف يئتم
والنور يهوى كالعقود تبدت * والورد يجعل والأفاحي تيسم
والطل ينظم فوقهن لآلينا * قد زان منهن الفرادى النوعم
وبكاد يذرى الدمع ترجسها إذا * أضحى ويقطر من شقاتها الدم

ومنها :

أرض تباهياً السماء إذا دجا * ليل ولاحت في دجاها الأجم
فليخضرة أحو أخضر أرياضها * ولزهرة زهر نور يجم
وكأ يسق سنا الحجره بحرهم * وإد يسق الأرض طام مقم
لم يبق إلا الدهر إذ باهت به * وحيأ يعود به ملك مرهم

وقول الآخر :

طَرَقَ الحَيَاءُ بِرَّهَ المَشْكُورِ * أهْلَابِهِ مِنْ زَائِرٍ وَمَرْوَرٍ !
 وَحَبَابَ الرِّيَاضِ غِلَالَةً مِنْ وَشِيهِ * بَغْرَابِ التَّقْوِيْفِ وَالتَّحْيِيرِ
 وَأَعَارَهَا حَلِيًّا تَأْتِي الغَيْثُ فِي * تَرْصِيْعِهِ بِجَوَاهِرِ المَنْشُورِ
 بِمُورِدِ كَمُورِدِ البِاقُوتِ فَآ * رَبِّ أَيْضًا كَمَصَاعِدِ الكَاثُورِ
 وَمُعَضِّفِي شَرِيْقٍ وَأَصْفَرِّ فَاقِعِ * فِي أَخْضِرِ كَالسُّنْدِسِ المَنْشُورِ
 فَكَأَنَّ أَرْزَقَهُ بِقَابًا إِثْمِيْدِ * فِي أَعْيُنِ مَكْحُوْلَةٍ بِفُتُوْرِ
 كَلَّمَتْ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمَّ * أَغَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمُخْضُورِ

وقول الآخر :

اشْرَبْ هَيْنَا قَدْ آنَاكَ زَمَانٌ * مَتَعَطَّرَ مَتَهَلَّلَ تَشْوَانُ
 فَالْأَرْضُ وَشَيْءٌ وَالنَّسِيمُ مُعْبَرٌ * وَالْمَاءُ رَاحٌ وَالمَطْيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثم يوم
 وابتدأؤه إذا حلت الشمس رأس السرطان، وانهائه إذا أتت على آخر درجة من
 السنبلة، فيكون له من البروج السرطان، والأسد، والسنبلة . وهذه البروج تدل
 على الشكون، وله من الكواكب المريخ والشمس، ومن المنازل النثرة، والطرف،
 والجهة، والزرة، والصرفة، والعمواء، والسيك يتداخل فيه؛ وله من الساعات
 الرابعة والخامسة والسادسة، ومن الرياح الصبا، وطبعه حار يابس، وله من السن
 الشباب، ومن الأخلاط المرة الصفراء، ومن القوى القوة النفسية والحيوانية .
 وللرب في هذا الفصل وغرات : وهي الحرور، ومنها وغرة الشمري، وغرة
 الجوزاء، وغرة سهيل، أولها أقواها حراً، يقال إن الرجل في هذه الوغرة يعطش
 بين الخوض والبر، وإذا طلع سهيل ذهبت الوغرات، وتسمى الرياح التي في هذه

الْوَعْرَاتِ الْبَوَارِحِ ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ يَسَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا بَرَحَ الظُّبْيُ إِذَا أَتَاكَ مِنْ يَسَارِكَ ، وَقَدْ أَوْلَعَ النَّاسُ بَيْنَ لَفْحَاتِ الْحَزِّ وَسُمُومِهِ ، وَأَتَوْنَا فِيهِ بَدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِّ نَحْمَامَ عُمُومِهِ . وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَوْقَدْتَ الظَّهِيْرَةَ نَارَهَا ، وَأَذْنَكْتُ أَوَارَهَا ، فَأَذَابَتْ دِمَاعَ الضَّبِّ ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ ، هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ العُشَاقِ ، إِذَا اسْتَمَلَتْ فِيهَا نَارُ الفِرَاقِ ؛ حَرَّهْرَبُ لَهُ الحِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَتَسْتَجِيرُ بِتَرَاكُمِ الرُّمْسِ ؛ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ تَلْجٌ وَلَا خَيْشٌ ؛ فَهُوَ كَالْقَلْبِ المَهْجُورِ ، أَوْ كَالنُّتُورِ المَسْجُورِ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمْ : وَهُوَ ذُو الرِّمَّةِ حَرٌّ هَاجِرَةٌ فَقَالَ :

وَهَاجِرَةٌ حَرُّهَا وَإِقْدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِي

تَلُودٌ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَأْذَ الغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ

وَلَسَجْدٌ لِلشَّمْسِ حِرْبَاؤُهَا * كَمَا يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهِبِ

وَقَالَ سُوَيْرُ بْنُ المَضَرِّسِ :

وَهَاجِرَةٌ تُسْتَوَى بِالشُّمُومِ * جَنَادِيهَا فِي رُيُوسِ الأَثَمِ

إِذَا المَوْتُ أَخْطَأَ حِرْبَاءَهَا * رَمَى نَفْسَهُ بِالعَمَى وَالصَّمَمِ

وَقَالَ أَبُو العَلَاءِ المَعْرِي :

وَهَجِيْرَةٌ كَالهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِهَا * كَالْبَحْرِ لَيْسَ لِمَانِهَا مِنْ طُحْلِيبِ

وَإِنِّي بِهِ الحِرْبَاءُ عُودِي مَنِيْرٍ * لِلظُّهْرِ إِلا أَنَّهُ لَمْ يَحْطَبِ

وَقَالَ آخَرُ :

رُبَّ يَوْمٍ حَيْسَرُهُ مَنِيْضٌ * كَأَنَّهُ أَحْشَاءُ ظَمَانِ

كَأَنَّهَا الأَرْضُ عَلَى رَضْفَةٍ * وَابِلَسُوْهُ مَحْشُوْ بِنِيْرَانِ

وَبَالِغُ الأَمِيْرِ نَاصِرُ الدِّيْنِ بْنِ الفَقِيْسِيِّ فَقَالَ مِنْ أَيْرَاتِ :

فِي زَمَانٍ يَسُوءِ الوُجُوْةَ بِحَسْرَةٍ * وَيُنْدِبُ الحُسُومَ لَوْ كُنَّ مَحْفَرَا

لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَّتْ تَشْمُسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا
يَسْتَكِي الصَّبُّ مَا اشْتَكَى الصَّبُّ فِيهِ * وَلِحَرِيَابِهِ إِلَى الظَّلِّ حَرَا
وَيَبُودُ الغُصْنُ الرُّطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَمَرَّى
وقال أيضا يصف ليلة شديدة الحر

يَا لَيْلَةَ يَتَّ بِهَا سَاهِرَا * مِنْ شِدَّةِ الحرِّ وَقَرِطِ الأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِم * لَوْ أَنَّ لِلْعَصُورَةِ مِنِّي اسْتِنَارُ
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّيْبِ تَرْمِي الحَارِ

على أن أبا علي بن ريشيق قد فضله على فصل الشتاء فقال :

فَصَلُ الشِّتَاءُ مُبِينٌ لَا حَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفُ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَ
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ العِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الخُلْدِ إِنْ جَاءُوه نُسَاكَ
أَنْهَارُ تَحْرِيرٍ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتُ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَاكَ
فَقُلْ لِمَنْ قَالَ لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكْ ذَا * إِذَا تَحَضَّلَ عَلَى انْخِرَاكَ دُنْيَاكَ
سَمَّ الشِّتَاءُ بعبَّاسٍ تُصَبُّ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَسَمَّ الصَّيْفُ صَحَاكَ

الثالث - فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثم

يوم . وأوله عند حلول الشمس رأس الميزان ، وذلك في الثامن عشر من توت وإذا
بقي من أيلول ثمانية أيام ، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من القوس ،
فيكون له من البروج الميزان والعقرب والقوس ، وهذه البروج تدلُّ على الحركة ،
وله من الكواكب زحل ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطلع فيه مع الفجر
من المنازل الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعام والبلدة يتداخل فيه ،
وهو بارد يابس ، له من السن الكهولة ، تهيج فيه المرّة السوداء وتقوى فيه القوة
الماسكة ، وتهبُّ فيه الرياح الشمالية ، وفيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتصير

التَّشَارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُمزَلُ البهائم، وتموت المواتم، وتَجْمَعُ الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفينة، وتصير الأرض كأنها كَهْلَةٌ مُدْرَةٌ. ويقال: فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيعَ ربيعُ العين: فإنه ميقَاتُ الأقوات، وموسمُ النَّارِ وأوانُ شَبَابِ الأشجار، وللنَّفوسِ في آثاره مَرَجٌ. ولجُسُومِ بمواقع خيراته مستمتع. وقد وصفه الصابي فقال: "الخريف أصحُّ فصول السنة زماناً، وأسهلها أواناً، وهو أحد الأعتدالين المتوسطين بين الانقلابين". حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زُبدتها، وأطلقت السماء حَوَافِلَ أوائها، وأذنت بأنسكاب مائها، وصارت المَوارِدُ، كُتُونِ المَبَارِدِ: صفاءً من كَدْرها، وتهذيباً من عَكْرها، وأطراداً مع تَفحات الهواء، وحركات الرِّيحِ الشَّجْوَاءِ، وأكنت الماشيةُ وبرها التَّشْيِبَ، والطنائر ريشه العَجِيبَ".

ومن كلام ابن سهل: كلُّ ما يظهر في الربيع نُورُهُ، ففي الخريف نُجْتَى نَمَارُهُ.
وقال أبو بكر الصنوبري:

ما قُبِضَ في الرَّبِيعِ حَقَّ المَسْرَا * بِتِ مُضِيعٍ لِحَقِّهَا في الخَرِيفِ
نَحْنُ مِنْهُ عَلى تَلَقَّى شِئَاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أَوْ ودَاعَ عِصْفِ
في قَبِيصٍ مِنَ الزَّمَانِ رَقِيقِ * وَرِدَائِهِ مِنَ الهَوَاءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ المَاءُ فِيهِ حَوَقًا إِذَا مَا * لَمَسَتْهُ يَدُ النَّسِيمِ الضَّعِيفِ
وقال ابن الرومي يصفه:

لَوْلَا قَوَاكِمُهُ أَبْلُوهُ إِذَا اجْتَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ قَبْرِ رِقِّ الجُؤِ والمَاءِ
إِذَا لَمَّا حَفَلَتْ نَفْسِي إِذَا اشْتَلَّتْ * عَلى هَائِلَةِ الحَالِينِ عِزَاءِ
يَاجِدًا لَيْلُ أَبْلُوهُ إِذَا بَرَدَتْ * فِيهِ مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ شِجْوَاءُ !
وَنَحْمَشُ القُرْفِيهِ الحِلْدَ والنَّامِتْ * مِنْ الضَّعِيفِينَ أجسامٌ وأَحْشَاءُ

وَأَسْفَرَ الصَّمْرَ السَّارِي بَصْفَحِهِ * يَرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءُ
 بِل حَبْدًا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ نَحْوًا * يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاءُ
 قُلْ فِيهِ مَا شِئْتُمْ مِنْ فَضْلِ تَعْمَدُهُ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لَهِ بَيْضَاءُ
 وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طَابَ شُرْبُ الصَّبُوحِ فِي أَيْلُولٍ * بَرَدَ الظَّلِّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
 وَخَبَّتْ لَفْحَةُ الْهَوَا حِرْعَنَا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
 وَخَرَجْنَا مِنَ السَّمُومِ الْهَائِرِ * دَسِيمٍ وَطِيبِ ظِلِّ طَالِيلِ
 فَكَأَنَّمَا نَزَادُ فَرَبَا مِنَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
 وَوَجْهُهُ الْبِقَاعُ تَنْظُرُ الْغَيْثَ * أَنْ يَنْظَرَ الْجِبَّ رَدَّ الرُّسُولِ

وقريب منه قول الآخر :

اشْرَبْ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ فَقَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنَّدْمَانِ أَطِيبُ حَادِ
 وَأَشْتَمْنَا بِاللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فَأَرْتَا حَتَّى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
 وَأَفَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَّامَ الْحَيَا * فَالْأَرْضُ لِلْمَطَارِ فِي أَسْتِعْدَادِ
 كَمْ فِي صَمَائِرِ تُرْبِهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِسَبِيلِ بَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادِ
 تَبْدُو إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِعَادِ
 وما يقرب منه قول بحظرة البرمكي :

لَا تَصْغَ لِّلْوَمِّ إِنْ الْيَوْمَ تَضَلَّلْتُ * وَأَشْرَبْتُ فِي الشَّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ
 فَقَدْ ضَيَّ الْقَيْظُ وَأَجْتَمَعَتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آتَى أَيْلُولُ
 وَابَسَ فِي الْأَرْضِ بَيْتٌ يَسْتَكِي مَرَّهَا * إِلَّا وَنَظَرُهُ بِالطَّلِّ مَكْحُولُ

وبالغ بعضهم فسوى بينه وبين فصل الربيع فقال في ضمن تهنية لبعض إخوانه :

هَنَيْتَ إِقْبَالَ الْحَرِيرِ كَيْفَ وَفُزْتَ بِالْوَجْهِ الْوَدَّ :

تَمَّ اعْتِدَادُ الْآلِ فِي الْكَمَا ۞ لِجَاءِ فِي حَلْقِ سَوِي
فَكَرَى الرَّبِيعَ بِحُسْبِيهِ ۞ وَبَسِيمِ رِيَاهُ الدَّيْكَى
وَيَسُوبُ وَرَدَ الرَّعْفَرَا ۞ نِ لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْبَحْسِي

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله على فصل الربيع الذي هو سيد الفصول ورئيسها :

مَحَاسِنُ لِلْفَرِيفِ لَهْنُ فَخْرُ ۞ عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ وَأَيُّ فَخْرٍ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدِ ۞ يُرَاقِبُ تَرْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تدمه لاستيلاء الميزة السوداء فيه، ويقولون إن هواءه رديء

مما تشبث بالحسم لا يمكن تلافيه، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

حَدَّثَ فِي التَّدَثُّرِ فِي الْحَرِيفِ فَانَّهُ ۞ مُسْتَوْبِلٌ وَيَسِيمُهُ حَطَّافُ
يَجْرِي مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى سَاقِيهَا ۞ لِمَصْدِقِهَا وَمِنَ الصِّدِيقِ يُخَافُ

الربيع - فصل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوماً وربيع يوم ونصف من يوم، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى، وذلك في الثامن عشر من كيهك، وإذا بقي من كانون الأول ثمانية أيام، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت فيكون له من البروج الجدى والدلو والحوت، وهذه البروج تدل على السكون، والظالم فيه مع الفجر سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعد، وسعد الأخبية، والفرع المقدم والفرع المؤخر، والرشاء. فيه هب رياح المديور، وهو بارد رطب، فيه يبيح البلغم، وتضعف قوى الأبدان. له من السن الشجوخة ومن القوى البدنية القوة الدافعة، وفيه يشتد البرد، ويحس الهواء، ويتساقط ورق الشجر، وتتجر الحيات، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو وتصير الأرض كأنها عجوز هريمة، قد دنا منها الموت، وله من الكواكب المشتري وعطارد. ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة. ويقال إذا حلت الشمس الجدى مد الشتاء رواقه، وحل نطقه، ودبت

عقاربُ البردِ لاسبِه • ونفعُ مدَّخرِ الكسبِ كاسبِه • وللبلغاءِ في وصفِ حالِ من
أظله ، مُلحٌ تدفعُ عنِ المقرورِ متى استعدَّ بها طَلَهَ ووبَلَهَ •

فمن ذلك قول بعضهم يصف شدَّةَ البردِ: "بردٌ يغيِّرُ الألوانَ ، وينشِفُ الأبدانَ ،
ويجمِّدُ الرِّيقَ في الأشداقِ ، والدَّمعُ في الآفاقِ ؛ بردٌ حالٌ بينَ الكلبِ وهَريرِهَ ،
والأسدِ وزَئيرِهَ ، والطيرِ وصَفيرِهَ ، والماءِ ونحريرِهَ " •

ومن كلامِ الفاضلِ : "في ليلةٍ جمَدِ نحرُها • ومجدِ جمرُها ؛ إلى يومِ تودُّ البصلةُ لو
أزدادت قُصاً إلى قُصمها ، والشمسُ لو جرتِ النارُ إلى قُوصها ؛ أخذه بعضهم فقال :

ويومنا أرياحُه قَرَّةٌ • تُحْمِشُ الأبدانَ من قُوصها

يومٌ تودُّ الشمسُ من بَرِّه • لو جرتِ النارُ إلى قُوصها

ولابنِ حكيمنا البغدادي :

الْبَسُّ إِذَا قَدِمَ الشِّتَاءُ بَرُودًا • وَأَفْرَشَ عَلَى رِغَمِ الحِصِيرِ بُرُودًا

الرِّيقُ فِي اللُّهُوَاتِ أَصْبَحَ جامِدًا • والدَّمْعُ فِي الآفاقِ صَارَ بَرُودًا

وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الهَوَا • عَادَتِ إِلَيْكَ مِنَ العَقِيبِ عُقُودًا

وترى على بَرِّ المِياهِ طُيورَها • تَحْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسُّفُودًا

يا صاحِبَ العُودِينِ لا تُمِلْهُما • حَرِّقْ لَنَا عُودًا وَحَرِّكْ عُودًا

ولبعضهم :

شِتَاءٌ تَقْلِصُ الأَشداقَ مِنْهُ • وَبَرْدٌ يَجْعَلُ الشَّبَابَ شَيْبًا

وَأَرْضٌ تَرْتَلِقُ الأَقْدَامَ فِيهَا • فَما تَمَثَّلِي بِهَا إِلَّا دَيْبًا

ومن كلامِ الزمخشري :

أَقْبَلْتُ يا بَرْدُ يا بَرْدُ أَجْرِدُ • تَفْعَلُ بِالأنوَجِ هِجْلَ المِبرِدِ

أَيْطَلُ فِي الْبَيْتِ كَمِثْلِ الْمُقَعَّدِ * مُتَقِيضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ
لَوْ قَبِلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِلْبَيْعَةِ كَفًّا يُعْسِدُ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الحِصَالِ ، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ
قد صافحَ خيشومهُ ذَنبَهُ ، وأنكرَ البيتَ وطُنْبَهُ ، والتوى النواءَ الجُبَابَ ، وأسندار
استدارةَ الجُبَابِ ، وجلدهَ الجليدِ ، وضربه الضريبِ ، وصعدَ أنفاسه الصميدَ ، فحماه
مُبَاحٌ ، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاحٌ .

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد :

في ليلةٍ من جمادى ذاتِ أُنْدِيَةِ * لا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَائِهَا الطُّنْبَا
لا يَبْصِحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا
ولأبي القاسم التنوخي :

وَيْلَاةٌ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أَسْعَرَ نَارًا فَهُوَ مَتَلَوِّجُ
فَإِنْ بَسَطَتْ يَدًا لَمْ تَبْسُطْ خَصْرًا * وَإِنْ تَقَلُّ فَيَقُولُ فِيهِ تَتَبَّجُ
فَنَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ نُحْرَسْ ذُووُ حَرَسٍ * وَنَحْنُ فِيهِ وَلَمْ نُفْلَجْ مَقَالِجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثيرا الضباب :

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ مَقْرُورٌ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحَابِ مَزْرُورٌ
وَسَمُّهُ حَرَّةٌ مُحْدَرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورٌ
كَأَنَّ الْجَوْ حَشَّوهُ إِبْرَ * وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرُ

وحكى أن أعرابياً اشتد به البرد فاضاعت نأر فدنا منها ليصطلي ، وهو يقول :

اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة ! . أخذه بعضهم فقال وهو في غاية المبالغة :

أَيَارَبِّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالْحَيَا * وَأَنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ لَا تُعَلِّمُ
فَإِنْ كُنْتَ يَوْمًا مُدْخِ فِي جَهَنَّمَ * فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمَ

وقد أعتق^١ الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تغيب فيه
الهوام وتنجح الحشرات، ويموت الذباب، ويهلك البعوض، ويرد الماء، ويسخن
الجوف، ويطيب العناق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلد جرة البيت .
وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركت مقدمة الخريف حميده * وبدا الشتاء جديده لا ينكر
مطر يروق الصحو منه وبعده * صحو يكاد من الغضارية يطر
غيبان : والأنواء غيث ظاهر * لك وجهه والصحو غيث مضمّر
وقال أبو الفتح كشافه :

أذن الشتاء بلهوه المستقبل * فدنت أوائله بغيت مسبل
مستكثف الأنواء منغديق الحيا * هطل الندى هزج الرعود يجلجل
جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت * بالخصب أنواء السماء الأعززل
وقد ولىح الناس بذكر الاعتداد لها قديما وحديثا .

فيل لأعرابي ما أعددت للبرد ؟ فقال طول الرعدة، وتفرّص القعدة، وذوب
المعدة . أخذه ابن سكرة، فقال :

فيل ما أعددت للبر * د وقد جاء بشده
قلت ذراعة عري * تحتها جبه رعد

واعلم أن ما تقدم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب الدر أن العرب قسّمت السنة أربعة أجزاء يفعلوا
الجزء الأول الصقرية ، وسمّوا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو
السفلى ، وآخره سقوط الحقة ، وجعلوا الجزء الثاني الشتاء ، وأوله سقوط المنعة ،

(١) لعل الصواب وذرب بالراء بدل الواو .

وآخره سقوط الصرفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوط العواء ، وآخره سقوط الشولة . وجعلوا الجزء الرابع القيظ ، وسماه مطره الخريف ، وأوله سقوط النعائم ، وآخره سقوط عرقوة الدلو العليا .

وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" طريقاً آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتي فيه الورد والكجاة، والنور، ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تُدرِك فيه الثمار، وهو الخريف ، وهو فصل الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذي تسميه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ : وهو الذي تسميه العامة الصيف ، ومنهم من يسمي الفصل الذي تُدرِك فيه الثمار : وهو الخريف الربيع الأول، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتي فيه الكجاة والنور الربيع الثاني ، وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع" .

وفي بعض التعاليف أن من العرب من جعل السنة ستة أزمانه . الأول الوشمي وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي العواء ، والسمك والغفر ، والرَبَآن ، وثلاث الإكليل . الثاني الشتاء ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي ثلث الإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وثلاث الذابح . الثالث الربيع . وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة ، وهي ثلث الذابح ، وثلث الشعود ، والأخية ، والفرغ المقدم . الرابع الصيف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة ، وهي الفرغ المؤخر ، وثلث الحوت ، والشرطان ، والبطين ، وثلث الثريا . الخامس الحميم ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي ثلث الثريا ، والذبران ، والمقعة ، والهنمة ، والذراع وثلث الثرة . السادس

والخريف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وتُلَدَّ منزلة : وهي ، تلك المنزلة ، والطرف ، والجهة ، والخرتان ، والصرفة .

والأوائل من علماء الطب يسمون السنة إلى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصيف أطولَ زمانا وأزيدَ مُدَّة من الربيع والخريف ، فيجعلون الشتاء أربعة أشهر ، والصيف أربعة أشهر ، والربيع شهرين ، والخريف شهرين ، إذ كانا متوسطين بين الحار والبرد وليس في مُدَّتِهما طول ولا في زمانِهما اتساع .

وأعلم أن ما تقدم من تفضيل بعض الفصول على بعض إنما هو أقاويل الشعراء وأفانين الأدباء ، نغتنا في البلاغة ، والا فالواضع حكيم جعل هذه الفصول مشتملة على الحار تارة وعلى البرد أخرى لمصالح العباد ، ورثبها ترتيبا خاصا على التدرج ، يفهم ذلك أهل العقول وأرباب الحكمة ، جلَّتْ صِغَتُهُ أن تكون عِريَّة عن الحكمة أو موضوعة في غير موضعها ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطورٍ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرٌ ۗ ﴾

الطرف الرابع

(في أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس حمل)

الجملة الأولى

(في أعياد المسلمين)

واعلم أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان : عيد الفطر ، وعيد الأضحى . والسبب في اتخاذهما مارواه أبو داود في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيها ، فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا كُفَّا نلعبُ فيهما في الجاهلية ؛ فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بدلكم خيراً منهما يوم الأضحى، ويوم الفطر“
 فأقول ما يدعى به من العيدين عيد النظرة وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وروى
 ابن بطيوس في كتاب الأوائل أن أول عيد صحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة
 اثنتين من الهجرة ونرح إلى المصلى للصلاة، وحينئذ فيكون الميدان قد شُرعا في سنة
 واحدة؛ نعم قد ابتدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير . وسبب اتخاذهم له
 مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم على كرم الله وجهه يوم غدير خم وهو غدير على ثلاثة
 أميال من الحفة يسرة الطريق تصب فيه عين وحوله شجر كثير، وهي الغيضة التي
 تسمى نحاً . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل
 بالغدير وأتى بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وبين أحد منهم فرأى النبي صلى الله عليه
 وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال ”أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى
 إلا أنه لا نبي بعدي والتفت إلى أصحابه وقال من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم
 وال من وآله، وعاد من عاده“ وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة
 عشرين من الهجرة . والشيعة يُحبون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون في صديحتها ركعتين
 قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الحديد، وعتق العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجناب
 بالأهل في الإكرام . والشعراء والمتروكون يهتفون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(في أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جداً حتى إن علي بن حمزة الأصبهاني
 عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها، وسبب سلوكهم فيها، وقد اقتصرنا منها
 على المشهور الذي وكس الشعراء بذكره، وأعتنى الأمراء بأمره؛ وهي سبعة أعياد .

العيد الأوَّل الثَّوروز - وهو تعريبُ ثوروز ، ويقال إن أوَّل من اتخذَه جم شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرس ومعنى شاد الشُّعاع والضياء . وإن سبب اتخاذه لهذا اليوم عيداً أن الدِّين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جدده وأظهره ، فسَمَّى اليوم الذي ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفي بعض التماثيل أن جم شاد ملك الأقاليم السبعة والحق والإنس ، فاتخذ له عَجَلَةً رَكبها ، وكان أوَّل يوم ركبها فيه أوَّل يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدة ملكه لا يُرِيهم وجهه ، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجمال والفِرِّ ، فغسلوا يوم رؤيتهم له عيداً ، وسَمَّوه نوروزاً . ومن الفرس من يزعم أنه اليوم الذي خلق الله فيه النور ، وأنه كان معظماً قبيل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوَّل الزمان الذي ابتدأ الفلك فيه بالدوران . ومدته عندهم ستة أيام أوَّلها اليوم الأوَّل من شهر افرودين ماه الذي هو أوَّل شهر سنتهم . ويسمُّون اليوم السادس الثوروز الكبير ، لأن الأكلسة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أسبهم مع ظرفاء خواصهم .

وحكى ابن المقفع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتي المملك رجل من الليل قد أُرصد لما يفعله ، فليح الوجه ، فيقف على الباب حتى يُصيح ، فإذا أصبح دخل على المملك من غير استئذان ، ويقف حيث يراه ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما أسمك ؟ ولأى شيء وردت ؟ وما معك ؟ فيقول : أنا المنصور ! وأسمى المبارك ! ومن قبل الله أقبلت ! والمملك السعيد أردت ! وبالثناء والسلامة وردت ! ومعى السنة الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من فِضَّة وعليه حنطة ، وشعير ، وجلبان ، وحمص ، وسنمسم ، وأرز : من كل واحد سبع سنبلات ، وسبع حبات ، وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديدان ، فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدخَل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة . ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يقدم للملك رغيف كبير من تلك الجيوب مصنوع موضوع في سلة ، فيأكل منه ويطعم من حضره ؛ ثم يقول : هذا يوم جديد ، من شهر جديد ، من عام جديد ، يحتاج أن يُجدد فيه ما أخلق من الزمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه دولته ، ويصلحهم ، ويفرق عليهم ما وصل إليه من الهدايا .

وأما عوام الفرس فكانت عادتهم فيه رفع النار في ليلته ، ورش الماء في صبيحته ؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العقوبات التي أبقاها الشتاء في الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويها بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا في رش الماء : إنما هو بمنزلة الشهيرة لتطهير الأبدان مما أنضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزيد جرد لما استقم سورج ، وهي أصبان القديمة لم تمطر سبع سنين في ملكه ؛ ثم مطرت في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به ، فصار ذلك سنة عندهم في ذلك اليوم من كل عام ، وما أخل قول بعضهم يخاطب من يهواه ، ويذكر ما يعتمد في البروز من شب النيران وصب الأمواه :

كَيْفَ آتَيْتَ بِهَا جُكَّ النَّيْرُوزِ بِأَسْكَنِي ۞ وَكُلُّ مَا فِيهِ يَمُكِّنِي وَأَجْبِرِي

فِتَارَةَ كَلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْسِدِي ۞ وَتَارَةَ كِتَوَالِي عَابِرِي فِيهِ

أَسَأَمْتَنِي فِيهِ يَا سُوْلِي إِلَى وَصَيْبِ ۞ فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأول من رسم هدايا النيروز والتمهرجان في الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفي ،

ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، واستمر المنع فيه إلى أن فتح باب

الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب فإنه أهدى فيه لأموون سسقط ذهب فيه قطعة
عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معه : هذا يوم بخرت فيه العاده، بإتحاف
العبيد الساده، وقد قلت :

عَلَى الْعَبْدِ حَقٌّ وَهُوَ لَأَشْكُ فَاعِلُهُ • وَإِنْ عَظُمَ الْمَوْلَى وَجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ
أَلَمْ تَرْنَا نُهِدَى إِلَى اللَّهِ مَالَهُ • وَإِنْ كَانَ عَنْهُ ذَائِعِي فَهُوَ قَابِلُهُ
فَلَوْ كَانَ يُهِدَى لِلْجَلِيلِ بِقَدْرِهِ • لَقَصَّرَ عَنْهُ الْبَحْرُ يَوْمًا وَسَاحِلُهُ
وَلَكِنَّا نُهِدَى إِلَى مَنْ نُجِلُّهُ • وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا مَا يَشَاكُلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز: هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد
الإهداء للملوك ، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ، ولم أجد فيما
أملك ما يقى بحسك ، ووجدت تهريظك أبلغ في أداء ما يجب لك ، ومن لم يؤت
في هديته ، إلا من جهة قدرته ، فلا طعن عليه .

هذا ما يتعلق بنيروز الفرس من ذكر الهدايا فيه ، وإيقاد النار، ورش الماء ،
واقب من سته . وأما تعلقه بالخراج فسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند
الكلام على جباية الخراج في فن الديونة .

العيد الثاني من أعياد الفرس المهرجاء - وهو في السادس والعشرين من تشرين
الأول من شهور السريان ، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس ، وفي التاسع
من أبيب من شهور القبط ، وبينه وبين النيروز مائة وسبعة وستون يوما ، وهذا
الأوان في وسط زمان الخريف ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَحِبُّ الْمَهْرَجَانَ لِأَنَّ فِيهِ • سُرُورًا لِللُّوكِ دَوَى السَّنَاءِ
وَبَابًا لِلصَّيْرِ إِلَى أَوَانٍ • تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

ومدته ستة أيام، ويُسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، كما يُسمى اليوم السادس من أيام التبروز عندهم التبروز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم بهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان فهم ملك يُسمى مهر، يسير فيهم بالنعف والعسف، فبات في النصف من هذا الشهر، وهو مهرماء، فسُمي ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبية، والفرس تقدم في لغتها ما توارحه العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهي الفارسية الأولى. وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح، وفي ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إذا ما تحقّق بالمهراجا * ن من ليس يعرف معناه غاظا

ومعناه أن غلب الفرس فيه * فسَموه للروح فيه حفاظا

ويقال إنما ظهر في عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدراك الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثأر جدته جم شاد من الضحّاك، فانه كان أفسد دين الجوسية وخرج على جم شاد فأخذ منه الملك وقتله، فلما غلبه افريدون قتله بجبل دُنباوند، وأعاد الجوسية إلى ما كانت، فأخذ الفرس يوم قتله عبدا، وسَموه مهرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعض الفرس أن الضحّاك هو التبرود وافرديون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المهرجان هو اليوم الذي عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية. وكان منذهب الفرس في المهرجان أن يَدِين ملكهم بدهن البان تبركا، وكذلك العوام، وأن يلبس القصب والوثى، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وجمحتها الماثرة عليها، ويكون أول من يدخل إليه الموبدان يطبق فيه

أُرْجَةٌ ، وَقِطْعَةٌ سُكَّرٌ ، وَبَيْقٌ ، وَسَفْرَجَلٌ ، وَعُتَابٌ ، وَتُقَاحٌ ، وَعِنْدُودٌ عَيْبٌ أبيضٌ ،
وسبع طافيت آس ، قد زَمَزَمَ عليها ، ثم تدخُلُ الناسَ على طبقاتهم بمثل ذلك ، وربما
كانوا يذهبون إلى تفضيله على التيروز ، وفيه يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَخَا الْفُرْسِ إِنْ الْفُرْسِ تَعَلَّمَ إِنَّهُ ۖ لِأَطْيَبُ مِنْ تِيرُوزِهَا مَهْرَجَانُهَا
لِلدِّبَارِ أَيَّامٌ يَغْمُ هَوَاؤُهَا ۖ وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ تَسُرُّ زَمَانُهَا

قال المسعودي : وأهل المُرُوات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يعملون هذا
اليوم أوَّلَ يومٍ من الشتاء فيغيرون فيه الفُرسَ والآلاتِ ، ذكورا من الملابس .

العيد الثالث السَّدَقُ - ويسمى أبان روز ، ويعمل في ليلة الحادي عشر من شهر
بهمن ماه من شهور الفُرس ، وسُنَّتْهم فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان واللُّوْع بها حتى
إنهم يلقون فيها سائر الحُبوب ، ويقال إن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأول ،
وهو عندهم كيومرت لما كل له من ولده مائة ولد زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم
عُرْسًا أكثر فيه وثمود النيران ، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسأمت ذلك الفرس
بعده . وقد وليت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرزي يصف سَدَقًا

عمله السلطان ملكشاه بدجلة ، أشعل فيه النيران والشموع في السَّمَارِيَّاتِ من أبيات :

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَاقِ مُضْرَمَةٌ ۖ مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ وَأَشْتَبَهَتْ ۖ بِسُدْفَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَاقِ
وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا الْبَدْرَ وَأَصْطَلَحَا ۖ عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِيقِ
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا ۖ مَا بَيْنَ مُجْتَمِعٍ وَإِرْمَقِ تَرِيقِ
يَمِثِلُ الْمَصَابِيحَ إِلَّا أَنَّهَُا تَرَأَتْ ۖ مِنَ السَّمَاءِ بِلَا رَجْمٍ وَلَا حَرِيقِ
أَنْجِبَ يَنْتَارِ وَرِضْوَانٌ يَسْمَعُهَا ۖ وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرِيقِ
فِي مَجْلِسٍ صَحَّكَتْ رَوْضَ الْجَنَانِ لَهُ ۖ لِمَا جَلَّ نَعْرُهُ عَنِ وَاضِحِ بَقِيقِ

(١) كذا في نهاية الأرب أيضا والظاهر السَّمَارِيَّاتِ وهو اسم لتروع من المعن .

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :

لَبِنْتُنَا حُسْنَهَا عَجِيبٌ ۞ بِالْقَصْفِ وَالتَّيِّبِ قَدْ تَحَقَّقَ
لِنَارِهَا فِي السَّيِّئَاتِ ۞ عَنِ نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ
وَالْحَوْثُ مِنْهَا قَدْ صَارَ بَحْرًا ۞ وَالتَّحْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يُحْرِقُ
وَدِجَلَةُ أَضْرِمَتْ حَرِيفًا ۞ بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زَوْرِقِ
فَأَوْهَا كَكَلَّةٍ حَمِيمٍ ۞ قَدْ فَارَ مِمَّا عَلَى وَبَقِيَ

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَذْكَى المَعَامُ بِأَرْضِهِ ۞ مُسَهَّرَةً يَتَنَاهَا الفَخْرُ صَالِبًا
أَجِيبُ النُّجُومِ الزُّهْرِ عِنْدَ طُلُوعِهَا ۞ وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا
قِلَادَةً مَجْدٍ أَغْفَلَ الدَّهْرُ نَظْمَهَا ۞ عَلَيْهِ وَقَدْ السَّيِّئِينَ الخَوَالِيَا
هِيَ اللَّيَالِيَةُ الْفَرَاءُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ ۞ تُعَادِرُ جَيْدَ الدَّهْرِ أَبْلَجَ حَالِيَا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من تيرماه من شهور الفرس، زعموا أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوچهر وقراسياب التركي من المملوكة على رمية سهم، فأمتد السهم من جبال طبرستان إلى أعلى طحارستان .

العيد الخامس أيام الفروديجان - وهي خمسة أيام، أوها السادس والعشرون من أبان ماه من شهور الفرس، ومعناه تربية الروح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطمعة وأشربة لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تنبذ بها .

العيد السادس ركوب الكوتيج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهور الفرس، وسنتهم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كوتيج، قد أعد لما يصنع

به بأكل الأطعمة الحازة كالجوز، والثوم، واللحم السمين ونحوها، ويشرب الشراب
الصّرف أياما قبل حلول الشهر، فإذا حلّ الشهر لبس غلالة سابورية، وركب بقرة
وأخذ على يده غرابا، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثلج، وروحون
عليه بالمرّاح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحز الحز، يفعل ذلك سبعة أيام،
ومعه أوباش الناس ينهون ما يجذون من الأمتعة في الخوانيت، وللسلطان عليهم
مال، فإذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا .

قال المسعودى : ولا يُعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم، وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوثجج، وحكى الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوثجا كان يشرب في هذه الأيام المناء، ويطلي بدنه فيها فقلب عليها . وفي ذلك
يقول الشاعر :

قَد رَكِبَ الكُوثِجُ بِاصْبَاحٍ * فَأَنْزَلَ عَلَى الزُّهْرَةِ وَالرَّاحِ

وَأَنعمَ بِأَدْرِمَاهُ عَيْشًا وَحُدُ * مِنْ لَدُنَّ العَيْشِ بِأَفْبَاحِ

والسنة عندهم منقسمة على أقسام، في أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنهارات، زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليقة فهم
يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخذونه في يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وستهم
فيه أنهم يأكلون فيه البهمن الأبيض بالأبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤساء
نُراسان يعملون فيه اللدعات على طعام يطبخون فيه كل حب ما كولي ولحم حيوان
يؤكل، ويحضر ما يوجد في ذلك الوقت من بقل أو نبات .
فهذه أعياد الفرس المشهورة الدائرة بين عاقبتهم وخاصتهم .

الجملة الثالثة

(في أعياد القبط)

وأعلم أن أعياد القبط كثيرة ، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا في خلال شهر القبط مع ذكر غيرها ، وأوردنا كل عيد منها في يومه من شهر القبط . وربما ذكرنا بعضها أيضا في شهر السريان والروم ، على أن منها ما لا يتعلق بوقت مقيد كالقصح الأكبر عندهم ، فإنه متعلق بفطرهم من صومهم الأكبر ، وهو غير مؤقت بوقت معين ، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن تقتصر في هذا الفصل على المشهور من أعيادهم دون غيره ، ونبين أوقاتها ، ونشرح أسبابها . وهي أربعة عشر عيداً . وهي على ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأول

(الكبار : وهي سبعة)

العيد الأول الإشارة ، ويعنون به إشارة غبريال ، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السلام بيلاد عيسى صلوات الله عليه ، يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهر القبط .

الثاني الرثونة ، وهو عيد الشعانين ، وتفسيره بالعربية التسيب ، يعملونه في سابع أحد من صومهم . وسببهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة ، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور ، (وهو الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

الثالث الفصح ، وهو العيد الكبير عندهم ، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر ، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام ، وخلص آدم من

الجحيم ، وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء .
قاتلهم الله أنى يؤفكون .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشاميون السُّلاق : وهو الثاني والأربعون من
النِّطْر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تسلَّق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ،
ووعدهم بإرسال الفارقليط ، وهو رُوح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوماً من القيام ،
وهو في السادس والعشرين من شمس ، ويقولون إن رُوح القدس حلَّت في التلاميذ
وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلّموا بجميع الألسنة ، وذهب كلُّ واحد منهم إلى بلاد
لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من
أعمال فلسطين) ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهر القبط ، وهم
يقولون إنه ولد يوم الاثنين ، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون فيها
المصابيح بالكثاس ويزيّنونها .

السابع الفطاس ، يعملونه في الحادي عشر من طوبه ، من شهر القبط ، يقولون
إن يحيى بن زكريا عليه السلام وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام بحجرة
الأردن ، وأن عيسى لما نرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة ،
والتصاري يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد ، إلا أن عقبه
يحيى الوقت ، يقول المصريون : غطّستم صيقتم ، وتوزّتم ستّيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصَّغار . وهي سبعة أيام)

الأول الختان ، ويعملونه في سادس بثونة من شهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثاني الأربعون ، يعملونه في الثامن من شهر أُمشير من شهور القبط ، ويقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده الهيكل وبارك عليه ؛ تلك عقول أضلَّها باربها ، وإلا فإين مقام الكاهن من مقام عيسى عليه السلام . وهو روح الله وكنيته .

الثالث خميس المهدي ، يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام ، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئوه ماء ويرمزوا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ، ويرمعون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم يعامهم التواضع ، وأخذ عليهم المهدي أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، والعاقبة من النصارى يُسمون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس على ألوان .

الرابع سبت الثور ، وهو قبل الفصح بيوم . يقولون : إن الثور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس . قال صاحب "مناجح الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تحيلاتهم النيرنجية التي يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يعلقون القناديل في بيت المدبج ويحعلون في إيصال النار إليها بأن يتوا على جميعها شريطا من حديد في غاية الدقة مدهونا بدهن البلسان ودهن الزبق ، فإذا صلوا وجاء وقت الزوال فنحوا المدبج فتدخل الناس إليه ، وقد آشتلت فيه الشموع ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق

النار بطرف الشريط الحديد فتسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دهن البأسان دُلُوق النار فيه بمرعة مع أدنى ملامسة ، فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حد الحُدود ، وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، يعملونه أول أحد بعد الفطر : لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يجتدون الآلات وأثاث البيوت ، ومنه يأخذون في الاستعداد للعاملات والأمور الدنيوية .

السادس التجلي ، ويعملونه في الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رُفِع في هذا اليوم ، وتمنوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد وصعدا .

السابع عيد الصليب ، وهو في السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون : إن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبرجان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده ، فهم أن يسانهم ويفرض لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفوا عنه ، فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ، ومعها أعلام عليها صليبان فخاربت البرجان فانهزموا ، فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صليبا ثم قاتل بها البرجان فهزمهم ، فسأل من كان في بلده من التجار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زيته ؟ فقالوا له دين النصرانية وإنه في بلد القدس والخليل من أرض الشام . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه ، وأن ينصوا لشهورهم ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البرجان جنس من الروم (فاموس) .

أن رُسُلَ عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبلُ يأمرؤنهم بالاعتقاد بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومثلوا بهم هذه المثلة نكالا لهم ففعلوا ذلك تأسياً بهم .
ولما تنصّر قسطنطين خرجت أمه هيلاني إلى الشام فبنت به الكنائس ، وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي زعمت النصارى أن المسيح صُلب عليها فحُملت إليها فغشّتها بالذهب ، وأخذت ذلك اليوم عيداً .

وسأقي الكلام على ذلك مفصلاً في ترجمة قسطنطين في خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين استولوا على الديار المصرية ، وفي ذكرنا هنا مقتع والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النيروز ، وهو أول يوم من سنتهم ؛ وإن لفظة النيروز فارسية معربة ، وكان القبط والله أعلم أخذوا ذلك على طريقة الفرس واستماروا اسمه منهم فسوّوا اليوم الأول من سنتهم أيضاً نيروزاً وجعلوه عيداً .

قال في "مناجح الفكر" وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور ، وإيقاد النيران ، وصبّ الأمواه أضعاف ما يفعله الفرس ؛ ويشاركهم فيه العوام من المسلمين .

قال المسعودي : وأهل الشام يعملون مثل ذلك في أول سنتهم أيضاً ، وهو أول يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثاني : وهو الشهر الرابع من شهور السريان ؛ وذلك في السادس من طوبة من شهور القبط ، ويسمونه القلنداس ، إلا أن أهل مصر يزيدون فيه التصانف بالأطباع ، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يتجربوا على الرجل المطّاع ؛ ولولا أن ولاة الأمر يدعونهم ويمنعونهم من ذلك ، لمنعوا الطريق من السالك ؛ وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم .
والذي استقر عليه الحال بالديار المصرية إلى آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون على رَشِّ الأمواه والتصانف، وترك الاحتشام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصته .

ولهم أعياد ومواسم سوى ما تقدم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهي :

عيد سيفورس، وعيد متى الإنجيلي، وهما في الثاني من توت . عيد سمعان الحبيس؛ وهو في الرابع من توت . عيد ماما؛ وهو في الخامس من توت . عيد شميا؛ وهو في السادس من توت . عيد ساويرس؛ وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام؛ وهو في الثامن من توت . عيد توما التلميذ؛ وهو في التاسع من توت . وخروج نوح عليه السلام من السفينة، ومولد مريم عليها السلام، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس، وهو في الحادي عشر من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدليا؛ وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الحبيس، وعيد تادرس الشهيد؛ وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس؛ وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور؛ وهو في العشرين من توت . ونياحة أبي جرج؛ وهي في الثاني والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس؛ وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات؛ وهو في السادس والعشرين من توت . عيد اسطانوا، وأنتقال يوحنا؛ وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون؛ وهو في أول بابه . عيد سوسنان؛ وهو في الثاني من بابه . عيد يعقوب بن حلقا؛ وهو في الخامس من بابه . عيد أبو يولا؛ وهو في السابع من بابه . عيد توما؛ وهو في الثامن من بابه . عيد أبي مسرحة؛ وهو في العاشر من بابه . عيد يعقوب؛ وهو في الحادي عشر من بابه . وشهادة متى؛ وهي في الثاني عشر من بابه . عيد القرات؛ وهو في الثالث عشر من بابه .

وشهادة يوحنا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السيدة ؛ وهو فى الحادى
والعشرين من بابه . عيد لوقا ؛ وهو فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى
جرج ؛ وهو فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهو فى الحادى
والعشرين من بابه . عيد يعقوب ويوسف ؛ وهو فى السادس والعشرين من
بابه . عيد أبى مقار ؛ وهو فى السابع والعشرين من بابه . عيد مرقص ؛ وهو
فى آخر يوم من بابه . عيد بطرس البطرک ؛ وهو فى أول يوم من هاتور . عيد
زكريا ؛ وهو فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهو فى السادس من هاتور .
وتكرز أبى جرج ؛ وهو فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهو
فى الثامن من هاتور . وتذكار الثلاثة وثمانية عشر ؛ وهو فى التاسع من هاتور .
ونياحة إسماعق ؛ وهو فى العاشر من هاتور . عيد ميكائيل ؛ وهو فى الثانى عشر من
هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهو فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛
وهو فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسياس ؛ وهو فى العشرين من هاتور .
عيد شمعون ؛ وهو فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكار الشهداء ، وهو فى الثانى
والعشرين من هاتور . عيد ماركور يوس ؛ وهو فى الرابع والعشرين من هاتور .
عيد أبى مقورة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفيانيوس ؛ وهو
فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المقطع ؛ وهو فى السابع والعشرين
من هاتور . عيد ياهور ؛ وهو فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهو
فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهو فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ،
وهو فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهو فى الثامن من كيهك . عيد مارى
نقولا ؛ وهو فى العاشر من كيهك . عيد سمعان ؛ وهو فى الرابع عشر من كيهك
ونياحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ ووصوم الميلاد ؛ وهو فى الثالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد يوحنا
 الإنجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه .
 عيد الخنّان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد إبراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه .
 وصوم الفطاس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذاري ؛ وهو في الثالث عشر من
 طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ؛ وهو
 في الخامس عشر من طوبه . عيد قلاتوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه .
 عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل ، وتذكار السيدة ؛
 وهما في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه .
 ومقتل يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس
 والعشرين من طوبه . عيد الشهداء . وهو في السادس والعشرين من طوبه .
 عيد طهارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نياحة نقولا ؛
 وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذاري ، وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من
 أمشير . عيد مقار ؛ وهو في الثاني من أمشير . نياحة تيا درس ؛ وهو في السادس
 من أمشير . نياحة برصوما ؛ وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ، وشهادة
 يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مسرحة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير .
 عيد قلاتوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو
 في السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير .
 ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛
 وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من
 أمشير . عيد الجلبنان ؛ وهو في الثالث من شهر برمهاث . عيد أرماتوس ؛ وهو
 في السابع من برمهاث . عيد المعمودة ؛ وهو في التاسع من برمهاث . وظهور

الصليب ؛ وهو في العاشر من برمهات . عيد أبي مينا ؛ وهو في الحادى عشر من
 برمهات . عيد ميلانج ؛ وهو في الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد ؛
 وهو في السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى في الثانى والعشرين من
 برمهات . عيد العازر ؛ وهو في الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛
 وهو في الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة ؛ وهو في الخامس والعشرين
 من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو في الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة
 الصابوت ؛ وهو في التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو
 في اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرک ؛ وهو في الثانى من برمودة .
 عيد حزقيال التعجب ؛ وهو في الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو في السابع
 من برمودة . والأخذ بالجلديده ؛ وهو في الثامن من برمودة . عيد يوحنا الأسقف ؛
 وهو في الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو في الثالث عشر من برمودة .
 عيد أبى متى ؛ وهو في السادس عشر من برمودة . عيد يعقوب ؛ عيد سنوطه ؛
 وهما في التاسع عشر من برمودة . وذكراى الشهداء ؛ وهو في الحادى والعشرين من
 برمودة . عيد ساويرس ؛ وهو في السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى
 نيطس ؛ وهو في السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو
 في التاسع والعشرين من برمودة . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو في اليوم الآخر من
 برمودة . عيد تبادرس ؛ وهو في الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو في الثالث
 من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو في الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛
 وهو في السابع من بشنس . عيد دفرى سوه ؛ وهو في السادس من بشنس .
 عيد أساسياس ؛ وهو في السابع من بشنس . وصدود المسيح عندهم في الثامن من
 بشنس . عيد دير القصير ؛ وهو في الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد

إلى مصر، وهو في الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو في الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس ؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس ؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا ؛ وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار ؛ وهو في الثاني من بشونه . ووجود عظام لوقا ؛ وهو في الثالث من بشونه . عيد توما ، وعيد مامور ؛ وهما في الرابع من بشونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما في التاسع من بشونه . عيد أبي ميتا ؛ وهو في الخامس عشر من بشونه . عيد أبي مقار ، وهو في السادس عشر من بشونه . عيد السيدة ؛ وهو في الحادي والعشرين من بشونه . عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بشونه . عيد أبي ميتا ، وهو في ^(١١) والعشرين من بشونه ؛ وتذكار تيا درس ؛ وهو في أول أييب . ونياحة بولص ؛ وهو في الثاني من أييب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة ، وعيد القيصرية ؛ وهما في الخامس من أييب . وعيد أبي سنوية ؛ وهو في السابع من أييب . وعيد اسنباط ؛ وهو في الثامن من أييب . وشهادة هرود ، وعيد سمعان ؛ وهما في التاسع من أييب . وعيد تادرس نظيره ؛ وهو في العاشر من أييب . وعيد أبي هور ؛ وهو في الثاني عشر من أييب . وعيد أبي مقار ؛ وهو في الرابع عشر من أييب . وعيد اقدام السرياني ؛ وهو في الخامس عشر من أييب . وعيد يوحنا وزكريا ؛ وهو في السادس عشر من أييب . وعيد يعقوب التلميذ ، وهو في السابع عشر من أييب . وعيد بولاق ، وهو في التاسع عشر من أييب . وعيد تادرس الشهيد ، وهو في العشرين من أييب . وعيد السيدة ، وعيد ميخائيل ؛ وهما في الحادي

والعشرين من أيبب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنودة، وهما في الثالث والعشرين من أيبب . وعيد سمندو، وهو في الرابع والعشرين من أيبب . وعيد مرقوريوس، وهو في الخامس والعشرين من أيبب . وعيد حزقيال النبي عليه السلام، وهو في السابع والعشرين من أيبب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم، وهما في الثامن والعشرين من أيبب . وحرم السيدة، وهو في اليوم الآخر من أيبب . وعيد الخندق، وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي مينا، وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودي، وهو في الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة، وهو في الثامن من مسرى . وعيد طور سيناء، وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس، وهو في العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار، وهو في الثامن عشر من مسرى . وعيد اليسع، وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف، وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين، وهو في الحادي والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة يدمشق، وهو في الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل، وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد مومني الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

(في أعياد اليهود ، وهي عليّ ضربين)

الضرب الأول

(مانظقت به التوراة بزعمهم ، وهي خمسة أعياد)

العيد الأول - رأس السنة ، يحملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا أي عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تشرى يتزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه وفداه بذبح عظيم .

العيد الثاني - عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذي يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتل عندهم . ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر ، وربما سمّوه العاشر . ويُستقرط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهي عندهم تسام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم في يوم الأحد ، ولا في يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة ، ويرجعون أن الله يفتقر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، وجمده ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المظلة : وهو سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا أي شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض، ويرعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله إياهم في التيه بالعام .

العيد الرابع - عيد الفطير : ويسمونه الفصح ، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، ويُنظفون بيوتهم فيها من خبز الخبز لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلص الله فيها بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، ففعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفي أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس - عيد الأسابيع : ويسمى عيد المنصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، وأتخذهم لهذا العيد في السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر كلمات: وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا، وهو حج من حجوجهم ، وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير ، والمظلة ، وهم يعظمونه ، ويأكلون فيه القطائف ، ويتفننون في عملها ، ويجعلونها بدلا عن المن الذى أنزل الله عليهم في هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به ، وهو عيدان)

العيد الأول - الفوز : وهو عندهم عيد سرور وهو خلافة يهدى فيه بعضهم إلى بعض ، وهم يقولون : إن سبب أخذهم له أن يجتصر لما أجلى من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم ، أسكنهم يحيى ، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولى والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلقتميم هيمون، واليهود يومئذ يسمونه بلقتميم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عم من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حطوة صار بها مردوخاي قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره وأحرقه حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع تواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما، وهو النصف من آذار، وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام: لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفى فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكائهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم ويموت موسى فأنضج لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها إنلام الملك بذلك، وحضنها على إعمال الخيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما عمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصيحتنا لك. فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان في ذلك اليوم، فأخذوه عيدا. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام. وفي هذا العيد يصورون من الورق صورة هيمون ويمسحون بطنها نخالة ويمسحون بقلوبها في النار حتى تحترق، يمدعون بذلك صيانتهم.

العيد الثاني، عيد الخنكة، وهو ثمانية أيام، يؤقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفي الليلة الثانية سراجين. وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سراج. وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تغلب على بيت المقدس وقتل باليهود وأنتص أبكارهم، فوشب عليه

أولاً كُفَّاهُمْ وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لَوْقُود الهيكَل فلم يجدوا إلا يسيراً وزَعَوْه على عدد ما يوقدونه من السُّرُج على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليالٍ فاتخذوا هذه الأيام عبداً وسمَّوه الحنكَة ، ومعناه التنظيف لأنهم نظَّفوا فيه الهيكَل من أقدار شِيعَة الجبار ، وبعضهم يسميه الرباني .

الجملة الخامسة

(في أعياد الصابئين)

ومتأراً أعيادهم على الكواكب ، وأعيادهم عند زول الكواكب الخمسة المتحصرة :
وهي زُحَلُ ، والمشتري ، والمريخُ ، والزُّهرةُ ، وعُطَّارِدُ في بيوت شرفها ؛ وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مقام قصر العزِّ لذلك ، يشتهر فيه ويعلو ويشرف ؛ وفيها درجات معلومة يُنسب الشرف إليها ؛ ومنها ما يجملُ فيه ويفسد حاله ، ويكون ذلك أيضاً في درجات معلومة ، تقابلُ درجاتُ الشرف به من البرج المقابل . ويسمى ذلك هبوطاً ؛ فزُحَلُ شرفه في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، ويهبط في مثلها من الحمل ، والمشتري يشرف في خمس عشرة درجة من السرطان ، ويهبط في مثلها من الجدي ؛ والمريخ يشرف في ثمان عشرة درجة من الجدي ، ويهبط في مثلها من السرطان ؛ والزُّهرةُ تشرف في تسع وعشرين درجة من الحوت ، وتهبط في مثلها من السنبلة ؛ وعُطَّارِدُ شرفه في خمس عشرة درجة من السنبلة ، ويهبط في مثلها من الحوت ؛ وكذلك الشمس تشرف في تسع عشرة درجة من الحمل ، وتهبط في مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرف في ثلاث درجات من السنبلة ، ويهبط في مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذي تنزل الشمس فيه الحمل ، ويلبسون فيه أنظر ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تبنى الهياكل وتجعل لها أعياداً بحسب الكواكب التي بنيت على أسمها فيه .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛

وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في ذكر آلات الخط ، ومبادئه ، وصوره ، وأشكاله ، وما يتخرط في سلك ذلك ؛

وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في الدواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في نفس التواة ، وفيه أربع جعل)

الجملة الأولى

(في فضلها)

قد أنرح ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ التُّونَ : وهى الدَّوَاةُ" وأنرح ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ التُّونَ : وهى الدَّوَاةُ وَخَلَقَ القَلَمَ ، فقال : آكُتُبُ ، فقال : وما آكُتُبُ ؟ قال : آكُتُبُ ما هو كائن إلى يوم القيامة" . وهذا

الخبر والأمر دالان على أن المراد بالنون في الآية هو الدواء، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواء هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى : ﴿نَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواء هي أم آلات الكتابة، وسُمِّطها الجامع لها . ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ نَحَرَ حِجْرًا مِنْ بَيْتِهِ بِغَيْرِ مِحْبَرَةٍ وَأَدَاةٍ، فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الصَّدَقَةِ . قال المدائني : يعنى بالأداة مثل السكين، والمقلمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سabor : مثل الكاتب بغير دواء، كمثل من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح .

الجملة الثانية

(في أصلها في اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَّاهٌ ودَوَّياتٌ في أدنى المدد، وفي الكثير دَوِيُّ ودَوِيٌّ (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دَوَّاهٌ، ودَوَّاهٌ (بضم الدال وكسرها) ودَوَّايًا مثل حَوَّايًا، وأدويت دَوَّاةٌ أى اتخذت دواءً، ورجل دَوَّاهٌ (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطَّارٌ وِبْرَازٌ .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغى أن نتخذ منه ، وما يتجلى به)

أما ما نتخذ منه فينبغى أن نتخذ من أجود العيديات وأرفعها ثمنا كالآيوس، والسَّاسِمِ، والصَّنْدَلِ، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهل زمانه، ويتعانه أهل عصره .

قلت : وقد ظب على الكُتَّابِ في زماننا من أهل الإنشاء، وكُتِّبَ الأموال اتخذ الدَوِيُّ من النحاس الأصفر، والفولاذ، وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها .

والنحاس أكثر استعمالاً ، والفولاذ أقلُّ لِمِزْتِهِ وَنَفَاسَتِهِ ، وأختصاصه بأعلى درجات
الرياسة ، كالوزارة وماضاهاها .

وأما دُويُّ الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآيُّوس والصنْدَلُ الأحمَرُ ، فإنه
يتعانا في زماننا قضاةُ الحُكْمِ ومُوقِعُوهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدَّوَاةِ أن يكون عليها من الحليَّةِ
أخف ما يكون ويمكن أن تُحْمَلَ به الدُّويُّ ، في وَثَاقَةٍ ولُطِيفٍ : ليأمن من أن تنكسر
أو تنقِص في مجلسه ، قال : وحق الحليَّة أن تكون ساذجةً بغير حُفْرٍ ولا ثِيَابَاتٍ
فيها : ليأمن من مسارعة القذئ والأدَسِ إليها ، ولا يكون عليها نَمَشٌ ولا صُورَةٌ .
وحق هذه الحليَّة مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفِضَّةِ
والذهب . على أن بعض الكُتَّاب في زماننا قد أعاد التحلية بالفضة ، ولا ينبغي أن
حكم ذلك حكم الضربة في الإناه فتحرم مع الكِبَرِ والزينة ؛ وتكره مع الصغر والزينة
والكِبَرِ والحاجة ؛ وتباح مع الصغر والحاجة من كثير ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية
رحمهم الله ، نعم يحرم التكيف بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل
منه بالعرض على النار شيء ، والله أعلم .

المجملة الرابعة

(في قدرها وصفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدَّوَاةِ أن تكون متوسطة في قدرها : لا بالقصيرة
فتقصُر أعلامها وتقع ، ولا بالكثيفة فيثقل حملها وتُجف . فلا بد لصاحبها أن
يحملها ويضعها بين يدي مَلِكِهِ أو أميره في أوثان مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولى
ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عَظْمِ الذراع أو فَوْقَ ذلك قليلاً

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة
الدواة : من التنوير والتربيع . فأما كُتّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة
الرأسين ، لطيفة القد ، طلبة الحفّة ، ولأنهم إنما يتعاونون في كتابتهم الدُرّج ، وهو غير
لائق بالدواة في الجملة . على أن الصغير من الدُرّج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة .
وأما كُتّاب الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطائها
ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدواة
في القطع . وعلى هذا الأتمودج يتخذ قضاة الحكم وموقّعوهم دُورهم ، إلا أنها في الغالب
تكون من الخشب كما تقدم .

وأعلم أنه ينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها . والله
المداخلى حيث يقول :

جود دَوَاتِكَ ، وأجتهدي صَوْنَهَا ، إن الدوى نِزَائِلُ الآدَابِ

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلى صديق
له دواة آبنوس مُحَلّاة وكتب معها .

لم أَرَسُودَاءَ قَبْلَهَا مَلَكْتُ ، نَوَاطِرَ الخَلْقِ والقُلُوبِ مَعَا

لا الطولُ أزرى بِهَا ولا قِصْرٌ ، لَكِنَّ أُمَّتَ لَلوُصُولِ مجتمعا

فوقك جُنح من الظلام بها ، وبارقُ بِإتِّسلافها لَمَعَا !

خُذَهَا لِدرِّ، بها تُنظَّمُ ، يروقُ في الحُسنِ كُلُّ مَنْ سَمِعَا

أما الحبرة المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها : فمنهم من رجّحها ومالوا
إلى اتخاذها لحمة حلها ، وقالوا : بها يكتب القرآن والحديث والعلم . وكرهها
بعضهم وأستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذي هو من أشدّ الحِرَفِ وأتمبها ،
وأقلها كُتّابا .

ويروى أن شعبة رأى في يد رجلٍ مخبرة، فقال : أرم بها فإنها مشؤومة لا يسقى معها أهل ولا ولد، ولا أم ولا أب .

الطرف الثاني

(في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة آلة ،

أول كل آلة منها مهم)

الآلة الأولى - المِزْبَرُ (بكسر الميم) ، وهو القلم أخذ له من قولهم زَبَرْتِ الْكُتَابَ إذا انقنت كتابته ، ومنه سميت الكُتُبُ زُبْرًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ رَبِّهِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم .
وفيه جملتان .

الجملة الأولى

(في فضله)

عن الوليد بن عُبَّادَةَ بن الصَّامِتِ رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : لى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ، فَقَالَ : أَكْتُبْ ، قَالَ : يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ ” قَالَ : أَكْتُبُ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْآيَةِ ” رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، وقال : حسن غريب ، وأبو ابن أبي حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه ” إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، فقال له أكْتُبْ ، فقال : ياربِّ وما أَكْتُبُ ؟ ” قَالَ : أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ” ثم قرأ ” رَبِّ الْقَلَمِ ” رواه الطبرانى ووقفه ابن جرير على ابن عباس . وفي رواية قال ابن عباس : ” أول ما خلق الله القلم ، قال : أكْتُبْ ، قل : وما أَكْتُبُ ؟ ” قَالَ : أَكْتُبُ الْقَدَرَ ، بقرئ بما يكون من ذلك

اليوم إلى يوم قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بحار المساء ، ففتقت منه السماء
 وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون ، فسادت الأرض ، فأثنت
 بالجمال ، لأنها لتفخر على الأرض : لأنها أثنت عليها“ . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
 وروى محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد ” إن أول ما خلق الله اليراع ،
 ثم خلق من اليراع القلم ، فقال له : آكتب ، قال : ما آكتب ؟ قال : ما هو
 كائن ، قال : فزبر القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة“ . وأخرج بسنده إلى ابن
 عباس ، قال : ” أول ما خلق الله اليراع : وهو القصب المنقّب ، فقال : آكتب
 قضائي في خلقي إلى يوم القيامة“ . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر إليه فانسق
 بنصفين ، ثم قال : آجر قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن إلى يوم
 القيامة . أجرى على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿ تَبَّتْ رَبَّاءُ أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ويروى
 أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

وأعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلىها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون
 غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا
 يَسْطُرُونَ ﴾ . فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف . والله أبو الفتح البستي حيث يقول :

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيِّمِهِمْ :: وَعَدَّوهُ مِمَّا يَكْتَبُ الْمَجْدَ وَالكَرَّمَ

كُنِيَ قَلَمَ الْكُتَّابِ عِزًّا وَرَفَعَةً :: مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فأضاف التعليم بالقلم إلى

نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به ،
 لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ” مَنْ
 قَلَّمَ قَلَمًا يَكْتَسِبُ بِهِ عِلْمًا أَعْطَاهُ اللَّهُ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا“ . وقد قيل
 الأقلام مطايا الفطن ، ورُسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ،

والفكر بجزء لؤلؤة الحكمة، وفيه رى العقول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصري ناجيه بما ستر عن الأسماع . وقال ابن المقفع : القلم بريد العلم يحث على البحر، ويحث عن خفي النظر . وقال أحمد بن يوسف : ما عبرات الغواني في خدودهن بأحسن من عبرات الأقلام . وقيل : القلم الطلمم الأكبر . وقيل : البيان آتان : بيان لسان، وبيان بيان، ومن فضل بيان البيان أن ما تشبهه الأقلام باق على الأبد، وما ينسبه للسان تدرسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسنة أقلامها ، بنوء الأقلام يصوب غيث الحكمة . وقال جعفر بن يحيى : لم أرباكما أحسن تبسما من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهز بحيوش الكلام ، تخدّمه الإرادة ، ولا يمتل من الاستزاده ، كأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح نور بستان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري ، من جواب كتبه للعباد الأصفهاني : وكيف لا يكون ذلك ، وقلّمها هو اليراع الذي نقتت الفصاحة في روعه ، وكنت الشجاعة بين ضلوعه ! فإذا قال أراك كيف تلتقى التراث في الأجياد .

ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي : ما أعجب شأن القلم ! يشرب طلمة ، ويلفظ نورا ، قد يكون قلم الكاتب ، أمضى من شبة الحارِب ؛ القلم سهم ينفذ المقاتل ، وشفرة تطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب : قلم يُطلق الآجال والأرزاق ، وينثت السم والدرّاق ؛ قلم تدق عن الإدارك حركاته ، وتحلّ بالفائس فتكاته ؛ يسرع ولا آتحدار السيل إلى قراره ، وآتقداح الضوء من شراره ، معطوفة الغايات على المبادئ ، مصروفة الإعجاز إلى الهوادي ؛ وإذا صال

(١) كذا بالأصل ونعلها الخبير .

أراك كيف أختلف الرماح بين الآساد . وله خصائص أخرى يبدعها إبداعاً ، فإذا لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فطوراً يرى إماماً يُلقى درساً ، وطوراً يرى ماشطة تجلو عرساً ، وطوراً يرى ورقاً تصدح في الأوراق ، وطوراً يرى جواداً مخلقاً مخلوق السباق ، وطوراً أفواناً مطرقاً ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق ! ولطالما نقت سحراً ، وجلب عطرًا ، وأدار في القِرطاسِ سحراً ، وتصرف في صنوف الغناء فكان في الفتح عُمراً ، وفي الهدى عمارة ، وفي الكيد عمراً ، فلا تحظى به دولة إلا نخرت على الدول ، واستغنت عن الخيل والخول .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا استقامت المملكة . وكلُّ شيء تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء ، والقلم يربكهما صورتين ، ويوجد كهُما شكليين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فافت صنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم في صحون الكتب . وقال العتابي : بيضاء القلم تبسم الكتب . وقال البُحترى : الأفلام مطايا العطن . وقال أبو ذؤلف العجلي : القلم صانع الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُعب أعلن أسرارها ، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ما أثرته الأفلام ، لم تطمع في درسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنع القلم وانحط الذي هو جنى العقول . وقال علي بن منصور : بنور القلم تُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة في بيان اللسان ، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : بالقلم تُرف بنات العقول إلى خُدور الكُتب . وقال المأمون : لله ذر القلم كيف يحرك وثني المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يطلع بجملة اللسان ، ويبلغ مالا

يلفغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسنا ناطقة ، وأعيننا ملاحظة ؛
وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا يتروح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس
الحكيم : الخلط شيء أظهره العقل بواسطة سن القلم ، فلما قابل النفس عشقته
بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخلط بالقلم ينشأ الحكمة . وقال جالينوس : القلم
الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر ، والمهنة المنطقية مقدمة على
المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طيب المنطق . وقال أرسطاطاليس : القلم
العلّة الفاعلة ، والمداد العلة الهيولانية ، والخلط العلة الصورية ، والبلاغة العلة
الجمالية . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبي تمام الطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خصعت * له الرقاب وذلت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يفالبه * مازال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبريت * أن السوف لها مذ أرفقت خدم
وقوله :

لك القلم الأعلى الذي يسبته * تصاب من الأمر الكلي والمفاصل
أعاب الأفاعي القاتلات أمه * وأرى الجني أشتارته أيد عواسل
له ربة ظل ، وليكن وقعها * بأثاره في الشرق والغرب وأبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت * لنجواه تقويض الحيام الجمائل
إذا استغزر ذهن الجلي وأقبلت * أعاليه في القوطاس وهي أسافل

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الخِصِرَانِ وسَدَدَتْ * ثلاث نواحيه الثلاثُ الأناملُ
 رأيتَ جليلاً شأنه وهو مُرَهَفٌ * ضَنَاءٌ وَشَمِيئاً خَطْبُهُ وهو نَاحِلُ
 وقول أبي هلال العسكري :

أَنْظُرْ إِلَى قَلَمٍ يَنْكُسُ رَأْسَهُ * لِيُضْمَّ بَيْنَ مِرْصَلٍ وَمَقْصَلٍ
 تَنْظُرُ إِلَى مِخْلَابٍ لَيْثٍ ضَيْعِمٍ * وَغِرَارٍ مَسُونِ الْمَضَارِبِ بِمِفْصَلٍ
 يَسُدُّو لِنَظَرِهِ بِلَوْنٍ أَصْفَرٍ * وَهَدَامِجٍ سُودٍ وَجِسْمٍ مُنْعَلٍ
 فَالْتَّرِجُ أبيضٌ مِثْلُ خَدِّ وَاصِحٍ * يَتْبُئِهِ أَسْوَدٌ مِثْلَ طَرْفِ أَكْحَلٍ
 قَسَمَ العَطَايَا وَالنَّيَا فِي الْوَرَى * فإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ فَاحْذَرِي وَأَمْلِي
 طَعْمَانِ شَوْبٍ حَلَاوَةٍ بِمَرَارَةٍ * كَالذَّهْرِ يَخْلُطُ شَهْدَهُ بِالْحَنْطَلِ
 فإِذَا تَصَرَّفَ فِي يَدَيْكَ عِنَانُهُ * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَوْثِقًا بِمَوْثَلِ
 وَمُدَلَّلًا بِمَعَزَزٍ، وَلرَبِّهَا * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَعَزَزًا بِمُدَلَّلِ

وقوله :

لَكَ القَلَمُ الجَارِي بِيؤُسٍ وَأَنعَمٍ * فَمَهَا بَوَادٍ تُرْتَجِي وَعَوَالِدُ
 إِذَا مَلَءَ القِرطَاسُ سُودَ سُطُورِهِ * فَتَلِكُ أَسْوَدٌ تُتْقِي وَأَسَاوِدُ
 وَتَلِكُ جِنَانٌ تُجْتَنِي ثَمَاتُهَا * وَيَلْقَاكَ مِنْ أَنفَاسِهِنَّ بَوَارِدُ
 وَهِنَّ بِرُودٍ مَالِهِنَّ مَتَابِيعٌ * وَهِنَّ عَقُودٌ مَالِهِنَّ مَعَانِدُ
 وَهِنَّ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ رِضِيَةٌ * وَهِنَّ حُتُوفٌ لِلْعَدُوِّ رَوَاصِدُ

الجملة الثانية

(في اشتقاقه)

وقد اختلف في ذلك ؛ ف قيل : سمي قَلَمًا لِاسْتِقَامَتِهِ ، كما سميت القِدَاحُ أَقلامًا ، في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيحًا ﴾ قال بعض المفسرين : تشاخوا في كفاليتها فضر بوا عليها بالقداح ، والقداح مما يضرب بها المثل في الاستقامة ؛ وقيل : هو مأخوذ من القَلَامِ : وهو شجر رخو فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلمًا ؛ وقيل : سمي قلمًا لِقَلَمِ رَأْسِهِ ، فقد قيل إنه لا يسمى قلمًا حتى يُبرئ ، أما قيل ذلك ، فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرِّيحُ رُحْمًا إلا إذا كان عليه سِتَانٌ وإلا فهو قَنَازٌ ، ومنه قَلَامَةُ الظفر ؛ وإلى ذلك يشير أبو الطَّيِّبِ الأزدى بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ العِندَاءِ - وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفْرِ
أشبهَ الحَيَّةَ حتى إنه - كَمَا عَمَّرَ في الأيدي قَصْرُ

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب يده ؛ ثم قال : لا أدري ، ف قيل له : توهمه ، قال : هو عود قَلَمٌ من جوانبه كقلم الظُّفْرِ ، فسمى قلمًا .

الجملة الثالثة

(في صفته)

قال إبراهيم بن العباس لعنابم بين يديه يعلمه الخط : ليكن قلمك صُلْبًا ، بين الذقة والغلظ ، ولا تَبْرَه عند عُقْدَةٍ فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوى ، ولا ذى شَقٍّ غير مستوي ؛ وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرت إلى الأقلام البطيبة فاختر منها ما يميل إلى السُّمرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : يذني للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عقدا ، وأكثره لحما ، وأصلده قثرا ، وأعدله استواء . وقال العنابي : سألت الأضمعي يوما بدار الرشيد : أي الأنابيب للكاتب أصلح وعليها أصبر ؟ فقلت : مأنسف بالمحير مأوه ، وستره من تلويحه غشاؤه ؛ من التبرية القشور ، الدرية الظهور ، الفضية الكسور . وكتب علي بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلاما :

أما بعد فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة ، التي غلبت على الآدم ، ولزمت لزوم الوسم ؛ فقلت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخرية اجري في الكواغد ، وأمرت في البلود ؛ كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس ، وألين في المعاطف ؛ وأشد لتصرف الخط فيها ؛ ونحن في بلد قليل القصب رديته ، وقد أحببت أن نتقدم في اختيار أقلام صخرية ، وننتيق في اقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظانها ومناهبها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ؛ وأن نيعن باختيارك منها الشديدة الصلبة ، النقية البلود ، الفليسة الشحوم ، الكثيرة اللعوم ، الضيقة الأجواف ، الرزينة المحمل : فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعد من الخفاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القصبان ، المقومات المتون ، الملس المعاهد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكموب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، المستحكمة ينسا ، وهي قائمة على أصولها لم تعجل عن إبأن ينعمها ، ولم تؤثر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء . فإذا استجمعت عندك ، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا ^(١)] قطعاً رقيقاً ، ثم عبأت منها حزمًا فيما يصونها من الأوعية ^(٢) ، وتكتب معه بعثتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) في النسخ القريد ثنائي وهو جمانه . قال ذو الرمة .

كان عليها تحق لفق توتت « به حضريات الأكف الحوائك

(٢) في النسخ القريد تريم . (٣) الزيادة عن النسخ القريد . (٤) في النسخ . ووجهها مع من

يردى الامانة في حراسها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه الكُتَّاب أقالما، وكتب إليه :

إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة،
أنحفك من ألها بما يحف تحمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويجل خطره،
وهي أقلام من القصب النبات في الصخر، الذي تشف بحر الهجير في قشره مائة،
وسره من تلويحه غشاؤه؛ وهي كاللآلئ المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة
في السدف؛ يبرية القشور، درية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة
جوهرًا كأوشي الخمر، ورونقا كالدياج المنير.

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي، يصف فيه أقلاما أهداها في جملة اصناف :

وأضفت إليها أقلاما سليمة من المعايير، مبرأة من المبالغ، بحمة المحاسن، بعيدة
عن المطاعن؛ لم يربها طول ولا قصر، ولا ينقصها ضعف خور؛ ولا يشينها لين
ولا رخاوة، ولم يعبها كزازة ولا قساوة؛ وهي آخذة بالنضائل من جميع جهاتها،
مستوية للممادح بسائر صفاتها؛ صلبة المعاجم، لئذنه المقاطع، موفية القدود والألوان،
محمودة الخبر والعيان؛ وقد آستوى في الملاسة خارجها وداخلها، وتناسب
في السلاسة عاليها وسافلها؛ نبتت بين الشمس والظل، وأختلف عليها الحر والقر؛
فأفحها وقدان المواجر، وأقعها سمام شهر ناجر؛ ووقدما الشقان بصرد، وقذفها
الغام ببرد، وصابتها الأنواء بصيبيها، وآستهلَّت عليها السحاب بشايلها؛ فاستمرت
مرايرها على إحكام، وآستحصد تجملها بالإبرام؛ جاءت شتى الشيات، متغارة
الهيئات، متباينة الحال والبُدان؛ تختلف بقاعد ديارها، وتأنف بكرم تجارها.

فن أنابيب فقا ناسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكت الذهب في ألوانها،

(١) لعله وافية القدود . أي نامة كاملة .

(٢) لعله حبلا وحرر .

وضاهت الحرير في لَمَعَانِهَا ، مضابطة الحفاء ، نَمْرَةَ الْقَوَى ، لا يَسِطُهَا الْقَطْ ،
ولا يُسَعَّبُ بِهَا الْخَطْ .

ومن مِضْرِيَّةٍ بِيضٌ كَانَهَا قَبَاطِيٌّ مِضْرُ نَقَاءٍ ، وَغِرْفُجِيُّ الْبِيضِ صَفَاءٌ ، غَدَاها الصَّعِيدُ
من ثَرَاهِ بَلْبَهُ ، وَسَقَاها النَّبِيلُ من تَمِيرِهِ وَعَدْبِهِ ، بِغَاثٍ مَلْتَمِئَةٍ الْأَجْرَاءِ ، سَلِيمَةٍ من
الْإِكْتَوَاءِ ، تَسْتَقِيمُ شَقُوقِهَا فِي أَطْوَالِهَا ، وَلَا تَنْكَبُ عَنِ يَمِينِهَا وَلَا شِمَالِهَا ، مَقْتَرَنٌ بِهَا
صَفْرَاءُ كَانَتْهَا مَعَهَا عَيْتَانُ قَرِينٌ بُلْجِينٌ ، أَوْ وَرَقٌ حُطٌّ بَعِينٌ ، تَخْتَالُ فِي صُفْرِ مَلَّاحِفِهَا ،
وَتَحْيِسُ فِي مُذْهَبِ مَطَارِفِهَا ، بِلَوْنِ غِيَابِ الشَّمْسِ ، وَصَيْغِ ثِيَابِ الْوَرَسِ .

ومن مَنقُوشَةٌ تُرَوِّقُ الْعَيْنَ ، وَتُوْنِقُ النَّفْسَ ، وَيُهْدِي حَسَنُهَا الْأَرِيحِيَّةَ إِلَى الْقُلُوبِ ،
وَيَحِلُّ الطَّرْفُ لَهَا حَبْوَةَ الْحَلِيمِ اللَّيِّبِ ، كَانَتْهَا آخْتِلَافُ الزُّهْرِ اللَّامِعِ ، وَأَصْنَافُ
الشَّرِّ الْيَانِعِ .

ومن بَجْرِيَّةٍ مَوْشِيَّةٍ اللَّيْطِ ، رَائِقَةِ التَّخْطِيطِ ، كَانَتْ دَاخِلِهَا قَطْرَةٌ دَمٍ ، أَوْ حَاشِيَةٌ
رِداءٍ مُعَلَّمٍ ، وَكَانَتْ خَارِجِهَا أَرْقَمٌ ، أَوْ مَتْنٌ وَادٍ مُفْعَمٌ ، نَشَرَتْ أَلْوَانًا تُزْرِي بَوْرِدِ الْخُدُودِ ،
وَأَبْدَتْ قَامَاتٍ تَفْضَحُ نَأْوِدَ الْقُدُودِ .

ومن كَلَامِ آبِ الزَّيْتِ : خَيْرُ الْأَقْلَامِ مَا آسَتْحَكَمَ نُضْجُهُ وَخَفَ بَزْرُهُ ، قَدْ
تَسَاعَدَتْ عَلَيْهِ السُّعُودُ فِي فَلَكِ الْبُرُوجِ حَوْلًا كَامِلًا ، تَوْلَفَهُ بِمُخْتَلَفِ أَرْكَانِهَا وَطِبَاعِهَا ،
وَمَتَابِينَ أَنْوَانِهَا وَأَنْحَائِهَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَأَسْتَوَى ، وَشَقَّتْ بِوَازِلِهِ ، وَرَقَّتْ
شِمَالُهُ ، وَأَبْسَمَ مِنْ غَشَائِهِ ، وَتَأَدَّى مِنْ لِحَائِهِ ، وَتَعَوَّى عَنْهُ ثُوبُ الْمَصِيفِ ،
بِانْقِضَاءِ الْخَرِيفِ ، وَكَشَفَ عَنِ لَوْنِ الْبَيْضِ الْمَكْنُونِ ، وَالصَّافِ الْخَزُونِ ،
قُطِعَ وَلَمْ يُعْجَلْ عَنِ تَمَامِ مَصْلِحَتِهِ ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ إِلَى الْأَوْقَاتِ الْمَخُوفَةِ عَاهَاتِهَا عَلَيْهِ مِنْ
خَصْرِ الشَّاءِ ، وَعَقْنِ الْأَثْدَاءِ ، بِغِجَاءِ مَسْتَوِي الْأَنْبَابِ مَعْتَدِلًا ، مُنْقَفَ الْكُمُوبِ
مَقُومًا .

وقد حرر الوزير أبو علي بن مقلدة رحمه الله مناسط الحاجة من هذه الأوصاف،
وأقتصر على الضرورى منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحکم نُضجُه فى جرمه، ونَشِيفَ ماؤه فى قشره، وقُطِيع بعد إلقاء
بزره، وبعد أن أصفرَ لحاؤه ورقَّ شجره، وصلبَ شحمُه، وتقلَّ حجمه .

الجملة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولها وغلظها)

قال ابن مقلدة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستة عشر إصبعا إلى آخى عشر،
وأمتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسن قُدود القلم أن لا يُجَاوِزَ به الشبرُ بأكثر من جلقته
ويشهد له قول الشاعر :

فَتَى لَوْ حَوَى الذَّنِيصُ الْأَصْبَحَ عَارِيًّا ۞ مِنْ الْمَالِ، مَعْتَاضًا شَابَا مِنْ الشُّكْرِ
لَهُ تَرْجُمَانٌ أَحْرُسُ اللَّفِظِ صَامِتٌ، ۞ عَلَى قَابِ شَبْرِ بِلِ يَزِيدُ عَلَى الشَّبْرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول
والقصر، والغلظ والدقة، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل فىبقى ما تلا إلى
ما بين الثلث، والغلظ المفرط لا تحمله الأنامل .

وقال فى الخِلاصة : إذا كانت الصحيفة لينة يبنى أن يكون القلم لين الأنثوب، وفى
لحمه فضل، وفى قشره صلابة، وإن كانت صلبة، كان يابس الأنثوب صلته،
ناقص الشحم : لأن حاجته إلى كثرة المداد فى الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته إليه
فى الصحيفة الصلبة . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد، ويكفى

في الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها في القلم الصُّلْبِ الخالي من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

(في برى القلم ؛ وفيه خمسة أقطار)

النظر الأول

(في اشتقاقه وأصل معناه)

يقال برّيت القلم أبربه برّياً وريّية غير مهموز ، وهو قلم مبرّئ ، وأنا باري للقلم بغير همز أيضاً . قال الشاعر :

يا باري القوس برّياً ليس يحكُّهُ ۖ لا تُفْسِدِ القوس ، أعطِ القوس باريها
ويقال أيضاً برّوت القلم والعود برّوا بالواو ، والياء أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البرى برّاية (بضم الموحدة في أوله) على وزن ترائية وحثالة ، والفعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشيء ، وتقول في الأمر : أبرقك .

النظر الثاني

(في الحث على معرفة البراية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى إخلال ؛ منها جودة برى القلم ، وإطالة جلقته ؛ وتحريف قطته ، وحسن التآني لأمة طاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المقرّ العلاميّ ابن فضل الله ، طيب الله مهجّته ! : من لم يحسن الاستمداد ، وبرى القلم ، والقطّ وإمساك الطومار ، وقسمة حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أن الضحّاك كان إذا أراد أن يرمى قلمه، توأى بحيث لا يراه أحد، ويقول: الخط كلّه القلم، وكان الأنصارى إذا أراد أن يرمى فعل ذلك، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتى لا يراها أحد.

وقال إسحاق بن حمّاد: لاحدقّ لغير مميّز لصنوف البراية. ورأى إبراهيم بن المحبس رجلاً يأخذ على جارية قلمّ الثلث، فقال: أعلمتها البراية؟ قال: لا، قال: كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برأيتك؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط.

قال المقرّ العلّائي ابن فضل الله: ورأيت بخطّ أبي عليّ بن مقلة رحمه الله، تمّ تمّ مِلاك الخطّ حسن البراية، ومن أحسنها سهل عليه الخط، ولا يقتصر على علم فنّ منها دون فنّ، فإنه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منها على مذهبه: من زيادة في التحريف، ومن النقصان منه، ومن اختلاف طبقاته. ومن وعى قلبه كثرة أجناس قطعّ الأقلام، كان مقتدراً على الخط، ولا يتعلّم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشجاع.

وقال الضحّاك بن تجّلان: القلم من أجناس الأقلام كاللّبن من أجناس الألبان في الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك. ومن كلام المقرّ العلّائي ابن فضل الله: جودّة البراية نصف الخط.

ومنهم من ذهب إلى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم، حتى حكى الغزالي رحمه الله في نصيحة الملوك أن صاحب بن عبّاد كان وزيراً لبعض الملوك، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسدونه، ولم يزلوا حتى ذكروا لملك أنه لا يحسن براية القلم، وعمدوا إلى أقلامه فكسروا رءوسها، ثم إن الملك أمره بكتيب كتاب في المجلس، فوجد أقلامه كلّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمها منها، وكتب به إلى أن انتهى إلى آخر الكتاب بخطّ فائق رائق، فقال له الملك: إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن برى القلم، فقال: إن أبي علمني كاتباً ولم يعلمني تجّاراً.

النظر الثالث

(في معرفة محلّ البراية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشيباني : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبه ،
يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محل القلم من الكتاب محل الرمح
من الفارس . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام الطائي بقوله في أبياته المتقدمة :

وأقبلت - أعاليه في الفِرطاس وهي أسافل

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم لبرية فلا يخلو من استقامة في البنية أو أعوجاج
في الخلقه ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث أستدق ، وإن كان
مُعَوَّجًا ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل آلتواء من أعلاه .

النظر الرابع -

(في كيفية إمساك السكين حال البرى)

قال ابن البربري : إذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة
باليمنى ، وضع إبهامك اليمنى على فم السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة اعتمادا رقيقا .

النظر الخامس

(في صناعة البراية)

قال العتّابي : سألت الأحمسي يوما بدار الرشيد : أي نوع من البرى أصوب
وأكتب ؟ فقلت : البرية المستوية القطعة التي عن يمين سننها برية تأمن معها
الحجة عند المدة والمطة ، الهواء في شقوقها فتيق ، والرمح في جوفها حريق ، والمداد
في خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حَسُن الخط باعتبار براية القلم ، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحول المحرز كان عجيب البراية للقلم ، فكان خطه رائقاً بهجاً من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصاري المحرز : كنت أكتب في ديوان الأحول ، فقربت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلماً من أقلامه ، بغاد خطي به ، فلاحت منه نظرة إلى دواتي ، فرأيت القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رموس أقلامه كلها .
 وأعلم أن البري يشتمل على معان .

المعنى الأول - في صفته ، ومقداره في الطول ، والتقصير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون في القلم الصَّلب أكثر تقعيراً ، وفي الرَّخْو أقل ، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تتدنى بتزولك بالسكين على الاستواء ، ثم تُميل القطع إلى ما يلي رأس القلم ، ويكون طول الفتحة مقدار عقدة الإبهام ، أو كمنافير الحمام ، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرمري رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وطولها كعقدة الإبهام لا أعلى ولا أدنى يكون أردلاً

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصُر جلفته ، فإن الخط يمين به أوقص ، والوقفص قصر العنق ، ولذلك سمي متفاعلاً في عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أوقص ، وكأنه يريد بالقصر ما دون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب : أطلُّ نحرطوم قلمك . فقيل له :
 له نحرطوم قال : نعم . وأتشد .

كان أنوف الطير في عرصاتها ، نحرطيم أقلام تخط وتُجم

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان لرعيان، وكان يكتب بقلم قصير البرية :
أتريد أن يوجد خطك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلفنة قلبك وأسمنها ، وحرف
القطعة وأينها ، قال رعيان : فعلت ذلك بفاد خطي . وقال الشيخ عماد الدين بن
العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ،
وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثاني - التحت .

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وهو نوعان ، تحت حواشيه ، وتحت بطنه . أما
تحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يحمل على
إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا بلجفة القلم دق
أو غلظ . قال : ويجب أن يكون جانبا مسيفين ، والتسيف أن يكون أعلاه ذاهبا
نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم . قال : وأما تحت
بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام في صلابة الشحم ورخاوته ، فأما الصلْبُ
الشحمة فينبغي أن يُتحت وبجبهه فقط ، ثم يعمل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط
الذي يؤثر الكاتب أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى
تنتهي إلى الموضع الصلْب من جرم القلم ، لأنك إن كتبت بشحمته ، تشطى القلم
ولم يصف جريانه .

ومن كلام ابن البربري : لانهصع البراية ، ولا تحالف بين حدى القلم ، فإن ذلك
حياكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجلفنة على أنحاء : منها أن يرهف جانبي البرية ، ويؤمن وسطها شيئا يسيرا ،
وهذا يصلح لليسوط والمعلق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للرسل والمزوج والمفتوح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن، وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جانبي وسطه، ويكون مكان القطعة منه أعرض مما تحته، وهذا يصلح في جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثالث - الشق : وفيه مهيمنان .

المهيج الأول

(في قائمته)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما استمرت به الأنامل، ولا اتصل الخط للكاتب، ولكثر الاستمداد، وعُدم المشق، ولال المداد إلى أحد جنبي القلم على قدر قتل الكاتب له .

المهيج الثاني

(في صفة الشق، وفيه مُدْرَكَان)

المُدْرَكُ الأوَّل

(في قدره في الطول)

قال ابن مقلة : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شقه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثها . والمعنى فيه أنه إذا زاد على ذلك آنتحنت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغي أن يكون شقه إلى آخر الفتحة ، وربما زاد على ذلك

بمقدار إفراطه في الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرقاني رحمه الله في أرجوزته فقال :

وأعلم بأن الشَّقَّ أيضا يَخْتَلِفُ * بحسب الأقاليم، فافهم ما أَصِفُ
فإن يكن معتدلاً شُقَّ إلى * مقدار ثلثِ الحَلْفَةِ آنَقَلْ وَأَقْبِلَا
والرَّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّلْبُ بالفتحة الحَلْقُ تَسْتَفِدُ
وربما زادوا على ذلك إذا * أفرط في الصلابة، أعرف ذا وذا

المُدْرَكُ الثاني

(في محله من الحَلْفَةِ في العرض)

وقد تقدم من كلام ابن مقلة رحمه الله في المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشَّقُّ متوسطاً لحَلْفَةِ القلم، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله فقال :
وليكن غَلَطُ السَّيْنِ جميعاً سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظ من الأيسر دون العكس على كل حال ؛ وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - القَطُّ ؛ وفيه مهيذان :

المهيح الأول

(آشنقاه ومعناه)

يقال قَطَطْتُ القلم أقطه قَطًّا فانا قاطٌ وهو مَقْطُوطٌ وقَطِيطٌ : إذا قطعت سِنَّهُ
وأصل القَطُّ القَطْعُ ؛ والقَطُّ والقَدُّ متقاربان ، إلا أن القَطَّ أكثر ما يستعمل فيما يقع
السيوف في عرضيه ، والقَدُّ ما يقع في طوله . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيء

بسيفه فده ، وإذا عرضة قطه . وذلك أن مخرج الطاء والذال متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومد حاجبيه .

المهيع الثاني

(في صفته)

وأعلم أن أجناس القَطِّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البراية ، وعليه مدار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتدرا على الخط . وقال المقرِّ العلَّائِي ابن فضل الله تغمده الله برحمته : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنبوبة ليبريها تفرس فيها قبل ذلك ، فإذا أراد أن يَقُطَّ توقف ثم تحرى ، فتوقف ثم يَقُطُّ على تثبت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقَطُّ على نوعين :

النوع الأول - المحزف ، وطريق بره أن يحرف السكين في حال القَطِّ ، وهو ضربان قائم ومصوب : أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوب ، فهو ما كان القِشْر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثاني - المستوى ، وهو ما تساوى سناه ، وأجودهما المحزف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مُقَلَّة ، فقال : وأحدها ما كان ذا سن مرتفع من الجهة اليمنى ارتفاعا قليلا إذا كان القلم مصوبا ، وهذا معنى التحريف ، وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار كما تقدم عند كرسِّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذًا من جهة اليسار إلى جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقل تصرفا من المحزف . قال : وقد كان بعض من لا يعتد به يقط القلم على ضد

ما يعتمده الأستاذون ، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره ، فكان خطه لا يجي ، إلا رديئا ، وإذا كانت القطة على الضد من ذلك ، كان الكاتب متصرفا في الخط ، متمكنا من القوطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأضحج السكين قليلا إذا عزمتم على القَطِّ ولا تنصّبها نصبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب إلى التحريف ، وأن تكون مصوّبة . قال الشيخ شمس الدين بن أبي رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام ، والتحريف والتدوير ، فقال : الرقاع والتواقيع أميل إلى التدويرين بين ، قطة مربعة ، والنسخ والمحقق والمشعر أميل إلى التحريف ، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير ، إن المعنى أن لكل قلم قطة صفة ، فقطة الریحاني أشدها تحريفا ، ثم يقل التحريف في كل نوع من أنواع قط الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبراية ، وما لكل من سني القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يدر وجه القلم ، وصدره ، وعرضه ، فليس من الكتابة في شيء . وقد فسر ذلك الوزير أبو علي بن مقلة فقال : أعلم أن للقلم وجهها وصدرها وعرضها ، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قطه ، وهو ما يلي ثمة القلم وأما صدره فهو ما يلي قشرته ، وأما عرضه ، فهو نزولك فيه على تحريفه . قال : وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى .

الجملة السادسة

(في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطعة ، وتفزعها عن قلم الطومار ، ونسبتها من مساحته على اختلاف مقاديرها في الدقة والغليظ والتوسط ، وما ينبغي أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم ، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكُتَّاب ، وأعظمها وأجلها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُعَلِّمُ به في المكتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر ، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأناامل ليتمكن الكاتب من إمساكه ، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة ، ثقل على الأناامل ولا تحتمله ، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي ؛ ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهيل الكتابة به ويجري المداد فيه . ولهم قلمٌ دونه يسمى مختصر الطومار ، وبه يكتب النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتدال على المراسيم ونحوها . وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون مُعْتَرِضَات ، وهو أصل لما دونه من الأقلام ، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدر بست عشرة شعرة ، وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة ، وقلم الثلث مقدر بثمان شعرات ، ومختصر الطومار ما بين الكامل منه والثلثين . وكل من هذه الأقلام فيه ثقل وهو ما كان إلى الشَّيْخِ أميل ، وخفيف ، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرر ذلك فطول الأليف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويجعل طولها نظير ذلك ، ففي قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها نحسبائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها ؛ وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار

وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الحجم فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علي بن مقلة : ينبغي أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرى للقلم الذي هو بصدد أن يحتاج إلى تيبته ليحده مهياً، فلا يتأخر لأجل زيادته .

الآلة الثانية - المقامة : وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام، سواء كان من نفس الدواة أو اجنبياً عنها، وقد لا تعد من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالباً.

الآلة الثالثة - المديئة، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في معناها وأشتقاقها)

قال الجاحظ : يقال بضم الميم وفتحها وكسرهما وتجمع على مئدى : وهي السكين، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كانت امرأتان معهما آبناهما بقاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكاً إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا إلى سليمان بن داود فأخبرته، فقال : اتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى : لا تفعل رحمك الله هو آبنها، فقضى به للصغرى " قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين إلا يومئذ ما كنا نقول إلا المديئة .

ثم الأصل في السكين التذكير، قال أبو ذؤيب :

رُئى ناصحاً لي ما بدأ، فإذا خلا، * فذلك سكينٌ على الخلق حانقٌ

(١) في اللسان والصلح يرى ناصحاً فيما بدا .

قال الكسائي : ومن أنث أراد المدينة وأنشد :

فَعَيْتُ فِي السَّامِ غَدَاةً قَرًّا * بِيَكِّينَ مَوْثِقَةَ النَّصَابِ

ويقال سَكِينَةٌ بالهاء، وهو قليل . وفي حديث المَبْعَثِ "أنه لما شَقَّ الْمَلِكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ" وتجمع على سَكَاكِين، سميت مُدِيَّةً أخذًا من مَدَى الأجل وهو آخره : لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره ، وسميت سَكِينًا لأنها تَسْكُنُ حركة الحيوان بالموت . ونِصَابُ السكين أصلها، ونِصَابُ كل شيء أصله قال الشاعر :

وَإِنَّ نِصَابِي إِنْ سَأَلْتِ ، وَأُسْرَتِي * مِنْ النَّاسِ حَى يَقْتَنُونَ الْمَرْثَمَ^(١)

• أى وإن أصلى . ويقال أَنْصَبْتُ السكين إذا جعلت لها نِصَابًا ، كما يقال أَقْبَضْتُهَا إذا جعلت لها مَقْبِضًا ، وَأَقْرَبْتُهَا إذا جعلت لها قِرَابًا ، وَأَغْلَقْتُهَا إذا جعلت لها غِلَافًا ، والحديدَةُ الذاهبة في النِصَابِ سَيْلَانٌ . ويقال أَحَدَدْتُ السكين فإنا أَحَدَدُهُ إِحْدَادَ وَحَدِّ السكينِ نَفْسَهُ صار حادًا ، وَأَحَدٌ فهو مُحَدٌّ ، وسكين حادٌ ، فإذا أمرت مِنْ أَحَدِهِ قَلَّتْ أَحَدِيدهُ ، ومن حَدَّهُ قَلَّتْ حُدُهُ .

الوجه الثاني

(في صفتها)

قال بعض الكُتَّابِ : هى مِسْنُ الأَقْلَامِ ، تَسْحَدُ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وَقَفَتْ ، وتَلْمُها إذا تَسَعَّتْ . فتجب المبالغة في سَفِيها وإحْدادها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا تاشطى قَطَنُهُ . وينبغى أن لا يستعملها في غير البراية إلا تِكَاً وتَفْسُدُ . قال الصولي : وَأَحْدِدُ سَكِينَكَ ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : وَأَسْحَدُ السكين حِذَا ، ولكن ماضية جدًا ، فإنها

(١) أى أُرْفِي السام بالسكين انظر اللسان (٢) المرثم من الايل الكريم تنقطع أذنه ويترك لها زئمة

(٣) أى وحدتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كآلة جاء الخط رديثا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
فساد البراية من بلادة السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة
القد، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها، لتمكن الباري من بريها . ولا عيب
في حملها في الكرم والخمف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال :
اتخاذ الرجل السكين في خُفِّه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ،
وأرهِف حذوه ، ولم يُفَضَّلْ عن القَبْضَةِ نِصَابُهُ ، وأستوى من غير أعوجاج . قال
الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدي وجماعة من الثَّكَّابِ يستحسنون
العُقَابِيَّةَ : وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيننا ، فقال :
وسكين عتيقة الحديد ، وثيقة الشَّعِيرَةِ ، مُحْكَمَةٌ النَّصَابِ ، جامعةُ الأسبابِ ، أحدُ
من البينِّ ، وأحسنُ من أجتاع مُحِبِّينَ ، وأمضى من الحُسامِ ، في برِّ الأَقلامِ . وفيه
القائلُ في وصفها :

أنا إن شئتُ عُدَّةٌ لعدوِّ * حين يُحْشِي على النفوسِ الحِمَامُ

أنا في السَّلمِ خادمٌ لدَوَاةِ * وبجهدى نُقُومُ الأَقلامِ

الآلة الرابعة - المِقْطُ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرى في الصَّحاحِ إلا أنه

قال فيه : مِقْطَةٌ بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المِقْطُ صُلْبًا فتمضى القِطَّةُ مستوية لامتِطِيَّةً .
قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : إذا قططت فلا تقط إلا على مِقْطٍ أملس
صُلْبٍ غير مُتَمِّمٍ ولا خَشِينٍ لئلا يَنْشَطِي القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآسُوسِ والعاج ، ويكون مسطَّحَ الوجه الذي
يُقَطُّ عليه ، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشطى القلم ، وربما تهلت
القِطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غير جيِّدة . قلت وينبغي أن لا يكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنحاس ونحوه . فإن ذلك يفسد السكين ، ولا ينجى القطة صالحة .
الآلة الخمامسة - المنجبرة ، وهي المقصود من الدواء ، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول - الجونة ، وهي الظرف الذي فيه اللبقة والخبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : و ينبغي أن تكون شكلا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقدهما خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد في زواياه فيفسد المداد . فإذا كان مستديرا كان أبقى للداد ، وأسهل في الاستمداد .

الصنف الثاني - اللبقة ، وتسميها العرب الكرسف تسمية لها بأسم القطن الذي تتخذ منه في بعض الأحوال كما سيأتي ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في اشتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواءَ وَلِقْتُهَا ، أخذنا من قولهم : فلان لا يُلِيقُ كَفَّهُ درهماً أي لا يَحْتَسِبُهُ ولا يُنْسِكُهُ ، وأنشد الكسائي :

كَفِّكَ كَفُّ مَا يُلِيقُ دِرْهَمًا ، جُودًا ، وَكَفُّ نَعِيطٍ بِالسِّيفِ الدِّمَاءَ

يصفه بالجود ، أي كَفِّكَ مَا تُنْسِكُ دِرْهَمًا ، ويقال : مَا لَأَقَتِ الْمِرَاةَ عِنْدَ زَوْجِهَا أي مَا عَاقَمَتْ . قال المبرد : دخل الأَصْمَعِيُّ عَلَى الرَّشِيدِ بَعْدَ غَيْبَةِ عَالِيهَا ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ يَا أَصْمَعِيُّ ؟ فَقَالَ : مَا أَلَأَقْتَنِي نَحْوَكِ أَرْضُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : نَأْمَسُكَ الرَّشِيدُ عَنْهُ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْجَلِيسِ ، قَالَ لَهُ : مَا مَعْنَى الْأَلَأَقْتَنِي ؟ قَالَ : مَا حَبَسْتَنِي ، فَقَالَ : لَا تَكَلِّمْنِي فِي مَجْلِسِ الْعَامَّةِ بِمَا لَا أَعْلَمُ . قَالَ الْبَاحِظُ : وَلَا تَسْتَحِقُّ أَسْمَ اللَّيْقَةِ حَتَّى تُلَاقَ فِي الدَّوَاءِ بِالنَّفْسِ : وَهُوَ الْمِدَادُ .

الوجه الثاني

(فيما نتخذ منه ونتماهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصوف والقطن ، ويقال فيه الكُرسُف ،
والبرُس ، والطُوط ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن آنتفاشها
في المحبرة وعدم تليدها أعونٌ على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب
أن يتفقد اللبقة ويطيبها بأجود ما يكون ، فإنها تروح على طول الزمن ، والله القائل :

مَنْظُوفٌ سَمِدَتْ عَلَيْهِ دَوَاتُهُ * أَنْ الْفَتَى لَا كَانَ غَيْرَ ظَرِيفٍ

إِنْ التَّفَقَّدَ لِلدَّوَاةِ فَضِيلَةً * مَوْصُوفَةٌ لِلْكَاتِبِ الْمَوْصُوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فمثل عن
ذلك ، فقال : لأنى أكتبُ به أَسْمَ الله تعالى وأَسْمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وأَسْمَ
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فلنحسه بالاستنا ونحوه
بأحكامنا .

قال الشيخ علاء الدين السمرمري : ويتعين على الكاتب تجديد اللبقة في كل
شهر ، وأنه حين قرأه من الكتابة يطبق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ،
فيفسد الخط . ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللَّبِقَةَ كُلَّ شَهْرٍ * فَشَيْخُنَا كَانَ بِهِذَا يُغْرَى

لَأَجْلِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ قَذَى * فَيَنْتَشِي مِنْ ذَاكَ فِي الْخَطِّ أَدَى

وينبغي له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القادرة كالبصاق ونحوه ، فقد حكى
محمد بن عمر المدائني أن بعض العلماء رأى صبياً يبصق في دواته فزجره ، وقال
لأمه : أمتع الصبيان عن مثل هذا ، فإتما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائني : كأنه تخرج أن يكتب القرمان بمداد غير نظيف . قال المدائني : وكان بلغني عن ابن عباس أنه أجاز أن يبصق الرجل في دواته ، فسألت أحمد بن عمرو البراز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه عاصم بن سليمان الكودي ، وكان كذاباً ذكرته لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسألة حتى يحدثكم بحديث ، فقال : بحثت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ، فقال له عمر : ما تقول في الرجل يزرُق في الدواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يزرُق في الدواة ويستمد منها ، ثم قال : وحدثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ، قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأساً . .

الصنف الثالث - المداد والخبر وماضاهما ، والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأول

(في تسميتهما وأشتقاقهما)

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يُعِينه ، وكل شيء مددت به شيئاً فهو مداد ، قال الأخطل :

رَأَتْ بَارِقَاتٍ بِالْأَكْفِ كَأَنَّهَا « مَصَابِيحُ سُرُجٍ أُوقِدَتْ بِمِدَادٍ

سمى الزيت مداداً لأن السراج يمدُّ به ، فكل شيء أمددت به اللقمة مما يكتب به فهو مداد ، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمدت القلم في الخير مثل ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِقَاكِهِمْ وَوَلِيِّمْ ﴾ ومدته في الشر ، مثل ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدَادٌ ﴾ . ويقال فيه أيضاً نقس

(١) في اللسان رأوا بواو الجماعة .

وتنقش ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أنقاس .

وأما الخبر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الخبر يراد به اللون الخالص الصلبي من كل شيء ، قال ابن أحمري ذكر أميرة :

تَدْبُهُ بِفَاحِمٍ جَعِيدٍ وَأَبْيَضُ نَاصِعِ الْخَبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفي الخبر "يُخْرَجُ مِنَ الْبَارِ رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما ، قال ابن الأعرابي : حَبْرُهُ حَسَنُهُ ، وَسَبْرُهُ هَيْئَتُهُ ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي حبرا ؟ فقال يقال لِلْمُعَلِّمِ حَبْرٌ وَحَبْرٌ يَعْنِي بَفَتْحِ الْحَاءِ وَكسرها ، فأرادوا مداد حبر أي مداد عالم ، فخذفوا مِدَادَ وَجَعَلُوا مَكَانَهُ حَبْرًا . قال : فذكرت ذلك للأصمعي ، فقال : ليس هذا بشيء ، إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حبر إذا كثرت صغرتها حتى صارت تضرب إلى السواد ، والخبر الأثري في الجلد ، وأشد :

لَقَدْ أَشْمَمْتُ بِي آلَ قَيْدٍ وَعَادَرْتُ ۞ بِجِلْدِي حَبْرًا بِنْتُ مَصَانٍ بَادِيَا

أراد بالخبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد ، وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكتاب يُحَبَّرُ به أي يُحَسَّنُ ، أخذنا من قولهم حَبْرْتُ الشَّيْءَ تَحْبِيرًا إِذَا حَسَّنْتَهُ .

الوجه الثاني

(في شرف المداد والخبر ، واختيار السواد لذلك)

في الخبر "يُؤْتَى بِمَدَادِ طَالِبِ الْعِلْمِ وَدَمِ الشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوضَعُ أَحَدُهُمَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَالْآخَرُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى فَلَا يَرِجُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ" قال بعض الحكماء : صورة المداد في الأبصار سوداء ، وفي البصائر بيضاء ، وقد قيل : كواكب

الحِكْمُ فِي ظُلْمِ أَدَادٍ . ونظر جمعقر بن محمد إلى فني على ثيابه أثر المداد ، وهو يستره منه ، فقال له : يا هذا ! إن المداد من المُرْوَةِ . وأنشد أبو زيد :

إِذَا مَا الْمِسْكُ طَيِّبَ رِيحَ قَوْمٍ * كَفَتْنِي ذَاكَ رَائِحَةُ الْمِدَادِ

وَمَا شَيْءٌ بِأَحْسَنَ مِنْ نِيَابٍ * عَلَى حَاقَاتِهَا حَمُّ السَّوَادِ

وقال بعض الأدباء : عَطَّرُوا دِفَاتِرَ الْأَدَابِ بِسَوَادِ الْخَبَرِ . وكان في حِجْرِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْعَبَّاسِ قِرْطَاسٌ يَمْشِقُ فِيهِ كَلَامًا فَاسْقَطَ ، فَسَجَّهَ بِنُكَّةٍ ، فَحَقِيلٌ لَهُ لَوْ مَسَّحَتْهُ بغيره ؟ فقال المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إِنَّمَا الرَّعْفَرَانُ عَطَّرُ الْعَدَارِي * وَمِدَادُ الدُّرِيِّ عَطَّرُ الرَّجَالِ

وأنشد غيره :

مَنْ كَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ مَسَّ عَارِضُهُ * مِسْكٌ يُطَيِّبُ مِنْهُ الرِّيحَ وَالنَّسَمَا

فِيَابَ مِسْكِي مِدَادٌ فَوْقَ أُمَّعَلِي * إِذَا الْأَصَابِعُ يَوْمًا مَسَّتِ الْقَلَمَا

على أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد في ثوب الكاتب تحفاه ، ودناءة منه وقلة نظافه . قال أبو العالية : تعلمت القراءة والكتابة ، وما شعرت بي أهلي ، وما روى في ثوبي مداد قط . وأنشدوا :

دَخِيلٌ فِي الْكِتَابَةِ يَدْعِيهَا * كَدَعْوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ

يُسَبِّهُ تَوْبَهُ لِأَحْوِ فِيهِ * إِذَا أَبْصَرَتْهُ تَوْبَ الْحِدَادِ

فَدَعَّ عَنْكَ الْكِتَابَةَ نَسْتَمْنَاهَا * وَلَوْ لَطَخْتَ وَجْهَكَ بِالْمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : يبرق الخبر تهدي العقول نجابا الحكيم : لأنه أبق على الدهر ، وأبقى للذكر ، وأزيد للأجر .

وأعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعينه مدار الربع منها وأندسوا وذلك :

رُبْعُ الْكِتَابَةِ فِي سَوَادِ مِدَادِهَا . وَالرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ

وَالرُّبْعُ مِنْ قَلَمِ سُورَى بَرِيَّةٍ . وَعَلَى الْكَوَائِدِ رَابِعُ الْأَشْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما اختير فيه السواد دون غيره لمضادته لون الصحيفة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كمضادة السواد للبياض . قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مَبْيُضٌ . وَالْفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ

ضِدَانٌ لِمَا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا . وَالضَّدُّ يَظْهَرُ حُسْنَهُ الضَّدُّ

ويقال في المداد : أسود قائم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحانك ، وحلكوك ، وحلوب ، وداج ، ودجوي ، ودجور ، وأدم ، ومدهام . قال المدائني : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبي عبيدة .

كتب جعفر بن حداد بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا :

يَا أَيُّهَا السُّودَادُ لَا لِإِدَادٍ . وَصَدِيقِي مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعِبَادِ

وَالَّذِي فِيهِ أَلْفٌ مَجِيدٍ طَرِيفٍ . قَدْ أَمَدْتُ بِأَلْفِ مَجِيدِ تِلَادِ

أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِ دَوَائِي . أَصَبَحْتُ تَقْتَضِي قَيْصَ حِدَادِ

وفه منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاءُ مَقَاتِبًا مِثْلَهَا . وَأَجْفَانُهَا مِنْ بُلْبُيْنِ صَقِيلِ

إِذَا أَدْرَقَتْ عَبْرَةَ خِلْتَهَا . كَعَالِيَةِ فَوْقَ خَدِّ أَسِيلِ

الوجه الثالث

(في صنعتها، وفيه نظران)

النظر الأول - في مادتهما .

وأعلم أن المواد لذلك منها ما يستعمل بأصله ولا يحتاج فيه إلى كبير علاج وتديير كالعقص، والزاج، والصمغ، وما أشبهها . ومنها ما يحتاج إلى علاج وتديير، وهو الدخان . قال أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويتوشح في الدخان أن يكون من شيء له دهنية، ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل لأن دخان كل شيء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل في أيام تخارويه بمداد لم أر أنعم منه، ولا أشد سوادا منه . فسألته من أي شيء استخرجنه ؟ فكتم ذلك عني ، ثم تلطفت به بعد ذلك ، فقال لي : من دهن بزر الفجل والكائن ، أضع دهن ذلك في مسارج وأوقدها ، ثم أجعل عليها طاسا حتى إذا قعد الدهن ، رفعت الطاس ، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربي . وإنما جمعه بماء الآس ليكون سواده مائلا إلى الخضرة ، والصمغ يجمعه ويمعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالِي الحِصِّ وشبهه ، وتلقي عليه ماء ، وتأخذ ما يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس ، والعسل والكافور والصمغ العربي والملح ، وتمده وتقطعه شواير ، والدخان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثاني - في صنعتها، وفيه مسلكان

المسلك الأول

(في صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأوّلين من أهل الصنعة وغيرهم)
قال الوزير أبو علي بن مقلبة رحمه الله : وأجود المداد ما آتخذ من سُخَامِ النَّقْطِ ،
وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرتال ، فيجاد نخله وتصفيته ، ثم يلقى في طنجير ، ويصب
عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر
درهما ، ومن الصمغ المسجوق خمسة عشر درهما ، ومن العفص عشرة دراهم ،
ولا يزال يساط على نار لينة حتى ينخن حرّمه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء
ويرفع إلى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلى أنه لا يتحصّر في سُخَامِ النَّقْطِ ، بل
يكون من دُخَانٍ غيره أيضا كما تقدّم . نعم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
إلى الكافور لتطيب رائحته ، والصبر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن
الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب .

المسلك الثاني

(في صنعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأول - ما يناسب الكاغد أي الورق : وهو حبر الدُخَانِ ، ونحن
نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صفة“ يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يُدقُّ جريشا ويُنقع في ستة أرتال
ماء مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا ، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف
أو الثلثين ، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام ، ثم يصفى ثانيا ، ثم يضاف لكل رطل
من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي ، ومن الزاج القُبْرِيّ كذلك ، ثم يضاف إليه
من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة ، ولا بد له مع ذلك من الصبر
والعسل ليمتنع بالصبر ووقوع الذباب فيه ، ويحفظ بالعسل على طول الزمن ؛ ويعمل

من الدخان لكل رطل من الحبر^(١) بعد أن تُسحق الدخان بأكوة كفاك
بالسكر النبات والزعفران والشعر والزنجار إلى أن تُجيد سحقه ، ولا تصحنه في صلابة
ولا هاؤن يفسد عليك .

الصنف الثاني - ما يناسب الرق ، هو يسمى الحبر الراس ، ولا دخان فيه ،
ولذلك يحيى ، بصاصاً برافاً ، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه ، ويفسد
الكاغذ على طول ، ونحن نذكر منه .

”صفة حبر“ وهي ، يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرحش ، ويلقى عليه
من الماء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل في طنجير ، ويوضع على النار ويوقد تحته
بنار ليئة حتى يتصفح ، وعلامة تضحيه أن يكتب به فتكون الكتابة حمراء بصاصة ،
ثم يلقي عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق ، ومن الزاج أوقية ثم يصفى ويودع
في إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

”صفة حبر سفري“ يعمل على البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيجرحش جرشاً
جيداً ويسحق لكل أوقية عففص درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربي ،
ويلقى عليه ويرفع إلى وقت الحاجة . فإذا أحتاج إليه صبب عليه من الماء قدر
الكفاية واستعمله .

الوجه الرابع

(في ليق الأفتتاحات)

وهي ما يكتب به فوائح الكلام : من الأبواب ، والفصول والابتداءات
ونحوها ، ولا مدخل لشيء من ذلك في فني الإنشاء والدبونة ، إلا الذهب فإنه يكتب به
في الطغراوات في كتب القانات ، وفي الأسماء الجلية منها ، كما سيأتي في موضعه من

(١) يباض بالاصل . وفي الصوة تلك أوقية بمد الخ .

المكاتبات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى، وبقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب
النسخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .
ونحن نذكر منه ما الغالب استعماله وهو أصناف :

الصفحة الأولى - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُعَلَّ ورق الذهب ، وصفة
حله أن يؤخذ ورق الذهب الذي يستعمل في الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب
الليمون الصافي النقي ، ويقتل فيه في إناء صيني أو نحوه حتى يضمحل حرمة فيه ، ثم
يصب عليه الماء الصافي النقي ويفسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ،
ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ مارتسب في الإناء ،
فيجعل في مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من أليفة ، والترُّ اليسير
من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ،
ويكتب به . فإذا جفَّ صفل بمصقلة من جرزج حتى يأخذ حده ، ثم يزمك بالحرير
من جوانب الحرف .

الصفحة الثانية - الأزرورد ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها الممديني ، وبقى ذلك
مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل في الدهانات ونحوها ، وطريق الكتابة
به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربي ، ويجعل في دواة
كدواة الذهب المتقدم ذكرها ، وكلما رسب حرك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كي
لا يسود ويفسد .

الصفحة الثالثة - الزنجفر ، وأجوده المغربي ، وطريق الكتابة به أن يسحق
بالماء حتى ينعم ، وإن سحق بماء الرقان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء
الصمغ ، ثم يلقى بليفة كإبلاق الحبر ، ويجعل في دواة ويكتب به .

الصفحة الرابعة - المعرة العراقية ، وهي بما يكتب به في فخاص الكتب ،

وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان ، وطريقه في الكتابة كما في الرَّجْمُزِ ، والله أعلم .

الآلة السادسة - المِلْوَأُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدواة أى تحرك به اللقمة . قال بعض الكُتَّابِ : وأحسن ما يكون من الأيُنُسِ لثلاثي يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة - المِرْمَلَةُ ، وأسمها القديم المِترَبَةُ ، جعلها آلة للتراب ، إذ كان هو الذى يُقَرَّبُ به الكُتْبُ . وتشتمل على شيئين :

الأول - الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ ، وهو المسمى بذلك . ويكون من جنس الدواة إن كانت الدواة نُحَاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره رَبُّ الدواة . ومحلها من الدواة ما يلي الكاتِبَ مما بين المِحْبَرَةِ وباطن الدواة مما يقابل المنشأة الآتى ذكرها ، ويكون في فيها شُبَاكٌ يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربما أُتخذت مِرْمَلَةٌ أخرى أكبر من ذلك تكون في باطن الدواة لأحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصفرتها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَةً كبيرة تقارب حبة الرَّابِحِ^(١) ، لها عتق في أعلاها ، تكون في الصالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه ؛ وربما أُتخذت من خشب لُقْضَةِ الحِكم ونحوهم .

ومما ألفز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعرز :

ظَرِيفَةُ الشَّكْلِ والشَّمَالِ ، قَدْ صُنِعَتْ * تَحِيكى العُرُوسَ ولكن لَيْسَ تَفْتَسِلُ
كأنها من نَوَى الألبابِ حَاشِعَةً * تَبْكِي الدَّمَاءَ على مَاسِطَرِ القَلَمِ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمى المتربة أيضا، وفي ذلك يقول الوجه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم يَسَلْ منه ولا جَرَبَةً

لَا تَقِيطُ الكَاتِبَ في حاله ، * فإنه المِسْكِينُ ذُو المِسْتَرَبَةِ

الثانى - الرمل، وقد اختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل، وغيره ما كان دقيقا . وهو على أنواع :

النوع الأول - ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى - يؤتى به من الوَاحَاتِ، وهو رمل متججر شديد الحرارة، يتخذ منه الكُتَّابُ حجارة إطافاً تَحْتُ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيوم وما والاها .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة بحر القلزم من نواحي الطور، وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع - رمل بين الحجرة والصفرة، به سُدُورٌ بَصَاصَةٌ يحاطُ الناظر سُدُورُ الذهب، وهو عزيز الوجود جدًّا، وبه يُرَمَّلُ الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأول - الظرف، وحاله كحال المِرْمَلَةِ في الهيئة والمحلل من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لاشبَّالك في قَمِهِ ليتوصَّل إلى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكُتَّابِ مِنشأةً أخرى، غير التي في صدر الدواة من رصاص على هيئة حُقِّ لطيف، ويعملها

في باطن الدواة كالمِرْملة المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغير بكمثته في النحاس ، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق ، وهو على نوعين : أحدهما النشا المتخذ من البُر ، وطريقه ان يطبخ على النار كما يطبخ للقماش ، إلا أنه يكون أشد منه ، ثم يجعل في المنشأة ، وهو الذي يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يعولون على غيره لسرعة اللصاق به ، ومواقفة لونه للورق في نضاعة البياض ، والثاني المتخذ من الكثيراء ، وهو أن تُبَلَّ الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ، ثم يجعل في المنشأة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الديونة ، وهو سريع التغير إلى الخضرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجملة المآورد والكافور لتطيب رائحته .

الآلة التاسعة - المنفذ ، وهي آلة تشبه المحرز . تتخذ لخرم الورق ، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لئلا تختلف أقطاب الورق في الضيق والسعة ، خلا أن يكون ذبأبه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود ، وحكمه في النصب في الطول والغلظ حكم المذبة ، وقد سبق . وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكُتَّابِ الدواوين ، وربما أحتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الآلة العاشرة - الملمزة ، قال الجوهري : الملمز بالكسر خشبتان تشد أوساطهما بحديدة تكون مع الصياقلة والأبارين ، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من النحاس وبحوه ، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرّج حال الكتابة ليمنع الدرّج من الرجوع على الكاتب ، ويُحْبَسُ بِمُحْبَسٍ عَلَى الدفتين .

الآلة الحادية عشرة - المنرشة ، وهي آلة تتخذ من حرق تكان : يطاثة وظهارة ، أو من صوف وبحوه ، تُفْرَشُ تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - الممسحة، وتسمى الدفتر أيضا، وهي آلة تتخذ من حرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرر أو غير ذلك من نفيس القماش، يُمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لتلايحف عليه الحبر فيفسد، والغالب في هذه الآلة أن تكون مدورة مخزومة من وسطها، وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة النواة، وفيها يقول القاضي الفاضل رحمه الله :

مَمْسَحَةٌ تَهَارُهَا * يُجِنُّ لَيْلَ الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا مُذْ خُلِقَتْ * مِنْ دِيلِ كَمِ القَلَمِ

وقال نور الدين علي بن سعيد المغربي فيها :

وَمَمْسَحَةٍ لَأَحْتِ كَأَنَّي تَبَدَّدَتْ * بِهِ قَطْعُ الظُّلَمَاءِ، وَالصُّبْحُ طَالِعُ
وَلَمَّا أَطَالَ اللَّيْلُ فِيهَا وَرُودَهُ، * حَكَّتُهُ، وَمُدَّتْ لِلصَّبَاحِ المَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمِمْسَحَةٍ تَتَاهَى الحُسْنُ فِيهَا * فَأَضْحَمْتُ فِي المَلَاَحَةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُنْكِرُ عَلَى القَلَمِ المُوَافَى * إِذَا فِي وَصْلِهَا خَلَعَ العِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة - المسفاة، وهي آلة لطيفة تتخذ لصب الماء في الحجيرة وتسمى الماء وردية أيضا : لأن الغالب أن يعمل في الحجيرة عَرْضُ الماء ماورد لتطيب رائحتها، وأيضاً فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لأخجل الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة في الغالب من الخبزون الذي يخرج من البحر المملح ، وربما كانت من نحاس ونحوه ، والمعنى فيها أن لا تخرج الحجيرة من مكانها ، ولا يصب من إناء واسع القم كالكوز ونحوه ، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة - المِسطرة، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها، وأكثر من يحتاج إليها المُنْهَبُ .

الآلة الخامسة عشرة - المِصْفلة، وهي التي يُصَقَّلُ بها الذهب بعد الكتابة، وهي من آلات النواة لاجمالة .

الآلة السادسة عشرة - المُهُرَّق (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرطاس الذي يكتب فيه ، ويجمع على مَهَارِق . قلت : وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآتاري منها المداد، وهو ظاهر، والمِخِيط، وفي عنده بعد .

الآلة السابعة عشرة - المِسنُّ، هو آلة تُتخذ لإحداث السكين، وهو نوعان: أَكْهَبُ اللون، ويسمى الرومي، وأخضر، وهو على نوعين: حجازي، وقوصي؛ والرومي أجودها، والحجازي أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فما نطق به القراءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القراءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح، سمي بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه، ثم اختلفوا : فقرا نافع برفع محفوظ على أنه نعمت للقراءان بتقدير بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، وقرأ الباقون بالجر على نعمت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم القرءان ، منه نُسخَ القرءان الكريم والكتب المُقرَّلة ، ومنه تَسَخُّ الملائكة أعمال الخلق . قال ابن عباس : وهو نُوحٌ من دُرَّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافناه الدر والياقوت ، ودفناه ياقوته حمراء ، وأصله في حجر ملك . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جبهة إسماعيل عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس : وفي صدر اللوح مكتوب "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله" . فمن آمن بالله وصدق بوعدته وأتبع رُسُلَهُ أدخله الجنة . " . وسُمي محفوظاً لأن الله تعالى حَفِظَهُ عن الشياطين ، وقيل : حَفِظَهُ بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيى بن يعمر في أوج بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللُوح ، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وهو ذو نور وعلو وشرف . وقد ورد في القرءان بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد الألواح التوراة . قال الكلبي : كانت من زبرجدية خضراء . وقال سعيد بن جبيرة : من ياقوته . وقال مجاهد : من زُمرّد أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من برّد : وقال الحسن : حَسَبٍ : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : " الألواح التي أنزلت على موسى من سدير الجنة ، وكان طول كل لوح منها اثني عشر ذراعاً " . وقال وهب بن منبه : من حفرة صماء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وآختلف في عددها، فقيل : سبعة ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، وقيل
لوحان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس أيضا ، وجمعت على عادة العرب في إيقاع
الجمع على التثنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يريد داود وسليمان
عليهما السلام وأختاره الفراء . وقيل عشرة . قاله ابن منبه ، وقيل تسعة . قاله
مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقرء بعير .

الثاني - الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾
قال المبرد : هو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . قال المعافى بن أبي السيار : ومن
ثم استبعد حمله على اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ، وآختلف في الكتاب
المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ ، وقيل القرءان ، وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى
وهو يسمعى صرير الأقدام .

الثالث - القراطس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد وهو الكاغد .

أما القراطس ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن أبي السيار : القراطس كاغد
يتخذ من بردى مصر ، وكل كاغد قراطس ، قال : والجمهور على كسرهما ، وضها
أبو زيد وعكرمة وطلحة ويحيى بن يعمر ، والذي حكاه الجوهري عن أبي زيد
يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قراطس بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ، والمراد
بالكتاب في الآية الكريمة المكتوب لأنفس الصحيفة . قاله المعافى .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا
فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ هَذَا لَنبِيُّ الصُّحُفِ

(١) يظهر أنه وقع هنا تحليط من السامع والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه آختلف في الرق فقيل
الجلد وقيل اللوح المحفوظ . وآختلف أيضا في الكتاب المسطور فيه فقيل القرءان وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الأولى صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفًا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطأ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّين يكتبون فى ورق يصنعونه من الخشيش والكبلا ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق ، وأهل الهند يكتبون فى حرق الحرير الأبيض ، والفُرس يكتبون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى الخفاف (بالحاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رفاق ، وفى الثعاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا حوص عليه ، واحدها عَسِب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغنم . وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم . وآسَمُوْا ذلك إلى أن بعث النبى صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن والعرب على ذلك ، فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الخفاف والعُسب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن ” بَعَلْتُ أَنْتَبِعَ الْقُرْآنَ مِنَ الْعُسْبِ وَالْخَفَافِ “ . وفى حديث الزهري ” قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنُ فِي الْعُسْبِ “ وربما كتب النبى صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته فى الأدم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمع رأى الصحابة رضى الله عنهم على كتابة القرآن فى الرِّقِّ لطول بقائه ، أولأنه الموجود عندهم حينئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرشيد الخلافة وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكاغد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التروير، بخلاف الورق، فإنه متى أُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشَطُهُ . وَاَنْتَشَرَتِ الْكِتَابَةُ فِي الْوَرَقِ إِلَى سَائِرِ الْأَقْطَارِ، وَتَعَاطَاها مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدٍ، وَاسْتَمَرَّ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْآنِ .

الجملة الثالثة

(في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة، ومعرفة أجناسه)

الْوَرَقُ (بفتح الراء) اسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقات . وبه سمي الرجل الذي يكتب وراقا . وقد نطق القرءان الكريم بتسميته قِرطاسا وصحيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاغد بغير ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طرس، ويجمع على طروس، ومهرق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف)، ويجمع على مهارق . وهو فارسي معرب، قاله الجوهري . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرقا صقيلا، متناسب الأطراف، صبورا على مرور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي: وهو ورق تخمين مع ليونة ورقية حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدا، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كُتَّابُ الْإِنْشَاءِ فِي مَكَاتِبَاتِ الْقَانَاتِ وَنَحْوِهَا كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْمَكَاتِبَاتِ السَّاطِنِيَّةِ . ودونه في الرتبة الشامي؛ وهو على نوعين: نوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي . ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي، وقطعه دون القطع الحموي، ودونهما في الرتبة الورق المصري؛ وهو أيضا على قطعين: القطع المنصوري، وقطع العادة والمنصوري أكبر قطعا . وقَلْمًا يُصَلُّ وَجْهًا جَمِيعًا . أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهه ويسمى في عرف الوراقين المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين: عال

(١) أي ونوع دونه الخ فقه .

ووسط، وفيه صنف يعرف بالقوى صغير القطع، خشن غليظ خفيف الغرف، لا ينفع به في الكتابة يُتخذ للملأى والِعِطْر ونحو ذلك . وإنما نهت على ذلك وإن كان واضحا لأمرين: أحدهما أن لا تُحلى كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة؛ الثاني أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرفة بمصر، فيقع الأطلاع على ذلك لمن أرادته . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو ردىء جدا؛ سريع البلى، قليل المكث، ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء .

- وسيأتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدبونة عند ذكر ورق كل فن، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تم الجزء الثانى، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث؛ وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى،

في الكلام على نفس الخط)